

إشراف:
بيير بورديو

بؤس العالم

الجزء الثالث

منبوذو العالم

ترجمة: رندا بعث



مراجعة وتقديم:
د. فيصل درّاج

بؤس العالم

الجزء الثالث

منبوذو العالم

العنوان الأصلي للكتاب :

PIERRE BOURDIEU

LA MISERE DU MONDE

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية
في السفارة الفرنسية في سورية

**Livre publié
En collaboration avec
Le Ministère français des Affaires Etrangères
Et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie**

بيير بورديو

بؤس العالم

الجزء الثالث

منبوذو العالم

ترجمة : رندة بعث

مراجعة وتقديم : د . فيصل درَّاج

بؤس العالم

بيير بورديو

الجزء الثالث – منبوذو العالم

ترجمة: رندة بعث

مراجعة وتقديم: د. فيصل درّاج

حقوق النشر محفوظة

الناشر: دار كنعان

للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق – ص.ب 443 هاتف 2134433

الطبعة الأولى، 2001 / 1000

التنفيذ : دار كنعان (دمشق)

إخراج: لبنى حمد

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

بمثابة تقديم

د . فيصل درَّاج

«بؤس العالم» حدث ثقافي بامتياز، يدلّل على أن الصحيح قادر على مواجهة المسيطر، حتى حين يكون المسيطر عليه واهناً إلى تخوم التهشيم. فهذا الكتاب، الذي أنجزه باحثون اجتماعيون بإشراف بيير بورديو، وزّع في فرنسا مئة ألف نسخة، وتحوّلت أجزاء منه إلى عمل مسرحي، وترجم إلى لغات عدة. وبعد أن ظهر للمرة الأولى قبل سبع سنوات، أعيد طبعه من جديد قبل سنتين تقريباً في «طبعة شعبية»، مبرهناً على أن كتاباً في «علم الاجتماع»، تتجاوز صفحاته الألف، يمكن أن يلتقي بجمهور واسع، لا يجذبه عادة «علم متخصص» ولا يلتفت كثيراً إلى «البحوث الأكاديمية».

يطرح الكتاب أسئلة تمس القراءة ومنظور الكتابة والموقع الذي ينظر منه الكاتب إلى قضايا الذين يكتب عنهم ولهم. وعلى المستوى الأول يقف القارئ أمام بشر متعبين يبوحون بمشاكلهم اليومية، أي أمام حكايات فردية ومصائر فردية. لكن الحكايات، التي يعيد «تنظيمها» عالِم الاجتماع، لا تلبث أن تربط بين الفردي والعام، محاصرةً «الوعي الزائف»، الذي يشتق الظواهر الاجتماعية من الأحوال الفردية، كما لو كان المجتمع مجموعات من الأفراد لا أكثر. ولهذا، تبدأ الحكايات بالأفراد وأماكن عيشهم وشروط عملهم ومسار حياتهم، وذلك في استقصاء متصاعد ينتهي إلى السببية الاجتماعية، التي تنتج كائناً بائساً «يفسّر» فقره بوعي أكثر بؤساً. ولعل هذا الاستقصاء الحكائي، إن صحّت

العبارة، هو الذي يمدّ كتاب «علم الاجتماع» ببعد تربوي. كأن الكتاب يضع القارئ، إن أحسن القراءة، أمام شروطه الاجتماعية، بعد أن يحرره، ولو نسبياً، من منظور زائف، يخطئ الأسئلة والإجابات في آن. وهذا ما يجعل بورديو، وهو يحيل إلى كتابه، يتحدّث عن «طريقة أخرى لعمل السياسة» أي عن «طريقة تربوية» تدفع الفرد إلى التمرد على الأسباب الموضوعية التي تنتج بؤسه. وبسبب المسافة بين بدايات الاستقصاء والقول الأخير الذي ينتهي إليه، يبدو عنوان الكتاب غير مطابق لرسالته، لأنه، وهو يرى إلى البؤس في مرايا مختلفة يرى إلى التمرد في مرايا متعددة موازية.

تتعيّن القراءة في «بؤس العالم» أثراً لكتابة معينة، ذلك أن شكل القراءة لا ينفصل، غالباً، عن شكل الكتابة المرتبط به. ولهذا فإن الكتاب، وهو يطرح أسئلة متعددة على من يحاورهم، لا يقدّم «عملاً تسجيلياً»، يعيد صورة الواقع كما هو، لكنه يعيد تركيب صورة الواقع المعيش وتفكيكه، كي يكشف عما يجب وعيه بشكل صحيح، كشرط لنقده وتحويله لاحقاً. فطبيعة الأسئلة، التي يقترحها الكتاب، تؤثر في طبيعة الإجابات المستقاة، بل أن هذه الأسئلة، وهي تبدأ بسؤال بسيط لتصل إلى آخر أكثر عمقاً، تسعى، وفقاً لمنطق بحثي صارم، إلى الانتقال من العام والضبابي والعفوي إلى المحدّد والواضح والمرئي.

مهما تكن الأسئلة، الكثيرة التي يثيرها كتاب «بؤس العالم»، فإن السؤال الجوهري، ومحوره بورديو على أية حال، هو: «المعرفة الأخرى»، التي تبدأ أكاديمية، أي منعزلة عن قضايا البشر، ثم تنزاح، وبشكل متواتر، عن «الأكاديمي الرصين»، إلى أن تصل إلى مهاد جديدة تكون فيها نقداً لـ«المعرفة الأكاديمية» ونقضاً لها. والأكاديمي الرصين، أو المترصّن، وكما تراه الثقافة المسيطرة، هو ذلك القول المتطهّر الذي يذهب سعيداً إلى ما جاءت به الكتب التقليدية المتواترة، مُعْرضاً عما هو خارج الكتب، كما لو كان ما يجيء في الكتب هو المقدس، وما تقول به حكايات الحياة زندقة كاملة. وبسبب هذه الزندقة المفترضة، وهي مرآة لأخلاقية الكتابة، يحوّل بورديو

الكتابة إلى «طريقة أخرى لفعل السياسة»، ويمزج بين علم الاجتماع والتاريخ، ويرى في العلمين معاً مجالاً لأسئلة سياسية. غير أنه وهو يؤالف بين المعرفة والسياسة، سواء كانت سياسة واضحة أو ملتبسة، يسخر من «المعرفة الأكاديمية» ويعبث بها، لا لأنه يحتفي بقضايا المسيطر عليهم الذين لا يحسنون قط الرطانة الأكاديمية، بل لأنه عارف بـ«المعرفة الأكاديمية» بامتياز. وإذا كان المثقف ينظر إلى بورديو بانزعاج، وهو يجري «لقاءً صحفياً» مع شاب مغربي فقير اللغة، فإن بورديو يؤجج غضب «المثقف الأكاديمي» وهو يضع «المناهج الأنيقة الكبرى» في خدمة بشر مغتربين طردتهم المدارس الرسمية قبل أن يدخلوا إليها.

وواقع الأمر أن بين بورديو والمثقف التقليدي نقطة خلاف وأكثر، فالأول يرى أن الفكر لا يصحح ذاته بمقاييس فكرية، لأنه إن فَعَلَ لن يرى من حدوده شيئاً، ذلك أن الفكر لا يكتشف حدوده، أي نقصه وأخطاءه، إلا على ضوء واقع موضوعي خارجه. ومع أن الفرق بين الطرفين يبدو «معرفياً» إذ أحدهما يشتق الفكر من الفكر وثانيهما يصحح الفكر والكتب بأسئلة الواقع المعيش، فإن هذا الفرق لا يلبث أن يردّ إلى موضوع آخر يتجاوز المناهج المعرفية. والموضوع الآخر هو التحوّل والتبدّل والنقد والانتقال، والذي، إن تم القبول به، شمل السياسة والسلطة والمعرفة في آن. فالقول بأن الفكر يستولد ذاته بأدوات فكرية منه، يساوي القول بأن السلطة تعيد إنتاج ذاتها وتتوالد بأدوات سلطوية منها. وفي الحالين، فإن الفكر، كما السلطة، يظل ثابتاً ومستقراً هادئاً، أي يظل ميتاً خارج الحياة والتاريخ. ولذلك، فإن بورديو، الذي يحتفي بأحلام البشر لا بثبات المفاهيم، يواجه الفكر بما هو خارج عنه، ليضع في الفكر حياة يحتاجها، ويضع الفكر الحي في خدمة من يحتاجه أيضاً.

يطرح تصوّر بورديو موضوع المثقف والسلطة، وسلطة المعرفة. فإذا كان بين المثقفين من يرنو بهيام إلى محراب السلطة، وهي حالة مسيطرة، فإن السلطات السياسية ترى إلى المثقفين أيضاً، وإن كانت المقارنة المجردة فارغة

وبليدة المعنى. فالمثقف ينظر إلى السلطة بحثاً عن تميّز اجتماعي حقيقي وسلطة وهمية، بينما تتخّذ السلطة من المثقف جسراً لإلغاء الثقافة، أي أنها تلغي المثقف وهي تعترف به، ذلك أن اعترافها به يُترجَم بتحقيق مصالحه الشخصية، عوضاً عن أن يُترجِم ذاته بتطوير وتحرير وإغناء الحياة الثقافية. والمقايضة هنا واضحة وقوامها إلغاء النقد وتزوير الحقائق، أي إضفاء فضائل متعددة على السلطة هي غريبة عنها، مما يجعل تثبيت الواقع، إن أمكن، وظيفة وحيدة للمثقف السلطوي. وبالتأكيد، فإن ثقافة السلطة، أو الثقافة السلطوية، تختلف من بلد إلى آخر، وفقاً لمدى تطوره. فإذا كان جوهرها، في البلدان التي همشّها التاريخ، تدمير المحاكمة وتهديم العقول، فإن دورها، في البلدان المتقدمة، هو الفصل بين الثقافة والأسئلة الاجتماعية، بهذا المعنى، فإن بورديو يحمل ثقافته الأكاديمية ويحاور المضطهَدين، دون أن يكون مرحَّباً به سلطوياً، ويضع كتاباً عن هموم المغتربين، ولا يكون مرحَّباً به أيضاً. وفي الحالين فإنه يقترح ثقافة متمردة تقاوم ثقافة مسيطرة، ويحرّض المغتربين على مقاومة ما يُنتِج اغترابهم. ومهما يكن الحيّز الاجتماعي والثقافي الذي يتحرك فيه، فإن هذا الحيّز يظل بعيداً وقصياً عن «مثقف الجنوب» الذي إن تمرّد فقد عمله «الأكاديمي الفقير»، وإن التقى بمتمرِّد من «العامة»، تقاسم وإياه التنكيل والمطاردة.

يرفع بعض المثقفين، وهو يطرح موضوع الثقافة والسلطة، شعاراً لا تعوزه الشهرة، هو: سلطة المعرفة. وهذا الشعار، الذي لا تنقصه الحذلقة، واضح الدلالة، أي: إن كانت مراتب الحياة قائمة على مفهوم السلطة، فإن السلطة المعرفية نظير للسلطة السياسية، طالما أن السلطة توّحد بين العلاقتين. والواضح في القول هو مفهوم الاختصاص، إذ السلطة السياسية اختصاصها قيادة البشر وتحديد المسموح والممنوع، وإذ السلطة المعرفية اختصاصها قيادة الأفكار والفصل بين المقبول والخاطئ. لكن مفهوم الاختصاص، رغم أقنعته الفكرية الملونة، يردّ مباشرة إلى مفهوم المرتبة الذي يرفض الاعتراف بمساواة البشر. فبما أن الناس مراتب، أي أن بعضهم

أعقل وأذكى وألمع من البعض الآخر، يكون لزوماً على الأقلّ ذكاءً أن يخضع لمن كان أكثر لمعاناً منه. ولهذا يكون على العامة أن تخضع لمن يسوسها، دون تأمل الأسباب التي جعلت الحاكم حاكماً، وعلى «العوام» أن يخضعوا لمن يمتلك المعرفة، دون السؤال عن وظيفة العارف وغاياته. وهذه السلطة التي تقرّر منذ البداية التفاوت بين البشر، هي التي تسوّغ وتبرّر تحالف المعرفة والسلطة، طالما أن العارف وصاحب القرار ينتميان إلى عالم يختلف كيفياً عن العالم السفلي الآهل بالفقراء والبسطاء والمستضعفين.

يأخذ كتاب «بؤس العالم» بمنظور مختلف. وفي منظورٍ كهذا، لن تَشتق المعرفة سلطتها من داخلها، أي من عقول المفكرين وبطون الكتب، بل من فضاء خارجي هو الفضاء الاجتماعي، المعمور بالبطر والفاقة والمعرفة والتجهيل والظلم والشكوى والتنكيل والكرامة الإنسانية والوطنية المستباحة. فسلطة الثقافة، وبالمعنى النبيل للكلمة، لا تتحقق، إن تحقّقتْ، إلا حين تصبح الثقافة شأناً اجتماعياً عاماً، بعيداً عن ثقافة الملكية الخاصة ودعاوى الاختصاص الثقافي، التي تقول ببشر يملكون العقول وآخرين لا عقول لهم. وثقافة الملكية الخاصة تتعامل، بداهة، بمعايير البيع والشراء، على خلاف «الثقافة الأخرى» الحالمة بتقدم اجتماعي شامل. أكثر من ذلك، أن «الثقافة الأخرى» ترى في المستقبل مرجعاً لها، على نقيض ثقافة الملكية الخاصة، ومرجعها السلطة، التي ترى في الحاضر زمناً أبدياً.

في هذه الحدود، فإن بورديو يحلم «بسياسة أخرى» وهو يحاول «ثقافة أخرى». ذلك أن كتاب «بؤس العالم» يمارس الثقافة كشأن اجتماعي وكمحاولة مقاومة ترى حاضر المجتمع من وجهة نظر مستقبله، أي من وجهة نظر التحويل الاجتماعي الذي يعيد للمغبونين والمستضعفين حقوقهم. وبسبب هذا يكسر الكتاب ايديولوجيا الاختصاص السلطوية بمعنى مزدوج: يكسرها وهو يمزج بين منهج علم الاجتماع وتقنية المقابلات الصحفية وأسئلة السياسة والعمل السياسي. ويكسرها ثانية وهو يقيم حواراً مباشراً بين من يملك «المعرفة الأكاديمية» ومن يملك «المعرفة الأخرى». ولعل هذا

الكسر المزدوج هو الذي يضع «سلطة المعرفة»، إن صحت العبارة، داخل مشروع سياسي - اجتماعي، يعيد تعريف السياسة والمعرفة بشكل جديد. كأن سلطة المعرفة الوحيدة هو نقدها المستمر لكل السلطات السياسية والمعرفية والاقتصادية والتربوية التي تخفض من قيمة الإنسان وتثلم كرامته، وهو ما يضع «سلطة المعرفة» خارج العارفين وخارج الأسئلة المعرفية أيضاً.

تتضمن «سلطة المعرفة الأخرى»، كما يراها بورديو، تصوراً آخر للقراءة والكتابة. ويعني هذا التصور قراءة الظواهر الاجتماعية من وجهة نظر تحويلها الاجتماعي، الأمر الذي يقيم علاقة وثيقة بين حامل المعرفة والإنسان العادي، طالما أن كليهما لا يرى في الحاضر لحظة سعيدة أو مقبولة. أكثر من ذلك أن هذا الإنسان العادي يملك معرفة خاصة به، يعبر عنها بطريقته العفوية، ويقوم «عالِم الاجتماع» بإعادة تنظيمها ليعطيها الاتساق والانسجام والوضوح. بيد أن هذا العالم لا «ينظّم» المعرفة العفوية والقلقة إلا لاعترافه بصاحبها. شيء يُذكّر، ولو من بعيد، ومع تحفظات عديدة، بأفكار الماركسي الإيطالي غرامشي، التي ترى أن «جميع البشر فلاسفة» وأن «جميع البشر مربّون». وبسبب هذا «الجمع البشري»، الذي يتمتع بأقساط متساوية من العقل، فإن المعرفة الشعبية العفوية قادرة على تحرير «المعرفة الأكاديمية» من فضائها المغلق والمتعالي، مثلما أن «المعرفة العالية» قادرة على تحرير المعرفة الشعبية من جوانبها السلبية. غير أن هذا النقد المتبادل لا يستقيم خارج موقف سياسي ينقد الثقافة المسيطرة والمدرسة المسيطرة، التي تقدم معرفة مجردة تفصل بين المنهاج المدرسي وأسئلة الواقع المعيش.

اتكاء على ما سبق، فإن كتاب «بؤس العالم» يقوم بتسييس أسئلة علم الاجتماع، ويحيل إلى الفعل السياسي كإطار يعطي الأسئلة الإجابات التي تبحث عنها. ولعل هاجس التسييس، حالماً كان أم واقعياً، هو الذي أملى على بورديو تأمل أشكال السيطرة الاجتماعية، وتأمل الشروط التي تعيد إنتاج هذه السيطرة بشكل مفتوح. بل أن هذه السيطرة، وبسبب تناتجها السلطوي،

تكاد تبدو معطى بيولوجياً وقاعدة من قواعد الحياة، مثلما أشار في كتابه «السيطرة الذكورية». ومع أن لمفهوم السيطرة أشكالاً مختلفة، تظل الدولة في العالم الحديث هي الموقع الذي ينظّم السيطرة ويجدّدها باستمرار عن طريق مؤسساتها المختلفة. ويقدر ما يرى بورديو أن الدولة تعيد إنتاج السيطرة إلى ما لا نهاية فإنه يرى، وفي اللحظة ذاتها، أن المسيطر عليهم، وفي الوضع الذي يعيشون فيه، عاجزون عن وعي السيطرة وأسبابها. فالمسيطر عليهم، أو الخاضعون، يملكون أسئلة وينطقون ببعض الإجابات ولديهم أشكال من المعرفة، غير أن هذا لا يعني أبداً أنهم يتمتعون بوعي متسق، أو بوعي عفوي، يكشف لهم عن السيطرة الواقعة عليهم وأسبابها. وتنبثق عن هذا الموقف إرادة المثقف، أو عالِم الاجتماع في حال بورديو، في تحرير المسيطر عليهم من «عماهم الأيديولوجي»، لأنهم عاجزون لوحدهم عن إدراك صحيح لظواهر السيطرة. وعلى هذا يكون على «المثقف الرسولي»، رغم تقادم التعبير، أن يمدّ المضطهدين بوضوح يحتاجونه، وأن يجعل آليات وأشكال السيطرة واضحة لمن ينقصهم الوضوح. وهو ما عكف عليه بورديو في «نبالة الدولة، وحب الفن، السيطرة الذكورية، والتناتج..» وفي كتبه المتعددة التي تصل إلى ثلاثين كتاباً. وبداهة، فإن المعرفة النظرية لا تنفصل لدى بورديو عن مواقفه العملية، كدفاعه عن الإصلاح المدرسي ودعم المظاهرات والإضرابات العمالية، والتنديد بالعنصرية وبالإجراءات التي تمنع عن الإنسان حقوقه في التعبير والعمل.

السؤال الأساسي الذي يطرحه درس بورديو هو: كيف يكون المثقف تنويرياً في شروط اجتماعية جديدة غير تنويرية بل مناهضة للتنوير؟ وإذا كان الحديث عن تداعي وتقوّض العناصر المرتبطة بالتنوير ميسوراً إلى حدود التخمة، فإن الحديث المقابل عن رسالة ثقافية تنويرية فاعلة صعب ومعوّق ومجللّ بالضباب. فقد انطفأت الأحزاب السياسية والنقابات والمبادرات الجماهيرية الواسعة وتراجعت الثقافة والحس النقدي، وأصبح «الماكدونالد» الاسم الأكثر شهرة في العالم، بل موضوعاً وإشارة، موضوعاً قوامه «طعام أمريكي جاهز ويسهل حمله» وإشارة إلى «حلم» وزّعه الأمريكيون على شعوب

تعيش بلياقة وعلى أخرى يخترقها الموت البطيء. وقد يبدو أن بورديو لا يقدم مشروعاً سياسياً - ثقافياً متماسكاً، ولا تصوراً للسياسة يقف على قدمين ثابتتين. مع ذلك، فإن هذا «المثقف المسيطر»، بلغة مجلة فرنسية، يتمسك بإرادة التغيير ويحض على المقاومة ويؤمن بكرامة الإنسان ويبشر في فضاء غريب، لا هو بالصحراء المزدانة بالصمت ولا هو بالشارع الصاخب المدمن على التمرد والمواجهة. وفي الأحوال جميعاً، فإنه مفتون بوظيفة المعرفة، ومفتون أكثر بفضح كل ما يُنتِج صناعة التجهيل والإذعان.

بهذا المعنى، فإن هذا المثقف «المقيم في الشمال»، والشمال فردوس المحرومين في «الجنوب»، يمثّل، ربما، درساً للمثقف العربي الذي يميل، غالباً، مع الرياح قبل وصولها، فيشرّق إن شرقّت ويغرّب إن غرّبت ويصاب بالذعر إن عجز عن تحديد جهة الرياح القادمة. فالمثقف العربي، ومنذ هزيمة حزيران، ينتقل، ولكن بخطا ثابتة، من حقل المعرفة كشأن وطني عام، إلى حقل ثقافة الملكية الخاصة، إذ الثقافة تبرير وتسويغ، وإذ التبرير تسويق والتسويغ تسليع، وإذ الاسم الشهير يباع في الأسواق بسعر يساوي الأكاذيب الكبيرة التي ينشرها. ولم يكن غريباً أبداً في مناخٍ تسوق فيه الرياح المسيطرة الأفكار والكتب أن يتم التصفيق، وبأكف ملتهبة، لما دعي بـ«التطبيع الثقافي»، وبأن يبادر مثقفون لهم ألقاب كبيرة في اقتراح «حزب للسلام مع إسرائيل»، وأن يتهافت الكثيرون من مشاهير «العارفين» على «المنظمات اللاحكومية» الغربية، حيث «العمل العلمي»، الذي لا يعرفه بورديو ولا يعترف به، شكل من أشكال المقاولات، و«المركز البحثي» أحجية وتغريب وتخريب، وحيث على «المثقف السعيد»، أن يتحدث عن كل شيء، باستثناء الكرامة الإنسانية الوطنية، والكرامة القومية.

كلمة أخيرة: إن كان بورديو يقرأ بلد «الثورة الفرنسية» بمقولة «البؤس»، فما هي المقولة التي يمكن أن يقرأ بها بلاداً عرفت ثورات مجهَضة وأخرى موؤدة، ودفنت، لاحقاً، كل ذكريات الثورة في قبور مجهولة؟

بيير بورديو، باتريك شامباني

منبوذو الدخل

غالباً ما دار الحديث عن «وعكة التعليم الثانوي» بمناسبة الأزمات، وعلى الأخصّ بمناسبة أزمات كتلك التي حدثت في تشرين الثاني 1986 أو تشرين الثاني 1990، ولكننا بهذا المصطلح ننسب إلى مجمل هذه الفئة الشديدة التنوّع والتبعثر، ودون تمييز، «حالة» (صحية وعقلية) هي نفسها غير محدّدة، ودون مضمون واضح. فمن المؤكدّ أن عالم المؤسّسات المدرسية والمستفيدين منها من فئات الشعب هو عبارة عن شبكة متّصلة، لا يلتقط الإدراك العادي فيها إلا الطرفين المتقابلين في الحدود القصوى: فمن طرف، المؤسّسات التي أحدثت وتكاثرت كيفما اتفق، على عجل، في الضواحي الفقيرة لاستقبال فئات التلاميذ المتزايد عددهم باستمرار، والمتزايد ضعفهم الثقافي باستمرار، والذين لم يعد لهم ما يربطهم حقاً بالمدرسة الثانوية القديمة التي استمرّت حتى الخمسينات؛ ومن الطرف المقابل، المؤسّسات التي احتفظت بمستواها الرفيع، حيث الطلاب من أبناء العائلات الغنية يمكنهم حتى يومنا هذا ممارسة حياة مدرسية لا تختلف جذرياً عن الحياة التي عرفها في السابق آباؤهم وأجدادهم. وقد يجمع «مرض المدرسة» الواسع الانتشار حالياً، خلال المظاهرات، التلاميذ (أو الأهالي) الذين يعانون من وطأته، ولكنه مع ذلك يكتسي أشكالاً في غاية التنوّع: فالمصاعب، وحتى القلق،

التي يعرفها تلاميذ الشرائح الغنية في الثانويات الباريسية الكبيرة هم وأهاليهم تختلف اختلاف الليل والنهار عن المشاكل التي يقابلها طلبة الثانويات الحكومية للتعليم الفني والصناعي في الضواحي الفقيرة للمدن الكبرى.

لقد عرفت مؤسسات التعليم الثانوي حتى نهاية الخمسينات استقراراً شديداً الرسوخ أساسه التصفية المبكّرة والقاسية لأبناء العائلات ذات المستوى الثقافي المتدني (وهي تصفية في لحظة الانتقال إلى الحلقة الثانوية). كان هذا الانتقاء على أساس اجتماعي مقبولاً إلى حدٍّ كبير من التلاميذ الذين يروحون ضحيّةً له ومن أهاليهم، لأنه كان يستند، في نظرهم، حصراً وتحديداً إلى مواهب ومزايا الذين يتم قبولهم، ولأن الذين لا تقبلهم المدرسة يتم إقناعهم (خاصة من قبل المدرسة) بأنهم لا يريدون المدرسة. وكان تسلسل مراتب التعليم، البسيط والواضح الهوية، وعلى الأخصّ التقسيم الحاسم إلى مرحلتين، ابتدائية (إذن «الابتدائيّون») وثانوية، يحافظ على علاقة وثيقة من التجانس مع التسلسل الاجتماعي؛ وقد أسهم ذلك بشكل معقول في إقناع أولئك الذين يشعرون أنهم غير مؤهلين لـ (المدرسة)، بأنهم غير مؤهّلين للمراكز التي تفتح (المدرسة) الطريق إليها أو تغلقه، ونعني بتلك المراكز المهن غير اليدوية، وبشكل خاص، المواقع القيادية داخل تلك المهن.

ومن بين التغيرّات التي أصابت نظام التعليم بعد انتهاء الخمسينات، تغيرٌ حافلٌ بالنتائج الكبيرة، ألا وهو، دون أدنى شك، دخول فئات اجتماعية جديدة إلى ميدان اللعبة المدرسية، وهي الفئات التي كانت تنبذ المدرسة أو أنها كانت عملياً منبوذة من المدرسة حتى ذلك التاريخ، مثل صغار التجار، والحرفيين، والمزارعين؛ وحتى عمال الصناعة (نظراً لتمديد التعليم الإلزامي حتى سن الـ 16، والتعميم المترابط للدخول إلى الصف الأول الإعدادي)؛ وقد أدت هذه العملية إلى توسيع دائرة التنافس وازدياد الاستثمارات في الحقل التربوي للفئات التي كانت في الأساس من كبار المستفيدين من النظام المدرسي.

ومن أغرب آثار عملية «التوسّع الديمقراطي» التي تحدثنا عنها، بقليل من التسرّع وكثير من التحفّظ، الاكتشاف التدريجي، في قلب أكثر الفئات الشعبية حرماناً، للجانب المحافظ في المدرسة التي يُفترض أنها توفرّ «التحرير». فمن بعد فترة من الوهم المطمئن وحتى من الفوران الحماسي، فَهِم المستفيدون الجدد شيئاً فشيئاً أن الوصول إلى الحلقة الثانوية لا يعني النجاح فيها، وأن النجاح فيها إذا تحقق لا يعني الوصول إلى المراكز الاجتماعية التي كانت في متناول الحائزين على الألقاب المدرسية، وبخاصة البكالوريا فيما مضى من الزمن، حيث لم يكن لأمثالهم القدرة على الدخول إلى التعليم الثانوي. ولا نستطيع إلا أن نفترض بأن انتشار المكتسبات الأساسية للعلوم الاجتماعية فيما يخصّ التربية، وخاصة فيما يتعلّق بالعوامل الاجتماعية للنجاح والفشل المدرسيين، كان من شأنه المساهمة في تغيير المفاهيم حول المدرسة بين أبناء وعائلات سبق لهم أن عرفوا تأثيراتها عملياً. وكان هذا دون شك لصالح التغيرّ التدريجي في الخطاب السائد بصدد المدرسة: فرغم الرجوع أحياناً إلى أفكار الرؤية والانقسام الراسخة في الأعماق اللاشعورية (مثلاً عند الحديث عن «الأفذاذ»)، أصبحت المقولة التربوية الرائجة، وكل ما لفّ لفّها من تصوّرات غامضة، تدّعي الأخذ بالمعايير السوسيولوجية، مثل «المعوّقات الاجتماعية»، «الحواجز الثقافية» أو «النواقص التربوية»، هي أن الفشل المدرسي لم يعد ينسب، أو لا ينسب فقط، إلى نقاط الضعف الشخصية، أي الطبيعية، عند المنبوذين. وهكذا بات منطق المسؤولية الجماعية يميل تدريجياً إلى أن يحلّ في الأذهان محلّ منطق المسؤولية الفردية الذي يؤدي إلى «تحميل الضحيّة كل اللوم»؛ وأما الأسباب ذات المظهر الطبيعي، مثل الموهبة والميل، فأزيحت لصالح عوامل اجتماعية غير محدّدة بوضوح، كنقص الوسائل التي تستخدمها المدرسة، أو نقص الكفاءة أو التأهيل لدى المعلمين (الذين ازداد اتهامهم بالمسؤولية، لدى الأهالي، عن النتائج السيئة لأبنائهم)، أو حتى، بغموض أكبر أيضاً، منطق نظام فاشل برمّته، ويجب إصلاحه.

قد يكون من المناسب أن نبيّن في هذا المجال، مع تجنّب تشجيع وهم الحتميّة (أو، بتعبير أدقّ، القول بالسيرورة الحتمية باتجاه الخراب) كيف تغيرّ النظام المدرسي تغيراً كاملاً عند وصول الوافدين الجدد إليه، وكيف استمرت، مع ذلك، بنية التوزيع التفاضلي للمنافع المدرسية والمنافع الاجتماعية المترابطة فيما بينها، لكن بشكل أساسي على حساب نقلة شاملة للتفاوتات السابقة. ولكن، هناك رغم كل شيء، اختلاف جوهري: فعملية التصفية أصبحت مؤجّلة وممتدة في الزمن، وبذلك فهي «متمدّدة» في الديمومة الزمنية، بحيث أن المؤسسة المدرسية أصبحت تضم بين جدرانها عدداً كبيراً من المنبوذين، يحملون معهم إليها التناقضات والنزاعات المرتبطة بفترة دراسية ليس لها من غاية سوى المكوث في المدرسة. باختصار، فالأزمة المزمنة المعشّشة في المؤسسة المدرسية، تلك الأزمة التي تعطي موارية مؤشّرات مقلقة، هي الوجه الأخر للتسويات غير المحسوسة وأغلب الأحيان غير الواعية للهيكليات والترتيبات التي من خلالها يتم إيجاد صيغة لحل التناقضات الناجمة عن وصول شرائح اجتماعية جديدة إلى التعليم الثانوي، وحتى إلى التعليم العالي؛ وإذا أردنا استخدام تعابير أكثر وضوحاً، إنما أيضاً أقلّ صحةً، وبالتالي فهي أشد خطورة، فنقول إن هذه «اللاوظيفية» هي بكل مظاهرها «الثمن الواجب دفعه» من أجل الحصول على المنافع (السياسية خاصة) من عملية «التوسّع الديمقراطي» في التعليم.

من الواضح أنه يمكن توفير وصول أبناء أكثر العائلات حرماناً اقتصادياً وثقافياً إلى مختلف مستويات التعليم الثانوي، وعلى الأخص إلى المراحل العليا، دون إجراء أي تعديل عميق للقيمة الاقتصادية والرمزية للشهادات الممنوحة (ودون تعريض الحائزين عليها لأية مجازفة، ظاهرياً على الأقل)؛ لكن من الواضح أيضاً أن المسؤولين المباشرين عن ظاهرة تجريد الشهادات من قيمتها بنتيجة التزايد الكبير في عدد الشهادات وفي عدد الحائزين عليها، أي الوافدين الجدد، هم الضحيّة الأولى لتلك الظاهرة. فالتلاميذ أو الطلاّب من أبناء أكثر الأسر حرماناً على المستوى الثقافي لم يعد أمامهم اليوم، على الأرجح، في نهاية الدراسة الثانوية، التي

غالباً ما يكون ثمنها تضحيات شديدة الوطأة، إلا الحصول على لقب علمي غير ذي قيمة؛ وأمّا إذا ما فشلوا، وهذا هو القدر المرجّح لهم، فهم رهن عملية نبذ أشد إيلاماً وأكثر شمولية مما كان عليه وضعهم في الماضي: أشدّ إيلاماً، لأنهم جرّبوا، في الظاهر، «حظّهم» ولأن المؤسسة المدرسية أصبحت هي التي تحدد تحديداً شبه كامل الهويّة الاجتماعية؛ وأكثر شمولية، لأن العدد الأكبر المتزايد باستمرار لفرص التوظيف في سوق العمل أصبح مخصصاً بحكم القانون، ومعطى بحكم الواقع، إلى الحائزين على الشهادات، وهم في تزايد مستمرّ (وهذا ما يفسر كيف أن الفشل المدرسي أصبح يعاش أكثر فأكثر ككارثة أو مصيبة، حتى في الأوساط الشعبية). وهكذا، أصبحت المؤسسة المدرسية في نظر الأهالي والتلاميذ أنفسهم، خدعة مضلّلة، ومنبع شعور هائل بخيبة جماعية: فتلك الأرض الموعودة، شأنها شأن الأفق، تبتعد كلما أمعنتَ في السير باتجاهها.

ويترافق تنويع الفروع بعمليات توجيه واصطفاء مبكرة أكثر فأكثر، مما يساعد على ترسيخ ممارسات نبذ، «على الناعم» أو، بتعبير أفضل، لا يشعر بها أحد، على مستويين، فهي عمليات متواصلة، متدرّجة مثلما هي غير ملحوظة، ولا يمكن التقاطها، سواءً من الذين يمارسونها أو من الذين تقع نتائجها عليهم. فهذه التصفية بكل نعومة هي بالمقارنة مع التصفية القاسية الفجّة مثل لعبة التبادل في عملية الأخذ والعطاء: فإطالة أمد العملية عبر الزمن يساعد الذين يعيشون التجربة على إخفاء الحقيقة عن أنفسهم، أو، عل أقل تقدير، على الاستسلام إلى فعل المراوغة المضلّلة التي يمكن للمرء من خلالها أن يتوصل إلى أن يكذب على نفسه بشأن ما يقوم به. وبمعنى من المعاني، فـ «الاختيارات» الحاسمة يصبح موعد اتخاذها أبكر فأبكر (منذ الدخول إلى الصف العاشر، وليس كما كان الأمر في الماضي، بعد البكالوريا وحتى أبعد من ذلك أيضاً)، وهكذا يتحّدد القَدَر المدرسي بالدمغة الحاسمة أبكر فأبكر (وهذا ما يفسّر وجود طلاب يافعين من الحلقة الثانوية في المظاهرات الكبرى الأخيرة)؛ لكن، إذا ما نظرنا من زاوية مختلفة، فالنتائج المتضمّنة في هذه الاختيارات يتأخرّ ظهورها أكثر فأكثر،

كما لو كانت كل الأمور متواطئة لتشجيع ودعم التلاميذ أو الطلاب، «المحكومين مع وقف التنفيذ» على القيام بتأجيل إجراء الجرد النهائي، أو ساعة الحقيقة الفاصلة، حين سيتبدّى لهم الوقت الذي أمضوه في المؤسّسة المدرسية وقتاً ميتاً، وقتاً ضائعاً مبدّداً.

وفعل هذه المراوغة المضلِّلة يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية، في أكثر من حالة، إلى ما هو أبعد بكثير من نهاية الدراسة، خاصة بما يساعد على اختلاط الرؤية والتردد في اتخاذ القرار الحاسم لدى بعض الأوساط الاجتماعية الضائعة الملامح، التي تترك هامشاً أكبر للمناورة لهذه اللعبة المزدوجة، نظراً لصعوبة تصنيفها في خانة محدّدة. فهذا أحد أقوى الآثار، وأكثرها تخفّياً أيضاً- والسبب وجيه- الناجمة عن المؤسسة المدرسية وعلاقاتها مع مختلف المواقع الاجتماعية التي يفترض بها أن تنفتح عليها: فهي تزيد يوماً بعد يوم من تخريج أفراد مصابين بذلك القلق المزمن الذي تكرسه التجربة- المكبوتة كلّياً إلى هذا الحد أو ذاك-، تجربة الفشل الدراسي، المطلق أو النسبي، ومُجبرين على أن يحافظوا، بنوعٍ من «البلف» الدائم للآخرين ولأنفسهم، على صورتهم الشخصية مخدوشة، أو مجّرحة، أو مبتورة. والمثل الأعلى الذي يعبّر عن هؤلاء «الفاشلين النسبيين» الذين نلتقي بهم حتى في أعلى مستويات النجاح - ومعهم، على سبيل المثال، تلاميذ المدارس الصغيرة مقارنة مع تلاميذ المدارس العريقة، أو المقصّرين في هذه المدارس العريقة نفسها بالمقارنة مع المتفوّقين، وهكذا دواليك- هو دون أدنى شك عازف الكونترباص باتريك سوكند الذي يكمن بؤسه العميق جداً والحقيقي للغاية في أن كل شيء، في صميم العالم الرفيع الامتياز الذي هو عالمه الخاص، يبدو وكأنه معدّ ليذكّره بأنه يشغل فيه موقعاً هابطاً.

على أن طمس الحقيقة الموضوعية للوضع داخل النظام الدراسي (أو داخل الإطار الاجتماعي) لا ينجح أبداً نجاحاً كاملاً حتى عندما يكون مدعّماً بمنطق المؤسّسة التعليمية وبأنظمة الدفاع الجماعية التي ترعاها تلك المؤسسة. فـ«مفارقة الكذّاب» تُعتبر لاشيء إذا ما قيست بالصعوبات التي يثيرها الكذب على النفس. وخير بيانٍ على ذلك أقوال بعض هؤلاء

المنبوذين مع وقف التنفيذ، الذين يجمعون إلى البصيرة القصوى التي تدرك حقيقة تلك الفترة الدراسية التي لا أفق لها على الإطلاق، قرارهم شبه الإرادي في الدخول في لعبة الوهم، فلعلّهم يودّون الاستمتاع استمتاعاً أفضل بحقبة الحرية والمجّانية التي تقدّمها لهم المؤسسة التعليمية : فذاك الذي يتبنّى الكذبة التي تلفّقها له تلك المؤسسة قدره، تحديداً، أن يعيش ازدواجية الوعي: المستتير المضلّل، وأن يستفيد من الحماية المزدوجة للأمل والوهم.

كما أن التفريع الرسمي (إلى أقسام) وشبه الرسمي (إلى مدارس أو صفوف مدرسية متفاوتة المستوى خصوصاً من خلال اللغات الحيّة) كان من آثاره أيضاً المساهمة في بعث مبدأ، يتمّ إخفاؤه بعناية استثنائية، ألا وهو مبدأ التمييز والتفرقة: فالتلاميذ الذين ولدوا في بيئة متميّزة وتلقوا من أسرتهم الحس السليم في تحديد «النيشان» الذي يسدّدون عليه، مع الأمثلة والنصائح الكفيلة بدعم هذا الحس السليم في حال التردد الحيرة، هم مؤهّلون لاستثمار معارفهم في اللحظة المناسبة والمكان المناسب، أي في الأقسام الأفضل، والمدارس الأفضل، والاختصاصات الأفضل، الخ.، وعلى العكس منهم، فالتلاميذ من أبناء أكثر الأسر حرماناً، وعلى الأخصّ أبناء المهاجرين، غالباً ما يُتركون كلّياً لأنفسهم منذ نهاية المرحلة الابتدائية، وهم مجبرون على الاستسلام لأوامر المؤسسة المدرسية أو للمصادفة كي يبحثوا عن دربهم في عالمٍ يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم، وقدَرَهم بالتالي أن يوظفوا، في غير وقته، وفي غير مكانه، رأسمالهم الثقافي، الذي هو في نهاية المطاف، منخفضٌ جداً.

إنها إحدى الآليات التي تجعل، بالإضافة إلى منطق نقل الرأسمال المعرفي، أرقى المؤسسات المدرسية، وعلى الأخص تلك التي تقود إلى المواقع العليا في السلطة الاقتصادية والسياسية، ما تزال موقوفة حصراً على فئة محددة كما كانت في الماضي. لقد انفتح النظام التعليمي على الجميع، ولكنه رغم ذلك ظل مقصوراً بكل دقة على قلّةٍ قليلة، فنجح نجاحاً بهلوانياً في الجمع بين مظاهر «التوسّع الديمقراطي» وبين حقيقة إعادة تكريس ما هو قائم، وهذا أمر يتم تحقيقه بأعلى درجة من درجات المواربة و التخفّي، أي بتأثيرٍ متصاعد للتبرير الاجتماعي.

لكـن هـذا التوفيـق بـين المتناقضـات لا يتـم دائمـاً دون مشـاكل. فالمظاهرات التي تنبثق نادراً، منذ قرابة عشرين سنة، تحت أعذار متنوعة، أو تظاهرات العنف الكبرى أو الصغرى التي تجـري دون انقطـاع فـي أكثر المؤسسات المدرسية بؤساً وحرماناً ليست في مجموعها إلا التعبير البـادي للعيان عن الآثار الدائمة لتناقضات المؤسسة المدرسية، وعن عنف جديد كلّياً توقعه بمن هم غير مؤهّلين لها.

والمدرسة تنبذ كما كان شأنها دائماً، لكنها باتت تنبذ بشكل متواصل، على مختلف مستوياتها التعليمية (فما بين الصفوف الانتقالية و الثانويات الصناعية والفنية لا يوجد على الأرجح إلا اختلاف في الدرجة لا في النوع)، وهـي تحتفظ داخل أسوارها بأولئك الذين تنبذهم، مكتفية بتحويلهم إلى أقسام مجردة من القيمة إلى هذا الحد أو ذاك. وينتج عن هذا أن منبوذي الداخل هؤلاء يتأرجحون، دون شك بسبب تقلّبات وتناقضات العقوبات التي توقع بهم، بين الانسياق المبهور وراء الوهم الذي تقدمه لهم وبين الاستسلام لقراراتها، بين الخضوع القلق وبين التمـرّد العـاجز. فـلا يسـعهم إلا أن يكتشفوا، عاجلاً أو آجلاً، أن وحدة معاني هذه الكلمات («ثانوية» «طالب ثانوي»، «أستاذ»، «دراسة ثانوية»، «بكالوريا») تخفي في واقع الحال تنوعاً كبيراً، وأن المؤسسة المدرسية التي وجّهتهم إليها النظام التعليمي هـي مكان لتجميع أكثر الفئات حرماناً، وأن الشهادة التي يحضّرون لها لقبٌ برخص التراب («أنا أستعد لشهادة G2 صغيرة، كما يقول مثلاً أحدهم)، وأن البكالوريا التي حصلوا عليها، دون العلامات اللازمة، تحكم عليهم بالتوجه نحو الأقسام الصغيرة في تعليمٍ عالٍ، ليس فيه من علوٍ إلا الاسم، وهكذا دواليك. لقد اضطرتهم العقوبات السلبية في المدرسة إلى التخلّي عن التطلعات الدراسية والاجتماعية التي كانت أساساً من إيحاء المدرسة ذاتها، وأُكرهوا على النزول في السلمّ الاجتماعي، فتراهم، دون اقتناع، يقضون بتكاسل وإهمال حياتهم المدرسية التي يعلمون أنها مسدودة الآفاق. فالوداع يا زمن الحقائب الجلدية، والثياب ذات المظهر المتقشّف، والاحترام الذي يُعامل به المعلمون، تلك العلامات المعبرة عن انخراط أبناء العائلات الشعبية

بالمؤسسة المدرسية، لقد انتهت هذه المظاهر وحلّت محلّها اليوم علاقة أكثر بعداً: الإذعان الخائب الذي يتخفّى وراء الإهمال اللامبالي، والذي يظهر في الفقر البادي على المعدّات المدرسية، كالمصنف المربوط بخيط أو بقطعة مطّاط والذي يُعلّق بإهمال على الكتف، وأقلام الحبر الناشف التي تُرمى بعد انتهائها بدلاً من قلم الحبر ذي الريشة الغالية الثمن والذي كان يُقدّم هدية للتشجيع على الدراسة بمناسبة عيد أو ما شابه، الخ. وتظهر هذه القطيعة أيضاً في تكاثر إشارات التحدّي حيال المعلّمين، مثل مسجلة «الوكمان» الفردية التي يتم الاستماع إليها أحياناً حتى داخل الصف، أو الثياب، التي تختار عن عمد لتعبّر عن الإهمال واللامبالاة، وغالباً ما تكون مغطاة بأسماء فرق الروك الرائجة، مكتوبة بجميع الخطوط والأقلام، لتذكّر، حتى في قلب المدرسة، أن الحياة الحقيقية هي في مكان آخر.

أما الذين يحرّكهم ميلهم المأساوي أو سعيهم إلى ما هو خارق، فيطيب لهم التحدث عن «وعكة التعليم الثانوي»، بإرجاعها، استناداً إلى تبسيطات الفكر اللامنطقي السائدة في الأحاديث اليومية، إلى «وعكة الضواحي»، المصابة هي أيضاً بلوثة وهم «المهاجرين»، فيلامسون دون علم منهم أحد أهم التناقضات الأساسية في الحياة الاجتماعية بوضعها الحالي: فهذا التناقض يظهر بأجلى صوره في أداء مؤسّسة مدرسية ربما لم تلعب في يوم من الأيام الدور الهام الذي تلعبه اليوم، وهو في جانب منه بالغ الأهمية للمجتمع، وهذا التناقض هو تحديداً في صلب نظام اجتماعي يريد أن يعطي أكثر فأكثر كل شيء لجميع أبنائه، وعلى الأخص في مجال استهلاك المنافع المادية أو الرمزية، أو حتى السياسية، إنما خلف مظاهر وهميّة، خادعة ومزيفة، كما لو كانت تلك الوسيلة الوحيدة لتخصيص هذه المنافع لبعض أبناء المجتمع بصورةٍ حقيقيةٍ وشرعية.

بيير بورديو

آخ ، على الأيام الحلوة!

عمر مالك 19 عاماً ومع ذلك فهو قد «عاش الكثير». عندما التقينا به، كان يتّبع، دون أوهام كثيرة، دورة لا تعويض لها وقليلة التأهيل اضطر هو نفسه أن يبحث عنها تلبية للاحتياجات التي تُفرض على تلاميذ قسم مبهم التعريف تابع لثانوية ضعيفة المستوى من ثانويات الضاحية. كان يعيش في جناح مستقل، مع والده الذي ظل بمفرده من بعد طلاقه الذي وقع منذ سنوات قليلة. لكنه كان يذهب دائماً لزيارة والدته في «تجمّعها السكني»، وهو محيط يعتمل في نفسه الحنين الدائم إليه، لجو التضامن الذي كان يقدّمه والذي يسمّيه «جانب المشاركة». وربما لأنه، خلف مظهره الضحوك، كان يحمل همّ تحقيق وحدة أسرته، الذي يبدو أحياناً أنه يحمل مسؤوليته على عاتقه، فقد كان يحمل لشقيقه الأكبر، نموذجه الأمثل لفترة، مشاعر متناقضة: هو ما يزال يحبّه باستمرار حبّاً كبيراً، لكنه يلومه قليلاً، دون أن يدينه أبداً بشكل قاطع، للامبالاته تجاه والده، الذي جُرح في الصميم من تصرفاته السيئة. كان مالك يتكلم عن والده بكثير من التسامح والفهم، مفسّراً مخاوفه أو صرامته المفرطة والعقيمة في آنٍ معاً بـ«أصوله» ورغبته في أن يلقى الاعتراف ويُقبل في المجتمع. كان يبذل جهده لحمايته، وإعادة تربيته، إذا أمكن استخدام هذه الكلمة. فالمسؤوليات التي يحملها على عاتقه «حيال»

هذا الرجل المقطوع من جذوره، والمتقلّص المكانة، والمحروم من جميع مقوّمات السلطة الأبوية، رغم أنه في «موقع» الأب، هي دون شك، مع الخوف من الحياة ومن الوسط الاجتماعي، في صلب تلك الرغبة الجامحة في الاستقرار، تلك الرغبة التي تقوده كي يحاول الاستمرار في المدرسة الثانوية حاملاً صفة الطالب الثانوي، وهي صفة مؤقتة وغير راسخة، لكنها، في النهاية، تعطي بعض الارتياح النسبي. لقد روى لنا حياته كما لو كانت حياتين، من وجهتي نظر مختلفتين لم يحاول التوفيق بينهما: أولاً من وجهة نظر المدرسة، وثانياً من وجهة نظر «التجمّع السكاني» الذي أمضى فيه طفولته وقسماً من مراهقته. وهذان عالمان متباعدان، لا بل متعارضان، كما أنهما مجموعتان من الذكريات لا تأخذان معناهما إلا بعد الربط بينهما.

كل ما فيه، وجهه، هيئته، هندامه، وحتى لغته، يعطي شعوراً بالارتياح الكبير، على ارتباط لا شك فيه مع سحر شبابه، الذي لايغيب عن إدراكه، لكنه يعطي أيضاً الشعور بالضعف وعدم الاستقرار، كما يعبر أحياناً علم نفس المدرسة الرديء. إنه لا يستقرّ في مكان ويبدو في حركة لا تهدأ. فهو خير مثال عن التشابه الذي تقول به الميثولوجيا الأمازيغية بين المراهقة وبين الربيع بتناوباته اندفاعاً وتراجعاً، بفترات الصحو تعقبها هجمات للمطر والبرد، وكذلك شأنه حين ينتقل دون توقّف من الانفلاش شبه الطفولي إلى الجدّية القلقة. وكثيراً ما يضيع منه خيط الحديث فيقلق لهذا قلقاً ظاهراً، بصورة مفرطة نوعاً ما، كما لو كان معتاداً على هذا، ومتعوّداً على أن يتلقى اللوم بسببه. وقد لاحظ منذ بداية الحديث، من بعد صمت طويل، أنه «لا يجد كلماته»؛ بعد ذلك بقليل، علّق بكثير من التوتّر، بأنه نسي «كلمة ثانية»، وجهد للعثور عليها، مشجّعاً نفسه بصوت عالٍ، كما لو كانت لعبة مرتّبة، «لن أضطرب، لن أضطرب!»؛ وفي الحالتين، كان الأمر بصدد كلمة من القاموس المدرسي أو حتى البيروقراطي - المدرسي، وهما «تقنية البحث عن وظيفة»، و«شروط الدورات». وكما لو كان يتبنّى شخصياً التقديرات المدرسية،قال إنه يجد صعوبة كبيرة في قراءة الكتب («لا أنجح في هذا، أبدأ بالقراءة ثم أترك الكتاب لوجود أحداث خارجية، بينما قد أستطيع أن أجد فيه ما أنا

بحاجة إليه، إذ من الصحيح أن الكتاب نبع لا ينضب وكله عبقرية {تنازلات لفظية أمام المفاهيم المدرسية}، لكن من أجل تحقيق هذا لا بدّ لي أن أعيش عيشة النسّاك، بجانب مكتبة عامرة»)؛ ثم يلوم نفسه على اختلاط المعلومات («أنا مضطرب، أقولها لك، ما أقوله لك مشوّش مضطرب») الذي يقع فيه أحياناً، عندما يتخوّف حيال موقف التحادث، وهو بالتأكيد ناتج عن تجاربه المدرسية، فتراه ينطلق في جملٍ يتركها معلّقة دون نهاية.

وإذ يجعل أحياناً من الضرورة فضيلة، يجد نفسه وقد جعل من عدم الاستقرار موقفاً إرادياً: «عندي انطباع بأنني أحتاج إلى.. إلى الفرار.. إلى الفرار المستمر، وهو هرب أكثر منه أي أمر آخر، هه، يعني، فأنا.. يجب.. أنا لا أحب الاستقرار. أحتاج أن يهتزّ ما حولي باستمرار، أن تكون أحداث، أن يكون شيء ما.» أو أيضاً، «لنقل.. الوضع متشابه، ففي الدورات التدريبية، سوف يجدون طبعي أيضاً لأنني أبحث في كل مشروع أنوي القيام به، أريده أن يكون مختلفاً». كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن العلاقات التي أنشأها في المدرسة وحول المدرسة (أصدقاؤه وأيضاً المرأة الشابة التي يحبّها والتي تعلّم في مدرسته) قد قدّمت إليه الوسائل الكفيلة باختراع نوعٍ من الحياة المغامرة على نمط حياة الفنان (وهو ما يظهر بوضوح في القصة، التي لا نذكرها هنا، عن العطلة الصيفية التي قضاها في إسبانيا): «أن أصبح مديراً عاماً PDG فلا أعود أهتم بصديقتي.. وألاّ.. مثل هذا لا يهمني..».

وواقع الحال أن وجوده بأكمله كان رهن عدم الاستقرار والتغيير الدائم، في العمل، والسكن، والمدرسة، والصداقات. فوالده الجزائري الأصل، المولود في تلمسان، والذي جاء إلى فرنسا قُبيل ولادته، غيّر مهنته ومكان عمله أكثر من مرّة: «غيّر شغله كثيراً، فهو.. أعتقد أنه بدأ كـ.. كان عاملاً ميكانيكياً، إنما على عربة نقل صغيرة، وما شابه؛ من بعدها اشتغل بعض الأشغال، ثم اشتغل عامل ثقب، ثقّاب في أحد المشاريع، وهناك استمرّ أطول مدّة، ثم أفلس المشروع؛ فوجد لنفسه مشروعاً آخر لبعض الوقت أفلس هو أيضاً، وتنقل قليلاً إلى أن صار حيث هو الآن..» ونظراً لارتباطه مع تنقّلات والده، ومع تنقّلات والدته أيضاً، المهاجرة اليوغسلافية التي كانت على التوالي

أمينة صندوق في مسبح (وهناك سكنوا لفترة) ثم في مخزن كبير، فهو، كما يقول، «غيّر سكنه، غيّر سكنه، وغيّر مدرسته» مراتٍ عديدة.

لقد حملت تجربته سمات القلق العميق بشأن الحاضر والمستقبل، مدعّمة بمصادفات وخيبات حياة مدرسية مضطربة دون شك بسبب ما فيها من ضغوط منطق «التجّمع السكاني» في الضاحية:منطق «الرذالة» التي يفعلها الشاب كي لا يكون دون أي نشاط، كي «يتحرّك الواقع من حوله»، دون أن ننسى التضامن مع من هم أكبر سنّاً، مع الشقيقة الأكبر وأصحابها الأعمر الذين يأخذونك إلى الملاهي في سن الـ 12، ومع الشقيق، الأكبر بسنتين، والذي اندفع في مزاودات «الرذالة» التي تستدعي «رذالة» مثلها («فهذا تيار متصاعد، هذا في تزايد مستمر، هذا ينتقل درجة درجة») كما اندفع وراء الحاجة إلى المال فكان مصيره السجن، من بعد سطو مسلّح.

ونفهم من هذا أنه، على طريقة من هم دون -البروليتاريا مثله، أولئك الذين لا يستطيعون إطلاقاً الإمساك بدقّة حاضرهم أو مستقبلهم، لا يستطيع إلا أن يحاول الاستمرار في تلك الحالة من القلق وعدم الاستقرار التي تحرمه تحديداً من السيطرة على فترة الدراسة «في الحقيقة، يشعر المرء بالسرور في المدرسة في نهاية الأمر» (« في النهاية، هذه هي الطريق التي اخترتها، وهذا ما سمح لي بالبقاء لفترة أطول في المدرسة») ونفهم أن يجمع بين الواقعية القصوى والطوباوية المغامرة. فمن جانب ، يمكنه أن يؤكد (مع ضحكة أو ابتسامة غالباً) ادعاءات مجنّحة: «حذار! أنا شديد التطلّب! فما أريده هو مهنة تروق لي من الباب للمحراب!» بل يمكنه أيضاً أن يذكر، في ختام الحديث، المشروع المغرق في لا واقعيته والذي خطط له، مثلما في الأساطير القديمة، مع صديقين له، صنوين له في الضياع: تأسيس نادٍ متوسطي، أو ما أشبه، لأصحاب المليارات في بلدٍ من الشرق الأقصى لم يزره في حياته. لكنه، من جهةٍ أخرى، لا ينفك يبرهن بألف وسيلة، بأنه يعلم دائماً حقّ العلم موطئ قدميه، وأن مدرسته هي «ثانوية زبالة» (يصف، باقتصاد كبير في الشرح، كيف فهم بسرعة إلى أين انتهى به الأمر باكتشافه أن الجالسين أمامه، وإلى جانبه، ووراءه، هم جميعاً مثله)؛ وتحدّث عن

الدبلوم، «ذلك الدرب المسدود»، وبعد أن عبّر عن رغبته في الرحيل بأي ثمن، تلك الرغبة التي ما فارقته أبداً، منذ طفولته الأولى، ختم مؤكداً ثانيةً صحّة الحقيقة التي ينفيها حلم الهروب لديه: «على الأقل، أنا على يقين من أمر واحد، هو أنني سوف أظلّ هنا. ولكني حالياً غير راغب في ذلك».

وخير ما يمكن أن يدلّ على ما يجب أن نسمّيه لديه بـ«الحكمة» تلك النظرية التي يقترحها عن اقتصاد المبادلات المدرسية، وذلك في الختام عندما قال، («في المدرسة لا يطلبون مني العلامة التامة.. فيكفي الحصول على الحد الأدنى»)، مقدّماً بهذه النظرية ما يشبه الأساس العقلاني لفن الاستمرار مراوحةً بأقل كلفة ممكنة داخل العالم المدرسي المحميّ: فبالإضافة إلى انه يؤجل الدخول إلى الحياة ويسمح بالفرار من رعب «المصنع»، الذي ربما ساهمت الفترة الدراسية، بمعنى التأقلم مع حياة المدرسة، في التلويح به، يوفّر هذا الفن في الاستمرار الفضيلة المثلى المتمثلة في إطالة أمد حالة التردد والقلق في المدرسة، ويتيح على هذه الصورة البقاء الخيالي للرغبات التي لا تكفّ المدرسة نفسها عن القضاء عليها وخنقها حتى التلاشي.

مع شـاب

حديث أجراه بيير بورديو وروزين كريستان

«حياتي لطيفة»

❖ ما هذه الدورة؟ ماذا تفعل هنا؟

مالك: المفروض أنني أدرس البيع. البيع والوكالة. وبالتالي، فأنا هنا في الصباح، أدرس الزبائن نظراً لأنني لا آخذ طلبات، فأنا لاأعرف البضائع الموجودة غير ذلك.. غير ذلك، فأنني بعد الظهر أبقى قليلاً في المخزن وأراقب، أحاول أن أتعلّم. بدأت أتعلّم.

❖ إلى أي مجال يتبع هذا؟

مالك: مجال القِطع بالمفرّق للسيارات.

❖ وهذه الدورة مأجورة؟

مالك: إطلاقاً.

❖ والمدرسة هي التي وجدت هذا أم أنت بنفسك؟

مالك: آه، لا،لا، فهذا جزء من.. هذا جزء من.. عفواً لا أجد كلماتي؛ الخلاصة، لا يهمّ، هذا جزء من تقنية البحث عن عمل، لنقل إن المفروض علينا أن نبحث. وهذا عليه علامة، الخ. فكل شيء مرتبط، كيف نجد العمل، ماذا نجد، الخ.

[...]

❖ إذن يمكننا الرجوع قليلاً، لا أدري، إلى دراستك كلها، ومن جميعه، كيف كانت دراستك..

مالك: حسب، فإذا أردت نبدأ من الحضانة حتى..

❖ معلوم، معلوم، ولم لا؟

كانت مدرسة زبالة أكثر منها أي شيء آخر

مالك: الحضانة ممتازة، سوى أنني لم أكن أذهب إليها كثيراً في فترة ما بعد الظهر لأني كنت على الخصوص مع أمي (...) في ذلك الوقت، كانت تشتغل بنصف دوام في كازينو {سوبرماركت} (...). بعد الصف التمهيدي الـCP، تمت دراستي الابتدائية كلها بشكل عادي في الحقيقة، بشكل عادي، ومن بعدها كانت سنتي الأولى في الصف الأول الإعدادي، لأنني أمضيت فيه سنتين: الفصل الأول عادي، الثاني ليس كما يجب، الثالث كارثة.

❖ وأين كان هذا؟

مالك: كان هذا في كاشان. في كاشان، يعني لأعطيك فكرة أين المكان. إذن، كنت هناك. ومن ثمّ هناك لنقل، كان الدخول إلى الحلقة الإعدادية، أعتقد أن هذا فيه تفتّح، وفور أن تصل إلى هذه «التركيبة»، لا تفكّر كثيراً بالدراسة، فالمفروض التفكير قبل ذلك، يعني. (..) من بعدها أعدت سنتي في الأول إعدادي في مدرسة خاصة إلى حدٍّ ما، يعني تحت الإشراف. أهلي وضعوني فيها. وكان فيها إقامة داخلية. بالنسبة لي لم يكن وارداً الدخول إلى القسم الداخلي لأني أخاف قليلاً من الأماكن المغلقة. يعني، وقد جرت الأمور كما يجب. جرت الأمور عال العال. أما في الصف التالي، فكان الوضع كارثة.

❖ بمعنى؟

مالك: بمعنى أني لم أبذل جهدي. القضية إلى حدٍّ ما.. لم تكن العلة في المدرسة، إنما كان كان عقلي في مكان آخر.

❖ لكن لماذا هذا، إذا كان لنا أن نعلم؟

مالك: (..) كلا، لا أعرف، لعلّهم الأصحاب، لا أعرف. كلا، حتى لم تكن القضية في ما كان محيطاً بي، في النهاية، بل كانت.. أعتقد أني شعرت بالحاجة كي أستريح فترة من الزمن لأستطيع أن أتوقف وأن أراجع بعض الأمور من أجل إدراكها.

❖ وأهلك، هل كانوا يساندونك في تلك الساعة أم..؟

مالك: كلا. تعلم، المشكلة للأسف، هي أن أهلي استطاعوا مساعدتي حتى مرحلة الابتدائي باعتبار أنهم.. ومن ثمّ، بعد فترة، يصبح هناك فاصل.

❖ لكن في المدرسة الابتدائية كانوا يساندون عملك؟ كانوا يساعدونك..

مالك: نعم، كانوا يراقبون، الخ.، كانوا يستطيعون أن يساعدوني، الخ.

❖ بالضبط، ووالدك ماذا يعمل؟

مالك: آه، والدي، هو -حالياً- في مخبر ويَعمل، يَعمل كل ما يمكن أن يُعمل: يؤدي خدمات، يقود السيارات؛ هو متعدّد الأعمال، يعني. ليس له في الحقيقة مركز.. مركز ثابت.

[...]

❖ لكن تلك المدرسة الخاصة لا بدّ أنها كلّفتهم كثيراً، أليس كذلك؟

مالك: كلا، لأنها كانت مدرسة، يعني، اسمها «ركن البريد والبرق والهاتف»، والدفع فيها حسب دخل الأهل. هناك، كانت الأمور حسنة، ثم أنا قررت، ما علينا، يعني هم اقترحوا عليّ أن أعيد الصفّ، إنما أنا لم أقبل ومن بعدها..

❖ في الثاني الإعدادي، صحيح؟

مالك: نعم، في الثاني الإعدادي ومن بعدها قررت اختيار طريقي، فهو كان شهادة التأهيل المهني CAP. وبالتالي تركوني في هذه المؤسسة.

❖ وأهلك، هل ساعدوك في ذلك الحين على قرارك في ما يتعلق بشهادة الـ CAP أم..؟

مالك: كلا، أنا كنت عنيداً، كلا. أنا أردت هذا الفرع، وما كنت أعلم إلى أين يؤدي..

❖ لكن أي اختصاص إذن؟

مالك: موظف مكتب، محاسبة..

❖ إلى حدٍّ ما مثل والدتك؟ فوالدتك محاسبة؟

مالك: لا، لا، بالمرّة. هي أمينة صندوق. طبعاً، في النهاية هي لها علاقة بالمحاسبة، ولكن..

❖ لماذا اخترت المحاسبة؟

مالك: المحاسبة؟ لأني كان عليّ أن أختار بين الإلكترون- ميكانيك أو الميكانيك.. بالتالي، نظراً لأنني كسول..

❖ المحاسبة أفضل، لأنك تعمل وأنت جالس، صحيح؟

مالك: نعم، أظن الأمر هكذا. فأنت جالس ثم لنقل، لا يُطلب منك أن.. ما كان يخيفني على الأرجح، لا ليس يخيفني، يعني حكاية الورش، والضجة العالية..

❖ نعم، المصنع.

مالك: معلوم، المصنع. معلوم، المصنع، هذه هي الكلمة الصحيحة. نعم، لا بد أنه كان يخيفني. (..) ثم من بعدها، يعني، اجتزت السنة الأولى CAP، والثانية، والثالثة، ثم، ورغم كسلي، لا أعلم لماذا أتقدم من صف إلى صف..

❖ ودائماً في المدرسة نفسها؟

مالك: في المدرسة نفسها. وأنا أقول هذه السنوات الثلاث هي أفضل سنواتي الدراسية لأن.. لكن بالنسبة للعلامات، لا، خصوصاً مع الناس الذين كانوا حولي، مع الصف، فهناك عملت صداقة مع اثنين ثم مع

آخرين، الخ. من بعدها .. يعني هناك بدأت أمور، يعني أنا كنت.. باختصار اجتزت شهادة الـ CAP وهناك في نهاية سنة الـ CAP، يوجد مجلس أعلى الخ.، يعني «تركيبة»، فيقرّرون إذا كنت تستطيع المتابعة أو لا تستطيع المتابعة. في رأيي كل هذه الحكاية سخيفة لأنهم من المفروض أن يتركوا للجميع فرصتهم. يعني، حكاية سخيفة، لا أعلم، ربما، لأنهم في النهاية.. هذا سخيف بشأن الـ CAP، يعني؛ قصدي، لا يتركون لك، المفروض أن يتركوا لك فرصة لكن لأن الصفوف مليئة. في الواقع، هي مليئة، ومن هذه الناحية أفهم أنهم لابد لهم من الانتقاء.

❖ أي نعم! ليس عندهم أماكن كافية، هذا صحيح.

مالك: إيه، يعني حينها، إذن لم يسمحوا لي أن أتابع، لم يكن رأي المجلس في صالحي، بمعنى أن إضبارتي لم تُقدّم إلى الإدارة، إذن لم يُعَدّ تصنيفها، إذن من بعدها أصبح علينا أن نبحث بأنفسنا، إذن ذهبت من مدرسة إلى مدرسة، من مكتب إلى مكتب، الخ.، ثم في النهاية وجدت مدرسة، لكن يعني هذا..

❖ أنت قمت بهذه التحرّكات؟ لتجد المكان..

مالك: كان عليّ هذا، فلم يكن وارداً أن أتوقف. لأنني في تلك اللحظة كان حظّي أوفر من.. يعني، لم تكن الـ CAP هي التي يمكنها أن ترتب مستقبلي . (..) فتّشت في البيع (..) حينها فتّشت في البيع لأنهم كانوا قد افتتحوا فرعاً للبيع؛ بيع- أسهم- بضائع، وأنا كنت أفتّش (..) إذن، لم أجد شيئاً، كانت الصفوف مليئة. كانت.. أخيراً اهتديت إلى عنوان لأني كنت مسجّلاً في مركز المعلومات والتوجيه CIO في مدينتي، الخ.، فقالوا لي عن وجود أماكن سوف تشغر في إحدى المدارس، وكانت النهاية أنهم قبلوني. لكن ليس في البيع، ولا في المحاسبة، في السكرتاريا. وأوهموني أنني في السنة الثانية، يكون بإمكاني دراسة المحاسبة.

❖ هه! وأين كان هذا؟

مالك: في جانيتي. في جانيتي، وإذن مع تقدم الوقت، لاحظت أنها مدرسة زبالة أكثر منها أي شيء آخر..

❖ ماذا كان اسمها؟

مالك: الثانوية المهنية في فال- دو- بييفر. ما علينا، هذا قاس، عندما يكتشف الإنسان هذا..

❖ كم من الزمن استغرقت لتكتشف هذا؟

مالك: بسرعة كبيرة وأنا أتناقش مع جيراني.. وأنا أتناقش مع جيراني الذين كانوا في مثل وضعي. فعندك الذي كان أمامي، فكان وضعه مثل وضعي. وعندك الثاني الذي كان خلفي، فكان وضعه مثل وضعي، باختصار اكتشفنا أنها (..)، و، بالتالي فقد علم كل من هم جواري برأيي..

❖ فماذا قلتم مجتمعين حينها؟ هل تناقشتم فيما بينكم؟

أحب بصدق، لا أعلم لماذا، أحبّ بصدق.

مالك: يعني، المشكلة، أنك بمجرّد أن تعلق، بمجرّد أن تدخل.. فعليك التسليم بالأمر، فهنا أنني.. قلت لنفسي: طيب، هذا غير خطير، فأنا سنتي الثانية سوف تكون محاسبة؛ ثم ، في النهاية، للحقيقة، طاب لي المقام. يطيب لك المقام لوجود أصدقاء في الصف، وتبدأ بالتعرّف على الأساتذة، الخ. إذن كان الأمر لا بأس، ولا يعني هذا أن ما يعلّمونا إياه لم يكن جيداً؛ المشكلة مشكلة المدرسة، يعني.. هي طريق مسدود، يعني، يكون عندك انطباع أنك فيما بعد، في جميع الأحوال سوف يتوقف كل شيء عند شهادة الدراسات المهنية B E P، وعندك انطباع أنها شهادة على الرفّ، ولكن لا بد من المرور من هناك متى فاتتك الفرص الأخرى العادية، أنت مجبَر أن تمرّ من هذه المدرسة. هذا غريب قليلاً.

❖ والأساتذة لطيفون؟

مالك: آه، نعم! هم لطيفون جداً.

❖ لكن يعلمون هم أنفسهم..

مالك: آه، نعم! يدركون الأمر جيداً، فهم ليسوا مجانين..

❖ هم يفعلون ما بوسعهم، آه؟

مالك: عموماً. عموماً. لا يمكن أن نقول.. فقسم منهم هناك، كمرحلة انتقالية، فهم يريدون إنهاء سنتين أو ثلاث سنوات لأنها أيضاً مدرسة للأساتذة..

❖ الزبالة؟

مالك: ليس زبالة بل هم في فترة انتظار لمدة ثلاث سنوات..

❖ لإيجاد شيء آخر، نعم، هذا صحيح.

مالك: ثم كثير من الأساتذة بدايتهم من هناك. من تلك المدرسة. أساتذة شباب، الخ.، فيضعونهم فيها، فيصيرون (..)، لا أعلم، عندك «تركيبات» كثيرة من هذا النوع. ثم من بعدها، طيب، عملت سنتي الثانية، ولم يسمحوا لي بالتسجيل في المحاسبة فعملت السنة الثانية في السكرتاريا. إذن، من بعدها، من بعد وصولي إلى السنة الثانية.. إذن، أنا كنت أريد المتابعة بأي ثمن، وأريد أن أعمل الصف الحادي عشر، حادي عشر تأهيل.

❖ نعم من أجل الاستدراك..

مالك: من أجل استدراك الفصل الدراسي، لأنني حينذاك قلت لنفسي: الأفضل اللحاق بالفصل الدراسي، وتكرّر الأمر: مرفوض. (..) يعني لم أشتغل أبداً كما يجب، لكن في النهاية، لم أشعر بالحاجة إلى الدراسة، إلى النجاح، لا أعلم، إنما من بعدها أنا.. أنا نجحت بشكل عادي، دون مشاكل، لكن كان يجب عليّ أن أدرس أو أثبت أني أدرس، ربما من أجل.. لأنهم، هم، يقولون لأنفسهم، إذا لم يدرس فربّما أنه في الحادي عشر لن يدرس أيضاً. صحيح، عليّ أن أدرس بالتأكيد. لكن بالمقابل، يعني للأمانة كانوا لطيفين معي جداً عندما سمحوا لي أن أدرس حادي عشر «تعميق معلومات»، فهذا ما فعلته. ثم، إذن، كانت المرّة الأولى التي أختار فيها بالفعل، بالفعل. إذن، كان أمامي البيع، فاخترت البيع، ثم يعني، ها أنا هنا.

❖ من قليل، تكلّمت عن أصحاب، أمامك، وراءك، الخ.، ثم قلت، «يدرك المرء أنها..»، نعم، ما قصدك بهذه العبارة؟

مالك: يعني، يقبل المرء، يقول لنفسه، هكذا هي الأمور. هكذا هي الأمور، لكن لم تكن كلّها سلبيّة، فعندما نلاحظ، نتوصل إلى.. (..) نعم، على كلٍّ كان الوقت حلواً، أنا أحب المدرسة بصدق، فهي.. أحب بصدق، هذا صحيح، لا أعلم لماذا أحبها بصدق.. لا من أجل الأصحاب ولا في النهاية من أجل ما أتعلّمه فيها؛ أنا لا أعلم لماذا.

❖ وعندما قلت أنك كسول، وأنك..

مالك: آه، لا! أنا كسول جداً، جداً، جداً. أنا صورة الكسل.

❖ نعم، إنّما تحاول أن تتشبث، عندما تذهب للبحث عن مدرسة في كل ناحية، الخ.، فأنت بذلت مجهودات كبيرة؟

مالك: يعني، أنا لا أرى أنها مجهودات، لأنني كنت سأبذل الجهود من قبل. فهنا، أنا {صوت غير مسموع}، بمجرّد وصولي أمام الحائط، فإنني أقول لنفسي، يجب أن أحاول شيئاً، إذن أحاول أن أعلّق خطّافي، لا يهمّ أين، فيجب أن ألحق بالمركب لبعض الوقت. لكن، يعني، هذا صعب. هذا صعب.. ليس بكل تلك الصعوبة، لكن في النهاية، على أي حال.. لا، معلوم أنا خامل لأنني، على الأقل.. لو كنت كل مساء بعد عودتي من المدرسة أجهد نفسي، طبعاً لعلّي كنت وفّرت لنفسي حظّاً أكبر، خيارات أكثر، هذا صحيح.. ليس لأنهم.. لا، في النهاية، هم موجودون، هذا أكيد، هم يدفعونني، يدفعونني، يقولون لي، «عظيم، هنا ما دمت مواظباً، لا توجد مشكلة»، الخ؛ لكنهم ليسوا سنداً لي.

كان على قواعده

❖ لا يعلمون ماذا يفعلون لمساعدتك، هه، هكذا الأمر؟

مالك: أظنهم يثقون بي الآن. أعتقد بأنهم يثقون بي، وأظنّ أن الأمر لم يعد موضوع ثقة، فهم يقولون لأنفسهم، طيب، في النهاية، حتى إذا لم

يشتغل، لا نعلم كيف، لكن، يعني، هو.. لكن صحيح، على الأقل، غريب ما سوف أقوله، لكن، يعني، عندي أب، في النهاية، لا يعلم حتى ماذا أفعل. بالضبط. لن يمكنه أن يقول لك ماذا أفعل بالضبط. فهو لا يعلم إن كان فرعي المحاسبة، إن كان البيع، فقد يخلط في رأسه بين أمور كثيرة، لكنه لا يعلم بدقة ماذا أفعل.

❖ لا تتحدث كثيراً عن هذا معه؟

مالك: لا، لا نتكلم كثيراً عن هذا؛ خاصة وأنه هو أيضاً لايكلّمني عن شغله، فأنا لا أكلّمه كثيراً عن نفسي.

❖ وهذا صعب أيضاً عليه، هه؟

مالك: طيب، أظن أن هذا لا بد أن يكون.. في لحظة ما، يعني، فهو ليس أمّيّاً بالمطلق، لكن لنقل أنه يعلم تقريباً ألف، باء، جيم، دال، لكن تصعب عليه القراءة، الخ.

❖ أصوله جزائرية؟

مالك: نعم، هكذا.

❖ من أي مكان في الجزائر؟

مالك: لقد ولد هناك.

❖ في أي زاوية، لا تعلم؟

مالك: بلى، هو من تلمسان.

❖ آه، نعم! من تلمسان. إذن هو يعاني.

مالك: نعم، هو يعاني، وعلى الأقل لا أعلم لأنه على الأقل تدبّر أموره، يعني هو لم يدخل أبداً إلى المدرسة، دخل المدرسة مرة واحدة بقدميه ثم لم يرجع إليها من بعد ذلك. لكن لم يعد لدي انطباع أن الأمر، بالنسبة له، شكلّ حرماناً كبيراً، حينما وصل إلى فرنسا، الخ.، أو أنه تنغّص بسبب هذا، أو ما لا أعلم، لكنه الآن يلاحظ بأنه (..) هو يريد الآن ولا يهمه كثيراً ما أفعل، في الحدّ الأقصى لا يهمّه ماذا أفعل، ما دمت أحاول الارتفاع

قليلاً. وصحيح أنه إلى جانبي، ويفعل كل ما يستطيع. بمعنى أنه سوف يساعدني مالياً، الخ.، طالما أنني في المدرسة. لكن، صحيح، إذا ما تراخيت، وانسحبت، فعندها هو لا يكون مسروراً، بالمرّة.

[...]

❖ وبالنسبة لأخيك، ماذا يفعل؟ أخوك معكما في البيت؟

مالك: لا، هو الآخر غريب، نهايته، هو يعيش مع صديقة لانعرفها؛ فأحياناً يأتي إلى البيت، وأحياناً لا يكون فيه. ماذا يفعل؟ هو {يقصد والده} نفض يديه. أظن الأمر هكذا. أظن أنه نفض يديه، يعني. لشعوره بأنه خرج نهائياً عن طوع أمره، وكان هذا باكراً جداً، هه، منذ كان عمر أخي 17،16 سنة، خرج تماماً عن طوع أمره..

❖ ماذا تعني بقولك «خرج عن طوع أمره»؟

مالك: خرج عن طوع أمره لأن أخي كان تماماً، كان لا يبيت معي في البيت تقريباً، لأنه كان في أغلب الوقت خارج البيت، الخ.، إذن لم يتابعه خلال سنتين، ثلاث سنوات، ولم يمكنه أن يلاحظ ما طرأ عليه من تطوّر، الخ.

❖ وهذا لا بدّ قد عذّبه كثيراً؟

مالك: أظن أن.. ما فيه الكفاية.. أظن. لكني الآن رغم كل شيء بدأت أدرك هذا، لأنه قد أصبح بمفرده تماماً..

❖ ألا يزيد من الكلام؟

مالك: يحاول أن يزيد من الكلام؛ يجب أن يتكلّم أكثر. لكن أظن أنه كان بحاجة لهذا أيضاً (..)؛ نهايته، هذا أكثر، هذا سوف يكون أقل إزعاجاً، هذا سوف يكون أقل إزعاجاً، هذا أكثر..

❖ حدثني قليلاً عن الأمر.. (..)

مالك: إذن من بعد الطلاق- نهايته، هذا الآن، هذا مع نظرتي الآن، وانتبه فهذا غير موضوعي- إذن، من بعد الطلاق، لنقل إنه سابقاً لم يكن

يدرك.. لقد تعامل دائماً معنا على أساس العلاقة أب- أبناء الخ.، ثم، هو لم يتركنا، نهايته، نكبر، لا أعلم، لكن، نهايته، المناقشات لم تكن ممكنة إلى مرحلة معينة، لأنني كنت أكلّمه عن أمر، فلا يتابعني؛ بالنسبة له، العلاقة كانت سطحية، ولهذا، من بعد الطلاق، رحلت أمي، وبقينا في البيت، أنا وأخي، أما أختي، فكانت قد رحلت مع صديقها. ولم يكن أخي يلازم البيت كثيراً، فعملياً لم يكن هناك غيري. لكن حتى أنا. كنت أتغيّب أيضاً- أكثر من أخي لفترة ثم أقلّ-، فهذا جعله بمفرده تماماً منذ.. يعني مضى الآن عشرة شهور، في الواقع سأقول منذ افتتاح المدارس. وإذن، فهنا بدأ بـ .. نظراً لنبذه جانباً، وهنا أنا واثق أنه يشعر في أعماقه بأنه نُبذ جانباً. على الهامش. بينما أمي ظلّت ألصق بنا، وهو أنا عندي انطباع بأنه.. (..) وهنا يجب عليه أن..

❖ أن يفكر؟ {مالك ضاع منه خيط الكلام وهو متألم لذلك} (..) لكن في العمق لو أنه سبق لك أن تكلّمت معه هكذا، في الماضي، أكان الأمر اختلف؟ ألم يكن هذا ممكناً؟

مالك: نعم، لكن هذا لم يكن يمشي إلا باتجاه واحد، فهذا ما كنت أقوله لك، فهو كان على قواعده، كان على قواعده لا يتزحزح، فأنا كان عليّ أن أقطع المسافة إليه، وهذا لم يكن يمشي إلاّ في اتجاه واحد، لهذا أنا أكلّمك عن نفسي. لكن عملياً، كان الأمر هكذا عند الجميع، فهذا.. إنه، إنه الأب الذي..

❖ .. بالضبط، الأب الذي هو على صواب.

مالك: هو الأب المركزي الذي هو.. الذي لا يقال عنه.. فهذا، يعني، إنّما أنا أفهم تماماً، بالقياس إلى أصوله، الخ.

❖ بالتأكيد، هذا طبيعي.

مالك: إنما هو عبقري لأنه، على الأقل، تخلّى عن كل شيء، الخ. أريد أن أقول دينياً فهو ليس على الإطلاق.. هو، ما يريده في النهاية هو الاندماج بالمجتمع الفرنسي؛ حتى يكاد يكون معه فِصام لأنه لا يريد المشاكل؛

بمجرّد أنه تأتيه غرامة، يُجنّ جنونه، بمجرّد أن تكون هناك مشاكل، الخ. لا يجبّ أن يتورط في قصص وحكايات على الإطلاق، هو يحاول تثبيت موضع قدمه. لكن عنده، أظن عنده خوف، عنده خوف رهيب لكل ما هو خارج النظام، لكن هذا أيضاً، هذا سببه أنه من.. بالضبط. أريد أن أقول، هو تأتيه ورقة، أو ما لا أعلم، فيضطرب تماماً. أريد أن أقول، هو يتلقى ورقة، لا أدري، أنا مثلاً حدث أن تلقيت (فاتورة)، إلخ...، وبعد فترة، حدث.. كان الأمر على الحاسب، ثم هوب!، يرسل لي على الفور، كانت تلك النهاية، وهو لم يستطع أن يفهم بأن غريمه حاسب وليس شخصاً، إلخ. فهو فصامي جداً، يعني، فعلاً هذا خطير، إنما (..) في داخله، يجب أن تشرح له. يجب أن تشرح له، لكنه يعاني ويجد صعوبة، صحيح أنه يعاني، كثيراً. وهذا مسلٍ وغير مسلٍ على الإطلاق. فنحن نمزح ونضحك وقتها، ثم..

أنا بحاجة إلى أن يتحرك ما حولي باستمرار.

[...]

❖ وماذا عن المستقبل، بماذا تفكر؟

مالك: {ضحكة} ليس هنا. ليس هنا.

❖ يعني؟

مالك: ليس هنا، هه، ليس في باريس. الخلاصة، أحب باريس كثيراً، انتبه، باريس مدينة أعشقها، أريد أن أقول، أنا مسرور كثيراً لأنني أعيش فيها، ولكن الانطباع عندي أني بحاجة إلى.. الهرب.. إلى الهرب باستمرار. لكن هو هرب أكثر منه أي شيء آخر، هه، هذا.. أنا.. يجب.. أنا لا أحب الثبات. أنا بحاجة إلى أن يتحرّك ما حولي باستمرار، أن تقع أحداث، أن يحصل شيء ما. فإذا من بعد فترة جلست وشعرت أن الأمر بدأ يتكرّر، أبدأ بـ .. أنا لم أرد أن أربط نفسي بأية عجلة تدور حالياً. هذا على وجه الخصوص. لكن لعل هذا يتغيرّ. وحتى، هذا ليس معنا فقط، فهذا يتغيرّ على أي حال، هذا أكيد. على الأقل، الأمر الذي أنا واثق منه هو أنني سوف أبقى هنا. لكنني في هذه الساعة غير راغب بهذا.

❖ نعم، هكذا، لا تريد أن تعلم بالأمر، هه.

مالك: معلوم، معلوم، بالضبط. لكني سوف أرحل {ضحكة}.

[...]

❖ إذن هذه الدورة التدريبية، إلى أين ستوصلك، من بعد، على الفور، هنا؟

مالك: الدورة؟ الدورة. بلى، هي مهمّة، لنقل إن.. الأمر هو هو في جميع الدورات فأنا سوف أعود أيضاً إلى طبعي لأنني أبحث في كل مؤسسة أعمل فيها، فأنا أريد أن تكون مختلفة. إذن أنا خارج من مخزن كبير، «الأوريال» الخ. لأبحث من ثم عن مؤسسة صغيرة افتتحت مؤخراً، منذ ستة شهور، هه. هي SARL(*)، صغيرة، صغيرة جداً (..). لكن الحال هي هي، لأنه بحسب التقرير.. فاليوم الذي سوف أتقدّم فيه، يعني في النهاية عندنا.. حول الامتحان، وعندنا حديث شفهي، وحول التقرير عن الدورة الذي يجب تقديمه، الخ.، الدورة كلّها شفهية، يعني ففي ذلك اليوم، لن أريد، إذا سألوني عن الدورة، لن أريد إعادة الدورة نفسها مرّتين. فهذا، هذا لا يثير اهتمامي. هذا لا يثير اهتمامي لأنهم، هم من جانبهم، سوف يملّون ثم إنني، سوف يفيض بي الكيل من الأمر، ويعني هذا أمر يمكن الشعور به. لهذا، إذا كان لديّ دورتان أو أربع، عليّ إجراء أربع دورات خلال هذين العامين، يعني، سوف أقبل بالسنتين، لكن أريد أن تكون الدورات متباينة ومتكاملة.

[...]

❖ ومن بعد أن يضعك المخزن في عمل، ماذا يفعل؟

مالك: آه، لا، لا، من بعد.. أنا حتى لم أفكر في هذا، أن المؤسسة يمكنها أن تضعنا في عمل {ضحكة}، كان هذا ربّما في الماضي لكنه لم يعد وارداً الآن.

(*) SARL: شركة مغفلة محدودة المسؤولية.

❖ فما هي إذن، هذه الدبلومات التي..

مالك: الدبلوم الحالي؟ هي شهادة بكلوريا مهنية، طريق مسدودة، يعني. أنا أقول، هذه «تركيبة» مسدودة، لا أمل فيها. لا أعلم، ما عندي انطباع أن هذا الأمر يجب القيام به، يعني، هذا الفرع لم يفتحوه منذ فترة طويلة، ثم أنا لا ثقة لي بهذا النوع من الشهادة. {الدورات غير مأجورة.}

❖ نعم وبالتالي فكيف تدبّر نفسك كي تعيش؟ يعني يلزمك في جميع الأحوال بعض العملة..

مالك: أنا؟ يعني، حسب، أحياناً أكدح، يحصل أحياناً أني أكدح..

❖ خارجاً، نعم هكذا.

مالك: يعني ليس كثيراً، فأنا لست.. قلت لك هذا، نهايته، حصل أني اشتغلت وكدحت، أيضاً.

❖ ثم، البابا يساعدك..؟

مالك: لا، على الخصوص البابا والماما، هما لطيفان في هذا. كانا لطيفين جداً، جداً، في هذا.

❖ لماذا تقول «في هذا»؟

مالك: {صوت غير مسموع.} هذه نذالة، هه؟

هذا يؤدي إلى مشاركة كبيرة.

❖ قد يمكننا الكلام قليلاً عن المجمّع السكني، حيث تعيش، منذ كم من الوقت، كيف أن..

مالك: أوكي. طيب أنا كبرت في (..) فأنا رحلت عن باريس ومن ثم جميع الأماكن التي عشت فيها. يمكن حتى أن أكلّمك عن أهلي. أمي وأبي وصلا إلى فرنسا في عام 64 على ما أظن، 63 أو 64 لم أعد أعلم؛ فالتقيا. كان والدي يعيش في كاشان، وكانت والدتي تعيش في باريس منتقلة من غرفة لغرفة، (..)، من بعدها التقيا، عظيم، وقع الحب بينهما، فجاءا يعيشان معاً في باريس في غرفة، يعني عند أصدقاء فرنسيين صاروا فيما

بعد من أحسن الأصدقاء. من بعدها وجدا عن طريق مكتب الـ HLM (المساكن ذات الإيجار المعتدل) بناية في كاشان. إذن هنا ظهرت أنا (..)

ليس ذلك المجمّع هائلاً، هو كبير، لكن لا يوجد عدد كبير من الناس، على عكس الواقع في المجمّعات السكنية الأخرى. فهناك إذن نقول.. صحيح، من المهم والمحبّب أن تعيش في مكان من السهل جداً فيه التعرف على صاحب، أصحاب، لا يهمّ، صاحبات، الخ. فأنا أجد أنك تندفع إلى هذه العلاقات أسرع بكثير ممّا لو كنت متكوّماً في جناح معزول، الخ. ثم إنّ هذا يخلق أشياء كثيرة، هذا يؤدي إلى مشاركة كبيرة. يعني، في النهاية، هذا شعوري، لا أعلم إن كان هذا مصدره أهلي أو أي شيء، لكن هذا يستمر في الذاكرة، فأنت يكون معك 20 سنتيماً، يمكنك أن تشتري بها حبّتي مربّى، فلا تأكل الحبّتين إذا كان رفيقك إلى جانبك. ولا أعلم في الواقع.. لا أعلم، إما أن نشعر أننا نفتقر إلى المال وبالتالي فكل ما نملكه يجب أن نتقاسمه مع الآخر، لأن الآخر سوف يتصرّف مثلك في يومٍ ثانٍ. لا أعلم. أنا هناك كبرت، الخ. وإذن فأمي كانت قدّمت طلباً للحصول على مسكن في المسبح، وإذن فنحن صرنا هناك، في المسبح، إذن في الحيّ بأكمله.. (..)

ومن ثم، نعم، تعلمت السباحة ومن جميعه ثم بعد وصولي إلى مرحلة معينة في السباحة، لاحظت أنه، حسناً، كنت قد أصبحت في سن 13،13 سنة؛ فكانوا يدفعوننا، يدفعوننا، يدفعوننا، لأنهم لاحظوا أننا نتدرّب في جميع الأيام، على سبيل المثال يوم السبت سباق، لا بل يوم الأحد، فهذا مستوى معين، فهذا يعني أننا وصلنا، الخ.

❖ وكنت قوياً بما يكفي لتفعل كل هذا، يعني، من أجل السباق؟

مالك: فيما يبدو. كنت سبّاحاً، يعني! وبهذا الشأن، لا أعلم، شعرت أنه شيء غير صحّي. غير صحي بالمرّة. أن يدفعوني على تلك الصورة، لم أجد هذا طبيعياً. (..)

❖ يعني فيه ما يشبه جوّ المدرسة.

مالك: لا، ففي المدرسة لا يدفعوننا هكذا. هذا مختلف.

❖ ليس كما يجب.

مالك: ثم.. أعتقد أن الأمر هكذا. أعتقد الأمر هكذا، هذا هو بالتمام. ليس كما يجب. باختصار، هناك تربية عامة راسخة جداً، أكاديمية جداً، ولكنك تلاحظ عدم وجود الناحية الفردية، لا يأخذون العنصر على حدة..

[...]

ما كنا نريده، أن يتحرك هذا..

❖ الأصحاب، هل كان أمرهم يهمك كثيراً؟

مالك: أوه، نعم!

❖ كانوا كل ما لديك من تسلية؟

مالك: معلوم.

❖ وفي المجّمع السكني؟

مالك: كانوا كثيرين في المجّمع السكني، إذن هناك.. هناك كنت مع.. إذن كنت ما أزال في الابتدائي عندما انتقلنا إلى المسبح وإذن (..) غيرت سكني، غيرت سكني، غيرت المدرسة، إذن في كاشان كانت الأمور تمشي على ما يرام. بدأت بالتعرف تحديداً على أناس كانوا يعيشون هناك. إذن لم يتغير شيء بالنسبة لي بالمرة لأنني عشت دائماً، لم أكن أشعر أنني ثانوي، الخ.، بالمرة. إذن، بنيت علاقات سهلة، الخ. إذن كانت الأمور تمشي على ما يرام، في الصف الرابع CM1، والخامس CM2 .. ومن ثمّ لنقل مع نهاية الـ CM2 -لأن تاريخي أربطه مع سنوات الدراسة-. إذن، مع نهاية الـ CM2 بدأت أرى أشياء جديدة، يعني، أقول لنفسي لا أدري، كنت أقوم برذالات شاب صغير، هه، بدأنا نسرق أشياء بسيطة، رذالات، فعلاً رذالات، وشيء سخيف. لكنها رذالة مخيفة، لأننا ربما كان يمكن لنا أن نسرق بنك فرنسا، ولا شك كان هذا سيثيرنا أكثر. لم يكن عندنا طموح كبير، يعني. معلوم، بنك فرنسا أحلى، لكن، نهايته، أظن الموضوع في أساسه موضوع مجازفة، يعني..

عندما نكون صغاراً، فليس الموضوع أن أسرق لأنني بحاجة للخروج من مأزق؛ نعم؛ هكذا؛ لم تكن عندي تلك الفكرة، إنما أسرق للسرقة، رذالة وسخافة، يعني بضع برتقالات، مجرد رذالة، المهّم وجود المجازفة، يعني! ما كنا نريد، هو أن يتحرك هذا {ضحكة}. نعم، كنا كما.. كان الأمر وكأنه فعلاً (..). عظيم، إنما، تطورت معنا الحالة قليلاً؛ فكان أن حصل معي، يعني بعدها، لمرة واحدة فغيرت طريقي، كنا نتغير كثيراً.. إذن كنت دائماً مع أخي، وهذا الذي على الأقل هو ما.. كنا دائماً معاً ونحن صغار، وحتى عندما وصلنا إلى ذلك الموصول، يعني كنا دائماً معاً، كنا نتجول معاً، عندها كنا نصلح دراجاتنا، وكنا ننطلق معاً، هه. لاكتشاف كاشان.

[...]

❖ لكن ماذا حصل؟ هو..

مالك: هو كبر. هو كبر ونحن كنا صغاراً. صغار، مع أننا في سن 14، نستطيع تدبير حالنا، ماشي الحال، على ما أظن. لكن هناك أخذنا طريقين مختلفين. أنا، ما حصل.. هو سنوات الـ CAP، قلت لك هذا، «مشي الحال» {صوت غير مسموع}. لا، صحيح، هذه ليست سخافات، قصدي، كان عندي.. لا أدري، لا أستطيع أن أحكي لك هذا، يجب أن نتكلم طويلاً فهذا شيء مليء بالذكريات، مليء بالنهفات، مليء.. هذا عبقري، هه! هذه نهفات لا تُنسى، يعني. كانت هناك رذالات أيضاً مع الأساتذة، كم من النهفات حتى البكاء معاً، نهفات مجنونة، يعني، على كلٍ، أنا لم أبكِ أبداً مع صاحب. بلى، اضطررنا للبكاء إنما في قسم الشرطة وهذا شيء مختلف؛ {صوت غير مسموع} في قسم الشرطة، لكن هذا كان من أجل رذالة سخيفة. وإذن، رجعنا من هناك، وإذن غيرنا الكثير من الأصدقاء في تلك اللحظة.

❖ أنت تقفز قفزاً هنا: فماذا فعلت لتذهب إلى قسم الشرطة؟

مالك: إذن.. كنت مع اثنين.. هذا مسلٍّ لأنني أنا، أنا أرى ما يجري {يشير إلى رأسه} أما أنت، أنت لا ترى. أنا أستطيع أن أتخيل وأستطيع..

❖ أنت لا تقول لنا كل شيء.

مالك: لا، معلوم لا .. {ضحكة}

❖ يمكنك، كما تعلم، وهذا يبقى هنا.

{شرح أنه «ارتكب حماقات» مع بعض الأولاد، «ليسوا ممن تحسن معاشرتهم، لكنهم ظريفون» : سرقات «حباً بالمجازفة»، اللعب بالنار وحرائق غير مقصودة ،الدخول إلى بيوت مهجورة أو شبه مهجورة، فأثناء إحدى هذه العمليات «لقطته» الشرطة وأبلغوا أهله}

مالك: (...) إذن عند وصولنا إلى قسم الشرطة، وصل أهلي. يعني، خصوصاً أمي، لأن أمي.. ليست -على الأقل هي لم تصفعني أو تضربني أبداً- لكن عقوبتها قاسية، فعقوبتها قص الشعر، فأنت لا ترغب أن يقصّوا لك حفرة في وسط الرأس، يعني. فعندما تصل يوم الاثنين إلى المدرسة وعلى رأسك (..) أنت بالتأكيد لا تكون مسروراً. يعني، وهكذا. كانت الأمور تمشي، ولم يكن هناك من تصرفات شريرة، أنا لم أفعل أيّ شرٍّ أبداً، وأنا دائماً في هذا الوسط، ولكن الصحيح، أن الأمور تتفاقم، فهذا شيء يتزايد باستمرار، ثم وصلنا إلى مرحلة.. فأنا حوالى.. يعني الصف الثامن، أصبحت في الـ CAP، وبدأت أتعرف على أشخاص، فأنا بالنسبة لهذا الموضوع، أنا تماماً، أنا تركت تماماً.. أنا انفصلت عن كل هذا الوسط، بينما أخي ظل فيه..

❖ هذا هو الأمر، فهو قد استمر في..

مالك: استمر في تلك الرذالات، وحتى وقت متأخر. وبالتالي فمن بعد..

❖ هل وقع في مشاكل، من جانبه؟ هل..

مالك: أُوقف. أُوقف، لكن لم يحبس، لكن لم يكن بعيداً عنه في الحقيقة.

❖ لماذا؟ من أجل سرقات، وأمور من هذا النوع؟

مالك: يعني.. كان هذا في إحدى المرات من أجل.. لأنه، حينها كان.. لأنه في فترة من الفترات- كان هذا بعد بعض الوقت- إذن في فترة من

الفترات، كان قد انقطع عن المدرسة ثم دائماً هذه الحاجة للمال، علماً أنه لا يعرف كيف يصرف فلوسه، لست أفهم. هذا ما لأفهمه، فهو ليس بحاجة للعملة لهذه الدرجة، لكنه ظل في المخدّرات في الحقيقة. إذن فقد دخل مع خلع وكسر إلى سوبرماركت. ذات مساء، ذات مساء. ثم إنه كان موسم تصنيع نبيذ الريكارد. لكنه لم يكن يشرب، كان يبيع المشروب إلى (..)، فهذا موضوع غرقوا فيه، يعني، وهو من جانبه، تطورت أحواله، وبالتالي فقد أوقفوه أكثر من مرة، نعم، وجد نفسه في..، ثم هو يعني حظه كان من أسوأ الحظوظ. إذن، وجد نفسه، في مساء يوم مع أصحاب من شلته، كانوا على درّاجة آلية، هو كان يتحدث، فمرّ رجال الشرطة، فأوقفوه مع شلّته، ودائماً في كل المرات الحكاية نفسها. أو أنه ينزل إلى باريس، فيلزم الهدوء، يكتفي بتدخين الحشيش بهدوء وراحة بال، فيعلق ويوقفونه، هذا سخيف، شيء بليد، أمور من هذا النوع. فهنا يعني لنقل، .. وأنا بصراحة كنت في البداية أكثر منه قليلاً؛ فعندها قابلت أولئك الذين أنا معهم الآن في صداقة متينة..

[...]

هو يحب تأسيس مركز على البحر

❖ هذا هو الموضوع، لكنك كنت تسرّ كثيراً لدرجة أنك لا ترغب كثيراً في..

مالك: الرجوع إلى البيت. لا، لم أكن أرجع إلى البيت. يعني، كنت أرجع إنما حوالي الساعة الثامنة مساءً. فكنت أبقى في قاعة المطالعة، يعني مع.. وتمام، الأمور تتالى، ثم هناك مناقشات، ثم الخ.، ثم يلاحظ المرء أن..

❖ ألم ترغب في أن تشتغل في تلك الفترة؟

مالك: لا، بالمرة. أظن في تلك الأثناء تحديداً تعرفت على هؤلاء الأشخاص، فنفرت، إذا أمكن القول، من العمل لأن.. لأنه كانت ما تزال هناك فترات كهذه ينبغي قضاؤها. فترات أخرى، لقاءات أخرى، لقاءات أخرى لها أهميتها. ولا أعلم إن كانوا جميعاً، يعني، قد فهموا التركيبة، أي التقطوا التركيبية أثناء ذلك.

❖ ماذا تعني بقولك هذا؟

مالك: الحاجة إلى التبادل..

{حكاية طويلة عن رحلة إلى إسبانيا مع أصحاب له.}

❖ ماذا يفعل الآن هذا الصاحب؟

مالك: هو، يحضّر البكلوريا المهنية؛ هو في السنة الثانية، لأننا تقدمنا كطلاب أحرار، فهو حصل عليها، أما أنا، لا.

❖ ماذا قلت؟ لم أسمع.

مالك: حصل عليها وأنا لا..

❖ حصل على ماذا؟

مالك: شهادة الـBEP (البكالوريا المهنية) كطالب حر. أي قبل عام، قبل عام. لأنه هو لم يتمكن من اجتياز الـCAP ، فقد حصل معه حادث؛ هذا لا يمنع أنه عنصر جيد جداً، جداً.

❖ وتخططا معاً لمشروعات مشتركة؟

مالك: لا أعلم ماذا تعني بالمشروعات..

❖ لا أعلم بالضبط، لأنني أظن أن..

مالك: {لهجة زهو} يعني، عنده مشروع، لنقل، أننا نرغب في تأسيس قاعدة بحرية.

❖ أين؟

مالك: في الفيتنام {ضحكة}.

❖ لماذا ؟

مالك: لأن الفيتنام في أوج توسّعها، وهي قد انفتحت لتوها على العالم.

❖ نعم، فكرة ذكية.

مالك: هي قد انفتحت مؤخّراً، فهي يبدو أنها بلد سوف.. سوف يزدهر بالمشاريع، يعني..

❖ نعم، النادي البحري فكرة ذكية.

مالك: لا، لا أتحدث عن نادي، لا أقصد إنشاء نادي، أنا لا أحبّ هذا..

❖ فماذا يكون إذن؟

مالك: ... النوادي، مثلما كنت أقول لك من قليل. لا، أنا مثلما كنت أقول، نحن نريد الأصالة من البداية حتى النهاية.

❖ بمعنى؟ مثلاً ؟

مالك: أمور كثيرة؛ الصوت، الروائح، الانتباه لكل شيء، فهو ليس لمطلق إنسان لا على التعيين. لأننا نحب تأسيس قاعدة بحرية، مماثلة، في غرب فرنسا، على الشاطئ، على كل (..) نحن لا نعلم بعد أين؛ في هذه اللحظة، نحن نحاول الاتفاق مع الناس.. يمكنك أن تقول، نحن بصدد تقديم اقتراح بالخدمات إلى المشاريع، فيلزمنا إذن للعمل نوعية خاصة من الناس. وأثناء هذا الوقت.. -لن نقول لأحد، لا أحد سوف يطّلع- إنما سوف نرى من هو القادر بين هؤلاء الأشخاص.. من يبحث عن مثل هذه الأفكار، نهايته، هذا هو، هذه مواصفات المشروع. وأثناء هذا الأمر سوف نقترح على هؤلاء الأشخاص.. فقط وليس على من يتخلف أن يتساءل. أي أنّ الأمر جيد.

❖ لا، لا، هذا ممتاز، نعم.

مالك: لا، لا، بلى هذا ظريف. فهذا سوف ينطلق من البداية، لنقل، سوف نقدّم كل شيء من البداية إلى النهاية، يعني، سوف نقدّم.. نهايته، سنجعل انطلاقه من الأكل، كل شيء، كل شيء، هه.. حقاً كل شيء، لأننا أخذنا نضيع هذا الأمر، وهذا يفقدني أعصابي، اليوم نحن نضيع هذا الأمر، لكننا أرذال، وسوف نجني المال منه، بما أننا سوف نفعله، لا أدري.. لكن هذا الأمر يضيع، وأنا لا أحتمل أن أرى أشخاصاً..

❖ وأنتما سوف تبدآن بالذهاب هناك سوياً لرؤية..

مالك: لا، لأنه، هو، هو رحل إلى تايلاند، مع صديق له، إذن الصديق الثاني فريدريك، الذي يسافر بما فيه الكفاية من خلال والده لأن والده،

يعني، مهندس، وهو مندوب للاتصالات السلكية واللاسلكية، يعني، هو يسافر دائماً؛ فهو عنده إمكانية، ومن خلاله علمنا أن الفيتنام..

❖ وماذا يفعل هذا الصاحب، فريدريك؟

مالك: هو في الصف الحادي عشر تأهيل مهني في ثانوية باريسية. والآخر يعيد البكالوريا المهنية لكن بالتناوب؛ هو لا يعيش عند أهله؛ حصلت معه (..) مشاكل، بسرعة كبيرة، تركوه بسرعة كبيرة.

❖ من تركه ؟ أهله ؟

مالك: آه! نعم، ليس أهله. لا أعلم، هذه القصة «مشريكة» على أي حال. هو، سوف يرتاح كثيراً في هذا الموضوع.. هذا صحيح.. يعني، الموضوع، فهذا هو، يعني. إذن، هو عنده شقة بمفرده، فهو مستقلٌ بأموره تماماً و..

❖ إذن أنتم تخططون لهذا المشروع على أساس أنكم ثلاثة، هه؟ مع فريدريك..

مالك: معلوم، لكن..

❖ وحتى هو ذهب ليرى هناك؟

مالك: نعم، لكن لم يذهبوا ليستطلعوا، هم رحلوا إلى تايلاند بأمان الله مع لوران..

❖ فهذا معناه أن معهم الكثير من المال، فالمكان بعيد هناك؟

مالك: طيب، إنهم يتدبّرون أمورهم.

❖ يشتغلون؟

مالك: يعني، الآخر يعيد البكالوريا، إذن هو يشتغل، لكنه عاش بحالة فاقة لمدة ستة شهور بعد الرحلة.

❖ وماذا سوف تعمل في هذا الصيف؟

مالك: أنا سوف أحاول إذن أن أسافر مع لوران، إذن سوف أجرّب

الرحيل لأسبوع، إذن اقترحنا معاً القيام بتركيبة على اتحاد مراكز الهواء الطلق UCPA

❖ هه، وأين هذا؟

مالك: في مصب نهر فردون، فنفكرّ بالنزول.. في المياه الجارية، الخ.

[...]

❖ فعلاً هذه أفكار جهنمية وجميلة. نعم، إنها منهكة، لكن..

مالك: معلوم، منهكة جداً؛ إنما، هناك سوف نرى، يجب أن نبدأ بسرعة، وإلا فسوف نذهب لأسبوع آخر، هذه المرّة إلى غرب فرنسا، وسوف نرتّب بعض الـ (..)، الكاتا.

❖ بعض ماذا؟

مالك: الكاتا؟ ألا تعرف ما هي؟ إنها تسليات لأوقات الفراغ مثلما تشاهد في مونتي. يعني، لكننا نبقى هنا في فرنسا، إيه. فهي حلوة، هذه الأحاسيس. آه، هكذا تمام ! ثم عشرة أيام أيضاً في.. يعني مع.. مع.. مع صديقتي في إسبانيا، فأنا أحب من كل قلبي..

هي جزائرية، والأمر لم يكن عن قصد

❖ صديقك، من هو؟

مالك: إنها صديقة.

❖ نعم، من طريقتك في الكلام، لم أكن أجرؤ على أن أقولها. هكذا الأمر إذن.

مالك: صديقة.

❖ ومن هي الصديقة، إن كان السؤال غير فضولي..

مالك: {ضحك} هي «فدا الله». هي لطيفة.

❖ وما عملها؟

مالك: هي مدرّسة.

❖ مدرّسة ماذا ؟

مالك: في ثانوية LEP {ثانوية دراسة مهنية، وهي ثانويته بالذات}. هي مدرّسة، تدرّس الحقوق، والاقتصاد وتركيبات من هذا النوع.

[...]

نعم، سوف أرحل لعشرة أيام؛ معلوم، لا، فهذا أظرف لأنها لا تعرف المنطقة، هي لا تحبّ الماء، ولا تعرف السباحة، فأنا سوف أجعلها.. سوف أعلمّها، لا حاجة لتعليمها، فيكفي أن تضع قدميها في الماء عند جبل طارق، لم أجد مكاناً إلا هناك، فقلت لنفسي بأنه من الأفضل أن تتعرف على مكانٍ جيد. فهناك يلتقي المتوسط والأطلسي!

❖ ما هي أصولها؟

مالك: جزائرية ولم يكن الأمر عن قصد {ضحكة}. لم يكن الأمر عن قصد، لأن كلّ ما هو.. ما علينا، هذا لا يهمّ. معلوم، بلى، هذا يمكن أن يكون ظريفاً، لا أعلم.

[...]

{حدثنا مالك عن الجناح الذي يسكن فيه مع والده عندما لا يكون مع صديقته.}

هذا يخيفني أنا أيضاً، مجالات المستقبل..

❖ وتسكن كل الوقت، هناك، مع صديقتك، أو تذهب إليها لا غير..

مالك: لا، عند صديقتي؟ نعم.. لأن.. {ضحكات}.

❖ لا، لا، أنا أتابع فكرتي، على الإطلاق.. على الإطلاق..

مالك: لا، ولكن لأني موزّع بين الاثنين. وصحيح، صحيح، ألطف بكثير أن يستيقظ الإنسان وبجانبه..

❖ إذن والدك يعرفها، صديقتك؟

مالك: نعم، يعرفها. يعرفها، والأمور كما يرام، فهما متفاهمان، كلاهما..

❖ كلاهما.. متفاهمان كما يرام.. وأهلها هي، هم.. والدها جزائري..؟

مالك: أبوها جزائري، وأمها جزائرية. وكما في المصادفات، فكلاهما من تلمسان أيضاً.

❖ هـ.. هه، نعم، فهذا طريف. ألم يكونوا يعرفون بعضهم..

مالك: كلا، ما كانوا يعرفون بعضهم لأن أهلها.. يعني، أبوها وصل باكراً إلى هنا؛ هو جاء هنا في الثلاثينات، وإذن..

❖ نعم، هكذا إذن، فوالدك جاء بعده بكثير.

مالك: بالضبط.

❖ هل حكيت لنا كل شيء عن هذا؟

مالك: نعم، باستثناء (..) نعم، لعلّي أبقى لبعض الوقت في الثانوية، في المدرسة، أحبها كثيراً. هذا كل شيء، أنا أتابع كي أتأكد من وضعي، يعني. ثم، إذا تركت في يوم، وبحثت عن أرض جديدة..

❖ نعم، يجب أن يكون عندك..

مالك: ... أن أكون قادراً على البقاء هنا ثم يكون لي مركزها بمحاولة التعويض عن طريق الماديات، فهذا ما يفعله كل الناس.

❖ لم أفهم معنى ما قلته؟

مالك: باختصار، رأيي في المال غريب، فانطباعي هو أن المال يوفرّ خصوصاً التعويض. وانطباعي أن جميع الناس لديهم ما يربكهم، وأن المال يسمح بالتعويض عن بعض الأحلام بالماديات التي تبقى ثابتة.. فهذا هو التعويض؛ بينما أنا لا رغبة شديدة عندي في هذا، أنا رغبتي أن أعيش، لأن أعوّض بشيء ما.

❖ في الحقيقة المال ليس بالأمر الجوهري، يعني؟

مالك: ليس هو، ليس هو.. ليس هدفي الأول. لكن، صحيح، فما أريد أن أفعله، يحتاج إلى المال. لنقل إنه هو أسهل وسيلة، أكثر الوسائل جذرية للوصول إلى ما أريد أن أفعله. لكنه لن يكون الهدف الأوّل.

❖ هل فكّرت قليلاً من أين ستدبّر المال، يعني من أجل مشروعك؟

مالك: أمامي بنك فرنسا {ضحكة}. لا، لا، لا أعلم.. لإيجاد العملة، ينبغي العمل كما يجب، ويعني، محاولة إيجاد عمل ظريف إلى حدٍّ ما، لطيف، نهايته، أريد مهنة فيها تشويق. حذار! فأنا شديد التطلّب، وأريد عملاً يعجبني من البداية إلى النهاية. لكن ليس مهنة أبد الحياة، أو تؤمّن الأكل فقط، من بعدها {صوت غير مسموع}، {ضحكة}. لنقل: لا أن يتقمّص الإنسان شخصية ثانية عندما يذهب إلى الشغل، إنما يبقى على حقيقته (..) للعلم، هذا مهم. لا يجب أن يخرّ شك العمل، الوظائف الثابتة، مجالات المستقبل، هذا يخيفني أيضاً.

❖ نعم، بمعنى ما، فالمدرسة جيدة.

مالك: أن أكون رئيس مجلس إدارة ثم أن أترك، ألا أعود لرؤية الصديقة، ثم.. هذا النمط لا يثير اهتمامي.

[...]

❖ لكن عالم المدرسة، هل هو عالم يروق لك؟ هل تروق لك المدرسة؟

مالك: بلى، معلوم، معلوم، هذا يروقني كثيراً. وأظن أنها أصبحت الآن جزءاً من، أقول، في النهاية، هي الطريق الذي اخترته، وقد سمح لي اختياري بالبقاء لفترة أطول في المدرسة. وأقول لنفسي..

❖ في الحقيقة، ما ينغّص العيشة في المدرسة هو العمل المطلوب منك، يعني؟ ولولا هذا لكانت ممتازة.

مالك: إيه، وأنا لا أعمل.

❖ آه، هكذا، نعم هي إذن ممتازة.

مالك: هي ممتازة. لا، لا، هي جيدة، هه. هذا ظريف (..) والأساتذة ظرفاء.

❖ بمعنى؟

مالك: يعني، يتساءلون. يعني يحاولون معرفة سبب تقاعسي.

❖ نعم، يتساءلون، لأنك لو أردت، سيكون بإمكانك تحقيق نجاح ممتاز.

مالك: لا.

❖ بلى.

مالك: لا، لا، يعني أنا ممتاز هكذا. لماذا، لماذا.. هذا! ما لا أفهمه، في المدرسة لا يطلبون مني علامة 20. بالمقابل في الشغل عليك أن.. يعني إذا لم تحصل على العلامة التامة، أما عشرون أو الصفر، ليست 14 أو 12. وهنا يتركون لنا الفرصة لنختار الحصول على 12، 13، 10، لكن ليس 9، لأن الأمر لن يكون جيداً حينذاك. إذن الأمر سيان إن حصلت على الحد الأدنى المقبول {ضحك}، الحصول.. أن تأخذ 10 وفي نهاية الفصل تكون محصلتك 12 ثم تهرب، ولن تكون قد عملت شيئاً لكنهم يدعونك تترفّع. فهذا ما يخلق المشاكل عندي، أقول لك، أنني أستطيع الوصول إلى ما أريد، لأن انطباعهم أن الأمور سوف تكون دائماً هكذا، هذا كثير، فعلاً، هذا كثير، لكني بدأت أفهمهم أفضل نظراً لأن صديقتي مدرّسة، في الطرف الثاني من حاجز التعليم، فهي.. هي ترى قليلاً ما يحصل. لكن.. هذا ظريف. حياتي ظريفة {ضحكة}.

حزيران 1991

سيلفان بروكوليشي

جنة مفقودة

تتقاسم كلير، وموريبل، ونادين مع عدد كبير من التلاميذ المعاناة من الانخفاض الحاد في قيمتهم الدراسية لدى وصولهم إلى المدرسة الثانوية. ويترافق هذا الاكتشاف، عند الثلاث مجتمعات، بضربة أوقفت آمالهن بالإضافة إلى ظهور الوضعية الحرجة في مواجهة هيكليات وشروط العمل في المدرسة الثانوية. هنّ الثلاث من مدارس إعدادية مختلفة وقد التقين في ثانوية فيرلين لتزول عن أعينهن غشاوة الأحلام باكتشاف عالم متراتب المواقع بكل وضوح، حيث ينال سوء التقدير أولئك الذين لا يوفّقون في الدخول إلى «الطريق الملكي العلمي» وحيث لم تعد القيم نفسها سائدة. كنّ حتى تاريخه من «التلاميذ الجيدين» في مدارس حبتهنّ بالرعاية اعترافاً وتشجيعاً، ففوجئن بشكل استثنائي بالمعاملة التي ووجهن بها بسبب الصعوبات الجديدة في المستوى الثانوي للدراسة: لقد وجدن أنفسهن فجأة وجهاً لوجه مع العنف الذي يمارسه الوسط المدرسي على التلاميذ الذين لا يستطيعون مجاراة متطلباته.

في تلك المحافظة التي حافظت بدقة على مبدأ التنظيم القطاعي للمدارس، تقع ثانوية فيرلين، ذلك البناء الهزيل المنظر، المشيّد خلال الخمسينات، في منطقة دراسية تلبي حاجات مدينتين يغلب عليهما الطابع

العمالي (مع وجود تطور واضح لفئات «الموظفين» و «المهن الوسيطة» ولقطاع الخدمات عموماً) وإحدى هاتين المدينتين غير بعيدة عن باريس. وهي الثانوية الوحيدة للتعليم العام في المنطقة التي تحضّر الطلاب للبكالوريا العلمية بقسميها (C و D) وللبكالوريا الأدبية بأقسامها الثلاثة (A1، A2، A3)؛ وهي تضم خيرة طلاب 12 مدرسة إعدادية في ذلك القطاع باستثناء أولئك الذين يهاجرون باتجاه الثانويات الباريسية. أما الطلاب الأكثر التصاقاً بتقدير «الوسط» فيتوزعون في ثانويتيّ التعليم العام والفني التي تحضّر طلاّبها للبكالوريا التكنولوجية، وكذلك لشهادتي البكالوريا B و E. وينجح مدرّسو وإداريّو الثانوية في الحدّ من «تسرّب» الطلاب بالمحافظة على مستوى مرتفع، خاصة بشأن الوصول إلى الصف الأخير C (وهنا نسبة النجاح في البكالوريا مؤشّر رئيسي على سمعة الثانوية)، ولذلك يتم رحيل التلاميذ ذوي الحالة الميسورة إلى ثانويات باريس منذ الحلقة الأولى خصوصاً.

وعلى ضوء النتائج في مادتي الرياضيات والفيزياء بصفة خاصة، الحاسمة للتوجه نحو السنة الأولى/ الفرع العلمي S، يكتشف معظم الطلبة ما في الثانوية من تصعيب بشأن الحصول على معدّلات مرتفعة: فالنتائج بالنسبة للكثيرين بينهم، هي أدنى بكثير مما يأملون، و«قفزة التصعيب» المطلوبة منهم لدى وصولهم إلى الثانوية تتكشف تحديداً بضخامة «العلامات الهابطة». وبالفعل، قياساً إلى الثانويات الأخرى التي لا تحضّر طلاّبها مثل ثانوية فيرلين للتقدم إلى المستويات «الرفيعة» من فروع البكالوريا، فإن هذه الأخيرة تقدّم النموذج الأمثل عن نظام يعتمد أقسى الشروط، وأصعب سلالم التصحيح لتقدير العلامات، وهو ما تشهد عليه العلامات المنخفضة لطلاب المرحلة الثانوية في الصف العاشر (في الرياضيّات واللغة الفرنسية خاصة) بالمقارنة مع العلامات في الصف التاسع، فهي أعلى بكثير في تلك الثانوية مما هي عليه في الثانويتين الأخريين في المنطقة، علماً أن الصفوف هي نفسها من وجهة النظر الرسمية.

ويمكن أيضاً إرجاع مقدار «انخفاض العلامات» هذا إلى تأثير

المدرسة الإعدادية التي وفد منها الطالب، خصوصاً منذ أن تناقص «تقويم وإصلاح» المواصفات الاجتماعية والدراسية للطلبة عمّا كان عليه في السابق نتيجة لكثافة القبول. فالرغبة الحكومية هي توفير وصول 80% من الجيل الجديد إلى الصفوف العليا، لكنها بدلاً من أن توفّر الاستيعاب الأقصى لنظام التعليم، كانت ترجمتها على أرض الواقع مجموعة من الإجراءات (على مستوى إمكانيات الاستيعاب في مختلف الفروع) والضغوط الإدارية الرسمية، بما يفرض إلى حدٍّ ما على العاملين في المدارس الإعدادية السماح للطلاب بالنجاح «بالتقادم» حتى الصف التاسع، وهو ما لم يكن بالإمكان الوصول إليه في الوضع السابق للنظام التعليمي، وفي الوقت نفسه تخفيف الصعوبات الدراسية على مجموع الطلبة الذين يقضون في تلك المدارس أربع سنوات (على الأقل). ولا تظهر الإحصائيات المأخوذة تقليدياً من مصادر خدمات وزارة التربية الوطنية هذه الاختلافات، التي تبدو جليّة في الصف العاشر حيث يتنوّع المصير المدرسي للطلبة تنوّعاً ملحوظاً تبعاً للمدارس الإعدادية التي قدموا منها (على سبيل المثال تتفاوت نسب الرسوب أو الفرز إلى شهادة الـ BEP بين 8% و50% في ثانوية فيرلين تبعاً للمدرسة الإعدادية السابقة). وهكذا تغيب عن الطلاب بشكلٍ كبير نسبية العلامات التي حصلوا عليها في الإعدادي، ويزيد من صدمتهم هبوط مستواهم الفجائي في الصف العاشر، ويتفاقم هذا الهبوط بوجود طلاب أفضل بكثير مما عرفوه في الإعدادي.

وقد التقيت بثلاث طالبات من ثانوية فيرلين، كلير، ومورييل، ونادين، ضمن إطار بحث أقوم به منذ سنوات حول التعليم الثانوي في المنطقة الدراسية التي تتبع لها هذه الثانوية، أمكنني خلاله عقد اتصالات عديدة مع العاملين في التربية الوطنية، ومع أهالي الطلبة، والطلبة، على حدٍّ سواء. وقد أجبن، ثلاثتّهن، باندفاع، ولبّين طلبي في التحدّث معهن عن المشاكل التي صادفنها في الثانوية؛ وقد أبدين أيضاً الرغبة في تقديمي إلى طالبات أخريات متطوعات، قريبات منهن فيما يخصّ أوضاعهن، وحكاياتهن مع المدرسة، وأيضاً في التزامهن السياسي مع الشبيبة الشيوعية. وقد لاحظت في نهاية الحديث الأول

معهن جماعياً الطريقة التي كن يتشجّعن بها للإدلاء بشهاداتهن حول أكثر ما أثّر فيهنّ في الثانوية (وخاصة جواب الثانوية حين عرض صعوباتهن بالانتقاص من تلك المعاناة وتوجيه إصبع الاتهام إليهن)، فقرّرت أن أقترح عليهن حديثاً ثانياً، جماعياً أيضاً، يدور في قاعة ضمن الثانوية إنما معزولة أكثر من القاعة الأولى وبعيدة نسبياً عن أية صفة «رسمية»، بحيث يُتاح لهن استخدام تعابير أقل خضوعاً للرقابة حول الإدارة والأساتذة.

ومنذ الشروح الأولى عن اضطرابهن وعدم إمكانية الخوض في مصاعبهن مع الراشدين في الثانوية، ألححن على أنهن يجازفن بسمعتهن إذ سوف يُنظر إليهن على أنهن «مهرجات صغيرات» يسعين لإيجاد معاذير بغية إخفاء نقاط الضعف والتقصير لديهن. ومن هنا حرصي على استخدام صيغة الغائب بدلاً من صيغة المخاطب، كما لو أردت أن أشعرهن بتأييدي لوجهة نظرهن وبالتالي تخفيف وطأة الكبت والقمع.

كلير ر . : «فقدنا القيمة تماماً»

كلير عمرها 15 عاماً. هي في ثانوية فيرلين منذ ثلاثة شهور لا غير، في الصف العاشر، ولذلك كانت أقلّهن كلاماً طيلة الحديثين. وكانت ابنة عامل ومشرفة في مستشفى، أمكنها أن تستفيد طيلة فترة دراستها من مساعدة أختها البكر، الحاصلة على البكالوريا A1 مع تقدير، وهذه الأخيرة كانت قد تلقّت هي أيضاً دعماً مدرسياً مماثلاً من عمّة، تعمل مشرفة عامة في مستشفى.

كانت على عكس زميلتيها موربيل ونادين المنحدرتين من أسرتين متميّزتين اجتماعياً وثقافياً ولديهن الجرأة للتأكيد على بعض الأمور (صحافة، تصوير) وفقاً لميولهما ومحاور اهتمامهما خارج المدرسة، فهي تذكر بحرج وخجل هدفاً وحيداً- التجارة الدولية- وهو هدف اختارته تحديداً للاحتمالات المعقولة في العمل («قالوا لي عن وجود توظيفات في هذا القطاع») ووفقاً لإمكانياتها المدرسية («أنا خصوصاً جيدة في اللغات الأجنبية»). وكانت فيما يبدو، «بمستوى» موربيل ونادين في الإعدادي (تقدير

جيد يعود إلى الظهور سبع مرات في جلائها «كشف العلامات» الفصلي في نهاية الصف التاسع)، غير أنها تظلّ الوحيدة التي استبعدت بكل وضوح، سلفاً، التوجّه نحو البكالوريا/ الفرع العلمي، مع عدم جهلها بما في هذا الاختيار من جانب سلبي: فهي في كل مرة تتدخل فيها لتشارك برأيها تتكلّم عن البكالوريا «C» التي ترى فيها القيمة الوحيدة الموثوقة في هذه المرحلة من تعميم الدخول إلى البكالوريا ومن فقدان الثقة بالعثور على عمل وتشكو أكثر من مرّة من أن الفروع الأخرى التي تنفتح أمامها بحكم نتائجها الدراسية المتدنّية هي «غير ذات قيمة بالكامل». وخير ما عبّرت فيه عن قلقها الداخلي بشأن مستقبلها حديثها عن صورة من مجلّة أطلعهم عليها أحد الأساتذة في الصف العاشر وهي تمثّل «سيّداً صغير الشأن يكنس» إلى جانب البكالوريا «A»، بينما «كانت البكالوريات هي مدير المؤسسة». فهذه الصورة أثارت حساسية استثنائية عندها، لأنها تذكّرها بوالدها الذي لا يحمل أي توصيف مهني والذي اشتغل لفترة طويلة في «قسم الصيانة».

كانت كلير فيما مضى قد «أمّنت» باستمرار نجاحاً جيداً في جميع المواد دون أن تسعى لتكون الأفضل في بعضها، أما الآن، في السنة الأولى من المرحلة الثانوية، فلم يعد بإمكانها المحافظة على نتائجها الجيّدة إلا في اللغات الأجنبية؛ وفيما تبقّى من المواد، تنخفض علاماتها بعلامتين إلى سبع علامات حسب المادة، وهي في هذا منسجمة مع التطوّر الوسطي للطلبة القادمين معها من المدرسة الإعدادية نفسها. ففي تلك الإعدادية ذات الجمهور الطلابي المتدنّي اجتماعياً، والتي يهجرها التلاميذ المتفوّقون في المنطقة بالتدريج (بانسجام متناسب طرداً مع سياسة إضعاف مستوى الاختيار المطبّق فيها نظامياً)، تكاد كلير تكون الوحيدة القادرة على التجاوب مع توقّعات المعلّمين وعلى الدخول معهم في علاقة متبادلة من العرفان. وهكذا فالحديث العامر بالحنين للطالبات الجيدات (سابقاً) حيال مدارسهن القديمة، بعد أن وجدن أنفسهن فجأة ضائعات وسط حشد من الطلبة الذين يُنظر إليهم على أنهم «ضعاف المستوى» في الثانوية، لا يأخذ معناه الكامل إلا عند استعراض مجموع لفتات العناية والاهتمام حيالهن فيما مضى: ففي

الإعداديات، حيث «يتقاعس» الكثير من الطلاب في بعض المواد مما يجعل عمل المعلّمين في غاية الصعوبة، يندفع هؤلاء لتقديم التقدير والاستحسان لـ«الطيور النادرة» من أمثال كلير حتى ليتمنّون الاحتفاظ بها في المدرسة نفسها، مع إقرارهم بما لديها من جدارة استثنائية بما تبذله من جهد في مثل ذلك الوسط غير الملائم. وهم، في كل مناسبة، يجودون بالتشجيع أو بكلمات الإعجاب الشخصية التي توطّد العلاقة المتبادلة معلم/ تلميذ وتقترب بها من مستوى أب/ ابن، مما يجعل كلير تهتف فجأة: «في الإعدادية، كنا مثل أسرة صغيرة.. كان عندنا دائماً معلّم يدعمنا»، وأما في الثانوية، «انطباعي أن من غير الممكن محاولة رؤية أي أستاذ».

مورييل ف. : «هذا أصبح متنافراً بالكامل»

منذ أن تعرّضنا لفكرة إجراء حديث عن «الوجع» الثانوي كانت كلير، ومثلها غيرها ممن اتصلت بهن، قد حدثتني عن موريبل. «موريبل بالتأكيد عندها أشياء كثيرة تحكيها. ثم هي عندها وقت، لأنها في البكالوريا A1...» هكذا قالت لنا إحدى زميلات والد موريبل (المدرس في EPS)، مشيرة تلميحاً على هذه الصورة إلى التعارض بين ابنتها هي بالذات- التي «تشقّقت» للحصول على بكالوريا علمية- وبين موريبل التي كانت قد اختارت بمعنى ما السهولة علماً أنها كانت طالبة لامعة، بل وكانت أصغر بسنة من زميلاتها (وحافظت على هذه الأسبقية) لدى وصولها إلى الصف العاشر. وكانت موريبل محطّ هذا الإجماع بسبب صفتها كممثلة منتخبة للثانوية وعضو في مكتب التنسيق الوطني لطلبة الثانوي (ميوله مع الشبيبة الشيوعية). وقد قبلت عن طيب خاطر، أثناء الحديث، ألاّ تتمترس خلف صفتها الاعتبارية لكونها «ناطقة باسم الطلبة» (وهذا ما خشينا منه بداية)، بل انطلقت تتكلّم ببساطة عن قصتها الخاصة.

تستعرض قطيعتين اثنتين في حياتها الدراسية: الأولى عند الانتقال من المدرسة الابتدائية القريبة من بيتها ذات العدد القليل للتلاميذ فيها- حيث الشعور بنوع من «الألفة العائلية»، خاصة بوجود العلاقة الودية التي

تربط أمها، معلّمة الابتدائي، مع باقي الراشدين في الابتدائية- إلى الإعدادية الكبيرة «الرمادية الباردة » ذات الـ 600 تلميذاً، كانت سابقاً جزءاً من ثانوية فيرلين. والثانية، قطيعة الانتقال إلى الثانوية حيث أولوية المواد العلمية (التي لا تشعر فيها بالراحة) زعزعت الصفة التي رافقتها دائماً على أنها طالبة جيدة.

كانت إعدادية فيرلين أقرب الإعداديات من الثانوية التي تحمل الاسم نفسه من حيث انتماء الطلبة اجتماعياً- أعلى الفئات الاجتماعية في المنطقة-، ومن حيث مستوى التشدّد الدراسي (فانخفاض العلامات في السنة الأولى من الثانوي أقلّ ما يكون لدى الطلبة القادمين من تلك الإعدادية). وتبدو موربيل وكأنها تسير عكس التيّار بالمقارنة مع وسطيّ طلبة إعداديتها: فهي قد رجحت كفّة التحسّن عندها في معظم المواد، لكنها بالمقابل تراجعت في الرياضيّات والفيزياء (فقد نزل معدّلها في المادّتين من 12 «من أصل 20» إلى 7). ورغم ما بذلته من جهد كي تقنعنا بأن توجهها إلى البكالوريا A1 كانت نتيجة اختيار حرّ من جانبها، فهي تعترف أحياناً أن ميولها الأدبية حديثة العهد نسبياً ولها بعض ارتباط بالصعوبات التي واجهتها في الرياضيات والفيزياء في الأول الثانوي بالإضافة إلى نفورها الشديد من اختيار اتجاه كان سيجبرها على «العمل بجنون لتأمين القبول في الفرع العلمي S » وبنتائج غير مضمونة.

ونظراً لإدراكها بأن «اختيارها» تسبّب في خفض مركزها الدراسي، فقد بذلت جهدها لوضع الأمر في نطاقه النسبي مندّدةً باعتباط ذلك التمييز علمي/ أدبي ومدافعة لتثبيت مبدأ الكرامة المتساوية للفروع، ولذلك فهي تنتقد بما يشبه الثقة اليقينية ذلك العالم «المتنافر بالكامل» حيث «من الأفضل الحصول على بكالوريا C للدخول إلى الصف التحضيري للفرع الأدبي»، حيث ينصح أساتذة الأدب أنفسهم خيرة الطلاب بالدخول إلى هذا الفرع. لكن انتقاداتها لا يمكن أن تعيقها عن أن تشعر وتعبّر، ولو بالكثير من عبارات النفي، عن شعورها بالفشل لأنها أصبحت في موقف منقوص القيمة

ضمن تسلسل المراتب مدرسياً، وهو شعور يزيد من وجعه المقارنة مع بعض الزميلات القديمات في الإعدادية ممّن «نجحن»: «كنا بالفعل متشابهتين. ثم وصلنا إلى الأول الثانوي وهنا- الرياضيات أصعب بكثير في هذا الصف- إيه، يعني، كنا نتراخى معاً. لكن أنا، في البيت، لم يكن بمقدور أحد أن يساعدني في الرياضيات (..). أمّا هي، فكانت تشتغل طيلة الوقت، طيلة الوقت مع والدها.. إيه، يعني، فهي نجحت. نهايته، نجحت.. أقول بأنها نجحت، ولكن لنقل، أصبحت في البكالوريا S، يعني.» ولم يمكنها إلاّ أن تلحّ على الدور السلبي الذي لعبه في هذا المجال أستاذ الصف الأول الثانوي الذي جعلها تقرف من الرياضيات، هي وغيرها كثير.

نادين ب. : «نزلتُ من سماء أحلامي»

نادين، البالغة من العمر 18 عاماً، في البكالوريا A1 حين تبادلنا معها الحديث، لكن بالنسبة لها، فمن الواضح أن السنتين اللتين أمضتهما في الأول الثانوي هما الحاسمتان والأصعب في حياتها الدراسية. لقد جاءت من إعدادية مشابهة اجتماعياً ومدرسياً لإعدادية كلير، وهي مثلها تحمل النفور نفسه من الثانوية والحنين نفسه إلى مدرستها الإعدادية، حيث كانت تلميذة جيّدة، باستثناء الرياضيات، وهي تحمل مسؤولية نفسها بمفردها، دون أن تطلب أي عون من والدها، المسؤول النقابي الدائم في الوكالة الوطنية للتشغيل الـ ANPE، أو من والدتها التقنية الكيميائية في المركز الوطني للأبحاث العلمية الـ CNRS، وكان الاثنان يوليانها الثقة.

مشروعها أن تصير مصوّرة فوتوغرافية، فجمعت المعلومات بهذا الشأن خلال سنتها الأخيرة في الإعدادية بالرجوع إلى مستشارة توجيه الطلبة وعلمت بأن معظم مدارس التصوير الفوتوغرافي من بعد البكالوريا يطلبون البكالوريا/ الفرع العلمي: «فإما يكون تسجيلك على أساس بكالوريا C أو D، وإما تتركين هذه الفكرة» هكذا قيل لها بهذا الصدد . فأدركت أهمّية التفوّق في المواد العلميّة، ولذلك بذلت جهدها لتحسين نتائجها بشكل ملحوظ في الرياضيات في آخر المرحلة الإعدادية وتمكنت من ذلك.

لكن، شأنها شأن معظم القادمين من إعداديتها، انخفضت علاماتها انخفاضاً كبيراً عند الدخول في الثانوي: فكان الانخفاض أربع علامات وسطياً، أما في الرياضيات فأكثر بكثير، حيث كانت علامتها 20/2 في الفصل الأول مع ملاحظة: «ثغرات هائلة !» وهنا كانت خيبتها عظيمة: فباتت ترى أنها لن تتمكن أبداً «من القيام بدراسات ذات قيمة»، أو أن توفّق في الوصول إلى البكالوريا C، فغيرّت رأيها. لكنها، استجابة لنصيحة أهلها، ونظراً لصعوبة التخلّي عن مشروعاتها، تعلّقت حينذاك بأمل أن يكون بإمكانها تحسين مستواها عن طريق إعادة الصف. لكنها طيلة السنة الثانية في الصف ذاته عانت من «التوتر» أشدّ ممّا عرفته في السنة الأولى، وظلّت علاماتها في المواد العلمية غير كافية وأتمّت «إنزالها من سماء أحلامها».

رواية نادين، والتأثر والاضطراب الملحوظان في صوتها أمور تجعلك تفهم أن الصف الأول الثانوي جعلها تعاني ليس من تبدّد مشروعها الدراسي والمهني فحسب، وإنما كانت معاناتها أيضاً من تشوّه نظرتها لنفسها، وللمدرسة، ولعالم الراشدين، بالخيبات والإحباطات المتعاقبة: الفشل الدراسي (وكان أبعد ما يكون عن التفكير قبل شهور قليلة)، فقدان القيمة الاعتبارية والتخلخل العام في العلاقات على عكس الانسجام والتناغم في الماضي. «طالما كنت على وفاق وتفاهم معهم»، هذا ما تقوله في حديثها عن أهلها وأساتذتها على حدٍّ سواء، وأما في الأول الثانوي فأنا «{علقت} مع كل العالم»

وإذا كانت كلير، وخاصة موربيل، قد تمكنتا كلاهما من إقناع نفسيهما أن البكالوريا العلمية «ما عادت لها أهمية عندهما»، وأنهما تبقيان طالبتين جيّدتين على الأقل في المواد التي تروق لهما، فإن نادين، بإعادة صفها، فقدت تماماً هويّتها كـ «طالبة جيدة» وجاءها الفشل مثل لسع السياط لأنها أصبحت ملزمة بمتابعة الحادي عشر S فهي معبر إجباري منعها بشكل من الأشكال من المطابقة بين آمالها والإمكانات المتاحة في الوقت المناسب للاختيار. علاوة على ذلك، فقد اكتشفت نادين في وقت متأخر أنها افتقرت إلى الواقعية برفضها لفترة طويلة، انجرافاً وراء صورة

مثالية عن المدرسة، المساعدات التي كان أهلها يعرضونها عليها، وبصفة خاصة في الرياضيات. كانت قد اعتادت على النجاح والتفوّق دون مساندة من الراشدين ولم تعتمد إلاّ على أساتذتها، ولذلك باتت تشعر أن من حقها إيراد مثل هذه الملاحظة: «هناك أبناء ليس عندهم أهل قادرون على مساعدتهم، (..) فالأستاذ هو الذي من واجبه أن.. يجعلني أنجح. (..) ما يدور في ذهني دائماً: من غير الطبيعي أن يكون الأهل مضطرين للتدخّل.» ودون أن تتنكّر في صميمها لهذا المبدأ، انتهى بها الأمر إلى إهماله عملياً وقبلت بأخذ دروس خاصة قبولاً منها بأن «هذا ما يحصل» بشكل شديد الرواج للتغلّب على بعض المصاعب.

تضم كلير، وموربيل، ونادين، مسيرة واحدة علامتها الفارقة الانتقال من تجربة دراسية سعيدة في الإعدادية إلى تجربة موجعة من الانكسار الدراسي في الثانوية. ويبدو هذا الشوط المشترك في أقوالهن بصيغة حكاية تبلورت إلى هذا الحدّ أو ذاك بمساعدة تصنيفات سياسية استقينها من انتمائهن المشترك إلى الشبيبة الشيوعية، وحكايتهن هي الانتقال من عالم الإعدادية الجماعي الدافئ، القائم على غياب النبذ وعلى التضامن (وهو ما يهزهن الحنين إليه) إلى عالم الثانوية البارد والمجهول الهوية، القائم على عنف التمييز والتنافس (وهو ما ينتقدن روحه، وتنظيمه، وطريقة أدائه). وهنّ الثلاث، مجاراةً لنموذج النجاح المدرسي الشائع بين الفتيات، كنّ أقل تمكّناً في الرياضيات أو في الفيزياء مما هنّ عليه في المواد الأخرى. وافتقرن جميعهن على التساوي، عندما تحوّل ضعفهن البسيط في المواد العلمية، في الأول الثانوي، إلى صعوبات مدرسية حقيقية، لمساعدة حاسمة من الأهل (وهو ما رفضته نادين) بما كان يمكن أن يساعدهن على تسوية أوضاعهن. فعند وصولهن إلى الأول الثانوي، جعلهن هذا الوضع الدراسي أمام اختيار لا يتغيّر (وهو الانعكاس لاختيار ما بعد البكالوريا: صف تحضيري أم جامعة): فإما بذل الجهد والعناء للتمكّن من ولوج «الطريق الملكي العلمي» والمجازفة بمواجهة الفشل فيه، وإما تأمين الانتقال إلى فرع أدبي «غير ذي اعتبار» واستعادة راحتهن السابقة في هذا الفرع.

وتبيّن تجربة نادين بكل وضوح الخطر الحقيقي الذي يهدّد بتحطيم توازن العلاقات وبخلق شعور شخصي بالنقص حسبما هو وارد في الاختيار الأول إذا ما انتهى إلى الفشل. كما أن العديد من الطلبة الذين يجعلون هدفهم في بداية الأول الثانوي الدخول إلى الحادي عشر العلمي S، ثم يصطدمون بالصعوبات غير المنتظرة، ينجم عن نجاحهم الصعب في هذا الصف نتائج شديدة الوطأة، وهو ما يشهد عليه الحديث الرائج عن هذا الطالب أو تلك الطالبة ممّن «تكسّروا» (انهيار نفسي، فقدان شهية، محاولة انتحار) في الصف الحادي عشر (الثاني الثانوي).

فالطلبة الجيّدون / سابقاً الذين لا يستطيعون التكيّف منذ الصف العاشر مع عالم الثانوية، حيث يصطدمون بقواعد أكثر تشدداً مما ألفوه وبوجود سلّم قيم جديدة للمواد الدراسية، يمكن لصفA1 ، الفرع الأدبي، أن يكون مكاناً لتدارك النقص، لأنه يعيد ترتيب العالم الجديد بما يشبه إلى حدٍّ بعيد، في نقطتين، نظام الأمور في السابق: فمن الممكن من خلاله استعادة الوضع الجيّد في الصف، كما أن المواد التي أصبحت ضئيلة القيمة في الصف العاشر تعود لتأخذ أهميتها وقيمتها. أما عيبه الوحيد، إذا أمكننا الحديث عن عيب، فهو الظل القائم المنعكس عليه من الفرع C، الذي يُعتبر بالإجماع فرع الطلبة المتفوّقين.

وإذا كانت الطالبات الثلاث قد تحدّثن عن التعارض بين جهنّم ثانوية يسيطر عليها «منطق الانتقاء» وبين جنة الحياة المشتركة في السابق، فهنّ إنما يُبرزن وجوه الاختلاف بين الإعدادي والثانوي كما عشنها موضوعياً. فهناك بادئ الأمر غياب «التمييز» في الإعداديات حيث جميع الطلبة تقريباً، خصوصاً في الصفوف الجيّدة، يترفّعون معاً إلى الصف الأعلى، بينما في نهاية الأول الثانوي، يُفرض على الطلبة التوزّع في فروع متفاوتة القيمة تفاوتاً بيّناً. ثم إنهن كنّ «معروفات» في الإعدادية طيلة أربع سنوات، فأصبحن «مجهولات» لدى وصولهن إلى الثانوية، ويتضاعف شعورهن هذا بالغربة بازدياد عدد الطلاب في الصف. وأخيراً، فإنّ كمية العمل المطلوب تصبح أكبر بكثير في الثانوية. إلا أن هذه الفروقات لا تفسر كل شيء ويبدو جيداً بأن

هذه التجربة العامرة بالسحر والحنين في المدرستين الابتدائية والإعدادية والتي يتم التعبير عنها باستعارة العائلة (المفقودة) والبيت تمثل تجربة مميزة لفئة محدودة من طلاب المرحلة الثانوية: هم الفتيان، وبالأخص الفتيات، الذين كانوا -في مدارس شعبية- جزءاً من الفئة الصغيرة التي تضم الطلاب الجيدين، وأحيطوا -لندرتهم- بالرعاية والاهتمام، والذين فقدوا فجأة هذه العلاقات الودية والصفاء الذي يتولد عنها لدى وصولهم إلى ثانوية متطلباتها المدرسية أعلى. وعلى وجه الخصوص، من وجهة نظر الطلبة الذين يعانون من وضع دراسي سيّء، إذ أنه من الواضح أن المدرّسين أكثر استجابة وتعاطفاً حيال «الطلاب الأفضل» (إلى الحدّ الذي يجعل «الأقلّ جودةً » يميلون إلى إقصاء أنفسهم ذاتياً عن كل علاقة مع الأساتذة، بتكليفهم، على سبيل المثال، للمتفوّقين بطرح الأسئلة نيابة عنهم)، كما أن من يتمتعون بمثل تلك العلاقات الطيّبة (مثل كلير، وموربيل، ونادين، قبل وصولهن إلى الثانوية) ينسبونها إلى المودّة الشخصية التي لا علاقة لها بالمستوى الدراسي. تبدو نادين أكثرهن وعياً لتعلق تلك العلاقات الإنسانية بالترتيب في الصف، ولعلّ مردّ وعيها هذا بقاؤها بكلّ وضوح، طيلة سنتين دراسيتين، في وضعية الطالبة «الفاشلة»، ولذلك تقول بمرارة: «فماذا أكون في نظرهم؟»، وهي تلاحظ أن أساتذتها، بل وحتى والديها، ما عاد لها اعتبار عندهم مثلما كان الوضع في الفترة التي سبقت فشلها الدراسي.

وتلاحظ كلّ من كلير، وموربيل، ونادين «بأن طلاب العلمي يُخصّون بالتقدير»، وأن «الطلبة المتفوّقين، على أي حال، يوضعون في الفرع العلمي دون سواه». لكنهن عندما يستعرضن تدهور علاقتهن بالأساتذة في الأول الثانوي، ينسبن هذا إلى تغيّر طبيعة العالم المدرسي وليس إلى تراجع مستواهن في العالمين المتعاقبين، الإعدادي والثانوي، فهناك: في الإعدادية كانت «روح التضامن» أكبر وأقوى وكان هناك دائماً «أستاذ يقف وراء الطالب ويشجّعه» وأما في الثانوية فيكتشفن منطق الانتقاء والفرز، بالإضافة إلى «تجريم» الطالب وإشعاره بالذنب، ومن ثم «عزله»، مما يؤدّي، مع الفشل الدراسي، إلى تعريض الطالب لخطر «التحطّم».

ولم يخطر لهن أبداً البحث في ما إذا كانت هذه المشاكل قد عانى منها أيضاً طلبة مدارسهن الإعدادية القديمة مثلما عانين تماماً (فهذا ما لاحظته عندما سألتهن حول هذه النقطة بعد انتهاء الحديث المسجّل)، وأعتقد شخصياً، حسب انطباعي، أن استشهادهن بالعالم الدراسي السابق الجميل والجيّد هو الشرط الضروري لتتوفرّ عندهنّ إمكانية التعبير عن الاستنكار وانتقاد دنيا التعليم الثانوي. ومن الملاحظ بالفعل أن قابلية الاستنكار تتبدّد بسرعة: فتجنباً لجلب المتاعب لنفسه على المدى القصير، لا يكون عموماً أمام الطالب الغارق في مستوى سيّء من خيارٍ آخر ضمن الحالة الراهنة للطواقم المدرسية، إلا تبني سلوكيات (إخفاء صعوباته، النقل عن المتفوّقين) تحول بسرعة بينه وبين أن يشعر أن من حقّه انتقاد نقص المساعدة والتقدير بخصوص مستواه. وأما كلير، وموريبل، ونادين فهنّ في وضع يسمح لهن باستهجان الفكرة السائدة وهي «أولئك الذين لا ينجحون في مماشاة المستوى الدراسي، فلجهنّم» أو ما قلنه بحق «بمجرد أن يفشل المرء في أمر يصبح هو المذنب»، فهنّ كنّ يُعتبرن قبل ذلك من بين الطلاب المثاليين، ويؤمنّ بمدرسة تعرف كيف تمدّ يد المساعدة للطلاب الذين يعانون من بعض الصعوبات.

لقد نشطت كلير، وموريبل، ونادين في حركة طلبة الثانوي لخريف 1990 التي، دون أن تعبرّ دائماً عنه صراحةً، تشير إلى ذلك التناقض في نظام يتيح لعدد متزايد باستمرار من الطلاب الوصول إلى المدرسة الثانوية، مع توجيه غالبيتهم إلى فروع مجردّة من القيمة. علاوة على ذلك، يعلّل هذا النظام جميع هذه التوجيهات المتضاربة مع الأمنيات الأساسية بعدم كفاية المستويات المدرسية، في الوقت الذي لا يؤمّن فيه «شروط العمل» الجيّدة، ويُضطر الكثير من الطلبة للبحث عن العون خارج الثانوية، ذلك العون الذي لا تخطط له الطواقم الدراسية ولا تعيره أدنى اهتمام.

لقد استندت السياسة الوطنية للتعليم على تأخير عملية الانتقاء والفرز، وبدأ التطبيق المتسارع لهذه السياسة منذ خمس أو ست سنوات،

وهي سياسة تُحدث، فيما يبدو، لدى الكثير من الطلبة تقديراً لإمكانياتهم وآمالهم مختلفاً عمّا كان ينجم فيما مضى عن التوجيه انطلاقاً من الفشل في المدرسة الابتدائية. ونرى على وجه الخصوص في المدارس ذات المستوى الشعبي، حيث الانتقاء أبكر وأشد كثافة، أن الطلبة الذين قد يعترفون تدريجياً بـ «ضعف» مستواهم عن طريق إقصاء الأكثر ضعفاً في التقديرات الدراسية، يستمّرون أكثر فأكثر بتقدير وسط أو جيد. وهذا التطوّر منشؤه التدابير والضغوط الإدارية أكثر مما منشؤه إعطاء الفرص المتكافئة لتلبية متطلبات المدرسة الثانوية، وهو ما يكشفه تواتر وكثافة «الرسوب في الأول الثانوي». لكن طلبة الثانوي أولئك، بعد أن اعتادوا على تصنيف أنفسهم بتقدير «وسط»، بات من الصعب عليهم تحميل أنفسهم المسؤولية الكاملة في الفشل (بالنسبة لآمالهم) الذي يصيب عدداً لا بأس به منهم، في عمر يكونون فيه أميَل إلى المواجهة بانتقاد ولوم الظروف التي فُرضت عليهم.

على أن سياسة تعميم الوصول إلى مستوى البكالوريا لم تصل بعد حتى إلى منتصف الشوط، فهي استوعبت 30% من جيل الشباب لحظة البدء فيها وتخطط لنسبة 80% في عام 2000. فإذا ما استمرت قائمة على ما هي عليه من خفض عتبة التشدّد في بداية الدراسة في المدارس التي تضم أبناء الطبقات الشعبية، ومن إنكار تجاهل التفاوتات الاجتماعية التي من شأن الحالة الراهنة للنظام التعليمي ترسيخها وإطالة أمدها، فيمكننا توقّع ازدياد وتفاقم التناقضات التي عرضناها. وبما أن التوجيه إلى الفروع المختلفة عن طريق الفشل لم يعد مبكراً ومقسماً كالسابق، فإنه سوف يجعل المزيد من الطلبة، مثل كلير، وموريبل، ونادين، قادرين على التنديد بشروط فشلهم.

مع ثلاث طالبات ثانوي في ضواحي باريس

حديث بإدارة سيلفان بروكوليشي

«في الثانوية، لا يقيمون لنا أي اعتبار»

ميريل: أنا، تعود إلى ذاكرتي قصة، فعندما كنت في الابتدائي، في مدرسة، مدرسة حديثة، تجريبية.. يعني، فعلاً، كنا مسرورين بالذهاب إلى المدرسة. وعندما لا يكون لدينا دوام في المدرسة، يوم الأحد، كنا نضجر (..). ثم وصلت إلى الإعدادية..

❖ أي إعدادية؟

ميريل: إعدادية فيرلين {كانت سابقاً ملحقةً بثانوية فيرلين}. كانت كبيرة، كانت قاتمة، كانت ضخمة، لم يكن فيها شيء يعني، كانت باردة، كانت باردة جداً.. بل إن الأمر كان شديد الصعوبة.. في الابتدائي، كنا نعيش جميعاً معاً، كنا نعرف بعضنا جميعاً. كانت لطيفة، وكنا نتحدث مع المعلّمين دون كلفة، كانت فعلاً ما يشبه الأسرة.. ثم وصلنا هناك.. لا أعلم، الثانوية أكبر مرّتين من الإعدادية، لكن الإعدادية كانت من نوع 600 طالب وطالبة {في الواقع أكثر من 1000}. لا أحد يعرف أحداً (..) ندخل ونخرج.. هي مثل مصنع، لم تعد بيتاً. لهذا فيما بعد، عند وصولنا إلى الثانوية، رأينا ما هو أسوأ أيضاً.. فحين نخرج من حصّة درسية، لا يكون لدينا وقت حتى للنقاش في ما بيننا، فإذا أردنا البقاء للمناقشة دقيقتين، يكون هذا أحياناً

على حساب الحصّة اللاحقة.. ثم، صفوفنا مزدحمة، فنحن 35.. أحياناً لا نعرف أسماء الجميع في الصف. هذا بارد، يعني!

نادين: أنا، ما شعرت بهذا إلا عند الوصول إلى الثانوية؛ في الإعدادية، كان الحال تمام (..) كان هناك مشكلة الصفوف المزدحمة، البناء العتيق، لكن هذه قضية مختلفة.. أنا أجد في هذه الثانوية توتراً مستمراً، لم أكن أشعر به أبداً في الإعدادية. وهذا يزيد من حسرتي على الإعدادية، ولكني لن أتحسّر يوماً على الثانوية. ما أرغب فيه، هو أن أرحل بعيداً عنها.. هكذا كان شعوري عندما وصلت: توتّر دائم. وغالباً ما يحصل أن أجد نفسي مضطرة لتناول مهدّئات قبل المجيء إلى المدرسة، وأشياء من هذا القبيل.. أو مساءً كي أنام.. يعني، منذ سنتي الأولى في الصف العاشر، أصابني أرق لا يطاق. لا أدري، الجو العام، نوع من عدم التواصل..

ليس لنا الحق في الخطأ

موريل: أعتقد أيضاً بوجود لعبة، هه، يعني الراشدين يدفعوننا دفعاً لنُصاب هكذا بالتوتّر، لأن الأول الثانوي، صحيح، فكرة الجميع فيه، الذهاب منه إلى الطريق الملكي.. هو الطريق العلمي. ويضعون هدفاً أن على الجميع الذهاب إليه، وأن الجميع قادرون على الذهاب إليه.. أمّا الذين يقصّرون، فلجهنم.. عليهم ألاّ يقصّروا، إيه! فإذا كان هذا لا يشغلهم، إيه، فهذا لتعاستهم، لأنهم يجب أن يتوجّهوا مثل الآخرين.. ولهذا، فنحن متوترون باستمرار، ولدينا شغل فوق الرأس، هذا جهنميّ.. ننام لا همّ في أي ساعة وذلك كي ندرس. فإذا «فطسنا» يوماً ولم نستطع أن ندرس، يمكن أن نتخلف عن كلّ شيء أن نخسر الفصل بأكمله. {نادين تؤيد} لأنني فقط مرضت.. (أصابني «كريب» في السنة الماضية، وقد «تعثّرت» به مرّتين على التوالي، بفاصل أسبوع، في كانون الأول)، لم أستطع متابعة برنامج الفيزياء حتى نهاية السنة.. وكانوا قد بدأوا بالكيمياء.. ولم أكن قد درستها سابقاً بالمرّة، فلم أفهم شيئاً طيلة السنة.

نادين: ثم هناك تجريم الطالب وإشعاره بالذنب.. فبمجرد الفشل في

شيء، يصبح الطالب مذنباً، يعني. مجرّد الخروج يخلق مشاكل.. عند الأساتذة أفكار أجدها أحياناً مخيفة.. مجرّد الخروج يخلق مشاكل.. يحق للطالب أن يغيب فقط عندما يكون مريضاً.. فهم لا يأخذون أبداً أي اعتبار لحالتنا النفسية.. في السنة الماضية كان عندنا مدرّسة مات لها شخص من عائلتها، أحد أقاربها، وبالتالي ظلّت متغيّبة لمدة أسبوع. وأنا أجد أن هذا مفهوم. في الوقت نفسه، بعد فترة، عندنا طالبة مات لها صديق قريب جداً منها، قُتل بحادث على دراجة نارية.. فما قولك، بأنها لم تستطع أن تعبّر عن هذا. تغيبت عن المدرسة لمدة أسبوع وأكثر، وكان ردّ فعل تلك المدرّسة نفسها هو، «نعم، هي حتى ليست مريضة، وأنا رأيتها ذاك اليوم في الشارع.. هي تتغيب عن المدرسة، لكنها ليست مريضة». أحياناً، انطباعنا أنه لا يحق لنا أن نخطئ. لا يحقّ لنا أن يكون لنا نحن أيضاً..

موريل: حالاتنا النفسية. (..) مرّات، نتمنّى لو نقول لهم، لكن لا اعتبار لنا بشأن.. عندنا فعلاً الانطباع بأن.. يدخل الأستاذ، فهو الربّ، يعني، وعلينا أن نصغي.. بالتأكيد، ليس جميع الأساتذة هكذا، لكن كثيرين منهم هم من هذا النوع. بمجرد أن ينهي درسه، يخرج، ولا يكلّم أبداً أي طالب خارج الصف.

نادين: باستثناء بعضهم الذين يأتون من تلقاء أنفسهم، لكنهم نادرون.. من الصعب الذهاب لرؤية أستاذ وأن نقول له: طيب، أنا تغيبت عن المدرسة، ولكن هذا سببه أنني لم أكن بخير.. في رأسي شيء يشغلني.. فهذا صعب جداً.

❖ هذا صعب جداً، لدرجة لا تسمح بالقيام بالتجربة؟

❖ لا (الثلاث بصوت واحد).

موريل: في الحقيقة كما لو أننا في خوف من الفشل مباشرة، يعني. عندنا انطباع.. نعلم.. عندنا انطباع أننا نعلم سلفاً، أن الأمر، في جميع الأحوال، لن يفلح. ولذلك لا نقوم حتى بالتجربة، يعني. في الحدّ الأدنى، سوف يُنظر إلينا على أننا مهرّجات صغيرات- «لكن هذا سبب وجيه لعدم

الذهاب إلى الدروس، هه..»- كما لو كان ممّا يسرّنا عدم الذهاب إلى الدروس.

نادين: أنا لا أفهم لماذا هم.. عندما حصل معي هذا وتغيبتُ وتأخرت في فروض مدرسية كثيرة، ذهبت لأرى المشرفات التربويات والأساتذة، فوبخوني. كان انطباعي الفعلي أنني في نظرهم، كنت مجرّد مهرّجة صغيرة وأنني غير مبالية إطلاقاً بمستقبلي.. علماً أن هذا غير صحيح. فعندما أتغيب عن أحد الدروس، يشغلني هذا ويخيفني.. يشغلني لأن الأمر يتعلق بمستقبلي . لا حاجة لهم كي يقولوا لي هذا. عندما أقصّر في درس بالتغيّب عنه، يسيطر عليّ توتر شديد إلى أن أنجح في تعليل غيابي عن تلك الحصّة أو استدراك ما فاتني.. مرّات، انطباعنا أنهم يعتبروننا أطفالاً صغاراً لا يدركون أن مستقبلهم في الميزان (..)

❖ وأنتِ يا كلير، شعوركِ مشابه أم لا؟

كلير: العلاقات مع الأساتذة ليست.. يعني الأساتذة هم.. نحن نذهب إلى الدروس، ونجتهد. لكن لا توجد علاقة..

❖ حتى في حال وجود مشكلة استثنائية، أليس عندك الانطباع أن بالإمكان إفهامهم هذا؟

كلير: لا، يعني.. أنا لست هنا من فترة طويلة، لكن ليس عندي انطباع بإمكانية مقابلة أستاذ والحديث معه.

❖ وفي الإعدادية؟

كلير: في الإعدادية، كنا مثل أسرة صغيرة.. كل الناس يعرفون بعضهم. والأساتذة يعرفون من تكون. فهناك دائماً أستاذ يقف وراءك ويشجّعك (..).

التقدير يخصّون به جماعة الفرع العلمي

❖ في الأول الثانوي، يُشعركنّ الأساتذة بوجود هدف وحيد، الحادي

عشـر العلمـي S، وفـي الوقـت نفسـه، مـن أجـل الوصـول إليـه تلاحظـن أنـه يقتضي بذل جهد فائق، إذن، في هذا نوع من الضغط..

موريبل: والصحيح أننا أحياناً لا نرغب في هذا.

❖ عندما لا يرغب الطالب في هذا، يمكن الافتراض أن توتّره سوف يصبح أقلّ..

موريبل: آه، لا، بالمرّة!

نادين: يصبح الطـالب موضـع عـدم التقديـر إلـى درجـة كبـيرة.. فـالتقدير يخصّـون بـه جماعـة الفـرع العلمـي. فـي سـنتي الثانيـة بـالصف العاشر، كنت قد اتخذت قراري الثابت. كنت أريد البكالوريا A، وفي المواد الأدبية، كانت أحوالي عال العال. لكنهم أعطوني تقديرات سيئة لأنني كنت مقصّرة في المواد العلمية. أنا، قلت لجهنّم.. يعني، أنا أحب الرياضيات، والفيزياء. بصدق، وكنت أتابع. لكن ما كان يشغفني هو المواد الأدبية، فكانت علامـاتي جيـدة فيـها، لكـنّ التقديـرات لـم تكـن جيّـدة. عندمـا لا تكـون التقديرات متناسـبة مـع العلامـة، فـهذا يسـبّب صدمـة. عندمـا لا يقـدّرون جهودك بشـأن مـا تريـد أنـت أن تختـاره.. عـلاوة علـى هـذا، أنـت تعلـم أنـهم يستطيعون جعلك ترسب لأسباب لا علاقة لها بذلك.

❖ من المحيّر أن يدخل أساتذة المواد غير العلمية في هذه اللعبة..

موريبل: هذه مشكلة لأنهم الآن في الفرع العلمي، لا يضعون الطلاب دائماً على أساس تفوّقهم في الرياضيات، في الفيزياء، في العلوم الطبيعية.. يمكن أن يكون تقديرهم «وسط» في تلك المواد. لكنهم يقدّرون أن الطلاب في العلمي سوف يجتهدون وخيرة الطلاب في النهاية لا يضعونهم إلاّ في العلمـي. فخـيرة الطـلاب فـي مـادة اللغـة الفرنسـية، يجعلونـهم يكدحـون مثـل المرضى في الرياضيات.

❖ يدفعونهم..

موريبل: بـالضبط. فأنـا كـانت عـلامـاتي ممتـازة فـي اللغـة الفرنسـية-

وفي الرياضيات، في الفصل الأول، ثم لأنها كانت لا تشوّقني كثيراً فلم أعد أدرس كثيراً، وبالتالي أصبح تقديري وسط، وسط جداً- فأستاذ الرياضيات في نهاية الفصل الأول، جاء ليراني وقال لي، «بالنظر لعلاماتك في المواد الأخرى. عليكِ أن تحصلي على علامتين إضافيتين في الرياضيات، وسوف أجعلك مقبولة في الفرع العلمي ». لا، لم يكن في هذا أي تشويق لي. وقال لي، «نعم، ولكن أفضل الطلاب يُقبلون في الفرع العلمي S ».. «لا، هذا لا أجد فيه متعة. وأنا لا أرغب أن أهلك في السنة القادمة للنجاح في الرياضيات والفيزياء، أنا أفضّل أن أدرس حسب رغبتي». وقد بدا لي مندهشاً، هه.

نادين: آه نعم، عندما نقول هذا للأساتذة، تأتيهم الدهشة، هه! (..) أعلم أننا في عامي الأول في الصف العاشر، كنا في معظمنا نرغب في الفروع الأدبية، A1، A2، A3؛ وكان عندنا أساتذة في المواد العلمية، من خيرة الأساتذة، إلا أنهم لم يهتموا بنا أبداً، وكانوا في مواجهة عدوانية مستمّرة معنا طيلة السنة. فمنذ اليوم الأول، قالوا لنا، «أنتم اخترتم دراسة ثلاث لغات، فنحن لا نحبكم.. أنتم لا تحبّوننا، ونحن لا نحبّكم»، بالخط العريض، هذا كان خطابهم. بالمقابل، من جانب الأساتذة، لنقل الأقرب إلى المواد الأدبية، كانت الأمور أفضل. وفي عامي الثاني في الصف العاشر، كان نصيبي أن أقع في صف معظم طلاّبه مقبولون في العلمي؛ وكان أستاذ اللغة الفرنسية، باعتراف الإدارة، غير كفء للتعليم (..).

كلير: أنا، في بداية العام الدراسي، اخترت لغة ثالثة. كنت أريد دراسة البكالوريا A1، لكني كنت في الوقت نفسه أريد أن أدرس لغة ثالثة. فوضعوني دون أي تساهل في صف A2- A3 {الذي يعتبر مثل ملجأ للطلاب الضعاف في الرياضيات} . ففي بداية العام الدراسي، قالوا لنا، «طيب، نعلم أنكم غير جيّدين في الرياضيات، وأنكم لن تقدروا على النجاح فيها، لذلك لا نريد أن نركز عليها». هذا الأمر صدمني قليلاً، عندما قالوا لنا هذا من اليوم الأول..

❖ من اليوم الأول..؟

موربيل: آه نعم، من البداية! «ضربتك قتلتك»!

كلير: مبدئياً، الأول الثانوي، من المفروض أنه غير محدّد. (..) أنا لا أدري، لكن عندما يقولون لك، «أنت (عدم) في الرياضيات، لن نركز عليها».. {على إثر هذا، تمكنت كلير من تغيير صفها}.

{تتحسّر نادين على ضعف روح التضامن بين الطلبة، بالمقارنة مع ما سبق لها أن عرفته، خصوصاً في الإعدادية.}

نادين: بدأت تظهر لي مشاكل مع أهلي منذ وصولي إلى الثانوي، في السنة التي بدأت أتراجع فيها دراسياً. باستثناء العامين اللذين قضيتهما في الأولّ الثانوي، لم تكن لي بالفعل أبداً أي مشاكل مع أهلي؛ إيه، لكن في هذه السنة، أعلم أنهم بدأوا يأخذون بعين الاعتبار.. لم أكن معتادة إطلاقاً على اهتمامهم.. بعملي في المدرسة. نظراً لأنني كنت طالبة ممتازة، لم أكن معتادة إطلاقاً أن يهتموا ذلك الاهتمام الكبير بعملي، عدا عن أنه خلق منازعات في العائلة.. منازعات حقيقية، فعلاً!

موربيل: {مقاطعة نادين} علاوة على ذلك نشعر بحرمان كبير، بتوتّر شديد طيلة الأسبوع، فنصل إلى يوم السبت وقد فقدنا رغبتنا في كل شيء. نرغب في النوم، المشاوير، التسلية، زيارة الأصحاب، عدم النوم طيلة ليلة السبت، أن نفعل أي شيء لا على التعيين.. والأهل، يجن جنونهم، يعني! في الوقت نفسه، لا يستطيعون منعنا من هذا، لأنهم يعلمون إذا لم نفرح قليلاً، طيب،.. يعني، فلن نتابع الدراسة. لن يعود بإمكاننا ملاحقة الدروس، يعني. في الوقت نفسه، إذا تسلّينا، فقد نجد صعوبة في تحصيل الدروس. إذن..

دائماً المدرسة، المدرسة، المدرسة

نادين: هناك أمرٌ آخر في هذا النزاع. فاعتباراً من اللحظة التي بدأ أهلي يهتمون تحديداً في الأول الثانوي بعملي لأنني بدأت بـ.. كانوا يرون العلامات تنزل، وتنزل كثيراً! فلم يكن من نقاش في البيت إلا عن المدرسة!

ما كان بإمكانهم الحديث عن أي شيء آخر! دائماً المدرسة، المدرسة، المدرسة.. وهذه المادة؟ وتلك المادة ؟ أما أمي، التي لديها رغبة ملحّة أن أكون في البكالوريا S فما كان من همّ لها إلا الرياضيات. كنت أقول لها: - «علامتي 20/15 في اللغة الفرنسية.» - «والرياضيات؟.. والرياضيات؟» الـ15 في اللغة الفرنسية تلقى في المهملات. فهذه كانت الحالة، ودون توقّف. و.. في بعض اللحظات أتذكر أنني بدأت أتساءل بيني وبين نفسي، فماذا أكون بالنسبة لهم؟ (..) كانت أوقات.. كان هذا صعباً، صعب فعلاً، يعني. تشاجرنا كثيراً. ومن بعدها، عدنا للحديث في الموضوع (..) فبالنسبة لأمي، «مشي الحال»؛ لكن الأسطوانة كانت تعود عندما تنزل العلامات، لكن مشي الحال إلى حدٍّ كبير. على أي حال، فقد كان الوضع قاسياً فعلاً في العامين اللذين أمضيتهما في الصف العاشر!

❖ وهناك أوقات يقع الضغط نفسه من جانب الأساتذة ومن جانب الأهل؟

نادين: نعم. لكن أعتقد أن التوتّر الكبير هو ما عانى منه أهلي بسبب دراستي، ثم بسبب دراسة أخي. توتّرهما كبير جداً! يعني، أمي على وجه الخصوص. التوتّر، لا أدري ليس هو دائماً الشيء نفسه، لكن، أعتقد: هو توتّر شديد جداً.

موربيل: والأهل أيضاً يتوتّرون، بشكل كبير، لأن.. طيب، نحن نعلم مثلهم تماماً أن مصيرنا في كفة الميزان، مستقبلنا معرّض للخطر. بالتأكيد هم مهتمّون مثلنا بمستقبلنا. لكنهم ربما يرونه ليس من وجهة نظرنا، لأنهم هم يعيشون المستقبل. يعيشون مستقبلهم. نحن لم نصل بعد إلى مستقبلنا فربّما كان يمكنهم، يعني، في ظنّهم أننا نستطيع تجنب بعض الأمور والأخطاء التي ارتكبوها هم أنفسهم. وفي الوقت نفسه، وبالنسبة لهم، من الصعب تقديم النصائح إلينا، لأننا لن نستمع إليهم {ضحكة}. يعني، لا توجد عندنا رغبة كبيرة في الاستماع إليهم.. {تؤيّد نادين}. لأنهم، طيب، يكونون قد أتخمونا بالمواعظ في الصف.

[...]

موربيل: على أي حال، كنت أقول لنفسي، أنا، إنني كنت أعلم ما أريد دراسته، وأنه ينبغي أن أعتاد على هذه الضغوط، لا بل أن أتجاهلها. (..) كنت أقول لنفسي، ما الفائدة في أن أدرس كالمجنونة لأكون في البكالوريا S بينما أنا لا رغبة لي فيها. يعني..

❖ أنتِ أيضاً كان أهلك يضغطون عليك لاختيار الـ S ؟

موربيل: لا،لا، (..) أظنّ هذا كان واضحاً من الأوّل. حتى عندما كنت في الإعدادية، وكنت طالبة جيّدة في الرياضيات، هه، لكن هذا ما كان يثير اهتمامي، يعني.

نادين: أمّا أنا، فأهلي لم يمارسوا أبداً أي ضغط مباشر عليّ.. ما قالوا لي أبداً «سوف تدرسين البكالوريا S وليس أي شيء آخر» (..) هذا غريب، لأنهم في السنة التي كانت الأسوأ بالنسبة لي (في عامي الأول في الصف العاشر)، لم، لم.. يزعجوني كثيراً، يعني، لنقل هذا. لكن تحديداً في عامي الثاني في الصف العاشر، عندما بدأت علاماتي تزيد قليلاً. ففي تلك السنة، حصل التوتّر النفسي! أما عند أمي فالأمر كان.. شيئاً لا يصدق! فبمجرّد أن ترتفع علامتي وسطياً في الرياضيات، تقول، «لعلّك تقدرين على اجتياز البكالوريا العلمي، S، أو ربّما يمكنك اجتياز الـ D..»

[...]

ادرسوا الفرع C!

كلير: هناك أيضاً نهفة مجنونة، يعني.. فأختي دخلت إلى مدرسة هنري الرابع {كانت في الصف التحضيري لمدرسة الوثائق}. حصلت على بكالوريا A1 بكالوريا أدبي و.. قصدي أن أقول: لم يدرسوا إطلاقاً الرياضيات والفيزياء، وما شابه (..)، أما ثلاثة أرباع الصف فدرسوا بكالوريا C: فأولئك هم الذين أخذوهم قبل غيرهم. (..) باقي شهادات البكالوريا كانت غير ذات قيمة على الإطلاق. ثم، أنا أرى أيضاً أساتذتنا،

فهم يقولون لنا، «ادرسوا الفرع C، ادرسوا الفرع C!». لأننا فيما بعد، إذا أردنا الرجوع إلى مدرسة، فالأفضلية هي هكذا، للحاصلين على الفرع C. هم يقولون لنا هذا على المكشوف، إذن..

مورييل: للدخول إلى الصف التحضيري لكلية الآداب، يفضل أن يكون الطالب معه بكالوريا C، إيه! فهذه «خريطة» لا مثيل لها!

نادين: يجب ألا يكون هناك سوى بكالوريا واحدة!

[...]

❖ في الأول الثانوي، هل تتذكرن نسبة الطلبة الذين كانوا يريدون، يحاولون الوصول إلى الفرع S؟

مورييل: أوه! نحن، كنا أربعة؛ من أصل 35 كنا أربعة نريد، من البداية، الانتقال إلى البكالوريا A1، (..) جميع الباقين كانوا يريدون الفرع S.

نادين: في البداية تماماً، في البداية تماماً، عندما وصلت إلى الثانوي، كنت أريد دراسة الفرع S. لكن لا أعلم، كنت أريد الانتساب إلى مدرسة للتصوير. ثم يعني، الآن زالت أوهامي. كنت قد قلت لنفسي، وما المانع ؟ كنت أدرس جيداً حتى ذلك التاريخ، حينها ما كان هذا يبدو لي.. ثم، يعني، بعد شهرين في الثانوي، قلت لنفسي، على أي حال، لن أصمد أبداً في دراسات كبيرة، ولا من أجل الوصول إلى الفرع C، وإذن، غيّرت رأيي.

كلير: ثلاثة أرباع الصف يريدون الفرع S. (..) أنا على أي حال، لم أكن أريد الفرع، لأن الرياضيات تُرعبني فعلاً.

[...]

نادين: طيلة سنوات دراستي في الإعدادي، كنت دائماً على تفاهم ووفاق مع الأساتذة. فتلك السنة، في الثانوي، «علقت» مع كل الناس، دون استثناء.. كانت النهفة الغريبة فعلاً أنني حتى نهاية الإعدادي كنت طالبة جيّدة. وكانت الأمور كأنها قائمة على: يعني، لا يمكن أن يحصل معي.. الفشل الدراسي لا يمكن أن يحصل معي. ومن طرف ثان، فالصحيح أن الأول الثانوي صعب، ومن الطبيعي أن أرسب وأعيد صفّي. أخي كان قد

رسب وأعاده. (..) الموضوع، ربّما أن أمي ، دون إرادتها، يعني، فعلاً دون إرادتها، فهذا ما أشعر به في العديد من.. غالباً عندما نتبادل الحديث، لا يظهر عليها أنها تفتقر إلى الثقة بي.. لكن، إيه، لنقل لها ثقة بأخي أكثر مما هي واثقة بي. ومنذ بداية الثانوي، أذكر أنها قالت لي- ولم يكن هذا بقصد الإساءة، على العكس كانت تريد طمأنتي-، «على أي حال، إذا أعدت صفك فليس هذا خطيراً، أخوك قبلك رسب فيه وأعاده»، (..) يعني، عندما أفكر بهذا، (..) صحيح، كان هناك.. هناك نقص ثقة في الصف العاشر ذاك.. وهذا مصدره الأساتذة، ومصدره الإعدادية، ومصدره الأهل، يعني، بحيث تكون إعادة الصف الأول الثانوي والرسوب فيه أمراً طبيعياً، فنقص الثقة مصدره كل شيء. وهذا جعلني في الأول ثانوي ، غير شديدة التوتّر، بالفعل. أما في العام الثاني لدراستي للصف العاشر. فهنا التوتر الشديد!

❖ لكن، تحديداً، ألم تكن هناك إلى حدٍّ ما الفكرة بأن إعادة الصف، سوف تؤدي تلقائياً إلى تحسين المستوى؟ (..).

نادين: (..) بالنسبة لي، تقريباً كان الجميع يرسبون ويعيدون الأول الثانوي.. لكن الحقيقة، عدد كبير من أصحابي مرّوا بسلام. فوجدت نفسي في صف لا أعرف فيه أحداً على الإطلاق، (..) مع طلاب «يتشّقفون»، يشتغلون أصعب شغل. وكانت لي علاقات في هذا الصف، مع اثنتين فقط، أما الآخرون، فلم أتكلم معهم أبداً، كنت لا أتفاهم معهم بسهولة (..) عدا أنني كان يجب أن أرتّب أموري لأرتفع.. وبدأت أكتشف، أن كل ما يراه المرء جديد، حتى إن كان راسباً. كان عليّ أن أضبط نفسي بوتيرة عمل مناسبة. كان عليّ أن أرتفع بمستوى علاقاتي. كنت قد بدأت أفقد أصدقائي، فهذا حصل على البكالوريا، وهذا انتقل إلى الحادي عشر. إذن، حتى حين نلتقي خارج الدروس، فإن هذا الأمر يخلق فاصلاً ما. و.. يعني، لنقل إني نزلت من سماء أحلامي.. سنتي الثانية في الأول الثانوي قضيتها وأنا أسأل نفسي: ماذا أفعل هنا؟ خصوصاً أنني بالفعل أدركت أيضاً، أنه كان بإمكاني ألا أعيد سنتي (..).

من يتحطّم أولاً، لجهنّم

نادين: أغلب الأحيان، في الصفوف، لاحظت هذا. يعني هناك شلل، وهناك أشخاص انعزاليون، وعموماً فالعديد بينهم يتحطّمون..

❖ الأشخاص الانعزاليون يتحطّمون؟

❖ نعم {الثلاث بصوت واحد}

نادين: شعرت بهذا (..) في سنتي الثانية في الصف العاشر. لكني لاحظت وجود أشخاص، إما بمفردهم تماماً، أو مع صديق واحد فقط، وهم تحطموا؛ إما بالكامل فتركوا المدرسة، وإما في الحالات الأخطر، حيث قاموا بمحاولات انتحار. فعلى معرفتي- أنا منذ أربع سنوات في الثانوية-، أقول، على معرفتي، هناك خمسة أشخاص قاموا بمحاولات انتحار في الثانوية. وأجد أن هذا العدد ضخم. (..) والموضوع الأهم، عدد حالات المرض ذات المنشأ النفسي. عندي صاحبة توقّفت عن الدراسة، ولم ترجع منذ شهر ونصف. (..) وعندي صاحبة، وقعت في السنة الماضية في أطنان من الأمراض المختلفة، وكلّها، حرفياً، بسبب التوتّر النفسي (..) كانت في الصف الحادي عشر، وتكره بكالوريا اللغة الفرنسية.،. إيه، آه، لا يوجد ما هو أكثر من الأمراض الصغيرة التي لا تفسير لها.. أنا، كان «ينفر» جسمي، يتغطّى بالبثور..

[...]

❖ عندكن انطباع أنهم لم يخطُطوا لأي شيء بغية مساعدة من قد يواجه في لحظة من اللحظات بعض المصاعب.

[...]

نادين: هو إلى حدٍّ ما قانون البقاء للأقوى. فالذين لا يتحطّمون هم الذين ينجحون. كما هي الحال في الكلية الجامعية، فالذين لا يتحطّمون ولا ينهارون، يواتيهم الحظّ ليكونوا مجرّد 200 في المدرّج بدلاً من أن يكونوا 500. ومن يتحطّم أولاً، لجهنّم. الأقوى هم الذين يَصِلون..

❖ على الأقل ، يبدو لكنّ طبيعياً تقريباً ألاّ تكون هناك أمور مقرّرة للمساعدة، تنظيمات هيكلية للمساعدة..

نادين: لا يبدو لي هذا طبيعياً. هذا يبدو لي ضمن منطقهم هم، يعني. لأنهم سلفاً لديهم منطق الانتقاء والفرز. لديهم سلفاً منطق الفرز، منطق التثبيط.. لا أعلم إن كان التثبيط فعلاً في منطقهم، لكن، يعني.. نظراً لأنهم يريدون بأي ثمن إجراء الفرز والانتقاء، كي تكون عندهم ثانوية النخبة الخاصة بهم، وبكالوريا النخبة الخارجة من تحت أيديهم.. ثم، يعني.. أقصد.. لن يكون اهتمامهم مساعدتنا بحيث ينجح الجميع؛ فهم سلفاً يبدأون بتصفيتنا..

موريبل: هم يقيسون الظواهر الخارجية.. ليس لنا أن نطالبهم بالكثير!..

كانون أول 1990

سيلفان بروكوليشي، فرانسوان أوفرار

المسننات المتشابكة

منذ ما يقرب من ثلاثين سنة، كانت أكثر التغيّرات بروزاً في مجال المؤسّسات المدرسية الميل إلى التوحيد الشكلي (مدرسة إعدادية، مدرسة ثانوية للتعليم العام والفني) الذي أخفى في حقيقته عملية تمايز عميقة الأبعاد. فلم تختفِ الاختلافات القديمة المرتبطة بالأسس التنظيمية أو بأقدمية الأساتذة في التعليم الثانوي، لكنها دُمجت مع مجموعة تغيّرات مازالت تُبرز حدّة الاختلافات بين المؤسسات، خاصة بشأن التجميع غير المتكافئ لأكثر الطلبة فقراً من الناحية الثقافية، أي للمهيئين أكثر مما سواهم لـ «إثارة مشاكل» في المدرسة. واليوم، أصبحت ظروف ممارسة مهنة التعليم متباينة أكثر فأكثر وتزداد تبايناً يوماً بعد يوم كما أنها تتنوّع تنوعاً شديداً حسب المؤسّسات التعليمية المعنيّة.[1]

والأساتذة، خصوصاً منهم من كان يعلّم في أكثر المؤسّسات المدرسية تضرّراً، يزيد من معاناتهم للصعوبات التي تصادفهم كون النقص في معرفة أسباب ومصادر تلك الصعوبات يفسح المجال لاتهامهم بأنهم هم أنفسهم

---

[1] اهتمّت وسائط الإعلام باستقصاء ظاهرة «العنف في المدرسة» أو «الوجع التعليمي» وكان في إمكانها تقديم تفسيرات، فهي حيناً تقترح رؤية موحّدة لا تمايز فيها تخلط بين مهنة المعلّم وظروف الطلبة التي تخلق أقطاباً متعارضة: «جيد» / «سيء» (المدارس، الطلبة، المعلّمون، المدراء..) أو: «متوحش» / «متمدّن».

مسؤولون عن ذلك، وبالتالي لتحميليهم الذنب كله. فالمدرسة التي يُفترض فيها أعلى درجات العدالة في نقلها للمعلومات، تبدو هي الأخرى بعيدة عن فهم وتبيّن ما يحرفها عن مهامّها، حتى لتغيب كلياً الأسباب التي تجعل مهنة التعليم «مستحيلة» في بعض المدارس.

ضغط الطلب والاختيار الديماغوجي

لقد توسّعت وتكثفت عملية التمايز، على الأخص اعتباراً من أواسط الثمانينات، وكان من نتائجها تمركز المشاكل في بعض المؤسّسات التعليمية[2]. فالملحوظ أن إطالة سنيّ الدراسة بدءاً من الثمانينات جاء عقب عقد من السنين ضَعف فيه رفد التعليم الثانوي بالطلاب، خاصة الوصول إلى الأول ثانوي والحصول على البكالوريا العامّة. ولدى مقارنة أوراق امتحان دخول التلاميذ إلى الصف الأول إعدادي في 1973 وفي 1980، لاحظت الجهات الإدارية غياب «التحسّن الفعلي لمستوى التحصيل الدراسي لدى الفئات المدرسية كلها على حدّ سواء» (بعد أخذ المنشأ الاجتماعي وسن الدخول إلى الأول إعدادي بعين الاعتبار). «وإذا كان معدّل (الدخول إلى الثانوي) قد ارتفع خلال سبع سنوات من 41 إلى 46%، فهذا لأن الفئات المحظوظة، من أبناء الأطر وذوي المهن الحرّة، الذين دخلوا إلى الإعدادي في سنّ 11 سنة، هم أكثر حضوراً في الحلقة الثانوية في 1980، مما كانوا عليه في 1973»[3]. وبينما طلب القبول في دراسات أطول مدةً كان قد صار أقوى وأعمّ، استمرّ

---

[2] على المستوى الوطني العام والمستوى الجغرافي الأصغر (محافظة، مدينة)، تبيّن على حدٍّ سواء ترسيخ الاختلافات بين المؤسّسات التعليمية من وجهة نظر الانتماء الاجتماعي للطلبة. فقد تعمّقت، على سبيل المثال، التفاوتات بين المدارس الإعدادية بحسب نسبة الطلاب ذوي المنبت الشعبي، أو الطلاب المتقدّمين في السنّ، أو الطلبة الأجانب. ويتبيّن النموذج نفسه من التطور على مدى عشر سنوات، بين الإعداديات المصنّفة ZEP (مناطق دراسة ذات مشاكل) وبين الإعداديات الأخرى، وهو تطوّر يترافق مع تمركز أقوى للمعلّمين الشباب غير الحائزين على شهادة جامعية في أقلّ المؤسّسات حظوةً وانكدها حظاً.

[3] راجع «ملحق الخطّة» من أجل مستقبل «التربية الوطنية»، المنشور في مجلة «التربية والتأهيل»، عدد نيسان – حزيران 1988.

أداء النظام المدرسي بإنتاج التفاوتات القديمة نفسها في تحقيق النجاح الدراسي، وهي التفاوتات المحكومة بالتوجّهات الانتقائية ذاتها.

حيال هذا الأمر، فالهدف المحدّد على أساس «80% في عام 2000 في صفوف أعمار طلابها بمستوى البكالوريا» وسياسة نسبة 80% المطبّقة بدءاً من 1985، يمكن فهمهما على أنهما تعبير عن الرغبة في تلبية الطلب الاجتماعي المتزايد بقوة للوصول إلى مستويات دراسية أعلى، مع غضّ النظر أكثر فأكثر عن الأخذ برأي المعلّمين. أما قرارات توجيه الطلاب إلى الفروع فازدادت بعداً أكثر فأكثر عن التقدير الدراسي الذي تقرّره اللجان التربوية وفي الوقت نفسه يتعاظم ضغط الأهالي الذين يؤمّنون انتقال أبنائهم إلى الصف الأعلى، رغم رأي مجالس الصف. وهذا ما جعل نسبة الدخول إلى الصف الأخير في الحلقة الثانوية (من التعليم العام، والفنيّ، والمهني) ترتفع في شريحةٍ عمريةٍ معينة من 36% في عام 1985 إلى 58% في عام 1991، أي بزيادة 22 نقطةً في ست سنوات، مقابل 10 نقاط زيادة خلال الـ 15 سنة الماضية.

فوضى وتوتّرات

كان للنظام القديم على أقل تقدير بعض الانسجام، رغم ما فيه من قسوة وعنف الفرز التعليمي. فكان يعمّق ويثبّت الاختلافات (خاصة في امتلاك ناصية المعارف والميل نحو المدرسة) بفصله، منذ وقت مبكّر إلى هذا الحدّ أو ذاك، الطلبة القادرين على «متابعة الدراسات لفترة أطول» عن الذين كانت مواصفاتهم الدراسية والسلوكية «تبرهن» للأساتذة أنه ما عاد لهم مكان في الإعدادية أو في الثانوية: فيتم توجيه أولئك نحو الفرع «الفنّي» أو نحو «الحياة العملية» منذ سنّ الـ 16 سنة.

ضغط الأهالي

كان للطرق الحالية في ترفيع الطلبة نتائج أجلى ما فيها طابور المراجعين في مكتب المدير. فتلك، كما يُقال، أسواق القسطنطينية بالنسبة

للأهالي الذين يضغطون، يضغطون، يضغطون لقبول أبنائهم في الثانوي، إلى أن يضيق المدير ذرعاً بهم فيقول، «أوكي موافق على الترفيع». (..) ونحن في الإعدادية صرنا مجبرين على هذا. يمكننا فقط المناورة قليلاً حتى الآن بشأن الانتقال من نهاية الإعدادي إلى المرحلة الثانوية، لكن في جميع الأحوال، وأكثر فأكثر على جميع المستويات أصبحنا وجهاً لوجه مع طلبة دون مستوى الصف. فنحن، في الواقع، أمامنا خياران - وهنا تسير الأمور على هوى الميل والعاطفة- إما أن نبذل الجهد ونشدّ الطالب، إلخ، وإما أن نعلن بأن الكيل قد طفح، فنترك ذلك الطالب في زاويته ناعم البال، ما دام لا «يخرّينا» فوق ما يطاق؛ فإذا «خرّاها» وزاد، «خبطناه» وأكثرنا فـ«يخرّينا» أكثر وأكثر، وهكذا. ويظلّ الطالب هنا منتظراً والسنوات تمضي (..)

وقد اعتاد الأهالي في أيامنا هذه على مراجعة مدير المؤسّسة التعليمية وفهموا أنه يمكن أن يلين. وهكذا، كان توزيع وتشكيل الصفوف فيما مضى على عاتق الهيئة المدرسية، فما تتخذه من قرارات، مقبول حتماً. أمّا الآن فقد بات الأهالي يشعرون أن الضغط يمكن أن يحرك الأمور بالنسبة لتحديد فروع الدراسة، فيقولون لأنفسهم على الأرجح، «لماذا لا نجرّب حظّنا أيضاً في هذا..» (..)

ونظراً لأن القبول في مدرستنا موزّع مناصفة بين المجمّعات السكنية الكبيرة وبين الساكنين في أجنحة متفرّقة، ما تزال الإعدادية تقف على قدميها لأن لدينا تحديداً صغار يعملون ويجدّون (..) وفي الوقت نفسه، بالنسبة لنا وبالنسبة للصغار، هكذا يتمّ العمل عادةً. فمتى لا يعود لأولئك الصغار من وجود، لا يعود للإعدادية من وجود، وهذا أمر بدهي (..) وأهاليهم، بالتأكيد، هم الذين يمارسون الضغط دون توقّف، ولهذا السبب نستسلم للضغوط، مثلاً لتشكيل صفوف جيّدة، إلخ. (..) فهناك الأهل الذين يقولون، «إذا بنتي وضعت في الصف الفلاني، مع الأستاذ العلاّني، سوف أنقلها إلى الخاصة» (..) فعندما كانت القضية قضية حالات فردية، كان بالإمكان التصرّف. أما الآن فقد تزايد هذا الضغط واشتدّ، وأصبحنا حيال

أهـالي طلبـة متوسّطي الإمكانيـات إلـى أبعـد حـد، فـهؤلاء الأهـالي، إلـى هـذا الحدّ أو ذاك، يدوسون على الجميع، فهم يريدون أن يكون «حبيب الماما» في صفّ جيد.

(..) ولـهـذا، فـمـن جـانـب نتحـدّث عـن ضـرورة العمـل الجمـاعي، ومـن جانب آخر لدينا الزمـلاء الذيـن قرفـوا إلـى أقصـى حـد، فلسـان حـالـهم، «ما فائدة أن أشارك في اجتمـاع مـا دام القـرار النهائي هـو في يـد المديـر الذي سوف يتصرّف من بعد أن يكون قد (دبّر رأسه) مع الضغوط الواقعة عليه». وهكذا، لم يعد مجلس الصف يشعر أبداً بأن له أي نفع. (..)

لم تعد هنـاك قوانـين الآن، وهـو وضـع يتفـاقم يومـاً بعـد يوم؛ فـالأمور تجري كيفما اتفق، ويرفّـع الطـلاب منتقلين مـن صـف إلـى صـف كمـا لـو عـن طريق السحر، ولأنهم على أيّ حال ليس لديهم مكان آخر يذهبون إليه..

❖ {مقتطـف مـن حديـث مـع أسـتاذ رياضيـات يعلّم فـي إعداديـة فـي الضاحية الباريسية.}



مـع اعتمـاد الأسـلوب الجديد فـي إدارة الأفـواج المدرسـية، انقطـع كـل التوازن بـين ممارسـات التعليـم وبـين ممارسـات توجيه الطـلاب إلى الفـروع. وإذا أردنا فهم الآثار التي يتركها هذا الأسلوب لدى الطلبة وردود الفعل التي غالبـاً مـا يثيرهـا لـدى المعلّمين، لا بـدّ مـن أخـذ هـذه النقطـة الحاسـمة بعـين الاعتبـار، وهـي: لا يتيـح التنظيـم الحـالي لنظـام التعليـم أن يُقـدّم المعلمـون للطلبـة المسـاعدة الكثيفـة المتمـايزة تبعـاً لتبـاين الحـالات؛ علمـاً بـأن هـذه المسـاعدة تصبح لا غنـى عنهـا كلّمـا تزايـد عـدد الطلبـة المفتقريـن للرأسـمال الثقـافي، وهـم بالتـالي بحاجـة إلـى أن يتعلّمـوا أكـثر فـي المدرسـة. وهكـذا، فالاحتفاظ في المدرسة بالذين كانوا سيصيرون إلى «النبذ» منها في الماضي دون إيجـاد الظـروف المسـاعدة على القيام بعمـل تربوي فعّـال حيـال الطلبـة الذين زاد ارتباطهم بالمدرسة بغيـة اكتسـاب كل مـا تطالبـهم بـه، هـو أمـر مـن

شأنه خلق المصاعب من كل نوع وصنف ممّا هو قادر على الحطّ من ظروف عمل المعلّمين دون تحقيق التحسين الفعلي لمصير الطلبة. وهذا ما يجعلنا نفهم الآثار الخارجة عن السيطرة للسياسة الديماغوجية الخالصة، سياسة الـ 80%، حين تجعل العديد من المعلّمين يتحسّرون على النظام القديم. «أقوم بعملي، ولكني لست في المدرسة لكي أجتهد سعياً لرفع مستوى طلاب ما كان لهم أن يكونوا في الصف» وهذه العبارة تكاد تصبح مألوفة بين معلّمي الإعدادي والثانوي، في غرف الأساتذة. وكما كان متوقّعاً، تفاقمت المشاكل المرتبطة بالتواصل التربوي وبالعلاقات بين الطلبة والمعلّمين، وكان التفاقم أكبر حيث وُجدت تلك المشاكل أصلاً، أي في الإعداديات التي طلابها من منبت شعبي، وحيث كان التوجيه الانتقائي إلى حينه يُستخدم لتقليص التوتّرات والصعوبات المرتبطة بالعجز عن مواكبة المدرسة، وفي الثانويات المهنية التي تستقبل أقل الطلاب كفاءةً وأكبرهم سناً.

كان الاحتفاظ في الإعدادية حتى نهاية المرحلة بالطلبة «ذوي الصعوبات» يجري ضمن ظروف لا تتمّ فيها تسوية تلك الصعوبات رغم تزايدها، وقد أمكن ذلك بتوجيه التعليمات حول هذا الشأن إلى مدراء الإعداديات وبإلغاء تدريجي للصفوف التحضيرية للشهادات المهنية: CAP، وCPPN، وCPA.[4] لكن ما يزعج المعلمين ويخيّب أملهم ويبعث اليأس في نفوسهم، ليس فقط أن يتحملوا حتى سنٍّ قد يبدون فيها أكثر خطورة طلاباً يجعلهم «سلوكهم الجهنميّ»، أو «غياب الحافز» لديهم، أو «عجزهم الكامل عن الاستيعاب»، «لا يطاقون»، «ميؤوساً منهم» و«يبعثون على اليأس». بل يضاف إلى ذلك إضعاف صلاحية تقويم عمل الطلبة، وحفزهم على النشاطات المدرسية، وتوفير الحدّ الأدنى من احترام ومراعاة توجيهات

---

[4] تدل إحصائيات توجيه الطلاب إلى الفروع في كل مدرسة أن أكثر من ثلث طلبة معظم المدارس الإعدادية في المدن والأرياف ذات الجماهير الطلابية الشعبية، لم يكونوا يصلون إلى الثالث الإعدادي في أواسط الثمانينات. ونجد نسبة قريبة من 40% من عدم القبول في الثالث الإعدادي على المستوى الوطني العام فيما يخص الطلبة ذوي المنبت الشعبي، بينما نسبة 3% فقط من أبناء المعلّمين أو أبناء كبار الموظفين في تلك الحالة.

المعلّمين، حتى لدى أكثر الطلبة تقصيراً. لقد تحوّل الترفيع إلى الصف الأعلى غير مرتبط كما في الماضي، بعمل الطلبة واجتهادهم، فتولّد عند المعلّمين الشعور بأنهم خسروا ركناً أساسياً من أركان سلطتهم على بعض الطلبة، وباتوا يشعرون أنهم «عاجزون» حيال أقل الطلبة استعداداً لأداء النشاطات المدرسية المطلوبة في الوقت الذي تزداد فيه الوطأة النسبية لمثل هؤلاء الطلبة في كثير من الإعداديات.

مدرسة الفقراء

❖ انطباعنا الراسخ أن الأمور تسير نحو مزيد من السوء، وأن أولئك الأولاد يزدادون صعوبة إلى حدٍّ بعيد (..). وعندما أقول إلى مزيد من الصعوبة، فإنني أقصد من هذا صعوبة تشغيلهم، فهم يفتقرون إلى الحافز، في رأيي. انطباعنا أنهم يضجرون كثيراً.

❖ أنهم يضجرون، فتزداد سلبيتهم؟

❖ ليسوا بالضرورة أكثر سلبية، لا، يمكن ترجمة الأمر وفهمه بشكل آخر... من خلال العدوانية.. (..) أظن الشعب قد تغيّر.. أظن أن أبناء العمال المهاجرين قد ازداد عددهم، وأن الطلبة الجيّدين يزداد تركهم للمدرسة. إذاً، فنحن مدرسة الفقراء. وأكثر ما يخيفني، أن المدرسة الحكومية مآلها السريع أن تصبح مدرسة الفقراء.

ثم، لنكن صريحين، فأنا نفسي لم أسجّل أولادي في مدرسة ف.. فعندما كان ابني إيريك في الصف الخامس CM2، كنت أدرّس في صفّ للأول الإعدادي، وكانوا قد جمعوا فيه سبعة طلاب من أصحاب المشاكل. كانوا قد جمعوهم هناك حتى لا يزعجوا باقي الصفوف (دائماً يتصرّفون هكذا، إلى حدٍّ ما). فهذا ما حفزني على أن أقرر إرسال إيريك إلى باريس. ولست الوحيدة في تصرّفي في مدرسة ف. وهذا يفسّر كيف لم يعد لدينا في الصفوف سوى «الأذناب» (..)

على أنني هذه السنة، توفّقت بأول إعدادي جيد، والفرق بينه وبين

صف السنة الماضية كالفرق بين الليل والنهار. (..) في الصف الجيّد، إذا شئت، تمضي الأمور عفوياً. هي متعة حقيقية: فأنت هناك، ترى الحياة تنبض في صفك وتعيش معه، فهم الذين يقودونك إلى.. لا أدري، تقول أشياء، فتنطلق الأمور من تلقاء ذاتها! إذن، هذا ما يجري معي في الأول الإعدادي وأجد الأمر في غاية الروعة. في نهاية المرحلة الإعدادية، ليس عندي مشكلة انضباط في الصف، لكنهم بطيئون. لا بد من محاولة.. محاولة تحريكهم، لكن حتى هذا لا يمكن القيام به، لا أدري، هم.. لا بدّ من تجنّب إزعاجهم. فأنا حتى لا أعود معلّمة بل أحاول ألا أزعجهم. (..) وأقسى ما في الأمر أنني في بعض الأوقات أتساءل إن كانوا يحسنون أي شيء، وإن كنت أستطيع أن أقدّم إليهم أي شيء.. (..)

وهذا لا يعني أني أطالب بتوفّر مستوى الصف الأخير في المرحلة الإعدادية. فأنا بالفعل خفضت مطالبي منهم. (..) أعلم مع هذا أن بعضهم سوف يصبح في الثانوي، ولذلك، فهؤلاء، أحاول دفعهم أكثر، لكن في جميع الأحوال، لا أكثر من الذين لا يريدون ولا يتجاوبون، من البداية، فهم قرفون من المدرسة ويعلمون أنهم سوف يكتفون بشهادة التعليم المهني BEP فهم ينتظرون مرور الوقت..

❖ {مقتطف من حديث مع معلمة للغة الإنكليزية مثبتة منذ قرابة اثنتي عشرة سنة في الإعدادية (والإعدادية تصنيفها ZEP منذ سنتين) القريبة من مسكنها، في ضواحي باريس}.



من الاختبار المدرسي إلى اختبار القوة

ممّا لا شك فيه أن نتائج هذه التغيرّات ملموسةٌ أكثر في الثانويات المهنيّة. فتلك الشريحة الطلابية التي كانت في السابق تتقدّم إلى الشهادة المهنية BEP ، أصبحت تصبّ الآن في معظمها في المدرسة الثانوية. وكان

الطلبة في السابق يدخلون إلى الثانوية المهنية بأعمار تتراوح بين 14 أو 15 سنة، لكنهم الآن يتحولون إليها بأعمار 17 أو 18 سنة وخلفهم ماضٍ مدرسي مثقل بالحساسيّات، ولديهم بالتالي «حسابات يجب تصفيتها» مع المدرسة. هؤلاء الطلبة الذين احتفظت بهم الإعدادية لفترة طويلة في وضعية الفشل وما ينتج عنه من سلبية أو عنف، قد اكتسبوا سمات تجعل عمل معلّمي الثانوية المهنيّة أكثر صعوبة وأشدّ إثارةً للمعاناة.[5] والظروف العامة في المدرسة لا تتيح تأمين دور تعليمي فعلي، ولهذا يلاحظ ازدياد ظهور «رؤساء عصابات» يميلون إلى التحدي المكشوف للمعلمين، ويعملون على مضاعفة اختبارات القوة الجسدية التي تقوم بدور الثأر من المدرسة لدى أولئك الطلبة الذين حشرتهم المدرسة نفسها في خانة الفشل.

قانون السوق

ولقد تدعّمت هذه العملية، عملية التمايز بين المؤسّسات التعليمية وتمركز الصعوبات، المرتبطة بالاحتفاظ بالطلبة في الإعداديات ثم الثانويات، تدعّمت بإجراءات «لا مركزية» وإثارة التنافس بين المؤسسات التعليمية ممّا يولّد حلقات مفرغة جديدة. فالمؤسسات، في واقع الأمر، لديها هامش مناورة متزايد باستخدام وسائلها الخاصة. فهي قد تريد ويجب عليها التكيّف مع جمهورها الطّلابي، لكنها تهتمّ أيضاً بصورتها في السوق المحلّية وبالتأثير الذي تمارسه هذه الصورة على زبائنها الذين يمكن أن تجتذبهم أو أن تجعلهم يفرّون. وأمّا الوسائل التي تحت تصرّفها «بحريّة»، فهي محدودة، ولذلك عليها أن تحسم أمورها. كالاختيار، مثلاً بين

---

[5] رغم الالتباس الحاصل من استخداماتها المتعدّدة، فإن بعض المفردات مثل «فشل» أو «عدم تكيّف» مع المدرسة تفيد بالتذكير بأن أقلّ الطلبة شأناً، في الوضع الحالي للتجهيزات المدرسية، يوضعون دائماً بشكل منظم تحت خانة « انعدام الذكاء» في مواجهة النشاطات المدرسية (التي ينصرفون عنها ولا يبالون بها كل يوم أكثر من اليوم السابق): وهذا الوضع يفرض عليهم أحد خيارين، فإمّا القبول السلبي بمستواهم المتدنّي (حيال أولئك الذين يسمّونهم «الأدمغة»)، وإمّا محاولة إثبات الذات في ميادين أخرى كالعنف الجسدي (وهنا يفضّل الطالب «القاسي» على الطالب «الضعيف» مثلاً).

أمر له بريقه، مثل اللغة اليونانية، لتجنّب رحيل الطلبة إلى مدارس منافسة، وبين إجراء الغاية منه مساعدة الطلبة الذين يعانون من صعوبات. بهذه الطريقة، يمكن أن تنشأ أو توطّد تراتبية بين المؤسسات التعليمية التي تتوصل إلى تعريف نفسها بأنها «أقطابٌ بامتياز»، وتلك التي ليس لها تخصّص ممكن آخر (قليل الأهمية وغير مرغوب) سوى التعامل مع الطلاب الذين يعانون من الصعوبات.

وبينما كانت الاستقلالية تفترض تشجيع تكيّف المؤسسة التعليمية مع جمهورها، فإن ضغوط التنافس تحضّ، على العكس، تلك المؤسّسة على تجاوب مع الطلب فتعطي الأولوية لمنع حركة «تسرّب الطلبة الجيّدين» التي ترافق عادة ارتفاع نسبة الطلبة «ذوي المراس الصعب» (ويُحكم بأنهم أكثر عدداً مما يجب في هذه المرحلة من ضعف عملية الانتقاء). ونظراً لأن الأسرة المتمتّعة بإمكانيات اجتماعية ودراسية أفضل هي الأقدر على الاختيار لأبنائها مع الإدراك الكامل للتبعات وهي التي تستطيع تحقيق الاختيار الذي أرادته، فإن ضرورة «ملء» المؤسّسات التعليمية الأكثر معاناةً من التسرب ينتج عنها، بالتأكيد أكثر مما كان عليه الحال فيما مضى، أماكن «للنفي» تتجمّع فيها المشاكل وتتمركز.

وحتى في المحافظات التي ما تزال تشكّل وحدة مناطقية تعليمياً، كما هو الحال في محافظة فال- دو- مارن، يمكننا أن نعاين في معظم المدن تمايزاً متزايداً في الانتماء الاجتماعي للطلبة في الإعداديات، وهذا التمايز على ارتباط بعمليات التسرّب تلك. ولكن حركة التمايز تزداد حدّة وكثافة في القطاعات العمرانية غير الموحّدة تعليمياً فتكثر فيها الهجرة أو التسرّب، وهذا على ارتباط بمقولات «دعائية» أو بمقارنات غير أكيدة بين مؤسّسات متنافسة رغم تقاربها يتعلّق بها أولياء أمور الطلبة.[6]

---

[6] تبيّن البيانات عن تجارب تفكيك الوحدة المناطقية تعليمياً (في عام 1985 وعام 1987) أخطار بروز وتبلور التفاوتات الاجتماعية التي تؤدّي إليها تلك الإجراءات. على أن هذا لم يمنع التوسّع فيها، دون أي تقويم للعواقب: فشملت ما يقرب من نصف الإعداديات.

فما هو الحل الأسلم عموماً في نظر الأهالي من فئة اجتماعية محدّدة؟ ببساطة، الهرب من المدارس غير المرغوبة، والالتجاء إلى المدارس المرغوبة، وبالتالي فالأفكار السائدة لدى الغالبية العظمى عن وجود تفاوتات (غير مؤكدة أوّلياً) بين المؤسّسات التعليمية يدعمّ وجود الاختلافات ويزيد من تلك الاختلافات الأولية. وكما نعلم، فجودة المصنف المدرسي (ذاتية الطالب) مرتبطة بمنبته الاجتماعي، وهذه الذاتية المدرسية عنصر حاسم في فرص القبول للتسجيل في المؤسّسات العامة أو الخاصة. وهكذا نرى في القطاعات غير الموحّدة تعليمياً على أساس المنطقة أن ذاتية الطالب هي التي تجعل حرية اختيار المؤسّسة المدرسية حقيقية أو وهمية (وهمية عندما تقتصر على تقديم طلبات مرفوضة ليصار من بعدها إلى توجيه الطالب قسرياً إلى المؤسّسات غير المرغوبة على الإطلاق).

فهذه العملية الدائرية التي تبدّل تدريجياً الظنون إلى براهين قاطعة عندما يتجّمع في المدارس المغضوب عليها حشود الطلبة «ذوي المشاكل» من بعد رفضهم في المدارس المرغوبة، ينجم عنها في واقع الأمر ما يساوي الظاهرة التي يندّدون بها بالإجماع، ظاهرة «المجمّعات السكنية- الغيتّو»[7]. وهذا ما جرى في باريس، حيث ظهرت موجات رعب - آثارها أشدّ فتكاً من السبب الأوّلي غير اليقيني في ذلك الرعب - وانتشرت في العديد من الإعداديات، بل حتى في ثلاث ثانويات ذات ماض عريق مشرّف حيث أُعلنت بشكلٍ شبه رسمي «منكوبة» من وجهة نظر «هرب الطلبة الجيّدين» الذي أصيبت به بالإضافة إلى الهبوط الحادّ في نتائج الامتحانات بسبب هذه التسرّبات، وهذا الهبوط في حد ذاته سبب وجيه لعمليات هروب جديدة..[8]

---

[7] المؤسسات المدرسية ومكان السكن يشتركان في انهما يتحدّدان جزئياً من خلال الأهالي- الزبائن فيهما. وقد فاقمت التطورات الأخيرة هذه الظاهرة على مستوى جمهور المؤسّسات التعليمية: فالاختلافات التي هي أصلاً كبيرة بين سكان الحي، تزداد عمقاً بسبب الشروط الجديدة بـ«اختيار» المؤسسة التعليمية التي يُراد للطالب أن يتابع دراسته فيها.

[8] تبدو مصيبة هذه الثانويات مرتبطة بادئ الأمر بـ «سوء موقعها» جغرافياً في مدى المنافسة الباريسية، لأنها جميعاً تقع بين الأوتوستراد الخارجي والاتوستراد المحلّق.

تجريم وتحطيم معنويات

ويزيد من وطأة معاناة الأساتذة حيال تجميع الطلبة غير المهيّئين مدرسياً أن عملهم سيقابل بمزيد من العقوق: «لا أكثر من طلبات الاستقالة (..)؛ فنحن نبذل طاقة كبيرة جداً، أحياناً في سبيل لا شيء، وأحياناً في سبيل مردود بسيط جداً، فيقول واحدنا لنفسه: لا، هؤلاء لا أستطيع معهم أي شيء، يعني. (..) ومنهم، من أتركه وأهمله عن قصد.» وبدلاً من التساؤل حول طريقة أداء المدرسة لمعرفة ما يجعل مهنة المعلّم مستحيلة بالشكل المُرضي، تراهم، على العكس، يميلون إلى تحميل المعلّمين صعوبات ونواقص الطلبة الذين يتزايدون أكثر فأكثر مع تزايد إهمال عملية الاصطفاء الصحيح، وبالتالي: فهم أقلّ تمتّعاً بالخصائص الاجتماعية التي كانت «تسهّل» عملهم في الماضي. فعلى مستوى التعليمات الإدارية أولاً، لدينا التأكيد «بأن جميع الطلبة مدعوون للنجاح» (بُعيد تعميم الدخول إلى الأول إعدادي)، وترافق هذا مع الأوامر الموجّهة إلى المعلّمين (خاصة في عام 1985، ضمن التعليمات الموجهة إلى معلّمي الإعداديات) بـ «تحقيق التنويع والتباين الفردي في التعليم» بما يجعل من ذلك التغيير عملية تجريدية ذهنية. وزاد في الطين بلّة منذ سنوات قليلة التأكيد على «استقلالية المؤسّسة التعليمية» وهذا ما يلزم الطاقم التربوي المحلّي بحلّ المشاكل الناجمة في معظمها عن السياسة المركزية بصدد نسبة الـ «80%». إن معاناة الأساتذة أكبر بكثير مما هو ملحوظ رسمياً في تلك «التعليمات» المختلفة، وسواءً نسب المعلّمون المسؤولية لأنفسهم أم رأوا في كل هذا تنكّراً لهم، حقيقياً أو مفتعلاً من قِبَل أولئك الذين يفترض فيهم أن يتورّهم. فنصوص تلك التعليمات إنما تكشف في الحالتين مدى «البعد عن المثل الأعلى المنشود».

وبينما يقدّمون المدرسة والتأهيل بشكل منظّم على أنها أوليات وطنية، فإنّ التناقضات بين الرؤية الرسمية لنظام دراسي يؤمّن «النجاح للجميع» (أو «المساواة في الفرص»)، وبين التنفيذ الواقعي، تستمر بسهولة يزيد من وطأتها عدم الاعتراف بالقسم الأعظم من تلك الاختلافات.

والتحقيقات الإحصائية المتخصّصة في الاستدلال على أفواج الطلبة أو الاختلافات بين المعاهد أو بين المدارس، تترافق، دون أي اتصال متبادل، مع التحقيقات الأتنيّة الكاذبة التي تهمل النظر موضوعياً إلى الظروف المرتبطة بشكل منتظم ببروز مختلف أنماط المشاكل، وغياب مثل هذا الفهم الموضوعي من شأنه لا محال توجيه اللوم إلى الضحايا، مثلاً، بالحديث عن «إمكانيات والتزامات أصحاب العلاقة»،[9] وهكذا تقف موقف التعارض المانوي المدارس التي توجد فيها «إرادة الانطلاق إلى الأمام» والتي يتمّ فيها حتى «تأويل» التغيرات على أنها «فرصة» («فالمعنيّون لا يغريهم الانطواء رجوعاً إلى الماضي») والمدارس التي فيها «يحمل المعلّمون والإدارة على حدٍّ سواء نظرة سلبية إلى الطلبة ووجهات نظر متباينة بشأن الحلول الممكن تقديمها». فالتقليل من شأن الصعوبات أو نسبها لأولئك الذين يعانون منها، هو في حدّ ذاته إعاقة للفهم العميق لواقع مشاكل المؤسّسات التعليمية. وهو أيضاً مساهمة في التحطيم المعنوي لأولئك الذين تدهورت ظروف عملهم إلى حدٍّ كبير. والتأكيد على إطالة فترة الدراسة على حساب ظروف التعليم، بالإضافة إلى خلق التنافس الاعتباطي بين المدارس التي تواجه صعوبات شديدة التفاوت، هو، على الأرجح، ما ساهم مساهمة كبيرة في تمركز وتفاقم المشاكل حيث يُحشر العدد الأكبر من الطلبة المحرومين. لقد عانى نظام التعليم الأمرّين من غياب الإجراء الساعي إلى الوقوف في وجه آثار السياسات الديماغوجية غير المسؤولة، وهو اليوم في أزمة عميقة يلعب فيها التحطّم المعنوي للأساتذة دوراً مزدوجاً: فهو أثر من آثارها مثلما هو في الوقت نفسه أحد عواملها.

[9] هذه الأقوال بين معترضتين والأقوال اللاحقة مقتبسة من مقالة أوليفييه كوزان وجان فيليب غيومي، «تنوعات الكفاءات المدرسية وتأثيرات المدرسة» (المنشور عام 1992 في العدد 31 من مجلة «التربية والتأهيل») وقد تمركز البحث على إبراز تعارض فجّ بين الثانويات «الناهضة» والثانويات «الهابطة».

روزين كريستان

حياة مزدوجة

كنا نعتقد بأننا نعرف عنها كلّ شيء: أصلها الريفي، جدها الفلاّح وأبويها العاملين اللذين ذكرَتهما بسرعة، جوائز الامتياز التي حازت عليها في الثانوية، ثم دراستها للآداب في تولوز، وصعودها في باريس، وأخيراً الإعدادية في منطقة فال دواز Val-d'Oise وخمسة وعشرين عاماً من حياةٍ قضتها في التدريس في ضواحي باريس.

في لقاءٍ أوّل جرى في كانون الثاني 1991، تحدّثت عن حماسها في البدايات وعن نضالها كمدرّسةٍ شابّة، وعن توقّعاتها غير المحدودة أحياناً لما سيقدّمه طلاّبها، وأيضاً عن العُنف في بعض الأحيان، وعن نادي الفيديو، وعن الزملاء، وأولئك الذين ينهارون، وكللها الخاص؛ لقد تحدّثت عن نفسها، ووصفت نفسها بأنها «لا هي موظّفةٌ صغيرة مسترخية» ولا «الأم تيريزا»، وتحدثت أيضاً عن الانطباع الذي يلازمها بأنها «تقوم بعملٍ مقرف».

في ذلك الموعد الأول، حضرت فاني بصحبة إحدى صديقاتها، وهي مساعدةٌ قديمةٌ لمدير المدرسة التي تعمل فيها. لقد جعلتنا نراها بصورة طالبةٍ أكثر منها امرأةً في الثامنة والأربعين من عمرها بهيأتها وطريقة لباسها وشعرها الطويل الأشقر المجعد والكنزة العريضة المزدانة بالجاكار وحديثها الحيويّ نوعاً ما، والحيوية التي أبدتها لنا. جرى الحديث الذي تمّ

التحضير له من الطرفين في يوم أربعاء، وهو يوم عطلتها الوحيد، وكان ذلك في مكتبٍ من مكاتب دار العلوم الإنسانية. وخلال المحادثات العديدة السابقة للمقابلة، سألت فاني عدة مرات عن عملنا قبل أن توافق على الإجابة عن أسئلتنا، وذلك بسبب مزاجها القلق والمرهف. صحيحٌ أننا كنا نعرف العديد من المدرسين المصابين «بانحراف المزاج الخاص بالمدرسين» وكنا قد سألناهم في السابق، لكنّ فاني كانت تتحدّث بتركيزٍ وحساسية عن إعداديتها الكائنة في منطقة فال دواز Val-d'Oise التي تضمّ في رحابها سبعمائة طالب من أبناء الموظفين والكوادر الذين هم في طريق الصعود نحو ملكية منازل مستقلة، وهي تدرّس في هذه الإعدادية منذ حوالى عشر سنوات. وقد استطاعت في ذلك اليوم أن تحيي لنا عدة مراتٍ يوميات تلك الإعدادية، من المدير الذي «يريد أن يمتدحه الآخرون»، إلى الزملاء الذين يراكمون حالات الانهيار والإجازات المرَضية، إلى «الأولاد الذين يلحّون عليها» ليمارسوا نشاط الفيديو.

كما أنّ فاني عرفت أيضاً كيف تعبّر عن فقدانها للحماس، لكن دون أن تذهب مع ذلك إلى أن تنكر ذاتها أو أن تحطّ من شأن ذاتها. لقد شكّلت صورةً نموذجية بالنسبة لنا كانت تذهب إلى عمق الأشياء كما بدا لنا. إلاّ أنه لم يُذكر أمام المسجّلة سوى الحياة المهنية لفاني، كما لو أنّ الديكور غير الشخصيّ والموقع الرسمي للمقابلة قد حجبا نوعاً من الألفة الوليدة التي هي طبيعيةٌ نوعاً ما بين النساء اللواتي ينتمين إلى جيلٍ واحد، واللواتي يجمع بينهنّ عددٌ من المراجع والمعتقدات، إن لم يكن نمط الحياة ذاته.

فيما بعد، ولدى إعادة قراءة الكلام المسجّل الخالي من كل ما عرفناه «خارج اللقاء»، تلاشت فاني، التي ربما كانت تمثّل أكثر مما ينبغي انحراف المزاج المنتشر والذي كتب عنه لدرجة أنه فقد واقعيته، واختبأت خلف العبارات العادية التي تنطبق على كثيرين غيرها، وعلى مهنةٍ بأكملها. لم نعترف بذلك في بداية الأمر، ثم اكتشفنا فيما بعد شيئاً فشيئاً بانفتاحٍ أكبر أننا قد خدعنا أنفسنا بأنفسنا على نحوٍ ما حين سررنا بالحصول على

صورةٍ جميلة، وأننا توقفنا عند ظاهر الأشياء. إلاّ أنّه كانت تبزغ من بين السطور بعض الملاحظات الصغيرة التي لم تُقل، والمرئية بالكاد، وكأنها نداءاتٌ تستجرّ الأسئلة: لماذا أيام العمل هذه التي تمتد إلى عشر ساعات، لماذا هذا النقص في ساعات الفراغ الذي كان زوجها يشتكي منه لتلك الدرجة، لماذا هذا التفاني في العمل «الذي تعيبه ابنتاها عليه اليوم» على حساب كلّ حياةٍ عائلية، وذلك الطلاق الذي بالكاد تحدّثت عنه؟ «إنها لا تعرف أبداً زوجين أحدهما مدرّس لم يشهدا مثل تلك المشاكل»: هل هو مجرّد تأثير التفاني لصالح مهنةٍ مقدّسة تتطلب استثمار كلّ لحظة من الوقت، أم هو التصاقٌ لا يمكن مقاومته بالشخصية التي ينبغي أن تلعب دورها أمام الآخرين وأمام ذاتها، وحتى ضمن الحياة العائلية؟

كان ينبغي أن نذهب في حديثنا معها إلى ما هو أبعد، أن نعرف أكثر لنفهم ما كانت دلائلُ كثيرةٌ تجعلنا نخمّنه، ذلك النوع من الأداء المدمّر للحياة المهنية وللحياة الخاصة في تلك الحالة الخاصة، وربما في حياة عددٍ من المدرّسين.

بعد بعض المبادلات الهاتفية، تم تحديد موعدٍ آخر في نيسان. وقد اتفقنا على أن يجري اللقاء في بيتها هذه المرة، وصورناه بكاميرا فيديو صغيرة؛ أعجبت الفكرة فاني التي ستكون لأول مرة أمام الكاميرا. واعترانا الأمل أن تسمح لنا الوثيقة بأن نلتقط ونحلّل على هوانا حركاتٍ وتعابير ونظراتٍ حجبتها عنّا حيوية فاني في المرة السابقة.

يقع منزل فاني على بعد ثلاثين دقيقة من بوابة لاشابيل La Chapelle في جادةٍ طويلة، لا هي حزينة ولا هي مرحة، بعيدة عن مركز المدينة، خالية في هذه الساعة من بعد الظهر، تحف بها على الجانبين أبنيةٌ لائقةٌ صغيرةٌ من أربعة طوابق، جُمّعت كأبنيةٍ سكنية فاخرةٍ نوعاً ما ويحيط بها القليل من النباتات. هي تعيش هنا مع ابنتيها التوأمين البالغتين ثلاثةً وعشرين عاماً. غرفتان وصالة صغيرة، تلك هي الشقة التي عاشت فيها مع زوجها أكثر من خمسة عشر عاماً. لقد أثثاها معاً، ولم يتحرّك فيها شيء وكلّ ما فيها

يحتاج إلى الإصلاح: فورق الجدران بحاجة إلى تبديل، والأثاث بحاجةٍ إلى التصليح؛ إنها تدرك ذلك جيداً، وهي تعاني قليلاً بسبب هذا الأمر، لكن «ترميم علاقتها» مع ابنتيها بعد أن رحل زوجها في أيار عام 85 استهلكها. إحدى البنتين تحضّر لدبلوم في التعليم، والأخرى بستانية.

حياة فاني محفوفةٌ بحوادث الانسلاخ والتخلي والقطيعة. والدها عامل نسيج، وهو ذاته ابنٌ لفلاّحٍ من منطقة آرييج Ariège. وقد احتفظت من أصولها بلهجةٍ واضحة تضفي سمةً من الغرابة على بعض أقوالها، وخاصةً أكثرها «ثقافية»، رغم محاولتنا أن نمنع أنفسنا من مثل ذلك الشعور. ترك والدها قريته حين كانت لا تزال صغيرةً جداً «ليتعلّم مهنته» في بلدةٍ مجاورة «ولكي يعمل بجد في المصنع». لقد كانت طفلةً صغيرةً آنذاك، لكنها لا تزال اليوم تذكر أوّل انتزاعٍ لها من جذورها فقد كان من القسوة عليها بحيث لم تخرج من المنزل لأكثر من شهر. بعد ذلك، أدخلت فاني إلى مدرسةٍ داخلية ثمّ ذهبت إلى تولوز Toulouse ثمّ إلى باريس ثم إلى آفينيون Avignon كذلك، ثم عادت لفترةٍ قصيرة إلى منطقةٍ أخرى من الجنوب الفرنسي، «وفي نهاية الأمر لا يعود المرء يعرف أين هو». لو أنها بقيت في الريف مع زوجها لكانت حياتها أكثر هدوءاً وطمأنينةً، لكانت حياةً «دون مشاكل»، لكنّ هذين النازحين، هذين المهاجرين «سُلّما لنفسيهما وأسيئت معاملتهما» بعد أن ابتعدا عن موطنهما وعن عائلتهما.

والدة فاني ابنةٌ لمهاجرٍ إسباني و«لعاهرة القرية»، وقد تولى أحد أخوالها رعايتها في شبابها، وكان ممثلاً تجارياً «شقّ طريقه» و«لديه أموال»؛ وقد وصلت في دراستها حتى الشهادة الإعدادية العليا قبل أن تتزوج وتعمل بهدوءٍ في معمل هي الأخرى؛ وقد حلمت بأن تقوم ابنتها بالدراسة التي لم تتمكن هي من إتمامها، بأن تمتهن التعليم، بأن تحصل على زوجٍ غنيّ وأن تكون لها حياةٌ مختلفة. كانت فاني طالبةٌ لامعة في صفّ الفلسفة في إعدادية بافي Pavie، تطمح إلى «أن تكون طبيبة»، لكن والديها عارضا تلك الرغبة، هذه المهنة ليست مناسبة للمرأة -بل إنّ أم فاني تعرف طبيبةً لا تمارس

المهنة–، كما أن الدراسة مكلفة. وبصورةٍ خاصة، فإنّ مهنة التعليم التي تجمع بين «السلطة والطمأنينة» تحوز على الكثير من الاحترام في العائلة. وتشعر فاني بالكثير من المرارة. إنها اليوم «قد غفرت لهم، بل إنّ الأمر يضحكهم قليلاً»، لكن ذلك الأمر شكّل قطيعةً أولى مع أهلها وهي في الثامنة عشرة من عمرها. فاختارت الفلسفة وسجلت نفسها في الصف التحضيري في ثانوية بيير دو فيرما Pierre-de-Fermat في تولوز، مما سمح لها بالاستفادة من منحة. سرعان ما نسيت الطب واكتشفت الكلية والمدينة الكبيرة والنقاشات الثقافية، وأخذت «تكثر من التسلية» ورسبت في امتحان القبول في دار المعلمين العليا، دون أن تشعر بالكثير من الندم. وحصلت على إجازةٍ في الآداب «كالجميع»، وأخذت تهتم بالمسرح والموسيقى: إنّ اهتمامها بالثقافة هو بالنسبة لها نوعٌ من الإنجاز الفرديّ أو من المهارة الفريدة، لكنه ليس ضماناً جدياً وضرورياً لدخول حياةٍ حُكم عليها أصلاً بأنه لا يمكن الوصول إليها، كما لو أنها لم تكن تجرؤ على محوٍ أصلها.

تعرّفت فاني في تولوز على زوج المستقبل، الذي يصغرها بثلاث سنوات: وهو لم يكن طالباً. هنا أيضاً، لا تصبو كغيرها من الطالبات إلى الزواج من أستاذٍ مثلاً أو إلى أن ترتفع بلعبة الارتباط والإغواء، حيث يبدو بأنّ الحجج الغامضة للواقعية والتواضع قد حلّت دون أن تدري محلّ الحبّ. وسوف يتوجّب عليها أن تعتمد على قواها وحسب وعلى أشباهها. بيرنار هو «من بيئةٍ شديدة التواضع»؛ كان تلميذاً في ثانوية الملاحة الجوية ويحلم بأن يصبح طياراً. أرادا الزواج لكي يذهبا إلى باريس حيث ستسنح لهما كلّ الفرص وحيث ستتاح لهما كلّ الحرية («في تلك الفترة، كان لا بدّ من الزواج لكي يعيش اثنان معاً»). لقد اعتقدا بأنّه بالإمكان أن يكون لهما مستقبلٌ جميل، فالزمن يتطور ولم يكن يجري الحديث عن البطالة عند الشباب، كما أنّ العثور على عملٍ وشقة لن يكون صعباً. لقد كان لديهما طموحات، لكنه ينبغي أن يعرف المرء كيف يقدّم التضحيات.

ترك الشاب كلّ شيء، وتقدم لمسابقة في هيئة البريد والبرق والهاتف

PTT وسُميّ على الفور معتمداً للاستثمار في باريس: «حينذاك أيضاً، الأحلام الكبيرة..» ولخّصت تلك الفترة بهذه الطريقة: «حصلت على شهادتي الجامعية عام 66؛ ثم تزوجت ولحقت بزوجي إلى باريس. هذا كل شيء.» لقد أعطت لنفسها بهذه الطريقة الصورة الرومانسية للعروس الشابة الخاضعة لكادرٍ شابٍّ تمّت ترقيته باكراً. لكنها تعتقد مع ذلك أنّ «مشاكلها تلك مع زوجها قد بدأت من هنا».

وفي تشرين الأول، أمضت فترةً تدريبية في ثانوية شارلمان Charlemagne ؛ كان عمرهما حينذاك تسعة عشر عاماً واثنين وعشرين عاماً ووِلدت ابنتاهما التوأمان فوراً (في تلك الفترة، لم يكن منع الحمل مسموحاً، على الرغم من انتشاره بين أكثر النساء اطلاعاً، وكان بالتالي غير متاحٍ للكثير من الشابات)؛ هناك أحداثٌ حتمية، هذا كل شيء. وإذا كان العمل يبدو لها (بسبب أصولها) وكأنه فتوحات، فإنّها لم تكن تنظر إلى واقع القيام بنفس الوقت بالنشاط المهني والحياة العائلية على أنّه مأثرة، ولم يكن يتم التطرق لهذا الأمر. الأمر لا يتعدى كون الحياة الاعتيادية مخيبة للآمال أحياناً.

تزوجت فاني رغم معارضة أمها، لذلك فقد كانت تخفي عنها مصاعبها بسبب كبريائها، وذلك حتى رحيل الزوج؛ وفي الواقع، فقد «كنا نتباهى عندما نهبط كما يقولون إلى الجنوب.» لكنها ربما كانت تخفي على نفسها، مثلما تخفي على أهلها، المؤشرات الأولى للكارثة. فقد كانت شديدة النهم لحياة المثقفة تلك التي كانت تبدو بأنها تنفتح أمامها.

«كانت الطفلتان تحملان (..) إلى كلّ مكان»؛ وكانت تعهد بهما أثناء ذهابها إلى عملها إلى «حارسات أبنية كنا نعثر عليهن كيفما اتفق، بالصدفة (..) كان الأمر اعتباطياً، وكثيراً ما كان يُسمع صوت صراخ الطفلتيْن لأنهما كانتا أحياناً تظلاّن وحدهما في الشقة، وكانت كلتاهما في نفس المحبَس، لذلك..». لقد «قدّمت الكثير» من ذاتها «لعملها»، وهي تحبّ طلاّبها الذين تبدي تجاههم صبراً «خارقاً» لكن حين كانت ابنتاها صغيرتين، كانت تعود إلى المنزل في المساء وهي نافذة الصبر، «فقد استنفذت صبرها كلّه خلال النهار»،

وكان لا يزال يتوجب عليها تحضير بعض الدروس وتصحيح بعض الأوراق. في المنزل، «لم تكن تحتمل شيئاً»، وكانت وظائف ابنتيها «كارثةً». فكان يجب العمل بسرعة، بسرعة، لم يكن لديها أبداً أيّ وقت. لا بدّ أنها كانت «بغيضة». تقول لها ابنتاها، لكن الآن فقط، بعد كلّ تلك السنوات، أن الأمر «كان مريعاً». لقد تجاهلت بلبلتهما وأقنعت نفسها بأنه يكفي أن تحبّهما.

لم يترقّ زوج فاني في عمله؛ لقد حكم على نفسه بالبقاء في هيئة البريد والبرق والهاتف بتخليه عن دراسته؛ وقد كان يحلّ محلّ الغائبين من المفتشين أو ممن يستقبلون البريد؛ لم يتحدّثا أبداً عن الأمر، إلاّ أنها تعرف بأنه كان يتألم لأنه تخلى عن دراسته هو. وهي لم تكن تبدي أيّ اهتمامٍ بعمله، وذلك بصورةٍ مكشوفة، كما أنها لم تكن تحبّ أصدقاءه الذين ينتمون مثله إلى هيئة البريد، فقد كانوا مختلفين أكثر مما يجب عن زملائها هي الذين يعاملون باستخفاف في كثير من الأحيان «زوجَ السيدة» كما يدعو نفسه. وهي تلوم نفسها الآن لأنها تركت أصدقاءها الذين تصفهم بأنهم «مثقفاتيون حقيقيون» يسيئون معاملة ذلك الرجل الذي يشبهها على نحوٍ ما. وهي تعترف بأنها شعرت بالخجل منه في بعض الأحيان، تماماً مثلما خجلت من «والديْها العامليْن الفقيرين نوعاً ما» بمواجهة رفيقات صفّها «اللواتي كان لم يكن ينقصهنّ شيء». هذا هو الثمن الذي دفعته لتكون لها حياة «هانئة»، كما تحبّ أن تقول، الحياة الموعودة التي حلمت أمها بها لها: فقد كانت تنمّي ذلك «الجانب المثقّفاتي» وتمارس الرسم وتقرض الشعر.

ذكّرها الواقع بنفسه عام 85، في اليوم الذي رحل فيه زوجها، «ذلك الرحيل الذي لم ترَ مقدّماته»؛ لقد تمّ الطلاق بينهما بعد ذلك، لكنها لا تزال حتى الآن تضع خاتم زواجها في إصبعها وهي تعترف بأنها تأمل في عودته. وفي نفس اليوم، تركت إحدى ابنتيها الثانوية؛ حينذاك، بدأ بالنسبة لكلٍ من التوأمين تَيَهانٌ مؤلمٌ لم ينته حتى هذا اليوم: مخدرات، هروب، فشل، «قصص كبيرة، كبيرة جداً».. وفاني لا ترغب كثيراً في الحديث عن هذا الأمر، وتتصاعد الدموع إلى عينيها.

ربما لم تكن فاني قد عرفت كيف تتوقّع هذا الانهيار أو تستدركه،

فقد كان ذلك يتطلّب الاعتراف للذات بالكثير من الأمور، كالحياة الشاقة، والانسلاخ، والصغيرتين اللتين كانتا تُقذفان من يدٍ إلى أخرى، والزوج الذي يتعرّض للاستهزاء، والقطيعة، وكل تلك التضحيات التي قبل بتقديمها من أجل صعودٍ غير أكيد، وسراب مشاركةٍ بالثقافة أشد ريبةً. لدى فاني اليوم انطباعٌ بأنها قد سمحت بأن يتم الاحتيال عليها، وهي ترتاب «بكلّ ما هو مثقّفاتيّ»، كما أنها لم تعد تشتري أية اسطوانات، فليس لديها «النقود» اللازمة ولا حتّى «جهاز جيد لتستمع إليها». كل ذلك انتهى الآن.

وفي مهنتها أيضاً، تراجع اندفاع وحماس المدرسة الشابة ليحلّ محلّه القنوط، والإحساس التدريجي بأنها قدّمت الكثير من وقتها وطاقتها «وحياتها بالذات»، دون أن تحصل على شيء بالمقابل.

مع مدرّسة للأدب في إعدادية

أجرى اللقاءات غابرييل بالاز وروزين كريستان

«عملٌ مقرف»

❖ قبل قليلٍ، قال البعض بأن العديد من المدرسين في هذه الإعدادية يودّون الرحيل.

فاني: نعم، هناك العديد وأنا منهم. البعض الآخر يشعرون بأنهم محاصرون قليلاً وقد تراودهم الرغبة في الرحيل؛ وهنا يخطر ببالي (..) وهو زميلٌ يدرّس الموسيقى؛ في المدرسة الآن عدم ارتياحٍ نتج على ما أظن عن تبديل المدير. لدينا منذ العام الماضي مديرٌ جديد لم يحصل إطلاقاً على الإجماع ، إطلاقاً، وبالتالي فإن الناس يحكمون عليه بصرامة (...). إذن، هناك عدم ارتياحٍ بسبب هذا الأمر، وكذلك بسبب وضع التدريس. أعتقد أن الناس لديهم انطباعٌ، وأنا أتحدّث عن انطباعي الخاص على الأقل، بأنّهم قد عُصروا مثلما يُعصر الليمون وأنه غير مُعترَفٍ بهم. وهذا هو الوضع حين أتناقش مع زملائي من مدرّسي اللغة الفرنسية، إذ نشعر بأننا فعلاً لاشيء، وأننا نقوم بعملٍ- مرّرا لي التعبير- عملٍ مُقرف، هذا هو الواقع! وقد سمعت ذلك التعبير. إذن، فنحن نشعر بأننا قد حاربنا من أجل لاشيء، وأننا سُرقنا. وحين يصل المرء إلى لحظةٍ معيّنة في عمله الوظيفي- في أية درجةٍ وظيفيةٍ أنا؟ إني لا أعرف حتى ، العاشرة ربما؟ عمري الآن ثمانية وأربعون عاماً-

فإنه يتكوّن لديه الانطباع بأنه بالفعل لاشيء على الإطلاق، سواءً كان محقّاً في ذلك أم لا. عندما يكون المرء شاباً يصل إلى لحظةٍ يرغب فيها بأن يقوم بشيءٍ آخر. يقول زميلي مدرّس الموسيقى بأنه يشعر بمتعةٍ فائقة في الحفلات، وهو محظوظ لأن لديه عملٌ آخر، أما أولئك الذين ليس لديهم شيءٌ إضافيّ (...). الزميل الشيوعي لديه نضاله... وهو علاوة على ذلك لم يعد مقتنعاً به كثيراً وقد عاد للدراسة؛ وهكذا، فإنّه يجد معنىً لحياته بهذه الطريقة.

كل شخصٍ يهرب إلى جهةٍ أو إلى أخرى...

فاني: نعم، هذا مؤكّد، هناك هروب، وهكذا يكون تغيير المدرسة هروباً أيضاً، لكنّه قد يكون هروباً من المدرسة ذاتها. صحيحٌ أن الكيل قد فاض بي من المدرسة، إلاّ أنني لا أعلم ما الذي سأجده خارجها. لديّ رغبةٌ بالتعليم في ثانوية لأنني أرغب بأن أستمتع، كما يقول الشباب، بتثبيت قدميّ قليلاً بينما، حتى الآن، أعطيتُ وأعطيتُ مقابل لاشيء كما يبدو لي. هذه هي الحال!

فاني: الناس لديهم الرغبة في أن يعيشوا. والمدارس الإعدادية أو الثانوية لم تصبح مكاناً للحياة. حين أتناقش مع الأولاد، لديّ أوراق مليئة بالأخطاء اللغوية ويُستشفّ منها رغبةٌ في التحدث مع الكبار؛ ربما تمثّل تلك الأوراقُ أيضاً رغبتهم بأن يعيشوا حقاً، وأنا أعتقد بأن الشباب يترجمون بطريقةٍ ما انحراف مزاج أساتذتهم، بل وحتى انحراف مزاج المجتمع. لا أعرف إن كانوا يدركون ذلك جيداً كما لا أعرف إن كان ذلك قد قيل، لكن هنالك شيءٌ من هذا القبيل.

❖ إنهم يشعرون بأنهم ليسوا منسجمين مع ذاتهم.

فاني: هذا هو الأمر، كما أعتقد. مع طلابي، الأمر يتعلّق بي ولا أستطيع أن أقول بأن ذلك يجري بنفس الطريقة مع الجميع؛ الأولاد رائعون لأن لديهم رغبةً حقيقيةً في أن يساعدونا، وحتى في أن يحبّونا، ويتجلّى ذلك خاصةً في طلاّب الصفّ التاسع. لذلك، فحين أسمع زملاء لي يقولون:

«أوه! نحن لسنا هنا من أجل ذلك، نحن لسنا هنا لكي نحبّ الأطفال»، فإنني أجد هذا الأمر خاطئاً تماماً، فالأولاد بحاجةٍ لهذا الحبّ و كذلك الأستاذ: على كل حال أنا أحتاجه. إذا أردت أن أقوم بعملٍ جيّد فأنا بحاجةٍ لأن أكون بحالةٍ حسنةٍ معهم من جميع الجوانب. وهذا الأمر جزءٌ من كلٍّ، فالناس لديهم الرغبةً في أن يعيشوا. وفي المجتمع الحالي، يعيش الأولاد تلك الرغبة، حيث تُقدَّم لهم نماذج يكون فيها المال سيداً و...حسناً، أظنّ أن تلك أيضاً مشكلة. (...) فإنه يتراءى لهم بأنه يتم استدراجهم إلى أمور غير صحيّة، هذا هو الوضع.

❖ وحين تقولين بأنه لا يعترف بالأساتذة، وأنك أنتِ بالذات تشعرين بأنه لم يتم الاعتراف بك، فمن قِبَل من وكيف؟

فاني: لنقل أولاً من قِبَل السلطة العليا التي ... كثيراً ما لاحظت بأن رؤساء المؤسسة المدرسية-ليس جميعهم لأنني أسمع أيضاً أن فلان مثلاً رائع، الخ... - يعملون غالباً كرؤساء مؤسسات، أردت أن أقول... إن المبنى أو على الأقل القوانين التي تحكم فيه، ليست لصالح البشر الخاضعين لها، سواءً كانوا أساتذةً أم طلاّباً. الرؤساء موجودون ليزعجوك، وليطلبوا منك أن تقوم بأعمال ليست من صلب اختصاصك، وأنت تشعر بأن هذا ليس في صالح الأولاد على الإطلاق، بل إنه في صالح الترقية أو ما يشبه ذلك؛ وهذا الأمر قد ينطلي على الأستاذ فترةً من الزمن، في ما لو أبدى سروره بالقيام بعملٍ ما، فهناك العديد من الأساتذة على هذه الشاكلة. بالإضافة إلى ذلك، فالاعتراف بنا مطلوبٌ أيضا من الأهل ومن مجموع السكان.

❖ نعم، من مجموع السكان.

فاني: لأنه بصراحة، حين نسمع الخطابات حول الأساتذة (...) هذا الأمر قديمٌ قِدَم العالم... أو حين نسمع رأي عائلتي الخاصة، فإنه يتولّد انطباعٌ بأننا نقوم بعملٍ هيّن. ودائماً يذكرون العطل المدرسية في المقدّمة...، الخ.

❖ نعم.. العطل (...) ماذا كان أهلك يعملون؟

فاني: كان أبي عامل نسيج. لقد عانى الكثير فأيام عمله كانت قاسية. وكنت أرغب بدراسة الطب لكن لم يكن لديه المال الكافي. لقد قالوا لي الكثير، وبالنسبة لهم فإن مهنة التعليم تعني أن يكون للمرء وظيفة وأن يكون مرتاحاً بعمله. كان أبي يرى في التعليم وظيفة حكومية.

كنت قد وقّعت باسم: «الأخت تيريزا»

فاني: هذا هو الوضع، فقد رأى في المعلم موظفاً حكومياً، منسجماً أو غير منسجم مع ذاته، لا أدري. ربما كان المعلّم الموظّف منسجماً مع ذاته لأنه في الواقع.. هناك من الأساتذة من لا يطرح الكثير من الأسئلة على نفسه. أمّا الأستاذ الذي يريد القيام بدور المربّي- أعود هنا إلى الموضوع الذي يؤرّقني- فأنا أعتقد بأن ما يخيف المعلم هو أن عليه أيضاً القيام بدور المربّي. لقد تشاجرت في العام الماضي مع بعض الزملاء لأنني أنظر إلى الأمر بهذه الطريقة؛ إنها كلمة كبيرة للغاية ولا أريد التلاعب بالكلمات، لكن دور المعلّم اليوم لا يقتصر على نقل المعرفة؛ إننا نتبع وزارة التربية الوطنية والأطفال يطالبون.. هم لا يطالبون أن يحلّ المعلّم محلّ الأهل، بل أن يكون شخصاً راشداً مرجعياً يمكن لهم التحدّث معه، وحين نقبل بهذا الوضع، فإنّ الأمور تسير على ما يُرام. بعض المعلّمين يرفضون هذا الدور. في العام الماضي كان لديّ صفٌّ صعب، وكان الأولاد مثيرين حقاً للمشاكل؛ وعلى سبيل المزاح، على سبيل المزاح بالتأكيد- ربما كان مزاحي ثقيلاً – استدعيتُ الناس إلى مجلس أولياء مبكر لأن الصف لديه مشاكل، ووقّعت باسم «الأخت تيريزا». لمَ فعلتُ ذلك؟ لا أدري، ربما كان وحياً ربانياً. يا إلهي.. لقد أثار تصرفي استنكاراً عاماً.

إن مهنة التعليم هي باعتقادي مهنة شاقة للغاية، شاقة لأن المعلم يعطي من ذاته للأولاد، بيد أنه لا يستطيع أن يقوم بعمله دون هذا البذل، لكن في نفس الوقت الذي أقول فيه بأنني أشعر بأنه لا يُعترف بي فإنّ علاقتي مع طلابي جيدة وهذا ما يجعلني أستمر. فحتى عندما يكون لديّ صفوفٌ صعبة أو يكون هناك ضجيجٌ أو عندما تتوتر أعصابي، فإن شيئاً ما

يحدث بيني وبين طلابي، فأنا أحبهم وهم يحبونني وهم الذين يجعلونني أستمر في التعليم. لولا هذا الأمر لقمت بأي شيء، ولقبلت أي عملٍ كان! فحين يكون بينك وبين الطلاب مثل ذلك الحب فإنهم يعترفون بك، إنك تحصل على الاعتراف بك من الطلاب. (..)

❖ وبالنسبة لعائلتك، كنت تقولين، وأنتِ محقة في ذلك، بما أنهم يعملون بجدٍ... هل كانت أمك تعمل؟

فاني: كانت أمي قد توقفت عن العمل. لقد عملتْ حين كنت صغيرةً جداً؛ كانت عاملة مصنعٍ أيضاً وكانت تشعر بالغبن قليلاً لأنها وصلت في دراستها حتى الشهادة الإعدادية العليا في ذلك الوقت، لكن أمها أرادتها أن تعمل من أجل كسب المال، فكان عليها الذهاب إلى المصنع. إذن أمي ذهبت إلى المصنع وأعتقد بأنني كمعظم الأبناء في تلك المرحلة قد سلكت الطريق الذي أرادته لي... (...) أو الذي كانت تودّ لو أنها هي نفسها قد سلكته. وحين كنا نناقش الأمر، أعتقد بأنها كانت تراه مثل... كيف أعبّر؟ بالنسبة لها فإن المعلّم هو القمة. لقد كانت تحتفظ بعقلية أهل الريف؛ وفي بيتنا كان يطلق لقب وصيّ régent على المعلم؛ وجدي أيضاً كان يُكنّ احتراماً بالغاً لمن ينقل المعرفة. لقد كان جدّي أمياً، وبالتالي فالوصيّ كما يُقال بلهجتنا المحليّة شخصٌ مرموق؛ أمي تأثرت بتلك النظرة، أكثر مما تأثر أبي...

[...]

أمي تخلّت عن أوهامها

❖ ألم تشعر عائلتكِ بأنك قد نجحتِ بالنسبة إلى تلك... الأهداف التي يمثّلها كونك معلّمة، الخ...؟

فاني: بلى، بلى. كانت تعتبر أنني قد نجحت لكن أمي تخلت عن أوهامها الآن، لقد تخلت عنها...

- صحيح؟ أي أن ذلك كان في مرحلةٍ سابقة؟

فاني: نعم، في البداية... بالنسبة لها، كنت ناجحةً لأنّ دراستي كانت

جيدة وكنت أنجح في الامتحانات. والآن حين ترى كيف أعيش، و ما لدي من الهموم فإنها تقول لي: «لكن مع ذلك، في النهاية..».. هذا كل شيء. في كلامها ما لم يُقَل، إذ أنها تشعر بأن هناك شيءٌ فاسد حتّى في مملكة وزارة التربية الوطنية. و لكنها لا تحلله كما أنني لا أتحدث عنه كثيراً معها لأنها تلوم نفسها. شعورها ذاك ملتبس لكنني أشعر به. وحين ذهبت إلى منزل أهلي في عيد جميع القديسين كان معي عملٌ للمدرسة فقالت لي: «أنت لا ترتاحين أبداً» وهي لا ترى إلاّ هذا الجانب. أو أنها تقول لي حين تجدني مُحبطة: «في نهاية الأمر، فإن أختكِ أكثر سعادةً منك.»

❖ إذن، فهي تظن أن ليس هذا ما كانت تنتظره.

فاني: نعم. إنها تظنّ... أنا لا أدري حتى ما إذا كان يمكن أن نقول بأنها تظنّ، لكن... أترين، الموضوع غائم... ولا يعبر عنه صراحةً. لو تحدّثنا عن أمور شخصية، فإنني قد تزوجت، ثم طلقت عام 1985، وكان زوجي يلومني على الدوام لأنني مشغولة بعملي أكثر من اللزوم. وكم أسمع عن زملاء لديهم مشاكل مماثلة مع شريك الحياة. خذي هذا المثال، فزميلتي التي تحدثت معها البارحة في الهاتف مريضة، وهي معلمة في روضة أطفال. لقد أوقفها الطبيب عن العمل حتى الخامس عشر من الشهر. كان يريد توقيفها حتى الثاني والعشرين منه وقالت له بأنها قد راجعت طبيباً نفسياً من «الصحة المدرسية» أخبرها بأن مشكلتها هي الرفض. الرفض التام. لقد قالت لي: «لم أعد أحتمل الضجيج». وهكذا أصيبت بانهيار..

[...]

❖ أي أن الشريك غالباً ما يجد أن الأستاذ يعمل أكثر من اللازم؟ أنه مشغول جداً...

فاني: نعم، نعم... مشغول أكثر مما ينبغي. هذا يحصل في كل مكان؛ منذ بضعة أيام، قال لي أحد أصدقائي هاتفياً، وهو مفتّش في الضرائب- ولديه دوماً وقتٌ حرٌّ - بأنه يريد الذهاب إلى بولونيا في عطلة عيد الميلاد، لأنه يريد الالتقاء ببولونيين. حينذاك سألته مونيك بالهاتف: «وماذا تفعل

زوجتك؟» فأجاب: «أنت تسألين! لقد سئمتُ من أوراقها». حسناً، هذا مزاح، حسناً..

❖ لكنه مزاح ذو مغزى! وماذا كان زوجكِ يعمل؟

فاني: زوجي كان يعمل في مصلحة البريد والبرق والهاتف PTT و لا زال يعمل هناك وهو مرتاح، (...) إنه يعمل محصّلاً. (...) حين كان يذهب ليحلّ محلّ زميلٍ غائب في منطقة بعيدةٍ نوعاً ما، كان عليه الاستيقاظ باكراً جداً لأنه يجب أن يكون موجوداً حين تصل شاحنة البريد. لكن بالنسبة للمعلم، وهذا ما يقتلني ويمنعني من أن أكون مُبتَكِرة، فإن عمله لا ينتهي أبداً – وهذه هي دائماً مشكلة التعليم. فحين نعود إلى المنزل، هناك تحضير الدروس، وفي هذا العام، سيكون الوضع أشد وطأةً لأنّ ساعات اللغة الفرنسية قد قُلِّصت وبات على الأستاذ أن يدرّس أربعة صفوف ليغطي نصابه البالغ ثماني عشرة ساعة. أربعة صفوف لغة فرنسية في إعدادية، اثنان منها بثلاثين طالباً، هذا يعني عدداً ضخماً من الأوراق، وفي الإعدادية، ينبغي تدقيق كلّ شيء؛ أنا أقوم باستخراج شرح النصوص وإلاّ فإنّ الطلاّب لا يقومون بهذا العمل ولدي باستمرار أوراق.. لذلك، فبعد يومٍ من العمل..

لدي أوراق كل يوم. كل يوم. في البداية، كنت أستخرج بعض شروح النصوص. ثم لاحظت بأن بعض الطلاب لا يقومون بشرح النصوص بعد أن يتم امتحانهم أول مرة، في الوقت الذي أركّز فيه كل تعليمي على النصوص، على المكتوب، على التفكير في النصّ، على النقل بعد التواصل، وكانوا لا يقومون بذلك... لقد فهموا الآن والأمور على ما يرام، لكنهم في البداية لم يكونوا يقومون بذلك، ولذلك كنت أستخرج كلّ شيء. لن يقول لك الزملاء الآخرون نفس الشيء، ففي الموسيقى مثلاً، ليس لدى الزميل الذي حدّثتك عنه نفس حجم العمل الذي لديّ. وضعي خاصٌّ فعلاً فأنا أعمل يومياً هكذا. وأشعر دائماً بأن عملي.. يستنزفني. إنه يستنزفني بالفعل.

❖ هل كان ذلك ما عابه عليك زوجك حقاً؟ هل كان يعيب عليك انشغالك؟

فاني: نعم، الأمر كذلك. وحين أنظر إلى الوراء اليوم فإنني أعترف بأنني قد استثمرت نفسي في العمل بشكلٍ أساء لي ولأولادي. لقد أهملت ابنتيّ في وقتٍ كانتا فيه بحاجةٍ لي، حقاً..

❖ لديكِ ابنتان؟

فاني: لدي ابنتان توأمان. وهما تقولان لي ذلك، تقولانه! في الوقت الذي كانتا فيه بحاجةٍ لي، كنت أنا.. إنها مسيرةٌ شخصيّة. لقد استثمرت نفسي بشكلٍ كبير في العمل لفترةٍ طويلة وكنت أجد متعةً كبيرة فيه، ولا أستطيع القول بأنه لم يمنحني الكثير من الرضى، هذا صحيح. صحيحٌ أنني كنت أقدم الكثير لعملي وكنت أجد متعةً كبيرة بوجودي مع الأطفال، لكن إلى جانب ذلك، قدمت الكثير لدرجة أنني حين كنت أعود إلى المنزل، يكون صبري قد نفذ. الآن ابنتاي تقولان لي ذلك، وحين كنت وسط..

❖ ما هو عمرهما الآن؟

فاني: إنهما في العشرين... ابنتاي عمرهما ثلاثة وعشرون عاماً، ثلاثة وعشرون.

❖ لم تعودا صغيرتين..

فاني: لا، لكنني أقول دوماً «صغيرتيّ» لأننا الآن نعود لنعيش أموراً لم نعشها كما ينبغي في ذلك الحين. صحيحٌ أننا قد التقينا من جديد الآن، وهما الآن، في الثالثة والعشرين من عمرهما، تسترجعان أجزاء من طفولتهما. نحن نحاول القيام بالتحليل النفسي على طريقتنا. ماذا كنا نقول؟ لم أعد أتذكر..

أنا لا أعرف زوجين يعملان في التعليم لم يتعرضا لمثل هذا النوع من المشاكل، حتى لو لم يكن الاثنان معلّمين بالضرورة، لكن واحداً منهما معلّم. البعض يتمكّن من السيطرة على هذه المشاكل لكنها تلعب دوراً ما، ويوجد دوماً إحساسٌ بأن الشخص يعطي، يعطي من ذاته، من حياته بالذات دون مقابل. ويتلازم ذلك، كما في حالة الممرضات، مع الشعور بأننا لا شيء في نظر الآخرين، ومن هم الآخرون... الأولاد يقولون لي هذا، يقولون لي:

«العمل الذي تقومين به يا آنسة رائع لكننا لا نرغب به»، وهم يتساءلون لماذا؛ السبب هو أننا نقدّم لهم في الكتب نماذج من نمط الذئاب الصغيرة الناجحة، الخ...، بزة، ربطة عنق، المال، المال، المال..

اقرأ نتفاً من بعض الكتب

فاني: أعتقد بأن المطالبة بحياةٍ أفضل وكذلك الرغبة باعتراف الآخرين بك موجودة في كل مكان وفي كُل المهن، فقد رأيت المساعِدات الاجتماعيات يطالبن بالشيء نفسه، رأيت لديهن الرغبة في أن تكون لهن قيمة، لا أن يُعتَبرنَ من فئة الموظفين الصغار الذين يقومون بشيءٍ ليس له أهمية. في أحد الأيام وفي فترة ثورة الثانويات، كنت قد انضممتُ إلى العصيان وكنت أستمع لإذاعة فرانس أنتير France Inter في سيارتي- لولا ذلك لما كان لدي وقت – أنا أستمع للراديو، وهذا تثقيف. ليس لدي وقت للقراءة أثناء العام الدراسي (...)، أنا أقرأ نتفاً من الكتب، نتفاً...!

❖ **وأنت أستاذة أدب!**

فاني: نعم ، وأنا حين أقرأ، ينبغي أن أنغمس في قراءتي؛ إلاّ أنّ ذهني مشغولٌ دوماً، هذا ما كنت أقوله لك، لدي انطباعٌ بأنني لم أنته من عملي، ذهني مشغولٌ دوماً بشيءٍ ما، ولا أستطيع أن أستمتع بأي كتاب إلا في العطلة. لكني خلال العام الدراسي لا أستمتع بالقراءة لأنني فجأةً أتذكّر بأن عليّ إنجاز شيءٍ ما. أعترف بأن السن أيضا يلعب دوراً، فقد بلغت الثامنة والأربعين من عمري، وكذلك التعب.. فأنا أشعر بأنني لست كما كنت في السابق، كان لديّ دائماً في السابق أفكار تجعل الدرس أكثر إمتاعاً؛ وحين كنت أشعر ببعض التعب، كنت أقول لنفسي إنني سأتجاوزه؛ أما اليوم، فحين أداوم يوماً كاملاً ويأتي الأهالي لرؤيتي.. لديّ أهالي كلّ يوم تقريباً يأتون ليروني..

❖ **هل يأتون بموعد أم دون موعد؟**

فاني: موعد، لا، وهم لا يأتون كل يوم، بل في معظم الأيام. ستتعقد

لدينا في هذه الفترة مجالس الصفوف ويسود الآن شيء من الاضطراب بالنسبة للأمور التي لم ينته حسابها؛ البعض يضطربون بدافع النزاهة، والبعض الآخر بدافع التمكن من...

❖ .. نعم، التآمر

فاني: تماماً. صحيحٌ أن الأمر طبيعي، لكن حين نحسب الساعات التي نمضيها بالقيام بأعمالٍ لا يُحتسب أجرها، لقد ملّ الناس من هذه الأشياء، ولدي إحساس.. أشعر بأنني أمدح نفسي؛ إنني أقول بصدق بأنني لا أريد أن أكون مجرد موظفة، لذلك فإنني لا أحبّ أن أعدّ ساعات عملي؛ لكن بعض زملائي يقولون لي: «إنك تُرهقين نفسك كثيراً وبسبب أشخاصٍ مثلك فإننا نبدو...»، وبما أنه لازال يوجد الكثير ممن يقولون: «إنك تعطين الانطباع بأن الآلة تدور...» فإنه ينبغي التوقف عن العمل خارج أوقات الدروس لنظهر للناس بأن الأمور لم تعد تسير كما ينبغي لها. لا أستطيع، وإلاّ... ليس لديّ طرقٌ أخرى خارج هذا الإطار. صحيحٌ أننا نمضي في عملنا الكثير من الوقت، والناس يجهلون ذلك.

❖ بكم تقدّرين ساعات عملكِ أسبوعياً؟ ألا يمكنك تقديرها؟

فاني: هذا العام، لم أقم حتى الآن سوى بالتوجيه يوم الثلاثاء، لم أقم بشيء خارج أوقات التدريس... حتى الآن، لأن الأمر سوف يبدأ، وأنا ضمن مشروعين للمؤسسة - واحد حول الصحافة والآخر حول الميراث - هذا يعني ساعات عملٍ إضافية وأفلاماً وعمليات مونتاج وأموراً كهذه، وأنا لا أعمل هذا العام... أنا أعمل حوالى عشر ساعاتٍ في اليوم.

{هنا تذكر فاني المقارنة الشائعة في وسائل الإعلام والتي تذكر بشكلٍ سلبي ضمنياً المقارنة بين الأساتذة والـ «موظفين»، وتذكر مثالاً على ذلك برنامجاً للممثل فيليب ليوتار في إذاعة فرانس أنتير يتحدّث فيه باحتقار عن المطالبات المتعلّقة بأجور الأساتذة، ويرسم صورةً غير لطيفة لما أسماه «عقلية الموظف» التي يحملونها.}

❖ أود أن أعود معك قليلاً إلى ما كنت تقولينه في البداية، فقد قلت: «يتشكل لدى المرء انطباعٌ بأنه قد كافح كثيراً وخُدِع»؛ وأنت تقولين في واقع الأمر بأنك قد كافحت، وأن كفاحك قد امتدّ ليصل إلى المستوى الشخصيّ، حيث دفعتِ الثمن غالياً لأنك قد طُلِّقتِ في نهاية الأمر ولديكِ انطباعٌ بأنّ ظروف عملكِ كانت أحد أسباب طلاقك..

فاني: أحد الأسباب، نعم؛ لكنها كانت جزءاً من المآخذ..

❖ أنت تقولين: «لقد كافحنا كثيراً...»؛ ماذا يعني «كافحنا كثيراً»؟ هل يعني أنكِ قد استنزفتِ نفسكِ كثيراً في العمل، وأنك قد ناضلتِ...

فاني: بالنسبة لي، نعم، لقد ناضلتُ في بداية حياتي المهنية، ناضلتُ وحرّرت التقرير تلو التقرير حين كنتُ في ثانوية سان جرمان أن ليه St-Germain-en-Laye المدعوة بثانوية كلود ديبوسي Claude Debussy والتي كانت في ذلك الوقت تُعتَبَر ثانويةً نموذجية، وكنت ضمن مجموعة عملٍ تبحث في الفشل المدرسي وكنّا، منذ ذلك الحين نقوم بالتجارب، ونعمل... لقد قمت إذن بكتابة تقارير حول هذا الأمر. يتكوّن لدينا انطباع بأن كلّ ما يمكن أن نكون قد قلناه في المقام الأول يأخذ وقتاً طويلاً ليتحقق لدرجة أن الأمور تكون قد تبدّلت حتى ذلك الحين، فالمادّة الدراسية مادّةٌ حيّة، وهي تعيش وتتبدّل؛ حينذاك، يبدو حصول الإصلاح الذي تمنّيناه قبل عشر سنوات متأخراً جداً! في العام الماضي، كان هناك مشاورةٌ على الصعيد الوطني (..) وقد احتفظتُ بشريط تسجيلٍ صغير؛ لقد ضحكنا في الشريط، وقمنا بتسجيل شريط فيديو، وتحدّثت مارييت عن تلك «النماذج» الشهيرة، عن تعليمٍ نموذجيّ (..)؛ كان يتم الحديث عن هذا الأمر منذ بعض الوقت وأنا أسمع الآن بأنه أصبح على الموضة. (..) المؤسسة التعليمية آلة ثقيلةٌ جداً، هي من الثقل بحيث يصعب كثيراً تحريكها.. لدرجةِ أنه يبدو لنا بأن كلّ شيءٍ يصل متأخراً.

❖ نعم، لقد قمتِ بالكثير من الأشياء والمردود بطيءٌ لدرجة أنّ..

نعم..

فاني: نعم، وأنا لا أريد اتّهام وزارة التربية الوطنية فأنا لا أعلم جيداً كيف تسير كل الأمور، كما أن لديّ انطباعٌ بأنه يوجد داخل هذه الآلة الضخمة تبديدٌ ضخمٌ فعلاً، هناك حقاً تبديدٌ للمال وللطاقة؛ (..) وأرى أيضاً خطرَ كلّ ما يمكن أن أقوله، فقبل قليل كنا نتحدث عن التنمية الإقليمية المتوازية، لأنه صحيحٌ بأنه إذا كانت الآلة ثقيلةً على المستوى الوطني، فإنّه يمكنني أن أرى من هنا كل ما قد يظهر. (..) وحين نتحدّث عن المطالبات، وعن الإمكانيات، وعن أمورٍ كهذه فإنه كثيراً ما تحصل في الإعداديات أمورٌ ليست سوى مال مهدور. مهدور! أنا مثلاً أهتم بالفيديو، وقد مللت من مهمتي لأن لديّ مشاكل في الرؤية ولديّ أيضاً حياتي. أنا أطالب بأن يكون لي الحق في التوقف عن القيام بأمورٍ قمتُ بها في السابق حين كانت لدي الإمكانية؛ لكن لا، أنت تلاحَق لأنه ينبغي عليك أن تستمر. كنت أقوم بالعمل بالفيديو مع مجموعة. منذ فترة.. قمنا بعمل فيلم، فيلمنا الأول...

{هنا تذكر فاني نشاطاتها في العام السابق ضمن ورشة الفيديو التي تديرها}

❖ كيف هم الطلاب؟ كيف يمكن لك أن تعرّفيهم؟

فاني: هناك بصورةٍ عامة في إعداديتنا نوعان من الطلاب، فهي إعداديةٌ تقع ضمن ضاحية، وليست في الريف. إنها على حافة البحيرات، لذلك يمكنكِ أن تتخيلي أنها صغيرة... أنا لا أشتكي، وليس لدينا مشاكل كبيرة كما في الضواحي الشمالية، ليس الأمر كذلك على الإطلاق؛ لكن لدينا نوعان من الطلاب، طلاب من وسطٍ مرتاح مادياً، فهنا توجد مؤسستان كبيرتان، لذلك فإن لدينا الكثير من أبناء المهندسين، وهؤلاء الطلاب يتدبرون أمورهم. ثم هناك وسطٌ ريفي، موظفون صغار أو عمال بسيطون ذوو مستوى منخفض نوعاً ما. الأولاد من هذا الوسط ليس لديهم طموحاتٌ كبيرة؛ لدينا إذن بصورةٍ عامّة هذان النمطان من الطلاب.. (..) وبالتالي، وكما في كلّ مكان، لدينا طلاّبٌ من أصحاب المراس الصعب، يفشلون، و..

❖ كيف يتجلّى ذلك داخل الصف؟ أقصد قضية أن يكون الطالب صعباً.

فاني: هذا العام مثلاً لديّ طلاّب في الصف السابع لا يتجاوز عددهم الأربعة والعشرين، والمجموع ليس.. المستوى ليس مرتفعاً جداً وبينهم ثلاثة أولاد يمثّلون مشكلةً ضخمةً في السلوك، وعلى كلٍّ، ففي الأسبوع الفائت كان هناك اثنان، لا بل ثلاثة، (..) ضُبِطوا وهم يسرقون، أحدهم أتى من خارج المنطقة وقد حوِّل من ثلاث إعداديات وهو يعاني بشدة من عدم الاستقرار، وآخر لا يقوم بشيءٍ على الإطلاق.

(...) إذن، فقد أعادهم رجال الشرطة إلى منازلهم على إثر ذلك لأن (...) تلك ليست المرّة الأولى التي يسرق فيها هؤلاء الأولاد، وهم دوماً معاً، يشكّلون تكتّلاً. لذلك فهم يلعبون دور النجوم في صفٍ يعاني أصلاً من المشاكل؛ كما أنهم أكبر سناً من الآخرين ، وهؤلاء الأولاد..

❖ أكبر سناً؟

فاني: أكبر سناً، لا، فعمرهم حوالى أربعة عشر عاماً، ثلاثة عشر عاماً ونصف، أربعة عشر في الصف السابع؛ أترين، البعض أكملوا الرابعة عشرة وقد تبنّت أجسامهم، وهم، لا أستطيع أن أحدد (..) ليس لديهم أي مرجع، لا يخشون شيئاً ، أي شيء. العقوبات المدرسية كالإنذار والطرد، حتى الطرد من الإعدادية يبهجهم، يجعلهم سعداء؛ أنا أتجنّب ذلك، والأهل أنفسهم أُسقط في يدهم. سوف يطرَد هؤلاء الأولاد لمدّة ثلاثة أيام؛ والنتيجة ستكون تشردهم في الشارع، وهذا ليس.. هم إذن يعلمون جيداً بأننا لن نفعل شيئاً إزاء ما فعلوه، لذلك فإنهم يستثيرون الآخرين، يستثيرونهم إلى الحدّ الأقصى، وهذا أيضاً عبارةٌ عن نداء، فهم أيضاً بحاجةٍ للاهتمام ولكنهم يريدونه بشكلٍ دائم، وهذا على المدى البعيد قاتلٌ حقاً!

في أحد الأيام، حضر أحد الأساتذة إلى مجلس الصف وكان مريضاً. حضر ومعه تقريرٌ مرضيٌّ وقال: «أنا لا أستطيع البقاء في المجلس»؛ لقد استخدم التقرير الطبي كعذرٍ وهذا آلمني كثيراً لأنه كان لدى الطلاب

والأهالي المندوبين ما يلومونه عليه؛ فتصور الآخرون بأنها طريقةٌ للهروب؛ لقد حضر ومعه تقريرٌ طبيٌ وقال: «إنه صفٌ مريع، ونحن نُنهك في العمل من أجل الطلاب، نحن نُنهك مجاناً، فهم سيئون جداً ولا يمكن احتمالهم، وأنا لم أعد أستطيع المتابعة! لم أعد أستطيع!»، هذا ما قاله، ثم ذهب. قالت إحدى الأمهات: «أتمنى لك صحّةً أفضل، يا أستاذ» وانتهى الأمر هنا. إنه لا يستطيع تدبّر أمره مع هؤلاء الأولاد، لا يستطيع، فهو يريد أن يكون الأستاذ الذي ينقل المعرفة وحسب، إنه الأستاذ وهذا دوره، و... والأمور لا تسير على ما يرام... هذا هو الوضع. وهو شخصٌ رفيع الثقافة. أعتقد بأن أستاذ التاريخ هو الذي قال ذلك لي بالهاتف، لأنهم قد تحدثوا عن الموضوع في اجتماع أولياء الأمور، وهو شخصٌ موهوبٌ إذا كان لديه طلاّبٌ جيّدون. لكن الموضوع أنه ليس كلّ الأساتذة جيّدين!

❖ إذن ينبغي أن يكون عند كلّ الأساتذة صفوفٌ ليس فيها إلاّ الطلاّب الجيدون {ضحك}.

فاني: (...) في بعض الأحيان، أُضطرّ للعب دور الشرطيّ؛ منذ يومين، كان لدى الطالب الشهير A.، المطرود من ثلاث مدارس، وأقول ذلك لأعطيكم فكرةً عنه، كان لديه رغبةٌ في أن يتحرّك. لقد تظاهر بأنه مهمّ، والواقع أنّه كان يبحث عن التواصل. لكن من الصعب أن تكون في نفس الوقت أستاذاً ومربّياً. (...) حين يكون لديك فتى مثل هذا في صفٍّ يحتوي على طلاّبٍ لديهم مشاكل دراسية، وتثير انتباههم ذبابةٌ تطير، طالبٌ يجلب الأنظار إليه كلّ الوقت، ويستثير الآخرين، الخ... يكفي أن يكون لديك طالبان بهذا الشكل حتى يتراجع الصف؛ بعد ظهر البارحة مثلاً، هربوا من الدروس (...) وذهبوا للقيام بحماقات، إنهم أولادٌ في خطر. مثل هذا الأمر يزعجني كثيراً. أحياناً أشعر بأنّه لا حول لي ولا قوة أمام مثل هؤلاء الأولاد ولا يبقى لي سوى أن أتكلّم وأتكلّم...

❖ هل كانت الحال على هذا الشكل في الثانويات التي كنتِ فيها قبل ذلك؟

فاني: لا، لا، لا. حين كنت لا أزال مدرّسةً شابّة، لم أضطر أبداً لحلّ مثل هذه المشاكل، أبداً، أبداً، كنتُ مدرّسةً قبل عام 1968، كنتُ على نمط أساتذتي. لم تكن لديّ علاقاتٌ كهذه مع الأولاد. لكن التغير الذي طرأ على مهنتنا يكمن هنا، هنا بالذات. بالنسبة لي، إنه هنا وأعتقد بأن الكثير من الأساتذة يرفضون تماماً هذا الدور.

لقد انهارت

❖ الجمهور لم يعد نفسه أبداً..

فاني: تماماً. لم يعد الجمهور نفسه والناس يقولون: «ليس علينا أن نقوم بهذا الدور...» في العام الماضي، كان لدينا مناقشة بصدد ذلك الصف الصعب، كان الحديث حينذاك نفاقاً أيضاً، فقد طلبوا أن يتطوّع أحد الأساتذة للعمل مع هؤلاء الطلاّب الذين كانوا كلّهم فاشلين وغير مستقرّين، وغير اجتماعيين في كثيرٍ من الأحيان، على عتبة الجنوح، وفي نهاية الصف السابع لم يعد أحدٌ من الأساتذة يريدهم. ولم أكن أعرف أحداً من الأولاد، فتطوّعت، وقد درّست هذا الصف للعام الثاني، في الصف الثامن، نفس الأولاد الذين لم يعد الأساتذة يريدونهم. بعض الأساتذة لا يقولون الأمر بوضوح: «كلاّ، لا تضعوا هذا الطالب في صفي.. كلاّ، لقد سئمتُ، يكفيني أنني تحمّلته عاماً كاملاً، هذا يكفي».

قبل بضعة أيام، ثارت أعصابي أمام أحد الأهالي، بصدد أولئك الثلاثة الذين حدّثتكِ عنهم، «ماذا نفعل به؟»، قلتُ لأحد الأهالي، فقال لي: «اطرديه!»، والد أحد الطلاب الآخرين قال: «إذا شئتِ، يمكننا أن نحضر إلى الصف لنقوم بحفظ الأمن»، فقلتُ: «كلاّ، هل تريد أن نضع هؤلاء الأولاد في المحرقة؟ ماذا نفعل بهم؟ لو كنت أباً لأحد هؤلاء الأولاد، ربما أردتَ مساعدة؟» ومع ذلك، فقد عادوا. أما أنا، فقد ثارت أعصابي، مما زاد الطين بلّةً، لكن.. لكنني من جهةٍ أخرى أشعر هنا بأنني مجرّدة من أسلحتي تجاه مؤسسة التربية الوطنية والمؤسسة المدرسية والمدير، فأمام مثل هؤلاء الطلاّب، لا نعرف كيف يجب أن نتصرّف. فمن جهة أخرى، أنت منتقد لأنك

تعتني بهؤلاء الأولاد، فتقول: «هؤلاء ديماغوجيون»، وأنا لم أعد أحتمل هذا الوضع. فهنا أقول: «غير مُعترفٍ بنا..»

نريد أن نعتني بهم، لكن بشكلٍ إنساني. فنحن نساعد أناساً في إفريقيا، الخ...، وأنا أنتمي إلى نادي أونيسكو UNESCO، إن الأمر بسيط من الناحية المادية ومن السهل تقديم المال أو الكتب، وحين يكون أمامنا بحقٍ فردٌ ما أو مسؤولية تجاه طفل، فإن ثلاثة أرباع الناس يتملّصون، لذلك يحصل لديك... ثم قرفٌ من كلّ شيء. إنها المشكلة الكبرى: ماذا نفعل أمام مثل هؤلاء الأولاد؟ المؤسسات لا تعيننا ولا أعرف إن كان هذا الأمر سيتغير؛ ولدينا عددٌ متزايد من مثل هؤلاء الأولاد، فكلّ الطلاّب يرفّعون إلى الصف السادس، وبما أن الحياة هي على ما هي عليه، عائلاتٌ مشتتة، فهناك العديد جداً من الأولاد من ذوي المشاكل؛ قلتُ هذا لأفسّر الصفوف الصعبة. (...)

❖ هل يحصل أن تمرضي؟ قبل قليل، كنت تتحدّثين عن مدرّسةٍ مريضة؛ هل هناك في المدرسة أناسٌ مُحبَطون، مرضى؟

فاني: نعم، بالطبع، ومنذ فترةٍ طويلة، كانت الأستاذة .G مدرّسة ابنتي وقد انهارت كما يُقال لأنها كانت ضعيفة، هذا التعبير سهل. حسن، بالنسبة للزميلة، فهي مخطئة بالنسبة لهذا الصف الذي يحتوي على الأولاد الثلاثة المذكورين، أتمنى ألاّ تُذكر أسماء، لكنها ترتكب أخطاء كبيرة تجاه هؤلاء الأولاد. الأولاد يحكون لي بأنها تشتمهم، ولن أذهب لألقنها دروساً. هنا أيضاً، حين يكون المرء مدرّساً، فإنه لن يفتري على زميله أو يلقنه دروساً، ولكنها هي... كيف أقول؟ ربما تحلّ مشاكلها الخاصة معهم، لكنها تواجه صعوبةً كبيرة لأنهم صعبو المراس، فتنهار وتشتمهم، وفي اجتماع أولياء الأمور، أو في مجلس الصف ذُكرت هذه المشاكل المتعلّقة بالنظام فقالت: «لم أعد أستطيع، لم أعد أتحمّل! وإذا استمرت الأمور على هذا النحو، فإنني سأتوقف عن العمل ثلاثة أشهر!» هذا أيضاً هروب، وهناك غيرها أيضاً...

❖ هل هناك الكثير غيرها؟

فاني: لا أستطيع أن أعرف دائماً إن كان الطلاّب هم السبب في كلّ الحالات، لا أعرف..

❖ ربما كان بسبب الانزعاج..

فاني: هذا أكيد، فحين تبكي زميلةٌ لنا في أحد الاجتماعات.. هؤلاء الأولاد حين.. حين يشعرون بالاحتقار عند أحد الأساتذة.. أو حتى الكراهية، فهناك حقاً أساتذةٌ لا يحبون الأطفال -إنهم يحبون المدرسة لأنهم لم يخرجوا منها أبداً - لكنهم لا يحبون الأطفال، وهم ينزعجون منهم، حين يشعر الأولاد بذلك، يمكنهم أن يكونوا شرّيرين! الفتى المنضبط والمقولب جيداً تسير دراسته جيداً، وفي الواقع فإنّ مثل هذا الطالب لا يحتاج أصلاً إلى مدرّس، هذا صحيح.. لكن حين يشعر الطالب الصعب المراس بعدم حبّ الأستاذ، فإنه يمكن أن يكون شرّيراً (..) أنا لا أوقع كلّ اللوم على الأساتذة، لكن هنالك شيءٌ من ذلك. في العام الماضي هددوا تلك المدرّسة، لم أعد أذكر ما قالوه لها، لم أعد أذكر.. قالوا لها بأنهم سوف يفجّرون لها سيارتها..

❖ وهل حدث مثل هذا الأمر أم أنها كانت مجرّد تهديدات؟

فاني: مجرّد تهديدات، وفي أحد الأيام، في اجتماع، كنا نذكر تلك المشاكل في اجتماعٍ عام حضره أساتذة المدرسة كلهم، وانخرطت في البكاء بصورةٍ عصبية.. نعم، لم يعد البعض يحتملون وأنا أتفهم ذلك ، ولهذا فإن هذا الأمر، ينبغي أن يكون المرء.. أعتقد بأنه حين يكون لدى المرء طلاّبٌ كهؤلاء، فإنه ينبغي أن يكون قوياً، قوياً من الناحية العصبية. أو أن يحبّهم.

«أنا كنت في مكانٍ آخر»

فاني: بالنسبة لزوجي- صحيح، لقد تحدّثنا عنه مسبقاً، صحيحٌ أن تلك مشكلةٌ أبدية- أظنّ أنه كانت لديه عقدة تجاهي لأنني درستُ أكثر منه... لكلّ هذه الأسباب؛ الآن، أنا أعرف ذلك. لكن في ذلك الحين، عندما يكون المرء لازال شاباً، فإنه يقول لنفسه بأن هذا غير مهم، هذا صحيح.

❖ ألم يكن لذلك أهمية بعد ثلاثة أو أربعة أعوام من الزواج؟

فاني: بالنسبة لي لم يكن له أهمية، لكن بالنسبة له، بلى. لقد قال لي فيما بعد بأنه كان يشعر بأنه زوج السيدة. فمثلاً، كان أصدقاؤنا أصدقائي أنا، أصدقاؤنا كانوا أصدقائي. في كلّ مرةٍ كنا نخالط فيها أحداً.. إذا شئت أن أتحدث معك كما يتحدّث المرء مع الطّبيب النفسي، فقد كنتُ مخطئةً جداً وأعرف ذلك الآن. لكن حين يعيش المرء المرحلة، مثلاً في مرحلة آفينيون Avignon كنتُ جديدةً مثله..

❖ ما هي مرحلة آفينيون؟

فاني: بعد بقائنا عشر سنواتٍ في مارلي لوروا Marli-le-Roi في المنطقة الباريسية، أردنا العودة إلى الجنوب. وقد تم تعييننا، هو في مدينة نيم Nîmes..

[...]

❖ ذهبنا إلى منطقة آفينيون – ماذا كنت أريد أن أقول..؟

مرحلة آفينيون...

فاني: نعم، كنا جديدَين هناك وفي الواقع أننا تعرّفنا على معلّمة تسكن في العمارة التي كنا نسكنها وتعمل في المدرسة التي أعمل فيها، وأصبحنا صديقتين، زوجها كان صيدلانياً، حسناً، في ذلك الوقت كان لا يزال في الجيش والآن لديه صيدليةٌ في بير ليتان Berre-L'étang وتعرّف زوجي على أشخاص في نيم، أشخاص يعملون في البريد والبرق والهاتف PTT، لكنني أنا وجدتُ صعوبةً في تحملهم. أتذكّر شجاراً مريعاً – أنا أخجل منه اليوم – هذا صحيح، أقول لنفسي..

❖ لكن لماذا؟ لأن..

فاني: لماذا؟ أولاً لأنهم كانوا أناساً، كيف أقول لك؟ أولاً كانوا أشخاصاً من نيم يحبّون مصارعة الثيران..

❖ حسناً، لكن هذا..

فاني: بلى، بلى، لأن.. حسناً، أنا لم أكن أحتمل. لم أحتمل. وقد قمت بصخب غير معقول. (..) أعلم بأنني لم أكن أحتملهم. بالمقابل، وقبل الطلاق، عرّفني زوجي على أشخاص يعملون في الـ PTT ووجدتهم رائعين، وأنا لازلتُ أراهم حتى الآن، لذلك أقول لنفسي.. على كلّ حال، فإنني لا أضع كلّ اللوم على نفسي، ليست كلمة PTT هي التي كانت تخيفني، لكن.. أعرف أنني قد لُمتُه على ذلك في الكثير من الأحيان. لا، لقد تسبب ذلك في الكثير، الكثير من المشاكل. لم تأتِ هذه المشاكل من هنا، لكنها، حسناً، كانت تتبلور حول كلّ ذلك، والحقيقة أنه كان لدى زوجي عُقدٌ لامعقولة.. أنا لم أتعامل معه بالكثير من الحنان، وأنا صريحةٌ نوعاً ما، لذلك فقد كنت أحياناً أتلفظ ببعض العبارات التي لم تكن لطيفةً جداً.

❖ ماذا كان يعمل أبواه؟

أنا التي خنقته

فاني: إنهم أناسٌ بسيطون تماماً، عمّال، فأبوه كان صانع قدورٍ نحاسية، ولكي أقول لك ماذا كان يعمل بالضبط، فقد كان يشتغل في ورشة ميكانيك صغيرة.. أعرف أنه كان يذهب إلى عمله الذي يبعد عشرة كيلومترات بالدراجة نصف الآلية؛ أما والدته، فقد عملت فترةً طويلة في صناعة النسيج فنحن من منطقة نسيج، لكن لم يكن لديها أي نوع من التأهيل؛ أنا أعلم بأنها كانت - لا أريد أن أقول بأنها كانت أمّية- حسناً، لقد كانت تعرف الكتابة لكن.. بالكثير جداً من الأخطاء؛ لقد كتب كلاهما لي وكانا يرتكبان من الأخطاء أكثر مما كانت أمي تفعل.

لا، إنهما حقاً عاملان، وشقيق زوجي عاملٌ أيضاً، عامل متخصص، وهو يعمل في ورشة للميكانيك. أما شقيقته، فقد توقفت عن العمل لأنهم كما قيل قد سرّحوا العديد من العمال في صناعة النسيج لذلك فهي الآن في المنزل؛ إنها وزوجها إذن عاملان أيضاً، ولديهما ثلاثة أولاد، وأولادهما ينجحون في المدرسة. ابنهم البكر- تحدّثت البارحة مع حماتي بشأنه- في البكالوريا وهو يريد أن يصبح مهندساً، وهو ينجح. أترين، إنه ليس، لا أدري

ما إذا كان الوسط مناسباً. أنا أعتقد بأن لديهم وفاقٌ عائلي، لذلك فالأولاد ينجحون بشكلٍ أفضل. فعندهم، يمكنك أن تقولي بأن وسطهم هو تماماً... شقيق زوجي مثلاً لا يكتب لي أبداً لأنه لا يعرف الكتابة. إنه يرتكب أخطاء في كلّ كلمة.

[...] لم أطرح على نفسي أبداً مسألة المساواة بين الجنسين؛ بالنسبة لي، حين تعرّفت على زوجي تزوّجته دون أن أطرح على نفسي هذه الأسئلة، وفي الواقع... أظنّ بأنني أنا التي خنقته، هذا ما يُقال لي، لست أدري، لا أعرف إن كان هذا الأمر صحيحاً لكنني أعتقد بأنه صحيح. حسناً، هذا الأمر مرتبطٌ بطبعي. أنا لديّ الكثير من الكبرياء، وأحبّ أن أفرض نفسي في مكانٍ ما؛ نحن الآن نقوم حقاً بتحليلٍ نفسيٍّ رخيص، لكنّ هذا صحيح؛ إنه طبعي.

❖ لكن ما الذي كان يضايقه في مهنتك.. ماذا؟

فاني: أقول هنا..

❖ مع ذلك، فإن لدى المدرّس الكثير من الوقت، أليس كذلك؟

فاني: لا، لا، بصراحة، موضوع العطل جيدٌ جداً لكن في المنزل، ليس لدى الأستاذ الكثير من الوقت، على عكس ما يعتقده الناس. في العام الأول، حين كنت أدرّس في باريس، كنت أصل إلى المنزل في السابعة أو السابعة والنصف مساءً، وبعد ذلك مباشرةً كان عليّ أن أقوم بتصحيح الأوراق أو تحضير الدروس. إنني أعتقد بأن هذه المهنة تأخذ من الوقت الكثير؛ حينذاك، كان أصدقائي هم زملائي في العمل وكنا حين نلتقي نتحدّث عن عملنا كثيراً؛ هذا الأمر شديد الإزعاج للأزواج. هذا أمرٌ لا يُحتمل، أنا أدرك ذلك الآن. لكن في تلك الفترة، كنا نستمر. هذا يحصل؛ لديّ صديقان، الزوج طبيب، والزوجة معلّمة، وحين نتناول الطعام معاً فإننا مجبرون على عدم التكلّم في العمل. فمن الواضح أنه.. قد فاض به الكيل. لا أعرف ما إذا كان هذا الأمر.. حسناً، كان هذا يزعجه، يضايقه. أعتقد بأنني كنت أُكثر من الكلام، وهذا أيضاً كان يضايق زوجي كثيراً. لكن ما الذي كان

يزعجه أكثر من أي شيءٍ آخر في.. لقد قال لي عدة مرات: «لقد كنت زوج السيدة»، أعتقد أن السبب ليس فقط عملي، ليس عملي فحسب، صحيحٌ أنه لعب دوراً، لكن هذا الأمر نتج أيضاً عن طبعي أنا.

❖ نعم، لكنك قلتِ مع ذلك بأنه لم يكن لديك الكثير من الوقت.. لم يكن لديك الكثير من الوقت له في نهاية الأمر..

فاني: هذا صحيح، كما لم يكن لديّ وقتٌ كافٍ لابنتيّ؛ هذا صحيحٌ وقد أُضيف إلى ما كنتُه، وقد زاد الأمر سوءاً. أظن بأنني لو كنت ربّة منزل، لا أريد أن.. لكانت حياتنا مختلفة.

❖ لكنني أرى، ولا أعرف ما إذا كنتُ على حق، أن الأمر تمثّل في أنكِ كنت تسلكين طريق تحوّلك إلى امرأة مثقّفة بينما كان هو يسلك طريقاً آخر، في الوقت الذي كان لديه مشاريع، مشاريع دراسية أصلاً..

فاني: نعم، أظن بأن الأمر كان كذلك على نحوٍ ما، وربما لهذا السبب أمقتُ الآن المثقفاتيين بهذا القدر. لقد توقّفتُ في منتصف الطريق. هذا صحيحٌ، فأنا أعتقد بأن فشل حياتي كامرأة يجعلني أرتاب كثيراً في كلّ ما هو.. لأنني في تلك الفترة التي أصبحت بعيدةً جداً كنت أحب الخروج والذهاب إلى المسرح. لم أعد الآن أشتري اسطوانة إلاّ نادراً، ثمّ إن الجهاز الذي لديّ صوته رديء، وليس لديّ المال الكافي لأشتري لنفسي جهازاً جيّداً. في تلك الفترة، كنتُ نَهِمةً لمعرفة كلّ شيء، وللقيام بهذا أو ذاك من النشاطات، ولم أعد كذلك إطلاقاً منذ طلاقي. لماذا؟ حاولي أن تعرفي لماذا. صحيح أنني كنت كذلك قبلاً، وقد كان يحبّ الخروج كثيراً، لكنه كان يقول لي: «لم أكن سوى زوج السيدة». لديّ انطباعٌ بأنني أنا من كان يدير الدفّة.

الفشل الكبير في حياتي

❖ وماذا عن الأولاد؟ لم يكن لديكِ الكثير من الوقت للأولاد، أليس كذلك؟

فاني: كلا، أعتقد بأنّ ابنتيّ قد عانتا الكثير من كل هذا، وبدايةً فقد عانتا من عدم تفاهمنا. صحيح، لم يكن لديّ الكثير من الوقت لهما.

[...]

❖ ماذا تفعل الابنتان الآن؟

فاني: لقد كبرتا، تماماً.. لورانس التي تسبب لي الهموم مربّية متخصصة وسوف تتقدّم لامتحان الدبلوم عمّا قريب. لا أعلم كيف هي حالياً لأنني لم أرها كثيراً منذ شباط الماضي، وهذا أيضاً ليس مصادفة. أظنّ بأنها عانت كثيراً خلال طفولتها.. نحن نتحدّث عن هذا الأمر، نتمكّن الآن من التحدّث عنه، لقد عانت كثيراً حين كانت صغيرة، فأخذت الآن تهتمّ بالأطفال الذين لديهم مشاكل. إنها تعمل في مركز وتهتمّ بحالاتٍ اجتماعية، تهتمّ بأولاد في الصف السابع. وفاليري تركت المدرسة يوم رحل والدها ولم تقبل العودة إليها أبداً، فهي أيضاً اعتبرت حينها بأن كل الأساتذة نكرات، وبأنهم أناس مساكين، أشخاصٌ يستحقّون الشفقة، بمن فيهم أنا. فالأساتذة برأيها ليسوا مؤهّلين لفهم أي شيءٍ يتعلّق بالصغار؛ ثم إن الأمر كان لعدّة سنواتٍ يشبه المحرقة، كما يقول الشباب، وحصلت مشاكل كبيرة جداً – أنا الآن أضحك إلا أنه ضحك عصبيّ نوعاً ما.

❖ كم كان عمرها حين تركت المدرسة؟

فاني: حسناً، لقد كانت في الصف الحادي عشر. كم كان عمرها إذن؟

❖ ستة عشر أو سبعة عشر عاماً؟ والآن...؟

فاني: نعم. والآن هي تعمل في مجال الزراعة لكن هذا يعجبها لأنها تعمل خارج الجدران؛ فاليري فتاةٌ هامشية جداً، والأخرى... ابنتاي توأمان؛ أعتقد بأنها تجد صعوبةً في تحملّ المتاعب وقد جرّبت تقريباً كلّ شيء، جرّبت العمل في المكاتب، وأجرت دوراتٍ تدريبية، والآن هي تعمل خارجاً على الرغم من... إنني أستغرب أصلاً مثابرتها في العمل رغم البرد أو الحر، وهي مستمرّةٌ في الاهتمام بالزهور. بعد عامين، عامين، لا، لقد ذهب زوجي عام 85، لقد رأيت معها نهاية النفق في العام الماضي. لكن هذا الأمر هو بحقٍ الفشل الكبير، الفشل الأكبر في حياتي.

❖ لماذا، طالما أنها قد وقفت على قدميها ثانيةً؟

فاني: لا أدري، لأنني أظنّ بأنهما كانتا تعيستين. سوف أبكي إن قلتُ لكِ أشياء كهذه. هذا صحيح، فإنه يصعب عليّ التحدّث بهذا الموضوع.

❖ نعم، لكنّ كلا منهما قد شقّت الآن طريقها وأصبح عمرهما...كم أصبح عمرهما؟

فاني: إنّهما في الثالثة والعشرين، وأظنّ بأنهما قد... كيف أعبّر لكِ؟ لقد جرحتهما حياة والديهما جرحاً لا شفاء منه.

❖ هل عشتِ مع زوجك فترةً طويلة؟

فاني: نعم، عشرين عاماً. إلاّ أنني أعتقد بأن كلاً منا قد ارتكب الكثير من الحماقات، لأننا لم نكن ناضجَيْن بما يكفي للزواج. لأنني أنا كنت في مكانٍ آخر؛ لأننا لم نكن جاهزَيْن لأن يكون لدينا أولاد؛ ومهنة التدريس لا تقدّم شيئاً في هذا المجال. لم تساعدني أنا في علاقاتي مع البنتين. إطلاقاً.

❖ هل تعتقدين أن مهنةً أخرى كانت ستكون أكثر سهولةً؟

فاني: لست أدري. لا، لا أستطيع أن أقول لك لأنّ هناك أمثلة أخرى أقول لك فيها.. فأصدقائي، السيدة، صديقتي – أقول السيدة وهذا غباءٌ مني– صديقتي معلّمة، والزوج طبيب، إنه وسطٌ آخر، كان لديهما مالٌ أكثر مما كان لدينا؛ وكانا يعانيان أيضاً من مشاكل زوجية لأنها.. بالنسبة لها، فإنها هي التي كان زوجها يحتقرها وهو لازال حتى الآن يقول لها عندما يتناقشان: «أنتم المعلمون كلّكم نكرات، الخ..، الخ..، أنا أرى (هو طبيب) أولاداً يأتون إليّ ويريدون أن يصبحوا بنّائين أو أن يعملوا في البناء، أمين، الخ...ما الذي تفعلونه في المدرسة؟»، باختصار فإن لديهما مشاكل، مشاكل زوجية – من الصعب على المرء أن يتحدّث عن شخصٍ آخر – لكن، هناك مشاكل. لديهما ولدان رائعان لم يعانيا كثيراً، رغم أنهما كانا مطلعين على مشاكل أبويهما وكانا يسمعان كل شيء. والأمور تسير رغم كلّ شيء. الأول

في الصف التحضيري لمدرسة عليا في سافينيي Savigny والآخر في الصف التاسع، هما إذن متوازنان تماماً وليس لديهما مشاكل دراسية، على الإطلاق؛ لكن مع ذلك، فإنّ لدى هذين الزوجين مشاكل زوجية، وهذا الأمر يستمر. فهي - أنا أقارنها نوعاً ما بزوجي - هي كانت تبحث خارج الإطار الزوجي عن تعويضٍ ما بسبب وجود مصاعب في علاقتها بزوجها، وهكذا كان يفعل زوجي، فقد كان يبحث عن التعويض خارج المنزل. لست أدري إن كان ذلك ناتجاً حقاً عن المهنة.

❖ لكنك مع ذلك قلتِ منذ بضعة أيام بأن جميع الأزواج تقريباً من زملائكِ الذين أحد الطرفين فيهما أو كلاهما معلّم (فالعديد منهم قد تزوجوا زملاء لهم) والآخرون أيضاً يعيشون مشاكل في حياتهم الزوجية في وقتٍ ما، أليس كذلك؟

فاني: صحيح، الأمور لا تسير على ما يرام لكن البعض يقاومون. بعض الأزواج يقاومون تلك ال: «الأمور لا تسير على ما يرام»؛ هناك عددٌ هائل من الزيجات التي لا تسير على ما يرام لكنها تستمر. لكن هذا.. بالنسبة لي، فإن مشكلتي الكبيرة هي التأثير الذي قد يُحدثه هذا الأمر على الأولاد. لقد سارت الأمور بشكلٍ سيئ للغاية في زواجي. أنا أعرف زيجاتٍ ليست على ما يرام وأسمع تعليقاتٍ، لكن مع ذلك..

❖ هل الأمور تسير بثباتٍ وهدوء بالنسبة للأولاد؟

فاني: إنها تستمر، هناك خيانة من طرفٍ أو آخر، وأنا لستُ على علمٍ بأمور الناس الحميمة. لديّ على سبيل المثال أصدقاء في منطقة بروتانيا Bretagne، الزوج مفتّش ضرائب، والزوجة مدرّسة للّغة الإنكليزية. حين يتحدّث عن زوجته فإنه يقول: «أوه، ماذا تظنّين بأنها تفعل؟ إنها منغمسة في أوراقها، وأنا سئمتُ، الخ...».إنه الآن يذهب وحده في الإجازات ولديه أصدقاء في بولونيا؛ لقد استقبلوا بولونيين وهاهو الآن يذهب وحده. ما الذي يجري؟ لست أدري. إن كان باستطاعة المرء أن يقاوم كلّ هذا، فالأمر حسن، لكنه يسبب مشاكل، هذا مؤكّد.

كنتُ عاطفيةً جداً

❖ هل تباعد مسار عملك عن مسار عمل زوجك تدريجياً؟ قلتِ بأنه كان في البداية عريفاً ثم أصبح محصّلاً. أنا لا أفهم جيّداً ما الذي يمثّله ذلك في مجال العمل.

فاني: إنه الآن محصّل. كان لا يزال عريفاً حين تركني. تباعد.. لا، لم يكن عمله يهمني كثيراً. لم أجد يوماً أهميةً في عمله.

❖ وماذا عن اهتمامكما المشترك؟ لقد عشتما معاً عشرين عاماً، ولا بدّ أنه كانت لكما أوقاتٌ جيدة معاً، أليس كذلك؟

فاني: نعم، اهتمامنا المشترك -كيف أقول لكِ؟ - بالنسبة لي فإن ما سأقوله لك ساذج، - بالنسبة لي كان حُبّ فترة الشباب، كنتُ عاطفيةً جداً ثم تزوّجت، وظننتُ بأن ذلك سيدوم. هذا كل ما في الأمر. حسناً، أما اهتمامنا، فقد كنا سويةً، وكنا نخرج كثيراً. كانت تلك أوقاتاً جيدة. لكن صحيح.. بلى، لقد كانت لنا أوقاتٌ جيدة. أقول لكِ، لقد كنا نذهب إلى المسرح، ونذهب في العطل مع العائلة، كانت حياتي هادئة، أنا لست طموحةً جداً وكنت أكتفي بكل ذلك. لم أعرف جيداً أين كان الخطأ؛ وحين بدأ يبحث في مكانٍ آخر ليستعيد لنفسه صورةً مغايرةً عن تلك التي كنت أعكسها له كان الأوان قد فات، هذا كلّ شيء. لكنني لم أدرك ذلك؛ وقد دام هذا الأمر طويلاً؛ لكنك محقة، فأنا لم أهتم بعمله أبداً. هذا صحيح، فقد كنت أمتلك ذلك الجانب.. المثقفاتي. بلى، ربما، كنت أهتمّ بالعديد من الأمور ولم يكن عمله من بينها، فقد كان عمله يبدو لي.. لم يكن عمله يبدو لي ممتعاً، لم أهتم به. صحيحٌ أنني كنت أبذل جهداً بين الحين والآخر لأنني كنت أقرأ في المجلات النسوية عن ضرورة الاهتمام بالآخر. لكن هذا صحيح، أنا مُلامةٌ جداً في هذه الناحية. لم أهتم بعمله والآن انقطعت عن كلّ ذلك، حقاً.

❖ كانت حياتك المهنية تكفيك؟ كانت بالمحصلة تملأ حياتك، أليس كذلك؟

فاني: نعم، أصدقائي الذين كانوا يرون كيف أعيش قالوا لي: «مهنتك

هي كلّ شيء بالنسبة لك»، لكنني أدافع الآن عن نفسي لأنني لم أكن أشعر وقتها أن الأمر هو بهذه الصورة.

❖ لكن ماذا عن العمل وكل ما يحيط به؟ ليس الأوراق فحسب، كان هناك بالتأكيد شيءٌ آخر غير الأوراق، أليس كذلك؟

فاني: نعم، العمل والطلاب والزملاء، كل هذا كان يملأ عليّ حياتي.

❖ هل الزملاء مهمون؟

فاني: نعم، نعم، إنهم أصدقاء. بعض الزميلات أصبحن صديقاتٍ لي. كانت هذه العلاقات تملأ عليّ حياتي. لذلك فإنه يبدو لي بأن زوجي كان ثانوياً. ثم إنني أعتقد بأنه شعر بالأمور على هذا النحو. وحين يقول لي: «كنت زوج السيدة» فهذا ما كان يقصده، لكن..

❖ هل كان لديكِ نشاطات إلى جانب حياتك في الثانوية؟

فاني: ماذا تعنين بالنشاطات؟

❖ لقد قلتِ لي بأنك لم تكوني مناضلة، لكن..؟

فاني: أوه! مناضلة (..) لقد مررت بمرحلة؛ حين كنا في آفينيون كنت أمينة خلية، فقد كنا كلانا، أنا وزوجي، في الحزب الشيوعي، وكان هو منخرطاً أكثر مني، وأصبحت أمينة خلية خلال فترةٍ معينة. هل كنت أمينة خليةٍ بكامل قناعتي؟ لا أعلم.

❖ كم دام ذلك؟

فاني: عامين. في تلك المرحلة، كنت أؤمن بالعديد من الأمور، أما الآن.. الآن فترتُ فعلاً. ماذا كنتُ أعمل؟ كنتُ أمارس الرياضة والرسم..

❖ أليس ذلك كثيراً، مع ولدين وزوج، بالإضافة إلى عملك في الثانوية؟

فاني: لم أكن أمارس هواياتي في كل الأيام. ما الذي كنتُ أعمله أيضاً؟ كنتُ أكتب قصائد، أشياء كهذه. لقد كان لديّ حياة لطيفة فعلاً. لطيفة، لا، كنتُ على ما يرام هكذا، لم أكن أدرك شيئاً.

كان ذلك يكفيني..

❖ ألم تدركي شيئاً على الإطلاق؟ لا بدّ أنك كنتِ تدركين قليلاً ما يدور حولك، قليلاً على الأقل، أليس كذلك؟

فاني: لا، لا، لا. لا، لا، لا، لم أدرك بالفعل إلاّ حين قال لي زوجي- كنت أعرف بأنه كان يخدعني، وبأنه كان له مغامرات- بأنه قد سئم حقيقةً وجوده إلى جانبي. أما أنا، فلم أشعر أبداً بمثل ذلك. كنت أظن بأنّ...لست أدري..

❖ ألم تلحظي قدوم العاصفة؟

فاني: لا، والآن أتساءل.. أتساءل ما إذا كان الأمر ناتجاً حقاً عن عملي، عن العمل الذي كنت أمارسه، أم ربما عن أشياء أخرى أكثر عمقاً آتية مني، من طفولتي، من أمي، من رغبتها في أن تراني على هذه الصورة أو تلك. لا أعرف، لقد أردت حقاً أن أكون مختلفةً عن أبويّ اللذين كانا عاملَيْن.

❖ أي أن زوجك كان مثلهما بشكلٍ ما؟ من بعض النواحي..

أصدقاؤنا كانوا أصدقائي

فاني: صحيح. نعم، في نهاية الأمر.. أنا أظنّ بأنه عانى الكثير من الملاحظات، وهنا أتذكر أموراً سخيفة جداً. أصدقاؤنا كانوا أصدقائي، وكانوا من سلك التعليم. أحد أصدقائي قال في إحدى المرات عن زوجي وبصوتٍ مرتفع أثناء تناولنا لوجبة طعام: «إنه ليس شديد الذكاء». أعتقد أن هذا الأمر آلمه بشدّة. في ذلك الحين، أخذنا الأمر بمرح. كانت هناك أشياء أخرى أيضاً؛ أظن أيضاً بأنه كان لدي أصدقاء في الوسط التعليمي أيضاً.. وخاصّةً أصدقاء المنطقة الباريسية، حين كنا فيها، كانوا من المثقفاتيين حقاً. مثقفاتيين بالمعنى الحقيقي للكلمة، يضعون المناقشات الفلسفية في المرتبة الأولى، الخ.. هناك واحدٌ منهم، لا أعرف ما الذي يفعله الآن، وقد قرأت اسمه في مكانٍ ما في أحد الأيام خلال أحد المؤتمرات، لا بدّ أنه صعد،

(..)، وكانوا من أبناء البرجوازيين، لم يكونوا أبداً من وسَطنا، لقد كانوا بحقٍ أبناء برجوازيين، هؤلاء الذين أدعوهم أنا بالمثقفاتيين. وكانوا يزدرون الآخرين كثيراً. أعتقد.. بلى، هذه الملاحظة تُظهر ذلك؛ أنا لم أشأ أن أقبل ذلك، لم أشأ الاعتراف بذلك. وكنت أبدو أمامهم مرتاحة، أشعر معهم بالارتياح، أما زوجي فلا، وأنا لم أكن أرى ذلك. لم أشأ أن أراه. أظنّ بأن ذلك كله قد آلمه كثيراً، ومع أنه ليس غبياً، لكنه لم يستطع أن يدافع عن نفسه في هذا الوسط الثقافي البرجوازي. لقد قطعت الجسور مع كلّ أولئك الناس بصورةٍ كلّيّة (..). كما أنه لدى ابنتيّ كرهٌ حقيقي تجاه المعلّمين.

❖ صحيح؟

فاني: نعم. ما عدا لورانس التي قابلت معلّمة لطيفة؛ لو سمعتِ ماذا تقولان عن المعلّمين! لكن هذا بسببي.

❖ ماذا تقولان؟

فاني: معظم المعلّمين الذين قابلتاهم كانوا أشخاصاً أنانيين، منغلقين على ذاتهم، ولم تكونا قادرتين على التحدّث معهم، الخ.. حسناً، صحيح أنني أنا أيضاً قابلت مثلهم.

❖ ممّن لا يمكن التحدّث معهم؟

فاني: نعم! حين قامت فاليري بالهروب كنتُ في عزّ الانهيار، كان ذلك يوم رحل الأب، يوم العودة من عطلة الفصح عام 1985، في ذلك اليوم بالذات تركت فاليري المدرسة. أنا لم أعلم بذلك فوراً فقد كانت تأخذ حقيبتها في الصباح وتذهب إلى الثانوية. وحين أردتُ أن أتحدّث مع الأساتذة، احتموا خلف القانون؛ بالنسبة لي فإنني أفهم لأنني أنا أيضاً معلّمة وأعرف القاعدة، لكن لم يكن هناك أحدٌ لمساعدتها حقيقةً، وأنا نفسي لم أكن مفتوحةً لها بصورةٍ كافية، وكنت مشغولةً بمشكلتي، لذلك كنت أقول لها: «يجب الذهاب إلى الثانوية»، وكنا نتحدث قليلاً عن هذا الأمر، الخ.. لكنني لم أجد أحداً ليساعدها. لقد ذهبت عدة مراتٍ إلى الثانوية. فكانت هي (...)

❖ أي أنها تركت الثانوية بصورةٍ كاملة، ولم يساعدها أحد على العودة، أليس كذلك؟

فاني: نعم، أظنّ ذلك، لو أنها التقت بأحدٍ ما.. لقد وضعتها مثلاً معي في المدرسة، وقد غاب أبوها فترةً.. هذا ما تقوله ابنتاي، تقولان أنه لم يكن لديهما أب. لذلك فقد تعلّقتا على الدوام بأساتذةٍ ذكور؛ وحين كانت فاليري في مدرستي كان فيها أستاذ تاريخ وجغرافيا يشبه، بلحيته، زوجي قليلاً، وقد حقق المعجزات مع فاليري، وتمكّن من إعادة دمجها في الوقت الذي كانت فيه صعبة المراس. لدى ابنتيّ كرهٌ مقدّس للمعلمين. أنا الآن أدين، ولست فخورةً حين أقول.. لذلك، وربما بسببهما، أحاول أن أكون معلّمة شديدة الإصغاء لطلاّبي.

[...]

❖ ألم يكن أسهل لو أنكم بقيتم في الجنوب؟

فاني: لكنني أنا التي لم أشأ البقاء في الجنوب. أنا التي اتخذت القرار. لقد مللتُ كثيراً في الجنوب. في الواقع، فإن هذه هي مشكلة الـ.. لقد رحلتُ باكراً جداً من القرية التي وُلِدتُ فيها والتي كنت أحبها كثيراً إلى المدينة لأن أهلي قرروا الذهاب للعمل في «المدينة»، -وأضع كلمة مدينة بين قوسين لأنها كانت عبارةً عن قرية كبيرة. لقد شكّل ذلك الانتقال أول انسلاخٍ لي وكنت لا أزال صغيرةً جداً، لم أكن بعد في الثانوية لكنني حبستُ نفسي شهراً كاملاً في المنزل؛ كان ذلك أول انسلاخٍ لي. لقد تشكلت لدي ذكرى.. حارقة جداً لذلك الرحيل فيما بعد. حسناً، بعد ذلك، هناك سنوات المدرسة الداخلية، ثم تولوز Toulouse، ثم باريس، وفي نهاية الأمر لا يعود الإنسان يعرف أين هو. وأنا أعتقد بأن حياتنا كانت ستكون أكثر هدوءاً لو أننا بقينا في الريف، على مثال حياة شقيق زوجي التي هي أكثر هدوءاً واستقراراً. وأظن بأن عدم وجود المرء قرب عائلته يمثّل إعاقةً حين يكون في طور البداية. أنا مع نظام الأسرة، أصبحت أعود إلى قيم الماضي تلك، وأعتقد بأن الصلات العائلية هامة، كل ذلك النسيج العائلي، الأهل المتواجدون، الخ...هذه الصلات تجبر الناس على..

الانتباه لأنفسهم، وعلى الانتباه للآخرين. بالنسبة لنا، فقد كنا من هذه الناحية متروكين لأنفسنا، لقد أُسيئت معاملتنا في هذا المجال.

[...]

❖ إذن فقد عاد زوجك إلى الجنوب. وبعد؟

فاني: نعم، نعم، لقد عاد هو إلى الجنوب عام 85. هو الآن محصّل في مكتبٍ صغير، وأظن أنه قد تخلّى هو أيضاً عن..، لابد أنه يعيش حياةً صعبة للغاية، وقد تخلّى نوعاً ما عن أي طموح. ما يريده الآن، مثلي، هو أن يقوم بعمله بهدوءٍ في المكتب الذي يعمل به. لا أعرف تماماً كيف هو لكن ابنتيه لا تريانه أبداً على كل حال.

● منذ يوم رحيله؟

فاني: نعم. وقبل ذلك أيضاً، قبل أن يترك منطقة باريس، كان يأتي إلى المنزل أحياناً، لكنه لم يبدِ أبداً اهتماماً حقيقياً بهما. هذا أيضاً يلعب دوراً وهو لا علاقة له لا بعمله ولا بعملي، وأظنّ أن ذلك ربّما يعود إلى أنه كان صغيراً جداً حين وُلِدتا، فقد كان في التاسعة عشرة حين توجّب علينا أن نتحمّل مسؤوليّتهما؛ والواقع أنه لم يهتم أبداً بأطفاله. هذا ما تقولانه الآن بينما لم أكن أنا أرى ذلك. أعتقد أن الخطأ الأكبر في تركيبتي النفسية هو أنني أظن دائماً– لم أعد أظن ذلك الآن – بأنّ الآخرين مثلي، بأن ردود أفعالهم مثل ردود أفعالي. إنني أعمل وأرى الأمور بطريقتي، وأتمنى أن أُدخلها ضمن... أتمنى ولا أدري الآن، إنني أعرف بأنني هكذا وهي نقيصةٌ عندي. لكنني أُدخل كلّ شيءٍ ضمن رؤيتي. لذلك، فإنني أريده أن يكون مثلما أريد، مثلما أريده أنا أن يكون. إنني أرى الأشياء على هذا النحو ولم أكن أُدرك كل تلك المشاكل. كانت تحصل في بعض الأحيان صداماتٌ، و.. لذلك، فقد كنتُ أتولّى الأمور، وكانت الأمور تسير.

❖ لأنه كان ينبغي لأمور البيت أن تسير؟ لقد كنتم أربعة أشخاصٍ، وأنت التي كنتِ تسيّرين أمور البيت؟

فاني: نعم، كانت تسير، كانت تسير بالفعل.

❖ هذا إنجازٌ بحدّ ذاته.

أنا أحبّهم، وهذا يكفي

فاني: حسناً. إذن، لم أكن أرى كل المشاكل الداخلية للناس، أو أنني كنت أقول: «هذا ليس بذي قيمة، فأنا أحبّهم وذلك يكفي.» إذن، ماذا نقول أيضاً؟ لست أدري، أنا أحدّثكِ عن نفسي ولا أعلم ما إذا كان ما أقوله ضمن الاتجاه الذي تريدينه.

❖ بلى، بلى، تماماً..

فاني: يظهر الأمر كما لو كنتُ عند الطبيب النفسي.

❖ كلا! ليس لهذه الدرجة!

فاني: آه! لكنه قد سبق لي الذهاب إلى الطبيب النفسي مع ذلك!

❖ صحيح؟ سبق لك الذهاب؟

فاني: نعم، لكن ليس من أجلي، بل كان ذلك حين تعاطت فاليري المخدرات، فذهبت إلى الطبيب النفسي.

❖ ألم تعد الآن تتعاطى المخدّرات؟

فاني: لا، لكنها لا تزال تتناول بعض الحبوب. لقد قرأتُ في الكتب الطبية بأن هذا ليس خطيراً جداً؛ على كلّ حال، فإنه يمكن شراء هذه الحبوب من الصيدلية ببساطة. لكنها تعاطت الهيروئين لمدة عامين بصورةٍ غير منتظمة. وحين انتبهتُ للأمر، فإن ذلك لأنها أرادتني أن أنتبه له. كنت أعلم بأنها تعيش حياةً مضطربة، لكنها كانت تعيش معي لحسن الحظ. لقد أرادتني ان أعرف، تصرّفتْ بحيث أعرف.

❖ إذن، فقد ذهبتِ حينذاك إلى الطبيب النفسي من أجلها طلباً للمساعدة؟ ذهبتِ معها؟

فاني: لا، ذهبت وحدي. حين انتبهت للأمر في البداية، ذهبت لرؤية مديري، المدير السابق، فهو الآن مدير في تراب Trappes، وهو كان يعرفني جيداً، يعرف مشاكلي وأعرف مشاكله، لم نكن صديقين حقاً لكننا كنا مع ذلك مرتبطيْن، وقد أعطاني عنوان مركز في إيفري Ivry يُدعى استقبال النجدة، مهمته العناية بأولاد مثلها، لديهم شيءٌ من الانحراف؛ قال لي

الطبيب النفسي: «سوف نبدأ بك»، فأجبتُ بنعم، وقلتُ له كلّ ما أقوله لك الآن؛ وهو، الأطباء النفسيون... لقد جرى ذلك، ولم أستفد قيد أنملة. لا. خلال ذلك، توفّي أبي وبعد ذلك، شعرت ببعض الإحراج من العودة إليه لأنني لم أعد أعرف ماذا أقول له، قلت له: «اسمع، لن أعود، أبي توفّي»، وكنت أهضم ذلك الموت، كان ذلك الموت حدثاً مهماً في حياتي. (...)

❖ هل حدث ذلك منذ فترة قريبة؟

فاني: 87. لقد نظرت للأمور بطريقة أخرى في ما يتعلّق بابنتيّ. لأنني لم أكن أتقبّل، ودوماً بصفتي مدرّسة، ألاّ تكون ابنتاي قد سارتا في طريقٍ مستقيم، وكان الكثير من المشاكل ينبع من هنا. وأمام ذلك الرجل الذي مات قلت لنفسي بأنه ليس لكلّ ذلك أهمية.

❖ لكنك في البداية لم تكوني تريدين أن تخرجي من زاويتك، والآن لا تريدين العودة إليها.

أولئك الناس المخادعون

فاني: لا، الأمر لا يتمثّل في أنني لا أريد العودة إليها. أعتقد أنّ أصدقائي هنا مهمون للغاية، وسأجد صعوبةً في أن أتركهم. فقد سبق لي أن تركت أصدقائي في آفينيون، لا... هنا سأجد صعوبةً حقاً. أنا أقول كلّ عام بأنني سأطلب تغيير عملي. {كلامٌ حول الفيديو.} أنا أشعر بالخزي أيضاً، لماذا؟ أنا لا أنكر أصلي إطلاقاً. هناك أشخاصٌ يأتون من الريف، كان بإمكاني أن أمحو لهجتي، أن أبذل جهدي في هذا المجال. لا زلتُ أحتفظ بعلاقاتٍ مع أهل زوجي. حماتي تقول لي: «أتعلمين يا فاني، كنت أحبُّ فيك أنك كنتِ بسيطة».

❖ «كنت»..

فاني: كنت، فأنا الآن... بالنسبة لها فإن الطلاق... أظنّ أنّه قد سبّب الكثير من الألم، لأهلي أيضاً مع ذلك؛ لقد شعر أبي بالكثير من الحزن، وأهل زوجي أيضاً؛ إنها تقول لي: «كنت» لأنّ الأمر انتهى، لأنني لم أعد أستطع الذهاب إلى منزلهم كما كنتُ أفعل في السابق، إنها تقول لي: «كنتِ

بسيطةً، ولم تكوني تتصنّعين»، لم يكونوا في السابق ينظرون إليّ على هذا النحو، وأظنّ أنه بالنسبة لأناسٍ من العمال، فقد كنت... لدى أختي صديقاتٌ معلّمات، مدرّسات، يمارسن ما أسمّيه بالخداع. هل هذه هي الحقيقة أم أنني أنا التي أشعر بالأمر على هذا النحو؟ إنني أرتاب كثيراً بالأشخاص المخادعين، لكن حين يكونون مع الآخرين، يشعر المرء على الفور بأنهن معلّمات، هنّ يُظهرن ذلك.

❖ يشعر المرء بذلك؟ هذا غريب! مع ذلك، فقد قلتِ بأن أمك تشعر بالخيبة لأنّ لديكِ الكثير من العمل، وأنها حين تراكِ قادمةً، كانت تظنّ بأنّ المدرّس موظّف...

فاني: نعم، أعتقد أنها أدركت ذلك، فحين أتت إلى هنا خلال العام الدراسي، أدركت بأن هذا العمل يأخذ الكثير من الوقت. أظنّ أنها قد فهمت بعض الأمور لأنّ ما تعرفه عن بناتي- حتى لو لم تكن تعرف كلّ شيء - يكفي لترى بأنّ المقاييس النظامية لا تنطبق على هذه المهنة، الخ. لذلك فقد وضعت كلَّ المسؤولية – وهي محقّةٌ في ذلك – على مشاكلنا الزوجية وعلى طبعي، الخ، الخ، إلاّ أنّها لاحظت مع ذلك بأن مهنتي ليست مريحةً كما كانت تعتقد: ليس لدينا ما نفعله ونعود إلى المنزل ولدينا العطل، كلّ شيءٍ رائع، الخ، الخ، هذا ما كانت أمي تظنه. لكن حين أتت، وقد أتت عدّة مراتٍ مع أبي خلال العام الدراسي، فقد لاحظت بأنني أكون مزنوقةً في المساء!

وحتى خلال العطل، يحصل أن أعمل... قريباً سوف أذهب في عطلة عيد الفصح، وبالتأكيد، فإنّ لديّ تسعون نسخةً للتصحيح. هذا هو الحدّ الأدنى الذي عليّ أن أقوم بتصحيحه. يجب عليّ القيام بذلك، كما أن هناك ما سوف أقوم بتحضيره. ابنتاي تكونان أكثر استرخاءً خلال العطل، إلاّ أنني أشتغل مع ذلك من أجل المدرسة. (...) حلمي الكبير أن آخذ البنات معي هناك (إلى آرييج Ariège) لكنني ربما لن أفعل لأنه ستتم تسميتي في مدرسةٍ ثانوية؛ لكن مع ذلك، فقد كان بودّي أن أعرّفهما على منطقتي قبل أن تصبح شنيعة بشكلٍ نهائي، حيث أنّ الاهتمام ينصبّ على السياحة في آرييج، وأظن أنها قريباً لن تعود كما كانت.

❖ في أية منطقةٍ من آرييج؟

فاني: لقد وُلدت في قريةٍ صغيرة تُدعى ليران Léran، وأمي تسكن في لابلانيه Lablanet وهي بلاد النسيج ولعبة الروغبي rugby لكن فريقهم هبط الآن قليلاً. آرييج منطقة صغيرة جداً، ومركز المنطقة يُدعى... فوا Foix. المحافظة هي فوا. لا، ليست كبيرة. لكن يوجد فيها قصرٌ جميلٌ جداً. كما أنها منطقة جميلة، وأنا أحبها كثيراً. لكنه لا يمكنني أن أستقرّ فيها. على كلّ حالٍ، وضعي هنا جيد، وقد وجدتُ لنفسي مكاناً، إنها سياستي، أنا هنا، وليس لديّ سوى خشيةٌ وحيدة هي أن أُجبر على الانتقال، وعلى تغيير العديد من الأشياء، فأنا وزوجي في حالة شيوع؛ أنا دوماً خائفة من... لقد عانيتُ خلال السنوات الماضية لدرجة أنني لازلتُ أخاف من التغيير. ذلك سوف يحصل، لكنني سوف أنزعج إذا توجّب عليّ أن أسكن في مكانٍ آخر. وفي الواقع، حين يكون المرء مُقتلَعاً من جذوره – أنا أشعر بأنني حقاً مُقتَلعة من جذوري– فإنه يصبح مجبراً على البحث عن جذورٍ أخرى. أنا وجدت مثل هذه الجذور عبر الأصدقاء الذين كوّنتهم هنا. وربما كنت متعلّقةً بهذه المنطقة لأنني عشتُ فيها مع زوجي. أقول ذلك على الرغم من أن تلك السنوات لم تكن أفضل سنوات حياتي.

لكنني سأجد صعوبةً لو عشتُ في آرييج، فأنا أحبّ باريس. أنا أذهب إلى هناك بين حينٍ وآخر، لكنني أحبّ باريس، لقد أحببتُ هذه المدينة. لستُ أدري لماذا، أحبّ الشوارع، وكثيراً ما كنت أتنزّه حين كنت أدرّس في شارلمان Charlemagne، فقد كان لديّ العديد من ساعات الفراغ في برنامج دروسي حين كنت مدرّسةً شابّة، فقد اعتنوا بي! ساعات فراغ في كل مكان. لذلك، كان لديّ الوقت الكافي للتنزّه وأنا أحبّ هذه المدينة بالفعل. حين كنت أقول ذلك للجنوبيين، كانوا يقولون لي بأنني مخبولة. بالنسبة لهم، فإنّ باريس مُقرفة. إنها سوداء تماماً.

روزين كريستان، نيسان 1991

روزين كريستان

صف اللغة الفرنسية

اليوم، ترى كوليت ف. بأن «وضعها» ليس سيئاً جداً، فهي قد حصلت للتو على تكليف بتدريس شعبتين من الصف التاسع وشعبتين من الصف الثامن، أي ما طلبته، وذلك في إعدادية مو Meaux التي تدرّس فيها منذ عامين، بعد نجاحها في الحصول على الإجازة في التدريس؛ ستحصل المعلمة الوكيلة التي أتت مؤخراً على ما تبقّى، أي على تدريس الصفوف الأكثر صعوبةً وفي الأوقات السيئة، وليس من المؤكد أنها ستتمكن من الصمود.

بعد حصولها على الإجازة وفشلها مرّةً في الحصول على إجازة تدريس المرحلة الثانوية، قررت كوليت أن تحصل على وظيفة مدرّسة مساعدة مع استمرارها في الدراسة. فوضعت ملفّها في عدّة مؤسساتٍ تعليمية قريبة من باريس ووجدت نفسها تُعيَّن كبديلةٍ في بوفيه Beauvais لفترةٍ طويلة. كان راتبها يتجاوز بقليل الحدّ الأدنى للأجور، «وبدا لها الأمر في بداية الأمر خرافياً» لأنها لم تكن قد قامت حتى ذلك الحين سوى بأعمالٍ صغيرة؛ ففي النهاية كان الراتب معقولاً، كما أن العطل تأتي بسرعة. وسرعان ما فقدت أوهامها حين عملت في صفوفها «المريعة».

بعد عامين، رسبت كوليت في امتحان إجازة التدريس الجامعية CAPES، لكنها حصلت على إجازة تدريس المرحلة الثانوية، واختارت وضعية

المدرّسة الأكاديمية الأصيلة، تحت تصرّف أكاديمية أميان Amiens ، وأتاح لها هذا الخيار البقاء في المنطقة الباريسية مع استمرارها في التعليم عاماً دراسياً كاملاً في نفس المدرسة. حينذاك، عُيّنت مدرّسةً للّغة الفرنسية في مدرسة تقع في منطقة صناعية قرب كريي Creil. هذه الإعدادية المسمّاة «بايورون Pailleron» والتي تتكوّن من مستطيلين من الإسمنت المسبق الصنع وتدفئها مدافئ تعمل بالمازوت، يرتادها أبناء عمّال، معظمهم من المهاجرين الذين يعيشون في المدن العمالية أو في أبنية صغيرة ذات إيجار منخفض HL M. في هذه الإعدادية، الشجار والعنف اللفظي يوميّان، لكن إذا كان بعض الأخوة الكبار «معروفين من قبل الشرطة»، فإنّ الطلاّب لازالوا حتّى الآن قريبين من الطفولة، وهم غير مستقرّين ومضطربون أكثر مما هم جانحون. لا زال هناك بقيّة من النظام المدرسي، وللوهلة الأولى، فإن كانت القواعد العامّة لا تُحترم، إلا أنها لا تزال تُذكر: هكذا تبدو هذه الإعدادية العادية، كما تحدّثنا عنها كوليت ف.، وهي تشبه العديد من المدارس الإعدادية المنتشرة في أرجاء فرنسا. المخدّرات موجودة في بعض الصفوف، حتى الدنيا منها، وإن كان يبدو ظاهرياً بأنه لا تجري أية تجارة للمخدرات داخل المدرسة نفسها، وهذا ما يجعل الأساتذة يتنفّسون الصعداء، لكن تبرز أحياناً بصورةٍ تراجيدية حالات هبوطٍ جسدي وإغماء بسبب جرعةٍ مفرطة من المخدرات.

في السنوات السابقة، قامت كوليت بالتعليم في شاتو-تييري Château-Thierry في ثانويةٍ «دون مشاكل»، ولم تضطر خلالها إلى معاقبة أي طالب بحجزه في المدرسة، اللهمّ إلا بسبب «عدم القيام بالواجب المدرسي». شعرت كوليت بالاطمئنان بسبب تلك التجربة النظامية في التدريس، فتمّ «قطافها بكلّ أناقة»، كما تقول هي ذاتها، فقد شعر طلاّبها الجدد بضعفها منذ عيد جميع القدّيسين(*) واضطرّت للنضال خلال العام الدراسي كله لتجنّب التجاوزات.

عليها أن تؤدّي ثمانية عشر ساعةً من التدريس موزّعة على خمسة

(*) في الأول من شهر تشرين الثاني.

أيـام؛ القدمـاء فـي المدرسـة، وكذلـك الأكـبر سـنـاً، والحـاصلون علـى شـهادة التدريس العـامّ الإعـدادي PEGC ، الذين استقرّ وضعـهم جيـداً فـي المنطقـة وفي المدرسة، والذين تعرفهم الإدارة جيّداً، كلّ هؤلاء طالبوا بجدول تدريس مفصّل على القياس الذي يريدونه. أما «المؤهَّلون الأكاديميون» الذين يجولون فـي الأكاديمية ويعيّنـون لعـامٍ دراسـيٍّ واحد فـي كلّ مدرسـة، وهـم أصغـر سـنـاً وكثيراً ما يكون حصولهم على شهادة CAPES حديثاً، فحصّتهم أسوأ. ما إن نجحت كوليت في الامتحـان حتى تركت الغرفـة التي كـانت تسكنها كطالبـة وسكنت فـي أسـتوديو أفضـل قليـلاً فـي الدائـرة الثامنـة عشـرة، بـالقرب مـن محطّة قطارات الشمال التي تخدّم منطقة أميان. عدد القطارات التي تسير خلال النهار قليل، وعليها أن تستقل قطـار السـابعة وأربـع دقـائق صباحاً أربـع مرات في الأسبوع. لذلك، فهي تستيقظ في السادسة إلاّ ربعاً وتترك حجرتها فـي السادسـة والنصـف. علـى رصيـف المحطـة، تـرى كوليـت أسـاتذةً آخريـن، ويكون عددهم وافراً في بعض الأيـام. يتم تبـادل التحيـة من بعيد، وكما لو أن هنـالك اتّفـاقٌ غير مُعلَن، فإنّ كلاً منهم يبحث لنفسه عن مكانٍ بين أنـاسٍ لا يعرفهم ليكمل بهدوءٍ نومه أو ليصحح بعض الأوراق الأخيرة. حين يصلون إلى وجهتهم، لا توجد حافلةٌ لنقلهم وعليهم التجمّع ليستقلّوا سيّارات أجرة. تقول كوليت: «السـائقون يقبلـون بثلاثـة ركّـاب، وينبغـي دفـع مبلـغ إضـافي للراكـب الرابع، وكذلك في حال وجود حقيبةٍ كبيرة».

تشـعر كوليـت «بالانقبـاض» منـذ تلـك اللحظـة، وتفكّـر بـالصفوف الصعبة؛ ما الذي ستفعله اليوم كي يكونوا هادئين. لديها، في أصعب الأيـام، ثـلاث سـاعات تدريس في الصبـاح واثنتـان فـي فـترة مـا بعـد الظـهر. فـي الفترات الفاصلة بين الـدروس، تـأخذ كوليت قليـلاً مـن الراحـة فـي غرفـة المدرّسين، وهي صالة كئيبة، يتكوّن أثاثها من بضعة كراسي من البلاستيك المصهور ونبتتَين وآلة كهربائية للقهوة يتدفأون حولها ويتهامسون ويشتكون، وتمثّل تسليةً كبرى. الجو السـائد في تلك الصالة ليس جيداً جداً ويوجد فيها باستمرار طيلة العام الدراسي تنافسٌ خفيٌّ بين الحاصلين على شهادة PEGC و«القدماء» وبين الأساتذة الأكثر شباباً.

المدرسة معزولةٌ في منطقةٍ صناعية وليس وارداً الذهاب إلى مقهى أو «المغامرة بالتسوّق». وفي المساء، «يقوم أولئك الذين يملكون سياراتٍ بنقل زملائهم الذين يسكنون في باريس إلى أقرب محطّة قطارات أو حافلات؛ إنه أفضل أوقات النهار، كما تقول كوليت، ففيه يتم تبادل الحديث، ويكونون أكثر استرخاءً ».

إنها تتذكّر بصورةٍ خاصّة أحد صفوف الثامن، يتراوح عمر الطلاّب فيه بين أربعة عشر وستةً عشر عاماً. تقول كوليت: «كنت أشعر بشيءٍ من الانقباض يوم يكون لديّ درسٌ عندهم.. لم أكن أنام جيداً في الليلة السابقة، وأقول لنفسي: «حسناً، ما الذي سأفعله هذه المرّة لإبقائهم جلوساً؟»».

ما إن يتصاعد الضجيج الدائم من الأدراج والممرات ذات الجدران المطلية بالكتابات، وهي أماكن دائمة للمجيء والرواح، حتى يشعر المرء بأن «الأمر ميئوسٌ منه» (قِدْر بخارٍ حقيقية). في كلّ طابق، وعلى جانبيّ ممرٍّ مركزيٍّ، توجد عشرة صفوف، تمثّل حواجزها الزجاجية التي ترتفع على مستوى الرأس مصدراً هاماً للتسلية، لأنه: «يكفي أن يقفز أحدٌ ما قليلاً ليهرّج ويزعج الدرس الجاري داخل الصفّ». وطيلة النهار، يتقابل المتأخرون والمتباطئون مع أولئك الذين «خرجوا من الصفوف» وأُرسلوا إلى الموجّه التربوي الذي يقع مكتبه في الطابق الأول من أحد الأبنية.

يشكّل الاصطفاف أمام باب الصف أول معاناة: «حتى هذا الأمر غير ممكن،.. صحيحٌ أن خمسة عشر طالباً (من أصل ثلاثين) يصطفّون، لكن هناك دوماً واحدٌ ينادي صديقاً من صفٍّ آخر، ويقبّل أحدهما الآخر، ثم تحصل مشاجرةٌ لسببٍ لا أعرفه.. الشتيمة لا تتوقّف (أكثرها وروداً «أمك!») وكذلك الأمر بالنسبة للعنف اللفظي. إذا حصل أن داس أحدهم على قدم آخرٍ على الأدراج، يتدفّق فيضٌ من الشتائم، بينما يظن الآخر بأن شرفه قد تلطّخ ويحاول كيل الضربات للأول».

أحياناً، يستغرق الدخول إلى الصف حوالى عشر دقائق. لم يجلسوا بعدُ، لكنهم على الأقل «في الداخل»؛ في هذه اللحظة، «يصل أحدهم

وبجعبته قصةٌ لا تُصدّق، فقد مرّ بالموجّه التربوي لأنه كان متغيباً في اليوم السابق، وقد وجّه له الموجّه التربوي ملاحظةً لم تعجبه، وهاهو يصل وهو في فورة غضبه، ويريد أن يشاركه الآخرون غضبه، والآخرون يساندونه.» وهكذا، تذهب بضع دقائق إضافية.

عددهم لا يكتمل أبداً. البعض يأتي في الصباح، والبعض الآخر بعد الظهر، أو يختفي لعدّة أسابيع. في بداية العام، وضعت كوليت مخططاً للصف يحدّد لكلّ طالبٍ مكانه طيلة العام. وبعد بضعة أسابيع، مازال المبدأ محترماً نوعاً ما، لكن الهيجان يعود مع البحث عن المقاعد أو الكراسي. في الصف عدة مقاعد خشبية قديمة ومكسّرة ومليئة بالكتابات، وعلى الطلاّب الأكثر ضعفاً أن يقنعوا بها. «كان لدى أضعف طلاّب الصف أحد تلك المقاعد، وهو طالبٌ أمضى كل المرحلة الابتدائية كلها في مركزٍ نفسي-تربوي (...) وكان يُمضي كلّ فترة الدرس في حفر المقعد إما بمشرطٍ أو بالفرجار، ذلك أنه لم يكن يتمكن من الكتابة- الأمر بسيط، فلم يكن يتمكن حتى من كتابة اسمه. وفي أحد الأيام، كان بادي السرور، فقد تمكّن من إجراء الثقب، لقد وصل إلى الطرف الآخر». أفضل المقاعد يتسع لطالبيْن، وهي مصنوعة من الفورميكا، ويمكن تعديلها بحيث تناسب طول الطالب، وذلك بواسطة فرضاتٍ وبراغي، «حينذاك يبدأ السيرك.. يأخذون برفعها وإنزالها..». معظم المقاعد مكسورة، وينبغي قبل بداية الدرس تبديل الكراسي، بحيث يتنازل الطلاّب الأقوى للضعفاء عن تلك المثقوبة والمخلّعة والعرجاء، «لأنه حين يكون المرء زعيماً، حين يكون رئيساً، فإنه ينبغي أن يكون السيّد، وهو يستحوذ على الكرسي الجيد وعلى المقعد الجيد».

مرّت عشرون دقيقة ويمكن للدرس أن يبدأ. لدى حوالى عشر طلاّب دفاتر للّغة الفرنسية، أمّا الآخرون، فليس بحوزتهم شيء، ويتم تبادل الأوراق والأقلام. نصل إلى تمرين قراءة نصٍّ، إلى القراءة «الصامتة» - «هناك عشرة طلاّبٍ يقومون بها حقّاً، والآخرون يقومون بأشياء مختلفة تماماً»-، ثم القراءة بصوتٍ مرتفع، «إنهم يريدون أن يقرأوا، لكنّهم لا يعرفون القراءة..».

بعد ذلك، هناك تمرين الإجابة على الأسئلة: «أُملي عليهم السؤال والجواب بحيث يكونون هادئين، أحاول أن أستخدم الكثير من الكتابة كيلا يصبح التمرين الشفهيّ فرصةً للتجاوزات». يتمثّل التمرين في إعمال الذاكرة والإجابة على أسئلة حول لون ملابس أحد الأبطال أو ميزةٍ أخرى له. هناك أيضاً أسئلةٌ تتعلّق بفهم النصّ والمنطق والنحو. نادرون هم الذين يقومون بالتمرين؛ أما الغالبية العظمى من الطلاّب، فهم يتخلّون بسرعةٍ عن إجرائه ويقفون ليروا ماذا فعل جارهم، وذلك رغم الحثّ على القيام بالتمرين. لاشيء يجعلهم يشاركون، لا جاذبية العلامة ولا الأهمية الثقافية ولا حتى طعم المنافسة. اهتماماتهم خارج هذا المكان. «هناك الشلة، وفيها يحكون لبعضهم أشياء... لكن هناك قصصٌ رهيبة في ما بينهم. أي أنهم يشكّلون جسداً واحداً حين يتعلّق الأمر بمواجهة المدير أو الموجّه التربوي، لكن في نفس الوقت هناك في ما بينهم شتائم مريعة. فهم مثلاً يأخذون الدفاتر اليومية التي تخصّ غيرهم، وعلى أية حال فإن هذه الدفاتر لا تفيد كثيراً، ويكتبون فيها تعابير قذرة، وشتائم كبيرة، ويكون ذلك في كثيرٍ من الأحيان بين الصبيان والبنات.»

وكما هي الحال بالنسبة للطلاّب في هذا العمر، فإن الاسترخاء في الألفاظ والملابس هو القاعدة؛ هذا الاسترخاء هو في نفس الوقت مفروضٌ ومشترك، تأكيدٌ فرديٌّ وجماعيّ أكثر منه آداباً سلوكية. هذا العام تقضي الموضة بارتداء سترةٍ واسعة وحذاءٍ رياضيّ يفضّل ترك رباطه مفكوكاً وبحيث يتدلّى لسانه.

في بعض الأحيان، يظهر جهاز تسجيلٍ على أحد المقاعد. تبدأ حينذاك مساومةٌ حول «إعادته إلى الحقيبة». لا فائدة من محاولة مصادرته: «على كلّ حال، فإن مثل تلك المحاولة تؤدي إلى مواجهةٍ قاسية للغاية، وبعض الأولاد أكثر منّا طولاً، لا داعي للأمر. فلو حصل ذلك، يتصلّب المرء وتحصل مواجهة جسدية.» ينبغي النقاش ومحاولة إقامة علاقة سُلطة وثقةٍ احتمالية نوعاً ما، لكن ينبغي البدء من جديد في كلّ درس، «لا يتمّ

اكتساب أي شيء أبداً». في بعض الأيام، يُفضّل أن يتجنّب الأستاذ الكتابة على السبّورة كيلاً يدير ظهره لهم، ويعطيهم الفرصة «ليعملوا بجدّ».

تتجول كوليت أحياناً بين الطلاّب أثناء التمارين الكتابية ويعلّق حينذاك أحد الزعماء على نوعية بنطلون الجينز الذي ترتديه، ليبرتو Liberto أم ليفيس Levis، يسألها عن سعره وينظر إلى حذائها وقميصها عن قرب، وذلك ليحدّثها عنها وعن نفسه أيضاً ويجرّب إقامة حوارٍ لامعقول. «نعم، نحن أيضاً نعرف هذه الماركات، لا نلبسها لكننا نعرفها، ثمّ إنّ أخي يسرق من منتجات ماركة شوفينيون Chevignon.».

حزيران 1992

سليفان بروكوليشي

ميزان قوى

كانت زوجة أخ هيلين قد قالت لي بأنها تبدو منشغلةً جداً بتطورات الأوضاع في الثانويات المهنية. وحين سألتُها إن كانت تقبل بالحديث عن هذا الأمر، ردّت بالإيجاب على الفور لأن الموضوع خطير وهي تريد أن تجرّب الإدلاء بشهادتها. تقع المدرسة التي تدرّس فيها مادة السكرتارية منذ عام 1985 في باريس، وتغلب عليها السمعة الحسنة. لقد قال لها بعض الزملاء بأن الأمر في العديد من الثانويات المهنية «الصناعية» أسوأ في كثيرٍ من الأحيان (في ثانويتها أقسام خدماتية وصناعية)، ويصعب عليها تخيّل ذلك.

كانت هيلين تريد أن تصبح معلّمة تربية رياضية، لكنها اضطرت لقبول توجيهٍ فنّي في الصف العاشر. وهكذا، أصبحت سكرتيرة، رغم أنها عرفت «منذ الساعات الأولى من التأهيل» أن تلك المهنة لا تناسبها، وتعزز هذا الانطباع منذ بداياتها المهنية في المدرسة التي كانت تعمل فيها. وحين عملت «مرشدةً في أحد المخيمات»، اكتشفت أنّ لديها «ميلاً لتعليم الأطفال، واليافعين» وحين سمعت بـ«دوراتٍ تدريبية للأولاد» عام *1981*، اغتنمت الفرصة على الفور. لديها «العديد من الأفكار» حول ما يمكن عمله بتلك الإجراءات الجديدة لصالح اليافعين المطرودين من النظام التعليمي وأصبحت مسؤولةً عن دورات إعادة التأهيل، ثمّ منسّقةً للمبادرات من أجل اليافعين في القطّاع السكني الذي تعمل فيه. إنها تحبّ هذا العمل، لكن بما

أنه لا يوجد ما يضمن استمرار تلك الإجراءات، فقد حصلت عام 1985 على تسميتها في وزارة التعليم الوطني كمدرّسة لمادّة السكرتارية.

حين بدأت هيلين بالعمل، كانت تنظر إلى الثانوية المهنية كبُنية مطمئنة نوعاً ما، تستقبل طلاّباً أقرب إلى الهدوء «ومشاكلهم الاجتماعية أقلّ» من اليافعين الذين اهتمّت بهم فيما سبق. إنها تعرف هنا بعض اللحظات «المدهشة»، «حين يلاحظ بعض الأولاد بأنهم قادرون على فهم شيء ما»، وحتى في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، «ينادونها «ماما» سهواً... وهم مأخوذون بالنشاط... سواءً أكانوا فتياناً أم فتيات». منذ بضع سنوات، أصبحت هيلين تشعر بالكارثة بسبب تراجع الشروط التعليمية وبسبب نمط العلاقات التي تميل إلى النشوء بين الطلاّب والأساتذة: «نحن في حالة افتقاد للعلاقات الذكية. تكون لدينا رغبةٌ في أن نستقبلهم كأصدقاء لكننا نصبح أعداء؛ نتحوّل إلى حرّاس سجن.»

إنها تعتقد بأن ماضيها قد هيّأها بشكل ممتاز لمواجهة الأوضاع الصعبة. لقد عرفت حتى الآن كيف «تواجه»، لكنها بدأت تفكّر في اليوم الذي ستكون فيه «متعَبةً حقاً». «أن أتشاجر وألعب دور المهرّج لأفرض نفسي بمواجهة الطلاّب الذين يقومون بالاستفزاز «بتصغيرهم» أمام زملائهم لا يكلّفني الكثير حتى الآن. لكن بعد سنوات، سيفيض بي الكيل... ربما سيتوجّب عليّ الهروب إذا استمرّت الأمور هكذا.»

الأسوأ بالنسبة لها ليس المعاناة العصبية ولا الشعور ب«أننا نخدع الجميع» حين نعطي الطلاّب شهادات لا قيمة لها. الأسوأ هو الإحساس بأن الرسالة التربوية التي كان يبدو لها بأنها توصلها حتّى الآن مرهونةٌ بصورة متزايدة للفشل. إنّ عدم كفاية الكوادر ونقص تطوّر الطلاّب مسؤولان بنظرها عن إضعاف العملية التربوية لصالح العصابات التي ينجح زعماؤها في فرض قانونها حتى داخل المدرسة، بضرب وإهانة الذين لا يتبعونهم. «إنّه قانون الأقوى. الطلاّب يتعلّمون الخضوع لهذا العنف، والصمت، والانسحاق».

لقاء مع معلّمة

أجراه : سيلفان بروكوليشي

هيلين أ.: يدخل المرء إلى الصف ويكون وحيداً أمام حوالى ثلاثين طالباً لدى معظمهم قرارٌ مسبق - ألاّ يقوموا بأي شيء أو القيام بأقل ما يمكن - وحساباتٌ يريدون تسويتها مع توجيههم (التعليمي). وبما أنّ محادثهم الوحيد هو المدرِّس، فإنهم يبدأون بمحاولة معرفة مقدار تماسك المدرِّس وما إن كانوا سيتمكّنون من تفريغ شحناتهم من وراء ظهره أم لا. (...) وهم يبدءون أولاً بالحيل البسيطة، كالطلاّب الذين يديرون لك ظهرهم بإصرار ويتابعون النقاش بعد أن تدخل إلى الصف ولا يستجيبون لطلباتك المتكررة بالتزام الصمت أو الهدوء، والطلاّب الذين يطلقون الصيحات والصرخات حين تطلب منهم شيئاً ما، حتى لو لم يكن سوى قلمٍ أو ورقة. وهم، في الواقع، يحاولون معرفة كيف سيكون ردّ فعل الأستاذ على الاستثارة، وذلك مثلاً بتفكيك آلاتٍ كاتبة أو أدوات مخبرية. (...)

❖ وما الذي يشعر به المرء أمام هذه الحقيقة؟

هيلين أ.: أنا لم أخف من ذلك أبداً، فقد رأيت أولاداً يُخرِجون المشارط أو يضربون بعضهم بالخوذات. لقد مررتُ بمسارٍ جعلني أواجه الحقيقة القاسية (...) وهيّأني مسبقاً لحالاتٍ من الإهانة ينبغي على المرء فيها أن يدافع عن نفسه، حالاتٍ من العدوانية. لكن بعض الأساتذة يخافون؛

ثم إن هناك فعلاً ما يخشى منه المرء أمام ثلاثين طالباً يقيسون حوالى المتر وثمانين سنتيمتراً، ولا يكون مؤهّلاً لذلك (...) بالنسبة لي، فقد قلتُ دوماً لنفسي بأنني سأجد الحلّ مهما كان الوضع (...) ربما كان هذا هو استعداد المعلّم في أيامنا هذه. لكنه صحيحٌ أنه يوجد أيضاً أساتذة يخافون ولا يستطيعون التغلّب على صفٍّ يتعامل معهم هكذا. يتزايد انغلاق هؤلاء الناس على أنفسهم لأنهم يشعرون بنوعٍ من الخزي الناتج عن عدم تمكّنهم من السيطرة على الوضع، وهم لا يتحدثون مع الزملاء حول هذا الأمر، ولا نراهم في صالة المدرّسين...

❖ وهم ليسوا أقليّة، أليس كذلك؟

هيلين أ.: كلاّ، أبداً! أنا أقول بأنهم يشكّلون النصف.

❖ في الأماكن التي يوجد فيها طلاّبٌ صعبو المراس...

هيلين أ.: أنا أعتقد بأنه حتى في الأماكن التي يُقال بأنه لا يوجد فيها إلا عددٌ قليلٌ من مثل هؤلاء الطلاّب، فإن هناك أستاذٌ من اثنين يعيش بألمٍ شديد وضعية «الصخب» تلك. هناك زملاءٌ تستهويهم إحدى المواد كاللغة الفرنسية أو التاريخ والجغرافيا ويتألمون بشدة في أعمق دواخلهم بسبب عدم تمكنهم من إشراك الطلاب معهم في ذلك الولع. بالنسبة لي، فإنني أدرّس مادّةً لا يمكن لها أن تسبب مشكلةً كهذه. لقد كنت في البداية أودّ أن أصبح معلّمة رياضة، لكن السكرتارية ليست مادّةً شيّقة. (...) لديّ زميلة محبَطة باستمرار بسبب عدم تمكّنها من ممارسة مهنتها كما تبغي بإشراك الطلاّب حبّها للأدب. هذا الأمر يُمرضها. (...)

❖ هل لمستِ تغيّراتٍ على مستوى الشهادة التكميلية المهنية B.E.P؟

هيلين أ.: اليوم، لم يعد لشهادة التأهيل المهني C.A.P من وجودٍ تقريباً. لم يعد هناك سوى الشهادة التكميلية المهنية B.E.P. ونحن نعلم بأنه، منذ بضع سنوات، لم يعد يتمّ توظيف الطلاب الحائزين على تلك الشهادة. لذلك، عليهم الذهاب إلى مرحلة دراسية أبعد بتقديم امتحان الشهادة الثانوية المهنية. وهذا مناسبٌ جداً لأنّ التعليمات الوزارية توصي بوصول

ثمانين بالمائة من هذه الشريحة العمرية إلى هذا المستوى. لذلك، يتوجّب على الطلاّب الحصول على تلك الشهادة التكميلية: وهنا نرى كيف تتم الأمور. نراه أولاً من محتوى الاختبارات الذي يتناقص بصورةٍ واضحة جداً بين عامٍ وآخر. ففي الاختبارات التي كلّفتُ بتصحيحها وغيرها، يحصل الطالب على نصف العلامة بمجرد أن يتمكن من النقل من زميلٍ له. (...)، كما أنّ الإجابات موجودة ضمن النص ذاته ويكفي أن يعرف الطالب القراءة حتى يحصل على الإجابة. الأمر سواءٌ في الفرنسية والمحاسبة وفي كل المواد... ورغم هذا كلّه، فحين يريد أساتذةٌ يصححون الاختبارات أن يقوموا بعملهم ويضعون علاماتٍ سيئة لطلاّبٍ لا يتمكنون حتى من القراءة لاستخراج الإجابات، فإمّا أن تعيد السلطات الإدارية المحلية أو سواها تقييم العلامات بصورةٍ مباشرة لكي تحصل نسبةٌ معينة من الطلاّب على الشهادة، أو أن يتلقّى مسؤول مركز الإصلاح اتصالاً هاتفياً ويمرّ على الزملاء قائلاً لهم: «يبدو أننا أكثر صرامةً مما ينبغي في إعطاء العلامات بالمقارنة مع مراكز إصلاحية أخرى، الخ...» الأمر شبه منهجيّ. وهكذا، يصل الطلاّب إلى البكالوريا المهنية، وبما أنه ينبغي أن تُحقَّق نسبة الثمانين بالمائة المطلوبة، فإن الأمر يتم بنفس الصورة بالنسبة للبكالوريا المهنية.

[...]

أنا لستُ نخبوية، لكن مثل هذه الإجراءات تعني خداعاً للجميع. إنّه خداعٌ للطلاّب لأنهم يتخيلون بأنّ بمقدورهم أن يتدّبروا أمورهم بهذا الشكل في الحياة بينما هم في الواقع لن يجدوا عملاً ولن يفهموا ما الذي جرى. كما أنه أمرٌ سيئ بالنسبة للأساتذة لأنه مُحبِط... نحن لسنا هنا لنقوم برعاية أطفالٍ صغار السن؛ لدينا رغم كلّ شيء رغبةٌ في تعليم أشياء للطلاّب. لقد مللنا من التظاهر! (...) خلال الاستراحة، يمضي الطلاّب وقتهم بقصّ منجزاتهم في التهرّب من الدراسة وإزعاج الأساتذة، الخ... على بعضهم البعض: «لقد تمّ طردي» «لم نحضر الكتاب مرةً واحدة خلال العام كله»، ثم يحصلون على شهادتهم الإعدادية. لذلك، فإنهم يعتقدون بأنهم ماكرون، ويتخيلون بأنهم رؤوس كبيرة وأنهم «بُعصوا» - هذا هو

التعبير الذي يستخدمونه- الجميع. (...) أنا لستُ رجعية، على الأقل هذا ما أظنه، لكن المدرسة كانت في السابق مكاناً ذا قيمة وكان المرء يتعلم فيها أن يحترم قليلاً الأشياء والناس والرفاق، وكان يتعلم الحياة مع الآخرين، وكانت مكاناً تأخذ فيه الأشياء موقعها. أما الآن، فربما أذهب للقول بأن الوضع معاكس. لقد تحوّلت المدرسة إلى مكانٍ لانعدام التربية؛ أي أنّ أولئك الذين يأتون إليها قبل أن يستسلموا والذين يؤمنون بما ستقدمه لهم الثانوية المهنية هم في خطر. هذا الجو، ذلك العنف والخوف الذي يولّده عند أولئك الذين يعانون منه طيلة سنوات لا يمكن إلاّ أن يترك آثاراً على الفرد، على والد المستقبل غير المسؤول، على المواطن.

[...]

اليوم، لم يعد يوجد تقريباً لا مراقبون ولا كل ذلك. لذا، فحين يكون لدينا أربعون أستاذاً لخمسمائة طالب، ويرتفع عدد الطلاب في الصف من خمسةٍ وعشرين إلى ثلاثين طالباً(...) فإن ميزان القوى يميل لصالح الطلاب، وبشكل خاص الزعماء منهم، زعماء الصفوف وزعماء المدرسة، الخ. ونحن نعرف طلاّباً يسجّلون أنفسهم في المدارس كعصابات. إنها أمورٌ من الممكن معالجتها لو أخذنا بعين الاعتبار واقع أن المدرسة لم تعد مكاناً للتأهيل المهني وحسب، بل هي أصلاً لم تعد تقدم بالفعل مثل ذلك التأهيل، لكنها أولاً مكانٌ لاستقبال الطلاب الذين لفظتهم الإعداديات والثانويات العامة: والاستقبال يعني وجود أنظمةٍ لتحقيقه، وكذلك كوادر من الراشدين كالموثّق والمساعدة الاجتماعية والطبيب المدرسي ومراقبي القسم الخارجي وموظفي الصيانة.. ينبغي أن يتمكن اليافعون من أن يشعروا باحتواء الراشدين لهم، بمساندتهم لهم. وحين يتمّ ذلك، حين يُعاد خلق ظروف استقبالٍ إنسانية، تستعيد وزارة التربية الوطنية دوراً تربوياً.

❖ وما هي أكثر التطورات بروزاً اليوم ؟

هيلين أ.: إن ما يبدو لي الأكثر بروزاً هو انخفاض مستوى الطلاّب الذين يصلون إلينا(...) مهما قال وزيرنا عن ذلك. ثم إنّ ما أجده شديد

الخطورة... ويرعبني... لا أعرف كيف أشرح لك ذلك. {يعبّر وجهها وصوتها عن شكلٍ من الإرهاق}. إننا نجد أنفسنا مع قطيعٍ يمكن أن يكون شديد اللطف، بل ربما مليئاً بالإرادة الحسنة، لكننا نشعر ضمنه بصورةٍ متزايدة بثقل الزعماء الذين يمكنهم هنا أن يمارسوا زعامتهم وقيادتهم...، ويجرّون ذلك «المجتمع» الشديد الضبابية الذي تشكّله جماهير مؤسسةٍ مدرسية ما إلى أمورٍ لا تصدّق إطلاقاً. (...) لأنّ هناك هوّةً قائمة بين ما هم عليه جسدياً وبين ما تحتوي رؤوسهم عليه. (...) بالنسبة لهم، فإن ملاذهم هو اللجوء بصورةٍ متزايدة إلى فرض أنفسهم جسدياً. (...) قبل بضعة أيام، سمعت بعض الطلاّب يقصّون منجزاتهم في المدرسة التي كانوا فيها سابقاً: «كم غرقنا في الضحك مع مدرّس السكرتارية! هل تذكر؟!...» فقد تسلّى أحد الطلاّب بتفكيك الآلة الكاتبة. جاء المدرّس وطلب منه التوقف، لكن الطالب تابع ما يقوم به. اقترب المدرّس وقام بحركةٍ ليقف بين الطالب والآلة. حينذاك قذف الطالب الأستاذَ على مشعّ التدفئة المركزية. وحين نهض الأستاذ، كان عنقه ينزف... «كم تسلّينا!» ففي ذلك اليوم مال ميزان القوى لصالحهم. هذه الحادثة مؤشّر واضح على تطور الأوضاع الحالية... لا أظن بأن هناك أستاذاً واحداً بمنأى عن ذلك.

❖ هل يبدو لك هذا الأمر أخطر بكثير من السابق؟

هيلين أ.: نعم، وبشكلٍ واضح. فحين كنت أقوم بدوراتٍ تدريبية في مجال التأهيل قبل عشر سنوات، كنت أتعامل مع أولادٍ تمّ تحويلهم من وزارة التربية الوطنية، وكنت في بعض الأحيان أذهب لأحضِرهم من السجن لمساعدتهم على العودة إلى الدورة التدريبية. كانوا يقومون بالتكسير أو أشياء كهذه وكانوا إذن أوغاداً صغاراً. لكنهم لا شيء بالمقابل مع البعض الآن. لم أكن أشعر بهذا العنف!

تشرين الأول-أكتوبر 1992

غابرييل بالاز وعبد المالك صياد

عنف المؤسسة

في أيام الأزمة هذه، بدا لمدير تلك الإعدادية التي تقع في «حيٍّ صعب» صُنِّف كَ «منطقة لها أولويةٌ تربوية» أنّ إجراء لقاءٍ مع عالميّ اجتماع قدّمهما له مسؤولٌ عن دراسات المدينة أمرٌ بديهي. كان من الممكن لهذا المعلّم القديم البالغ حوالى الخمسين من عمره والمنتمي لنفس المنطقة أن يتوقّع ما هو أفضل. فقد تبدّلت وظيفته تدريجياً بفعل المصاعب التي يصادفها ويثيرها في التعليم الثانوي أبناء الأوساط البعيدة جداً عن المدرسة من الناحية الاجتماعية، والتي تجلّت من جديد في التوترات التي ظهرت في المدرسة منذ تشرين الأول-أكتوبر عام 1990؛ لقد أصبحت وظيفته تقضي بأن يحلّ يوماً بعد يوم تظاهرات العنف، كبيرةً كانت أم بسيطة. وبالإضافة إلى انتباهه الدائم للحفاظ على نظافة المباني رغم التجدد السريع للكتابات على الجدران وللوقاية من هذا النوع من التشويه، فإن عليه أيضاً أن يقف أمام باب المبنى أثناء كل دخولٍ وخروجٍ للطلاّب وذلك لتجنّب أيّ اعتداء على الأساتذة والطلاّب وليمنع المشاجرات بين الطلاب داخل حرم المدرسة. ولكي يؤمّن فعالية هذا النظام العام، ولكي يحاول أن يخلق الظروف الكفيلة بجعله غير ضروري، فإنه مُجبَر على السكن في المدرسة ولا يلتقي بزوجته، التي تدرّس الفيزياء في ثانويةٍ كبيرة في مدينة ليون Lyon، وبأولاده إلاّ في عطلة

نهاية الأسبوع. كما أنّ عليه أن يقيم علاقاتٍ منتظمة مع مجموع سُلطات المدينة؛ وعليه بشكلٍ خاصٍّ أن يتأقلم مع خصائص الناس الذين يتعامل معهم، وأن يأخذ على عاتقه نوعاً ما العنف دون أن يضخّمه، وذلك بفضل معرفته لتلاميذه ومختلف حيَل فرض النظام.

من وجهة النظر المدرسية، فإن نتائج هذه الإعدادية ليست أسوأ من غيرها وذلك على عكس الآراء التي سمعناها؛ إنها تُوافِق المعدّل الوسطيّ للمقاطعة، وبصورةٍ خاصّة في ما يتعلق بالنجاح في الشهادة الإعدادية (وإن كانت نسبة الطلاب المتأخرين دراسياً في الصف الأول الإعدادي هي 65% بينما هي 35% في المقاطعة). ومن حيث الإحصائيات الاجتماعية المتعلّقة بالطلاب- معظمهم من أوساط شعبية وثلاثة أرباعهم من أبوين أجنبيين- فالمدرسة هي من بعيد الأكثر فقراً في المقاطعة؛ فمثلاً لا نجد فيها أي ابنٍ لمعلّم. هناك صفٌّ لاستقبال الأطفال الذين وصلوا لتوّهم من إفريقيا أو من آسيا أو من أوروبا، إلاّ أنّ الغالبية العظمى منهم تنحدر من عائلاتٍ جزائرية استقرت في فرنسا منذ فترةٍ طويلة. ويرتفع عدد الطلاب الحاصلين على منحةٍ دراسية إلى 75%، في حين أنها لا تمثّل سوى 30% في المقاطعة ككلّ. ولا يكفي الأساتذة أهمية الانتماء منذ عام 1982 إلى «إعدادية تجريبية للتجديد» ولا كون عدد الأساتذة 36 أستاذاً لـ 400 طالبٍ فقط- مقابل 600 في الثمانينات-، ولا حتى القرب من ليون لاستبقائهم، فهم دائماً في حالة انتظارٍ للانتقال. إن وجود وصايةٍ مكثّفة، وبعموميةٍ أكبر، وجود عددٍ لا بأس به من الكوادر لا يمنع الطلاّب الذين يسكنون في الأحياء الهامشية أو بعض التجمعات السكنية ذات الإيجار المعتدل HLM من الفرار من الإعدادية. ويطلب آباؤهم استثناءاتٍ لنقلهم إلى المدارس الحكومية الأخرى.

يبرز من لهجة خيبة الأمل لأقوال ذلك المعلّم الجمهوري القديم ذي الأصول الشعبية والذي يقول بأنه لطالما أرّقه همّ أن يعرف «ما الذي ينبغي عمله لإنقاذ أكبر عددٍ ممكن من الطلاّب»، يبرز كلّ الحزن الذي تُمليه عليه تجربته: فنفوره من عنف الطلاّب، وكذلك نفوره من ذلك الذي تمارسه

المؤسسة المدرسية يتنازعان فيه ويجعلانه يشعر بعدم الارتياح حين يجد نفسه مكرهاً على استخدام العنف خلافاً للتصور الذي كان لديه عن المدرسة وعن مهنته كمربي. إنه لا يستطيع أن يتقبّل أن توصَف المدرسة اليوم بأنها مركزٌ للشرطة وأن يرضى بأن يعتبر نفسه مجرّد حارسٍ للنظام، مجبر على «القيام بإجراءات عنيفة ومفاجئة». لقد دخل دار المعلمين في السادسة عشرة من عمره، وبدأ سلكه الوظيفي كمعلّم في ضاحيةٍ معدمة، ثمّ علّم ثلاثة عشر عاماً في أحياء فقيرة، وبالتالي فقد عمل كلّ ما بوسعه ليقوم بصورةٍ لائقة برسالة المؤسسة التعليمية كما يراها، أي تقديم ما هو الأكثر جدوى، والذي لا غنى عنه بالنسبة للأطفال المأسورين في الأحياء التي توصف بِ«الصعبة» ، أي الاحترام المطلق الذي يقدّمه لهم الأساتذة، وتقديم الوسائل القليلة المتاحة لمساعدتهم على الخروج من تلك الأحياء، وربما على أن يكونوا مستقلّين يوماً ما. لذلك كلّه، فهو يجد صعوبةً في أن يغفر للمؤسسة المدرسية أنها تضع أكثر موظّفيها ولاءً لمهنتهم ضمن ظروفٍ تمنعهم من أن يقوموا بشكلٍ حقيقي بهذه المهمة، هذا إن لم تجبرهم على النكران التام لما علّمتهم إياه، أي المعتقدات والقيم ذاتها التي اختاروا من أجلها في العشرين من عمرهم أن يقترنوا كما يُقال «برسالة المعلّم».

مع مدير إعدادية

أجرى اللقاء غابرييل بالاز وعبد الملك صياد

«لقد عانينا الكثير هذا العام»

م.راموس: تمرّ فترات توتر شديد ثم فتراتٌ أخرى أكثر هدوءاً بقليل. هذا العام، كانت الأمور معقولة في بداية السنة الدراسية، ثمّ حصلت تلك المظاهرات. وشارك طلاّبنا فيها، بعضهم على الأقل، بشكلٍ فعال. البعض الآخر شاركوا عبر عائلاتهم، أشقائهم أو شقيقاتهم الأكبر منهم سناً. لقد كان هناك نمطان مختلفان جداً من ردود الأفعال عند الأهل، لكن الأولاد عاشوا في جوٍ من الهستريا خلال خمسة عشر يوماً، ثلاثة أسابيع، شهر. هستريا مناصِرة للمتظاهرين أو هستريا معادية للمتظاهرين. وقد عملت إعداديتنا كلّ يوم، دون أي انقطاع. تناقش بعض الأساتذة مع الطلاّب في بداية دروسهم، فقد رأوا بأنّ التوتر كان من الشدة بحيث لم يكن يفيد في شيءٍ على الإطلاق البدء في الدرس، لذلك فقد كان ينبغي الحديث عن الأمر... لكن مع ذلك، وحتى خلال الأسبوع الأول من المصادمات، حدث أن قال بعض الأساتذة للطلاّب: «هل تريدون أن نتحدّث في الأمر؟» فأجاب الطلاّب: «كلاّ، ابدأ الدرس». لذلك، فقد تفاوت الأمر كثيراً من صفٍ إلى آخر، وربما حسب شخصية المدرّس.

❖ ألم تحصل حالات غياب خلال المصادمات؟

م.راموس: أبداً، حضر الطلاب إلى المدرسة وكنت مسروراً جداً، فالمدرسة هي المكان الوحيد الذي يُفلتون فيه من الهستريا العائلية، مهما كان الجانب الذي تميل إليه. وقد تلقينا كمية كبيرة من الاتصالات الهاتفية...

❖ من العائلات، من الأهل؟

م.راموس: من العائلات التي كانت تقول لنا: «ما الذي يجري؟ إننا نسمع ضجيجاً، سوف تُهاجَم المدرسة. هل الأمر خطير؟». جاء رب إحدى العائلات وقال لي: «هذا مستحيل. سوف أهرب»، وذهب لمدّة أسبوع إلى منطقة دروم Drôme. لكن هذه الحالات تبقى مع ذلك هامشية. بعض الأهالي جاءوا وقالوا لي: «اسمع، سوف نُخرج أولادنا، لا يمكننا أن نتركهم هنا، لا يمكن لنا أن نجازف» فقلت: «اسمعوني، بالنسبة للخطر، لقد رأيتم بأنفسكم، لقد أتيتم، ليس هناك كارثة»، إذن، أُخرج طالبٌ أو اثنان وليس أكثر بتلك المناسبة، بالارتباط مع تلك المناسبة.

❖ إخراجاً نهائياً؟

م.راموس: نعم، نعم، هناك طلاّبٌ رحلوا بصورةٍ نهائية.

الهيجان لم يتناقص

م.راموس: حصل ذلك خلال شهر تشرين الأول. لقد كان غلياناً إذن؛ وخلال شهر تشرين الثاني حدث التحرّك الكبير لطلاّب المرحلة الثانوية وحصلت بعض النتائج مما أدّى إلى استمرار شكلٍ من الهيجان. علاوةً على ذلك، فلو ذهبتم إلى مركز البلدية سوف ترون بأن الهيجان لم ينتهِ تماماً منذ تشرين الأول وأنه تبقى هناك كميةٌ لا بأس بها من الأمور المستوطِنة. فالاعتداء برمي الحجارة أصبح طريقةً في التعبير، بما في ذلك بالنسبة للشريحة التي تتراوح أعمار أفرادها بين عشرة أعوام وأربعة عشر عاماً، وهذا ليس مسلّياً أبداً. هناك خطّان للحافلات يمرّان من أمام المدرسة. وفي شهر شباط، كانت الحافلات تمتنع عن المرور بمجرّد أن يحين موعد الدخول إلى المدرسة، ربما كانت خسائر حافلات الركاب بحدود خمسين مليون

سنتيم، ما بين نوافذ محطّمة ومقاعد ممزقة؛ فحين تتوقف الحافلات في موقف المدرسة، يصعد إليها الطلاب ويكسرون كلّ شيء ثم ينصرفون. لقد جرى إذن إيقافٌ لبعض الخطوط في ساعاتٍ معينة. كانت تلك إذن فترة توتر. بعد ذلك، في كانون الأول، هطلت الثلوج؛ تبدو الثلوج وكأنها لاشيء، لكنها مشكلة...

❖ هي مناسَبة لصنع كراتٍ من الثلج.

م.راموس: نعم، كرات من الثلج، وأنا أذكر أنني لعبت فيما مضى بكراتٍ من الثلج، هذا مسلّي، لكن بما أنني لست قمعياً جداً ولديّ رغم كل شيء ذكريات طفولةٍ مع الثلج، فإنني لم أتخذ إجراءات منعٍ لكرات الثلج، في حين أنّ زملاء آخرين لي اتخذوا مثل تلك الإجراءات. لكنني اضطررت لاستدعاء رجال المطافئ وإرسال الطلاب إلى المشفى. لم يكن ما قذفوه كراتٍ من الثلج بل كتلاً من الجليد. كان أقسى شيء، أسوأ ما في الأمر، فقد حصلت إصاباتٌ في فروة الرأس، أشياء من هذا القبيل. وحصلت بصورةٍ خاصة اعتداءاتٌ على أناسٍ من الحي عند الانصراف.

❖ على أناسٍ من الحيّ؟

م.راموس: نعم، أشخاص كانوا يمرون بسياراتهم فقذف عليهم الأولاد عشراتٍ من كرات الثلج على الزجاج الأمامي وكان سائقو أو سائقات السيارات يتوقفون ويفتحون النافذة ويتلقون تلك الكرات ملء وجوههم؛ إذن، نتج عن ذلك جرحى، وسُجِّلت شكاوى. إذن، لم تتحسن صورة المدرسة في الحيّ. حصل هذا في كانون الأول، وفي كانون الثاني وشباط حصلت حرب الخليج، وتجلّى انعكاسها مثلاً في دروس التربية الرياضية باستخدام عباراتٍ من نمط «صدام حسين، صدام حسين» أثناء الإحماء؛ هذا بالإضافة إلى الكتابات. في شهر شباط الذي بدأت في الحادي والعشرين منه العطلة الانتصافية، حصل توتر شديد للغاية. لقد كانت الأمور في الإعدادية صعبةً جداً. بعض الأساتذة أخذوا إجازاتٍ مرضيّة؛ في وقتٍ معيّن، كان لديّ خمسة مدرّسين مجازين صحياً ولم يعوّض سوى واحدٍ منهم

فقط، لذلك ليس من داعٍ للقول بأن المشاكل تصاعدت، وأن غياب المدرّسين- وهو مبرر، وليس لديّ أية انتقادات حول هذا الموضوع - قد زاد في تفاقم المشاكل؛ إذن، في ذلك الوقت، كان الجميع منهكين.

أتت عطلة شباط في الوقت المناسب. وبعد انتهائها، مرّت فترةٌ هادئة. حصل هدوءٌ كبير لأن شهر رمضان لم يترك مجالاً للهيجان. لكن في رمضان عندنا وفي يوم العيد أي في السادس عشر من آذار الماضي، كان عدد الطلاّب المداومين 160 طالباً من أصل 410 أو 420، وفي بعض الصفوف، كان هناك أربعة طلاّب من أصل خمسةٍ وعشرين. إذن، هذا الحيّ موسومٌ بصفة خاصة. أذكر مشاجراتٍ في طفولتي، حين كان طالبان يتشاجران في الباحة، فكان ثلاثة أو أربعةٌ طلاّب يقفون ليتفرّجوا؛ أما هنا، فالطلاّب شديدو الشراسة ولا يمكن لنا أن نقبل ببدء أية مشاجرة والطلاّب الذين ينحازون...

❖ لأن ذلك يجرّ مشاجراتٍ أخرى أم ماذا؟

الجو السائد هنا يتسم بالقسوة والعنف

م.راموس: نعم، لأنه حين يتشاجر اثنان، يلتف حولهما مائتان، لأنه لا يمكن للأولاد الذين يتشاجرون أن ينهوا مشاجرتهم إلاّ بصورة عنيفة جداً لأنهم يُدفَعون، ولأنهم مستثارون... وبالتالي لا يعود بالإمكان السيطرة على الوضع. والنتيجة أنني استطعت أن أمنع حدوث 99،5% من المشاجرات داخل الإعدادية، وكلامي هذا مؤكّدٌ إحصائياً. المشاجرات تتم الآن في الشارع أمام المدرسة، ولست متأكداً من أن صورة المدرسة قد تحسنت بشكلٍ واضح. إذن، يحصل أن أعاني أحياناً من بعض المشاكل... لنقل أن الجو السائد هنا يتسم بالقسوة والعنف.

[...]

إذن، يحدثوننا عن بعض الأمور مثل المخدرات... حسناً، الناس هنا في هذا الحي، حي سان جاك Saint-Jacques، الناس الذين يسكنون في

الأبنية الشعبية مُستَقطَبون تماماً حول مشكلة المخدّرات: إنهم يحدثونني عن المخدرات في كلّ مرة أتحدّث فيها في اجتماعات الحيّ. المخدرات، المخدرات، المخدرات. لقد ذهبت لأرى، وشاركت في دورات تدريبية، لديّ بعض المعلومات عن المخدرات؛ رأيت الحشيش والهيروين لأول مرة في حياتي منذ حوالى الشهر، وذلك في دورة تدريبية، ورجال الشرطة هم الذين أروني إياه في حقائبهم.(...) أظنّ بأنه يمكنني أن أقول في كافة الاجتماعات أنه، في المقام الأول، لا علم لديّ بوجود مخدّرات قوية في مدرستي. لقد سمعتُ الكثير لدى مجيئي وكنت مذهولاً لكلّ ما كان يُقال لدرجة أنني سألتُ، وطلبت المعونة من مديرية التربية، فعيّنوا، أعاروني طبيبين مندوبين تعاقدت معهما الدولة، ودُفعت لهما رواتبهما بهدفٍ محدّد هو إجراء أبحاثٍ حول المخدرات وما شابه ذلك.

إذن، وخلال فصلين دراسيين، فصل في عامٍ دراسيّ وفصل آخر في عامٍ دراسيٍّ آخر، أمضى طبيبان مختلفان فصلاً دراسياً كاملاً في الإعدادية. لقد استطاعا أن يريا كلّ الطلاّب، رأيا بشكلٍ منهجيّ كلّ طلاّب مستوى معيّن هو مستوى الصف التاسع. ثم فحصا كلّ الطّلاّب الذين لديهم بداية شروعٍ مشكوك بأمره... أتعلمين، حين أذهب إلى اجتماع ويقول الناس الذين يعرفون كلّ شيء: «يكفي النظر إلى الأولاد المذهولين نوعاً ما أو الذين يبدو عليهم النعاس في الصباح» فإنّ هذا يضحكني، لأنّ 80% من الطلاب لديّ يبدو عليهم النعاس صباحاً، ذلك لأنهم شاهدوا التلفزيون حتى الثانية صباحاً. لم يُظهر أيٌّ من التقريرين اللذين أعدّهما هذان الطبيبان اللذان قاما بالدراسة في الإعدادية أية شبهةٍ بتعاطي المخدرات. لقد وجدا مشاكل سوء تغذية وأشياء من هذا القبيل، لكنهما لم يجدا على ما أظن أية شبهةٍ بتعاطي المخدرات، أقصد القوية منها. أما بالنسبة للمخدرات من نوع الحشيش فإنني أقول أنني حلتُ دون 99% من حالات تدخين الحشيش في الإعدادية مثلما تمكنت من منع قيام 99% من المشاجرات فيها؛ لقد وضعت حواجز شبكية لأنه لم يكن بإمكاننا أن نراقب الطلاب في كل مكان. إذن وضعت هناك ذلك الحاجز الشبكي الذي يحدد الباحة، وهو يمنع الطلاب

مـن الذهـاب للتدخـين هنـاك خلـف المباني؛ ففـي أول عـامٍ أمضيتـه هنـا كـان ينبغي الركض باستمرار حولها..

[...]

❖ بهذه الطريقة يبقى الطلاب تحت الأنظار.

م.رامـوس: نعـم، الأمـر كذلـك. وبمـا أنـه لا يتـم التدخـين ضمـن المبـاني، فالمكـان الوحيـد الـذي قـد يتـم فيـه التدخـين، وليـس كثـيراً، هـو المراحيـض، المراحيض التي هي قلعة تقاليد تدخين الحشيش، لكن الأمـر مـع ذلـك محدودٌ جداً. وبعد أن قلتُ ذلك، فأنا أضيف بـأنّ هنـاك أيضـاً طـلاّب يصلـون صباحـاً إلـى الإعداديـة، وعلـى بُعـد 45 سـنتيمتراً منـي، لا أكـثر ولا أقـلّ، يسـحقون سيجارتهم علناً ليُظهروا لي بأنهم يدخّنون فعلاً، وليست لديّ أية وسيلة للتأكد إن كان يوجد شيء غير التبغ في السيجارة؛ هذا كل شيء، هذا كل ما أستطيع أن أقوله حول المخدرات. أما بالنسبة للمشاجرات، فإنني أخشى، إنني أخشى. لقد حصلت مشاجرة لم نتمكن من كبحها خلال الثواني الثلاثين الأولى فانتهى الأمـر ببقـاء ولـدٍ فـي المشفى لمدة شهر نتيجـة تلقّيه ضربـة سـكينٍ فـي بطنـه. حصل ذلك منذ عامين، ومنذ تلك الحادثة، أصبحتُ نوعاً ما..

❖ .. حـذراً؟ أنـت تصـف قليـلاً الجـوّ السـائد أو العدوانيـة أو العنـف، لكـن هـل اختلـف الوضـع منـذ الأحـداث الأخـيرة؟ إذ تبعـاً لمـا وصفتَـه شـهراً فشهر، فإنّ العديد من الأمور قد..

م.رامـوس: أقـول لـك بـأن الأولاد الذيـن شـاركوا فـي المصادمـات، وكـلّ ذلـك، ليسـوا هـم الآن الذيـن يزرعـون عـدم الوفـاق أكـثر مـن سـواهم، إنّ مـن يقوم بالاعتداءات ويجعل الحياة في الحيّ مُضنية هم الذين تتراوح أعمارهم بين عشرة أعوام وستة عشر عاماً. خلال الأحداث، سُرقت سيارة الإعدادية وحُرقت؛ لا أعلم ما إن كنتم قد رأيتم الأخبار في التلفزيون... لا أعلـم إن كنتم تتذكرون، لقـد كـانت شـاحنةٌ صغيرةٌ قـامت بـالعديد مـن الرحـلات بـين مركز الأمن والمتظاهرين، وكان...

❖ هل كانت تلك سيارة المدرسة؟

م.راموس: المرحومة سيارة المدرسة. لم تحصل منذ ذلك الحين تجاوزاتٌ أخرى، لا أعلم، لقد قدّمتُ شكوى مرّتين هذه السنة، إحداها من أجل سيارة الإعدادية والثانية من أجل سرقة في مكتب المسؤولة. لكن هذا الأمر هو تقريباً...

إننا نتقبّل أموراً غير مقبولة في أمكنة أخرى

❖ هل يمكن أن يكون هناك طلاّب مبتدئون متقدمون نسبياً في العمر؟

م.راموس: نعم، نعم! في الأول الإعدادي، لدينا طلاّب يأتون من صف الملاءمة الذي نحاول فيه تحويل الطلاّب بأسرع ما يمكن إلى الصفوف النظامية، ويتراوح عمر الأولاد الذين يأتون إلى الصف الأول الإعدادي من صف الملاءمة بين أحد عشر عاماً وخمسة عشر أو ستة عشر عاماً. أظن أن لديّ طالبٌ أو اثنان في الأول الإعدادي بعمر ستة عشر عاماً.

❖ وأنتم تتقبلونهم لأنهم عادةً يرسلون إلى أقسام التربية الخاصة...

م.راموس: هذا أكيد، هذا أكيد. لكننا نتقبّل أموراً لا يتم تقبّلها في مكانٍ آخر، هذا أكيد.(...) لقد مرّت فترةٌ من الاضطراب، ثمّ إنّ الناس متعَبون ويوجد شيءٌ من المرارة وخيبة الأمل لأننا أُنهكنا كثيراً هذا العام وتعبنا كثيراً. وأنا أبوح لكِ بأمرٍ شخصيّ، فأنا محظوظٌ لأنّ بنيتي الجسدية قوية وأنا كنتُ أعتقد يا سيدتي الطيبة بأنّ أموراً كهذه لن تحدث لي أبداً، أنني لن أتعرّض أبداً لأن أذهب إلى الطبيب وأقول له: «لم أعد أحتمل، لم أعد أحتمل»، وأن أتناول المنوّمات، لم أكن أعتقد أنّ ذلك يمكن أن يحصل لي أنا. كنت قد قررت بأن هذا لن يحدث لي أبداً. حسناً، لقد اضطررتُ لتناول المنومات في شباط لأتمكن من الصمود خلال الخمسة عشر يوماً الأخيرة قبل العطلة. لقد أحزنني ذلك كثيراً، وذلك بالتحديد لأنني كنت شديد الاعتداد بنفسي وكنت أظنّ بأن أموراً كهذه لا يمكن لها أن تحصل سوى للآخرين، لكن بالتأكيد ليس لي أنا. (...) إذن، فقد كنت في بعض الأحيان أشعر بالضياع

وبالتعب الشديد - وأنا لست الوحيد الذي يعاني من هذه الحالة. (...) أتمنى أن أتمكن من النوم بشكلٍ طبيعي خلال عطلة عيد الفصح. وأنا لست أشتكي، لكنني أحكي لك ببساطة.. لقد جرت أحداثٌ أثّرت على المباني، وحصلت عودةٌ للعدوانية تجاه الأساتذة. أحد زملائي في الإعدادية رأى بأم عينه محاولةً خطيرةً جداً لإشعال حريقٍ في المدرسة بعد فترةٍ وجيزة من أحداث تشرين الثاني. ومنذ خمسة عشر يوماً أُحرقت سيارة، ومنذ أسبوعٍ نُقلت إلى المشفى إحدى الناظرات، وكانت تراقب دخول الطلاّب صباحاً، لإصابتها بحجرٍ في رأسها. في إعدادية ب. وإعدادية ن.، يوجد أيضاً ذلك العنف الكامن المصحوب بالاعتداءات وما شابه ذلك. وخلال عيد الفطر، ذهب ثلاثةٌ من طلاّبنا إلى إعدادية ن. ورموا الحارسة وكلبَها بالحجارة. بيد أن الناس قد سئموا الآن ولم يعودوا يخرسون بالضرورة، لذلك فقد قدمت الحارسة شكوى وسجلها رجال الشرطة الذين سئموا هم أيضاً، وكان للأمر تتمة فتمّ استدعاء الطلاّب إلى مخفر الشرطة، واستدعاهم أيضاً أحد القضاة، ويبدو بأن أخصائيي التربية قالوا للأهالي: «لا تستسلموا» فجاءت ربتا منزل لمقابلتي وزجري لأن ولديهما... إذن، إذا شئتِ، فالأمر مسلٍّ نوعاً ما، فالتلاميذ يدرسون في مدرستنا، وهم خارجها خلال يوم عيدٍ ديني يُقبَل غيابهم خلاله؛ وقد ذهبوا ليثيروا الفوضى في إعداديةٍ مجاورة، وقدّم الناس من الإعدادية الأخرى شكوى، ثم يكون الزجر من نصيبي أنا.

[...]

بعد أن حرقت سيارة مدير إعدادية ف.، اجتمع الأساتذة العاملون في الإعداديات الأربعة الموجودة في المنطقة وفي الثانوية المهنية يوم الثلاثاء الماضي على أثر شيءٍ من الغليان، وكنا ثلاثة مدراء مشاركين في الاجتماع. والحقيقة أنه انتهى برسالةٍ أرسلها أساتذة كلّ تلك المدارس إلى مفتّش الأكاديمية، إلى مدير التربية، وقالوا فيها: «نودّ لو تؤخذ أخيراً بالحسبان ظروف عملنا وحياتنا الصعبة»، فالواقع أننا نتحملّ من المصاعب أكثر بكثير مما يتحمّله غيرنا، ونتحمّل من الطلاّب أكثر بكثير.

حين يرتكب أحد الطلاّب حماقةً في مؤسسة تسمّى بالعاديّة، فإنه يُطرد، لكننا نحن لا نطرده إذا ارتكب نفس الحماقة، بل نوجّه له الإنذار الأول أو الخمسين. وحين نُدفع لطرد تلميذ، حين أهتف لأحد زملائي وأقول له: «اسمع، سوف أرسل لك تلميذاً، وهو خاضع لالتزامٍ مدرسي؛ إن أنا طردتُه من الإعدادية فسأكون مُجبراً على حبسه في مكانٍ ما»، فيقولون لي: «اسمع، أنت لطيف جداً، نود فعلاً لو نقدم لك خدمةً، لكن إذا جاء أحد طلاّبك، فلن يقبل الأساتذة به، وسوف يضربون عن العمل، وكل ما هنالك»؛ والنتيجة أننا نُساق نحو تبادل التلاميذ في ما بيننا، لكنهم لا يتركون المنطقة، وقد دُفعت للقول بأن إحدى الطرق لمساعدتنا هي مثلاً في طلب المعونة من التفتيش. وحين نُدفع حقاً للتخلص من أحد التلاميذ لمصلحته ولمصلحة الطلاب الآخرين فربما يساعدوننا في العثور على مهبطٍ لهذا التلميذ، أي أن لا نُجبر نحن على القيام بالتسوّل... أن يقول مفتّش الأكاديمية الذي له صفة المقرّر: «الطالب الفلاني سوف يوضع في المؤسسة الفلانية، والأمر انتهى.»

❖ لقد حصل منذ فترة قريبة، هذا الذي تتحدث عنه هنا حول الناظرة التي...

م.راموس: تماماً، كان ذلك في الأسبوع الماضي. وبعد ذلك... لقد عُيّن مدير التربية الجديد في ليون منذ شهر. كان قد وصل لتوّه وكان عليه المجيء إلى إحدى إعداديات المنطقة، وذلك في إطار مبادرةٍ تربوية هي مبادرة الصحافة في المدرسة؛ كان الموعد المحدد لمجيئه يوم الجمعة، ومساء الخميس حُرقت سيارة زميلي. إذن، فقد سألنا المدير بكلّ تهذيب إن كان بإمكانه الاجتماع بنا بمناسبة قدومه، فاستقبلنا وقلنا له بأنّ الأمور ليست على ما يرام، بل إنها ليست جيدة على الإطلاق في القطّاع، وذلك دون أن نُظهر الأمر وكأنّه كارثة، فقد مرّت علينا ظروفٌ سيئة أخرى. وسألناه، فأجابنا قائلاً: «حسناً، هناك تفسيران مُحتَملان، إمّا أن الأمر جزءٌ من الحركة الاجتماعية، وفي هذه الحالة يكون الوضع عامّاً وربما يكون هناك حاجة لحلولٍ عامة، أو أنه جزءٌ من محاولةٍ لزعزعة وزارة التربية الوطنية؛

وتكون وزارة التربية الوطنية في هذه الحالة هدفاً لِـ...»، إذن، فقد قال: «أنا بالكاد وصلت إلى هنا»، وهذا يتضمّن كما تعلمين... لأنني هنا أبسّط الأمور كثيراً، فقد لاحظ مراقبون من وزارة التربية الوطنية أو أنّهم رأوا من المناسب أن يلاحظوا أنّه خلال الأحداث، فإنّ المراكز المدرسية، الثقافية، لم تطلها الأحداث، أي أن الحرائق وعمليات السرقة طالت المراكز التجارية، لكن المعدّات الثقافية والمدرسية لم تُمسّ، وقد صاغوا الكثير من النظريات انطلاقاً من هذا الأمر، حسناً. إلاّ أنني لستُ مقتنعاً... [...]

وفي نفس اليوم الذي جرت فيه الأحداث، حُرق أحد صفوف المدرسة الابتدائية التي تقع مقابل الإعدادية، هناك في الخلف بالكامل أثناء الاشتباكات، وقد قامت الحواسيب مقام القذائف لكسر النوافذ، وتلك المدرسة تتمتع بأقصى الميزات (نحن نقوم بالابتكار، لكن إذا قورنّا بهم، فما نقوم به مسخرة؛ أي أنّ لديهم أساتذة مؤهّلون في مجال المعلوماتية، ولديهم مركز للمعلوماتية، لديهم في المدرسة معدّاتٌ معلوماتية لا أعرف تماماً ثمنها). لا يمكننا إذن القول بأن تلك المدرسة قد نجت كثيراً. ولست أقول أيضاً بأن تلك المدرسة بالذات كانت مستهدَفة..

في الأيام التالية، احترقت دار حضانة، واستوجب الأمر إغلاقها لمدّة خمسة عشر يوماً، إذن فالأمر ليس دون أهمية. وأنا لا أتحدّث هنا عن سيارة الإعدادية، ولا أتحدّث عن بداية تشرين الثاني حين احترق في ب. صفٌ بأكمله ونصف صف آخر، لقد وجدوا لدى حضورهم عشرين لتراً من البنزين في أوعيةٍ لم يتمّ إفراغها. لقد حُرق صفٌ واحد، ولو أُفرغت العشرون لتراً لكانَ حقاً حريقاً كبيراً نوعاً ما، ولو لم ينطلق جهاز الإنذار... هكذا هو الأمر، لذلك فإنني لا أظنّ...

لكن المدير الذي كان قد جاء لتوّه وقرأ تقريراً يقول بأن وزارة التربية الوطنية قد رُحمت خلال الأحداث، وقدمنا له نحن وضعاً يظهر فيه بأننا لم نُرحم كثيراً، كانت ردة فعله أن قال: «إذن ربما كان هناك... لقد قاومت وزارة التربية الوطنية جيداً خلال الأحداث، أتساءل إن كان هناك الآن

محاولة لزعزعة مؤسسة قاومت جيداً مثلما حدث قبل بضعة أعوام حين كان هناك محاولة لزعزعة الشرطة...» إذن، فقد طلب المدير مقابلة رئيس جهاز الشرطة واستقبلنا المسؤولون في الشرطة منذ أسبوع نحن المدراء الخمسة ومعنا مدير ثانوية التعليم المتعدد المواد حيث ذهبنا إلى إدارة المقاطعة لشرطة المدينة منذ أسبوع وحاولنا أن نناقش مع رجال الشرطة ما يمكن عمله، ولم يكن هذا مسلياً...

لا أستطيع السماح بوجود الكتابات

❖ خلافاً لمناطق أخرى، فإنه يبدو أنّ الناس لا يستسلمون، وقد أدهشني ذلك، لأنه في حالاتٍ كهذه، فإنّ الناس، الهيئة التعليمية، المدراء... كل أنواع العاملين، من المعتاد أنْ يكونوا ربما مُحبَطين نوعاً ما، لكن هذا كل شيء. يكونون فاقدي الأمل... أما هنا، فقد تشكل لديّ انطباع بأن هناك العديد من المبادرات...

م.راموس: ينبغي البقاء على قيد الحياة... نعم، ينبغي بالطبع البقاء على قيد الحياة، فلا يمكننا خلاف ذلك. أنا أستطيع مثلاً أن آخذك في جولة داخل الإعدادية وسترين، أنا لا أتسامح بوجود أية كتاباتٍ على الجدران. سوف نقوم بجولة في الإعدادية لكي تري بنفسك -حين يكون هناك كتابة على أحد الجدران فالأولوية تكون لإزالته: ذلك أنّه ينبغي إزالة أية كتابة على الفور، لأنها لو تُركت ساعةً واحدة سيكون هناك بعد ساعةٍ عشر كتابات، وبعد ساعتين سيكون عددها مائة وخمسون، هذا كلّ شيءٍ. بالنسبة لي، فإنني لا أكترث أبداً بالتشريعات المتعلّقة بعدد ساعات عمل المستخدمين، فأنا أتفاوض معهم بصورةٍ مباشرة وأقول لهؤلاء المستخدمين: «نصابكم إحدى وأربعون ساعة ونصف، وأنا لا يهمني أن يكون عملكم صورياً في المبنى إحدى وأربعين ساعةً ونصف؛ عليكم أن تساعدوني في المراقبة داخل الممرات حين يتحرّك الطلاّب. النتيجة أنهم سيرتكبون عدداً أقلّ من الحماقات إن كنتم هنا. وإن كانت حماقاتهم أقل فسيكون لديكم مقدار أقل من العمل. ويمقابل العمل الذي أطلبه منكم والذي ليس سوى

عمل مراقبة وليس من اختصاصكم، سوف أعطيكم إجازات إضافية، سأعطيكم إجازات وتذهبون...»

❖ أي أنّها ترتيبات...

م.راموس: تماماً، وبالفعل فقد أتى مفتّش من الإدارة وسألني «كيف أمكن أن يكون لديّ كل ذلك العدد من المستخدمين في ساعة معيّنة»، لن يجدوا الإجابة، لكن المدرسة نظيفة، هذا مؤكّد. (...) سوف آخذك في جولة في أرجاء الإعدادية. نحن نتمسّك بهذا الأمر، وهو، على الصعيد الجسدي، أول شروط البقاء على قيد الحياة، فلو تدهورت الأحوال لانتهى كل شيء.

❖ لنُرجع الأشياء إلى حجمها الحقيقي: في السابق، كان الطلاّب يحفرون الأحرف الأولى من أسمائهم بالسكين على المقاعد. الآن توجد طرقٌ أخرى، حيث يتمّ بخّ كتاباتٍ على الجدران؛ إن العمل على فرض النظام أمر ضروري، هذا مؤكّد، هذا صحيح، إلاّ أنّ استئصال تلك الممارسات في الأماكن العامة لم يحصل بعد.

م.راموس: في الأماكن العامّة عدا إعداديتنا. أنا واضحٌ جداً في هذا الأمر لأنّ تلك إحدى النقاط التي لا يمكنني أبداً التنازل عنها.

❖ وكذلك عدم إعطائك معنى لِ...

م.راموس: لا، لستُ أعطي هذا الأمر معنى انحراف، لكنني أقول بأنني لو قبلتُ بداية التدهور، فإنّ...

❖ لقد سنحت لي الفرصة لإجراء تحقيقٍ في مرسيليا لصالح البلدية التي كانت تريد تنظيف الأحياء، وقلتُ لهم حينذاك أنهم إذا قاموا بجهد بادٍ للعيان، إذا نظّفوا الشوارع الأخرى مرّةً كلّ يوم ونظّفوا تلك الأحياء مرّتين يومياً، فإن الأمر سينتهي بالسكان إلى التصرف بشكلٍ نظيف.

م.راموس: تماماً، هذا ما أومن به فعلاً، لذلك، فإنني أجد الأمرٌ مسلّياً بالنسبة لي حين يأتي بعض الأشخاص، أناس من أصحاب السلْطة ويقولون للزملاء: «الوضع ليس سيئاً، المكان نظيف، ممَّ تشتكون؟» أنا لا أشتكي، أنا

أحارب لكي يكون المكان نظيفاً. بعد ذلك، أقول بأنّه يوجد لديّ... ربما كان ذلك من قبيل الوراثة عن العائلة، لكن لديّ احترامٌ شديد جداً للمستخدمين. لذلك فإنهم يقابلونني بالمثل. وأنا أضفي أهميةً أكبر على ألاّ يشتم أحد الطلاّب مستخدماً، وأشعر بأنني قادرٌ على أن أكون أكثر شراسةً بكثير مما أكونه بالنسبة لأحد الأساتذة. وأنا أستطيع أن أؤكّد لكم بأنه لم تحصل سوى حالتان اثنتان من شتم المستخدمين في أربعة أعوام، وقد شعر الأولاد بأن الأمر قد مرّ؛ بينما الأمر أكثر تواتراً بالنسبة للأساتذة. لكن ربما يعود الأمر إلى أنّ أمي تقاعدت كغاسلةٍ للصحون في أحد المطاعم، ربما يعود لذلك أيضاً. ربما كنتُ أحترمها هي حين أحترم المستخدمين.

❖ كم رجلاً وامرأة من المستخدمين لديك؟

م.راموس: عدد النساء أكثر بكثير من عدد الرجال. هذه الصفة مميزة للتعليم لكنني هنا حذر، لأنني حين أحاول النقاش مع المديرية فإنني أقول بأنه من الناحية الإحصائية، فإنّ الشابّات يصادفن مصاعب أكبر حين يكنّ في وسطٍ مغاربيّ... (...) إنّه ليس حكماً أُطلقه على النساء، بل هو واقع إحصائي. وحين يقومون بجهدٍ لتعيين الذكور لديّ، فليس صحيحاً بالضرورة أن يكون ذلك أفضل دوماً؛ في العام الماضي عيّنوا هنا شاباً بصفة مراقب وكان... كان لطيفاً جداً. لكنه صمد شهراً واحداً لا غير. كان ذاك شاباً، وبعده أرسلوا لي فتاة بقيت حتى نهاية العام، أي أن الأمر كما ترين ليس... إذن ينبغي على المرء أيضاً أن يكون حذراً جداً.

في هذا العام، عيّنوا لي مراقباً مغاربياً، شاباً مغاربياً، وهو طالب يدرُس الرياضيات، سيكون مدرّس رياضيات، ونجح في شهادة التأهيل للتدريس في المرحلة الثانوية، ولم أكن أعرفه. حين رأيت استمارة تعيينه في شهر آب، كان أول ردّ فعل لي أنني قلت: «ربما ظنّوا في المديرية أنّ ذلك جيد، وأنّ الأمور ستجري بصورة حسنة» وانتظرتُ باهتمام، فتلك كانت المرة الأولى التي يكون فيها عندي مراقبٌ مغاربيّ. لكن المسكين عانى الكثير، رغم أنه لم يكن يفتقر إلى السلْطة، أظنّ أنّ صورة المغاربي هي التي برزت، صورة المتعاون، وقد شُتم بالفعل أكثر من غيره بكثير؛ إنّ المرء يتعلّم كلّ يوم.

لقد قلنا، نحن المدراء، للمفتش ولمدير التربية وللشرطة أنّ أصعب ما في الأمر هو أنّه لا يمكننا توقّع شيءٍ مسبقاً. الكوارث تأتي في الوقت الذي لا نتوقّعها فيه، كما أننا نشعر دائماً بأننا في وضعٍ خطير غير مستقر، وأن حادثة صغيرةً مهما كانت ضئيلة وتافهة تكفي ليكون لها ذيول، ثم لكي تتفاقم. هذا هو الوضع، ينبغي أن يكون المرء حقاً شديد الانتباه (...) حسناً، سأقول شيئاً لكنه يقع ضمن إطار حياتي الشخصية، أنا لا أمانع في أن أكون مديراً لهذه الإعدادية اثنتي عشرة ساعةً يومياً، وألاّ أكون كذلك في الساعات المتبقية... أنا نفسي لم أعد قادراً على القيام بهذا التوازن.

يصعب على المرء أن يهان حين لا يكون مهيأ لذلك

❖ وكيف هي علاقاتك مع الأهالي؟ لقد ذكرت قبل قليل بأن بعض الأهالي توجهوا إليك خلال الفترة الخاصة، لكن في الأيام العادية...

م.راموس: مشكلتنا هي إقامة أوثق ما يمكن من العلاقات مع العائلات لأننا نلاحظ...

- هل تطالبونهم بالحضور؟

م.راموس: نعم. إننا نجبرهم على الحضور إلى الإعدادية. وإنّ إجبار أناسٍ على المجيء إلى الإعدادية وهم لم يعتادوا على ذلك لأمرٌ صعب التحقيق. لقد وُضِعت بعض الإجراءات قبل مجيئي بكثير. نحن لا نرسل إلى العائلات أي بيان علامات فصلي، لا نرسل بياناً واحداً. العائلات هي التي تأتي لاستلام البيانات من الإعدادية. نقوم إذن بالتنظيم، ونصل إلى نسبة تبلغ 90%. ولثلاث مراتٍ في السنة – تصل النسبة إلى 90% في الثلثين الأول والثاني من العام الدراسي لكنها تكون أقل في الثلث الأخير، حيث نصل إلى 65 إلى 70% ، لكن في الثلثين الأول والثاني يأتي 90% من العائلات إلى الإعدادية لاستلام البيانات، أي أنّ المدرّس الأساسي للصف، الوصيّ على الطلاب، هو الذي يستقبلهم. إذن، وخلال ثلاث أمسيات من العام تبدأ في الرابعة مساءً بالنسبة للبعض وفي الخامسة بالنسبة للبعض الآخر، وحتى الثامنة والنصف أو التاسعة، حتى الإنهاك، نستقبل 70% والآخرون

نلحّ عليهم حتى يأتوا، أي أننا نجبرهم على أخذ موعد، وما إلى ذلك. إذن، فإن عدد المتتعين لا يُذكر. ورغم كل شيء، فإنّ هذا لا يكفي.

لقد شاركتُ بشكلٍ فعالٍ جداً بإقامة مجلسٍ لأولياء الأمور؛ صحيحٌ أنّ أولياء الأمور في مدارس أخرى، في مدرسةٍ عادية، ليسوا بالنسبة للمديرين سوى أناسٍ مزعجين، أما هنا، فأنا بحاجةٍ إليهم. إن كان هؤلاء الأولاد يعانون من المشاكل فلأنّ الأهالي لا يفهمون أبداً، وقد لاحظت بأنه طالما كان هناك تواصل بين الأهل وأولادهم، حتى لو كان أولئك الأهل يعانون من الفاقة، فإنّ الحماقات التي يرتكبها الأولاد تكون أقلّ عدداً، كما أنّ دراستهم تكون أفضل، لذلك فإنني أحاول، نحن حالياً نحاول البدء، نريد أن ننشئ مبادرة لإثارة اهتمام أولياء أمور الطلاب الذين سيدخلون إلى مدرستنا في العام الدراسي القادم، أن ندعوهم لقضاء أيامٍ بأكملها في الإعدادية حيث يقابلون الأساتذة ويتناولون معهم الطعام ويحضّرون معهم بعض الوجبات... ينبغي أن يأتوا إلى الإعدادية دون أن يخافوا، فالإعدادية، والمدرسة عموماً، تمثّل بالنسبة لمعظم الآباء الذين ذهبوا إليها الفشل الدراسي، كما أنّ هناك العديد منهم، وخاصّةً النساء المغاربيات من جيل اربعين إلى خمسة وأربعين عاماً لم يذهبن قطّ إلى المدرسة. إطلاقاً. إذن فهنّ أميّات، لا يعرفن القراءة ولا الكتابة، وبالكاد يتحدّثن القليل من الفرنسية لكنّهنّ يتحدّثن بالعربية، ولا يعرفن أيضاً القراءة ولا الكتابة (بالعربية). ينبغي ألاّ تكون المدرسة مكاناً... لقد سئمتُ من رؤية أناسٍ...

❖ هل يحضرن؟

م. راموس: كلا، نادراً، نادراً ما يأتين، هنّ يحضرن لاستلام البيانات وأنا قد فاض بي الكيل وهنّ يأتين وأنا أستدعيهنّ لأقول لهنّ: «الأمور ليست جيدة بالنسبة لابنك» أو: «الأمور ليست جيدة بالنسبة لابنتك» وأودّ كثيراً لو أراهنّ، أود كثيراً لو يحضرن، لو يأتين ويسألن: «كيف هي الحال؟» دون أن يعرفن وربما سيكون بإمكاني أن أقول يوماً ما: «نعم، الأمور حسنة جداً»... أودّ كثيراً. لأنّ... سأحكي لك قصّةً طريفة. لدينا هنا مدرّسة رياضة لديها

علاقاتٌ صعبة مع بعض الصفوف التي تعلّمها. إنها هنا منذ اثني عشر عاماً وهي مُتعَبة... ثم إنّ الطلاّب يعتبرون درس الرياضة فرصةً للانفلات؛ بينما هي تنظر إلى درس الرياضة على أنّه درسٌ مثل غيره ومستوى تطلّبها مرتفعٌ جداً. في أحد الأيام، أخذت الطلاب إلى المسبح، وحين خرجت من المسبح وجدت نوافذ سيارتها محطّمة. إنها تعتقد، وأنا كذلك، أن طلاّباً من صفّها هم الذين كسروا نوافذ السيارة؛ لكن لا يمكن إثبات ذلك. إذن، فقد أتت وهي في حالة غضبٍ شديد وقالت لي عدداً من الأشياء، قالت بأنّ هناك ستة طلاّبٍ يضايقونها بشدّة، وطلبت مني فرض العقوبات. فقلتُ: «قبل فرض عقوبة الطرد المؤقّت، سوف نستدعي العائلات».

استدعيتُ العائلات في أحد الأيام وكانت المدرّسة موجودة، وكذلك معاوني، وكان أمامنا ست عائلات. سأحكي عن اثنتين من العائلات الستة. هناك ربّ عائلة اضطررت لطرده من مكتبي لأنه شتم المدرّسة ووصفها بالكاذبة وبالقذرة وما شابه، لذلك، فقد اضطررنا أنا ومعاوني إلى الإمساك به... فقد طلبتُ منه الخروج لكنّه لم يفعل، لذلك رميناه خارج المكتب. وابنته التي كانت في الخلف كانت مسرورةً جداً حتى ذلك الحين، فوالدها كان يقول تماماً ما كانت تقوله هي للمدرّسة، إذن فالأمور كانت جيدة جداً... ما الذي تريدين منا أن نفعله مع مثل هؤلاء الطلاب...

وعلى الجانب المقابل بالكامل، كان هناك أبٌ آخر، كان جالساً هنا، وابنه كان في الخلف، تكلّم الأب مطأطأ الرأس، ولا أدري إن كان يتحدّث إليّ أم إلى ابنه، أخذ يقول: «أنا في فرنسا منذ ثمانيةٍ وعشرين عاماً، وأنا أعمل في نفس المكان منذ سبعةٍ وعشرين عاماً ونصف لأنني أعتبر أن الرئيس هو دائماً على حق؛ وحين يقول شيئاً ما، فأنّ على المرء أن يقول نعم حتى لو لم يكن مقتنعاً، وأن يكون متواضعاً، وأن يقبل بكل شيء، وألاّ يحتجّ، هكذا ينبغي أن يكون. وبفضل هذا السلوك استطعتُ إحضار زوجتي إلى فرنسا، واستطعتُ تنشئة أولادي». ظننتُ بأن الابن الذي كان واقفاً وراء والده سوف يضربه؛ لم أرَ في حياتي مثل ذلك الحقد، لأنّ ما قاله الأب لا يمكن قبوله أبداً.

❖ وكم كان عمره؟

م. راموس: ستة عشر عاماً. إنّ الحالة القصوى من الخضوع التام أمام المؤسسة والعدوانية الكاملة تؤدّي بالنسبة للأولاد لنفس النتيجة تماماً. سأعطيك مثالاً آخر عن الحالات التي يمكن أن نواجهها. في العام الماضي حصل إضراب للحافلات وكثيرٌ من اليافعين كانوا يسكنون في الأحياء التي لم يعد فيها حافلات، لذلك فقد اعتادوا على التسكّع في فترة ما بعد الظهر خاصّةً، فأخذوا يقفزون من فوق البوابة التي ارتفاعها مائة وستون سنتيمتراً، وهو ليس بالقليل، ثم يأتون، ويصعدون إلى الصفوف ويفتحون أبوابها ويبصقون على الطلاّب وعلى الأساتذة، ويشتمونهم؛ وما إن أُعلَم بالأمر حتى أذهب بحثاً عنهم ويهربوا راكضين. في أحد الأيام، دخل ثلاثةٌ منهم ورآهم أحد الأشخاص يدخلون، في لحظة دخولهم. وأُعلمت بالأمر فهيأتُ ترتيباً لقطفهم واستطعت أن أمسك بواحدٍ منهم. كان عمره تسعة عشر عاماً.

❖ هل كان طالباً قديماً لديكم؟

م. راموس: لا، ذاك الذي أمسكتُ به لم يكن من طلابنا القدامى. لقد اضطررت للصراع معه لأنه حاول أن يجعلني أفلته. أمسكت به وقال لي: «ماذا تريد أن تفعل؟» فقلتُ: «سآخذك إلى مكتبي.» فقال: «لا»، فقلتُ: «بلى»، وأضفتُ: «ربما لن أتمكن من ذلك لو رُميتُ أرضاً، لكن إذا لم تقتلني، إذا لم تجرحني، فسوف آخذك إلى مكتبي» وأخذته إلى مكتبي. وفي مكتبي قال لي: «هل تريد أن أقول لك ماذا ستفعل؟ سوف تتصل بالشرطة، وسوف يحضرون، ويشبعونني ضرباً. سيأخذونني إلى مركز الشرطة ويشبعونني ضرباً، ويتصلون بأبي. أبي سيأتي وسيبكي، ورجال الشرطة سيعطونني لأبي الذي سوف يعيدني إلى البيت. سيدوم ذلك ساعةً ونصف الساعة. بعد ساعتين، سنعود ولن يبقى شيءٌ في الإعدادية. تصرّف كما تريد».

كان عددهم حين دخلوا ثلاثة، وأثناء وجوده في مكتبي وحديثه معي، انسحب الاثنان الآخران، وذهبا ليحضرا خمسين آخرين. والخمسون وقفوا

في الباحة على شكل قوسٍ دائرية. ذهب معاوني ليحضر كلّ الذكور من الأساتذة. في ذلك اليوم، تمكن من إحضار سبعة أو ثمانية شكلوا قوساً دائرية أمام مكتبي. كان الأمر على هذا النحو. وحصلت نقاشات لا نهائية غير مجدية. وقفتُ في منتصف الباحة ودخل مندوبان منهم وقالا: «ما الذي ستفعله؟ إنك لن تتصل بالشرطة من أجل لا شيء، لأمرٍ بسيطٍ كهذا. ماذا جرى؟ لقد بصق، والأمر ليس خطيراً، كما أنك لن تزعجنا وستترك زميلنا، ثم إنّك إن أزعجتنا فالأمور ستسير بشكلٍ سيئ». الأساتذة انقسموا، فنصفهم قال: «اتصل بالشرطة، فمن غير المعقول أن نستسلم»، ونصفهم الآخر قال: «أنا أحذّرك، إن أنت اتصلتَ بالشرطة فلن يعود بإمكاننا القدوم إلى العمل بالسيارة». إنه لأمرٌ قاسٍ إن تُهان حين لا تكون مهيأً لذلك. حين لا تكون مهيأً نفسياً لتقبّل الإهانة؛ حين يكون لديك كبرياء ولديك معنى معين للشرف، فإنه أمرٌ قاسٍ.

أنا أرفض أن أعرّض المستخدمين للإهانات عند البوابة، لذلك فإنني أراقب بنفسي، ومعي معاوني، دخول الطلاّب كل يومٍ في الصباح وبعد الظهر؛ أنا لا أتذكر الوجوه جيداً، فيقف معي الحارس، عامل الصيانة، الذي هو من فرنسيي الجزائر وهو يتذكر الوجوه بصورةٍ ممتازة، ويقول لي: «يوجد هناك ثلاثة ليسوا من الإعدادية»، لذلك، فإنني أقول لهم حين يصلون إلى البوابة: «أيها السادة، أنتم لستم من الإعدادية، هل لديكم عملٌ ما هنا؟ إن كان لديكم ما تعملونه هنا، فإن عليكم أن تقولوا لي ما الذي قدمتم من أجله، وإلا، فأنتم لن تدخلوا. لا لن تدخلوا». حينذاك، يتراجعون ثلاثة أمتار، ويقفون على حافّة سور المدرسة ويبدأون بتبادل الحديث في ما بينهم. يبدأون بتبادل الحديث بحيث أسمع قولهم إنني أحمق: «انظر إلى بوزه»، الخ، الخ، ويستديرون ثم يبصقون. يبصقون باتجاهي. وحين يكون على بُعد خمسة عشر سنتيمتراً من قدميك سبع أو ثماني بصقاتٍ خلال عشر دقائق ويكون لديك كبرياء ولديك معنى للشرف وما إلى ذلك فإن الأمر يصعب عليك. الأمر يصعب عليك جداً. حسناً، هكذا هو الأمر. لذلك، فإنني في كثيرٍ من الأحيان أتمنى لو كنت في مكانٍ آخر (...).

م. راموس: إنهم يحقدون على المدرسة بصورة فظيعة، لأنّ المدرسة لم تسمح لهم بأن يتدبروا أمورهم؛ أنا لا أستغرب ذلك كثيراً. ثم إنّ المدرسة وسطٌ مليء بالمضايقات. وقد عشتُ خلال الأحداث ظروفاً قاسيةً. في بداية العام الدراسي الماضي، أي في أيلول 1990، كان في الثانويات المهنية الموجودة في منطقة الرون Rhône سبعمائة مكانٍ شاغر، لا يحتلها أحد، لم يكن هناك من مرشحين لاحتلالها. خلال شهر أيلول كله وبداية تشرين الأول، كان هناك سبعمائة مكانٍ شاغر كل يوم، فنحن هنا نقرأ المينيتل Minitel(*)، نقرأ المعلومات في المينيتِل وفيه كان يُذكر عدد الأماكن الشاغرة في كل مؤسسةٍ تعليمية.

حين حصلت الأحداث، كان التفسير الغالب كما يلي: نعم، لقد بنينا وأعدنا طلاء الواجهات وكل ما إلى ذلك، لكننا لم نتحاور معهم، لقد ثاروا لأنّ الحوار كان غائباً، فلنتحاور إذن؛ لقد ذهبنا إلى اجتماعات الحي وما شابهها للحوار- لدرجة الغثيان- وفي اجتماعات الحي سمعنا شباناً صغاراً يقولون: «نعم، ولكن المدرسة لم تفعل شيئاً من أجلنا، ليس لدينا شيء، ليس لدينا أي تأهيل» وفي نفس الوقت كان هناك سبعمائة مكانٍ شاغر في الثانويات المهنية، ماذا تعني تلك الثانويات؟ إنها تعني اثنتين وثلاثين ساعةً من العمل أسبوعياً دون راتب. حسناً، هم ليسوا موافقين على الذهاب إلى هناك؛ ولو فكرنا بالأمر، فما الذي يريده هؤلاء الشبان الفقراء ساكنو الضواحي في النهاية؟ إنهم يريدون مورداً يعيشون منه. ربما كانوا يطلبون عملاً شيقاً لكن البلاد ليست قادرةً على إعطائهم عملاً شيقاً في حال كونهم غير مؤهلين، ثم إنني أنا نفسي حاصلٌ على تأهيل، وعملي ليس شيّقاً كلّ يوم؛ لذلك، فإنني لا أفهم؛ ليس هناك معجزات، لذلك... هم إذن يحقدون، يحقدون على المؤسسة، إنهم مستعدون لتكسير كلّ ما هو صورة، أو ما يعكس لهم صورة فشلٍ معيّن، لكن لا يوجد عندي الكثير من الحلول.

(*) المينيتِل: جهاز في فرنسا يوصل بالهاتف وهو عبارة عن بنك معلومات مرئي.

❖ نعم ولكن، لديهم أخوةٌ وأخوات لا زالوا في المدرسة...

م. راموس: نعم. حين يسمعون أخوتهم الكبار يقولون لهم: «ينبغي أن تدرسوا جيداً، انظر إليّ، أنا في الأول أو الثاني أو الثالث ثانوي وأنا أتدبر أمري جيداً»... لديّ طالبةٌ هي ابنة أخ أستاذ جامعي مؤلِّف {كتب روايةً هي سيرةٌ ذاتية عن طفولته كتلميذ مهاجر في حيٍّ شعبي} وعمها يقول لها: «لا ترتكبي حماقات» وهي لا ترتكب حماقات. إنها تقوم بما تقدر عليه، ربما ستكون دراستها أقلّ لمعاناً من دراسة عمها، لكنني أظنّ بأنّها سوف تتدبر أمرها وهي الآن في الصف العاشر، وبعد ذلك،... هناك عائلاتٌ يظنّ المرء معها بأنّ الأخوة الكبار يتناوبون بحيث يكون هنالك دائماً واحدٌ منهم في الخارج بينما يكون الآخرون في السجن، كيلا يكونوا كلهم في السجن في نفس الوقت. هناك عائلة أبناؤها الثلاثة الكبار في السجن بتهمة القوادة، والأم هي التي تدير الحانة التي يملكونها وهي مصدر رزق العائلة الوحيد. وهي تخرج من المنزل في السادسة صباحاً وتعود إليه في الثانية عشرة ليلاً أو الواحدة صباحاً، تاركةً للأولاد الحبل على الغارب، وهم يفعلون ما يريدون، ولديّ منهم ولدان أحدهما في الصف الثامن والآخر في السابع. وهما منكّدان بارعان وتنتابني الرغبة أحياناً في أن... في أن أمزّقهما، لكنني لا أعرف حقاً كيف يمكن أن يكونا هادئَين ووديعَين وصبورَين ولطيفَين في مثل هذه الظروف. ستكون معجزةً حقاً لو كانا مثلما ذكرتُ.

سأعطيك مثالاً آخر. هذه حالةٌ من تلك الأمور التي لا أستوعبها وتفلت من فهمي. في العام الماضي وفي الساعة الثامنة والربع، سمعت خربشةً على مكتبي ولم يتحرّك أحد، فذهبت لأستكشف الأمر ووجدت أماً مغاربية محجّبةً بالكامل قالت لي بفرنسية تقريبية نوعاً ما، «ابنتي التي في الصفّ التاسع، لقد أتت صباح هذا اليوم، لم أكن أريدها أن تأتي، لكنّ أباها ضربها ثانيةً طيلة الليل، هل رأيتَ هيئتها؟» لم أكن قد رأيت الفتاة لأنها خبأت نفسها جيداً. «إنه يُسند رأسها إلى المغسلة ثم يضرب رأسها بزوايا الطاولة أو زوايا المغسلة». ثمّ حكت لي عن أمورٍ مشابهة...

ذهبتُ لأرى الفتاة في الصفّ فوجدتها بالفعل مورّمة، مليئة بالكدمات... أنزلتها من الصف وأقفلت باب أحد المكاتب على الأم وابنتها واستدعيت المساعدة الاجتماعية لأنّ مثل هذه الأمور تسوّى بين النساء. فقالت لي المساعدة الاجتماعية: «لا بدّ من إجراء إثبات حالة طبيّ للأم والابنة». لم يكن لدينا طبيبٌ مدرسيّ في العام الماضي، وقد رفعت صوتي عالياً بالمطالبة حتى أعطوني واحداً يداوم نصف نهار كلّ خمسة عشر يوماً؛ أما في السنة الماضية فلم يكن لدينا أي طبيب. استدعيتُ طبيباً معالِجاً فأتى وعاينهما وكتب التقارير الطبية وجاء إليّ وقال: «المطلوب منكم 160 فرنكاً»، أنا ليس لديّ بند في الميزانية لدفع المائة وستين فرنكاً؛ دفعتُ مائة وستين فرنكاً من جيبي الخاص، أعني أنّ الطبيب قبِل بأن يجري تصريحاً كاذباً كيلا أدفع المائة وستين فرنكاً، أي أنه صرّح بأنّه قد أتى لمعاينتي أنا، وقد دفع لي الضمان الصحي بعد ذلك مائة وعشرين فرنكاً. لقد كلّفني الأمر مع ذلك أربعين فرنكاً، وأنا لستُ أشتكي.

وبعد حصولنا على التقارير الطبية، استدعينا الأب فحضر، أنا كنت في موقع حماية وراء مكتبي كمدير، وجلس الأب في المكان الذي تجلسين فيه الآن، وعلى هذا الكرسي جلست المساعدة الاجتماعية وهي شابةٌ جذّابة في الثلاثين من عمرها، وتحدّثت مع الأب وقالت له: «ألا تدرك بأنّ مثل هذه الأمور غير مقبولة؟ وإذا تابعتَ ممارستها فإننا سوف نمنعك، سوف نشتكي؛ لدينا تقارير طبية»، فنهض الأب، وقد قلت للمساعدة الشابة فيما بعد: «اسمعي، لم يكن سيتمكن من أن يصفعك في المرة الثانية لأنني كنت سأضربه قبل ذلك؛ أما الصفعة الأولى فلم أكن سأتمكن من تفاديها، فحتى أقفز من فوق مكتبي...»، حسناً، لقد توقف على بعد ملليمتر واحد تقريباً؛ ثم توجّه نحو الباب وهو يرسل إليّ لعنات الله حتى... لست أدري أي جيلٍ من أسلافي. ثم هل تقولين لي كيف كنتِ ستجيبينه؟

إنه يسكن في أكثر المناطق فقراً. إنها فعلاً منطقةٌ شديدة الفقر. لقد قال: «جيراني الذين يسكنون في الشارع نفسه.. أولادهم يتغيبون عن

المدرسة ويتعاطون المخدرات ويسرقون وهم منحرفون، لديهم كلّ ما يسر الآخرين، ولا أحد يقول شيئاً. أما أولادي أنا، فإنهم لا يتغيبون أبداً»، هذا صحيح، «ونتائجهم جيدة»، هذا صحيح، «وهم مهذّبون»، هذا صحيح، إنهم غير منحرفين كما أنهم لطيفون ونظيفون «وأنتم تزعجونني أنا؟ وأنتم تريدون إرسالي أنا إلى الشرطة؟ أنتم لا تقومون بأي إجراءٍ ضدّ الآخرين و... أما أنا؟» ثم ذهب؛ حقاً إنه لم يفهم شيئاً.

❖ أعتقد بأنه في المساء، فإن الزوجة والابنة قد نالتا نصيبهما...

م. راموس: ليس في المساء نفسه، كلا، لقد انتظر بضعة أيام. هذه هي القصة الحزينة... لا أدري، حين قدمتُ إلى هنا كان لدي العديد من اليقينيات... التي أصبحَت الآن أقل عدداً لأنه يبدو لي...

❖ لكنك توصّلتَ مع ذلك إلى عدم وجود العنف في المدرسة.

م. راموس: لا يوجد عنفٌ جسدي، لا توجد مشاجرات. أما العنف اللفظي... وحول هذا الأمر، أقول لك بأنه يوجد هاتف في الإعدادية، وحين لا يوجد عامل مقسم كما هي الحال الآن فإنّ الهاتف لا يرن هنا، وإذا اتصل أحدٌ ما بالإعدادية فالهاتف يرنّ في شقتي؛ لا يوجد عامل مقسم لذلك فالهاتف يرنّ في شقتي؛ وحين تكون زوجتي هنا، لقد أتت منذ بضعة أيام وكنت في شقة معاوني وذهبنا لتناول مشروبٍ معاً، وجاءت زوجتي، وكنت أنا ومعاوني نحضر اجتماعاً في المركز الاجتماعي من الخامسة حتى الثامنة والنصف؛ أما هي ، فكانت في شقة الخدمة. وفي الثامنة والنصف صعدتُ لتناول مشروبٍ معنا. لكنها قالت لي: «لقد فاض بي الكيل، اقطع الخط الهاتفي إذا كنتُ أنا هنا ولم تكن أنتَ موجوداً»، فكلّ عشر دقائق توجد شتائم على الهاتف.

❖ شتائم؟

م. راموس: شتائم. تتناول زوجتي السماعة، «هل السيد راموس موجود؟»، «لا، ليس موجوداً»، «أنتِ زوجته، أيتها القذرة، أيتها القحبة،.. أمك، ...أمك ...»، عشرين، ثلاثين مرة، وأضافت قائلة: «إذا لم أرفع

السماعة فالهاتف يرنّ، يرنّ، يرنّ» لقد عدّت في إحدى المرات سبعاً وعشرين رنّة هاتف، ولم ترفع السماعة قبل أن يتوقف الرنين.

❖ لهذا السبب لا يستطيع المرء أن يفصل الحياة الخاصة عن الحياة العامة...

م. راموس: لا، بالفعل، ولم أضع خطاً هاتفيّاً خاصّاً بي لأنني قلت لنفسي بأنني لو ركّبت خطاً شخصياً فإنه يكفي العثور على اسمي في الدليل، وأنا لن أضع اسمي على اللائحة الحمراء، لا أريد أن أضع اسمي في مثل هذه الأشياء... إذن، فأنا أغلق على نفسي باب شقتي بعد ظهر الأربعاء لأنه يكون لديّ عمل أو لأنّ لدي رغبةً في القراءة أو الاستماع إلى الموسيقى مثلاً، وإذا فصلت خطّ الهاتف فإنّ هذا يعني بأنّ أبنائي أو أمي أو زوجتي لن يتمكنوا من الاتصال بي. لقد قلتِ لي بأنني تمكنت من منع العنف الجسدي، هذا صحيح؛ أما العنف اللفظي فلا؛ وهو صعبٌ للغاية بالنسبة للإنسان. ماذا كان معنى سؤالك، كنت تريدين الوصول إلى طرح سؤالٍ عليّ...

❖ ... حول المشاجرات.

م. راموس: نعم، لكن حين أقول المشاجرات فإنني مع ذلك أقصد مشاجراتٍ بين التلاميذ، توصّلتُ إلى إلغائها في الإعدادية لكن ليس في الشارع...

❖ ليس في الخارج...

م. راموس: وليس في الخارج؛ لقد أطلنا فترة دوام الحارسة، فهي تعمل حتى الثانية عشرة وربع حين يخرج التلاميذ في الثانية عشرة، وتعمل حتى الخامسة والربع حين يخرجون في الخامسة، وذلك لترى كيف تجري الأمور. وبمجرّد أن ترى تجمّعاً، فإنها تتصل بي مباشرةً، وحينذاك، يمكن أن تكوني أنتِ في مكتبي ونكون منخرطيْن في النقاش الهام، وإذا اتصلت بي الحارسة... فإنني أتركك وأذهب، ونصل أنا ومعاوني، وما إن يرونا قادمين، لأننا نصل ركضاً، نركض لنلفت الانتباه لأننا نريد أن نخيفهم، حتى تتوقف المشاجرات. ما إن نصل إلى الشارع حتى يفرّوا، وربما تتوقف المشاجرات

عند هذا الحدّ وينتهي الأمر، وفي بعض الأحيان نشعر بأنها لن تتوقف... لذلك نذهب في بعض الأحيان حتى ما بعد منعطفَيْن للشارع ولا نستمر أبعد من ذلك (...).

حين أقول ذلك لرجال الشرطة، فإنهم ينظّرون علينا ويقولون: «هناك ثلاثة مسارات، هناك القمع وسنمارس حينذاك القمع، وهناك الردع، ثم هناك الوقاية»؛ حسناً، لكنني أقول لهم: «الردع يكون بتواجدكم» فأنا أتمنى لو أنّ سيارة الشرطة تمرّ دون أن تتوقف في ساعات خروج الطلاّب. لكنّ رجال الشرطة يقولون: «لا يمكننا مراقبة كلّ الإعداديات، هذا ليس عملنا» (...).

❖ وماذا عن الطلاّب الجيدين؟

م. راموس: الطلاّب الجيدون يشعرون بالمضايقة لأنهم يُعامَلون كمداهنين. لقد كتب أساتذة الرياضة مقالاً في النشرة النقابية (...) يقولون فيها أن الطلاّب الجيدين يشعرون بالمضايقة {يقرأ هنا جزءاً من المقال}. هناك مدرّسة مساعدة تدرّس اللغة الإسبانية كلغة ثانية وهي شابّة وتسكن في ر.، وتعمل في ظروف سيئة لأنه ليس لديها سيارة ولديها ابنة صغيرة وتمضي ساعة ونصف في المواصلات بينما هنالك أساتذة لا ينقلونها معهم، لكنها فتاة خارقة. إلاّ أنها عانت كثيراً جداً في البداية.

ونحن مدركون تماماً لما يحدث، أي أننا ساندناها بإصرار وساعدناها كثيراً على الصمود، وقد حدث أن استقبلتها حين كانت تبكي وواسيتها كما ينبغي، ومنذ أيام، أبديتُ ملاحظةً معادية تماماً للمرأة في الاجتماع العامّ لأنّ النسوة تشاجرن في ما بينهنّ وقلت: «يا رب، أنا أحلم بمؤسسة لا يكون فيها إلاّ الرجال وحيث يتم حل مثل هذا الأمر حول كأس، سيكون من الممكن حلّ مثل هذا الأمر خلال ساعة واحدة في الحانة»، قلت ذلك كاستعارة فأتت لتعظَني في نهاية الاجتماع وقالت «صحيحٌ أنني عانيتُ الكثير في هذه الإعدادية، إلاّ أنّني سآسف عليها لأنّ فيها حرارةً إنسانية...»، أعتقد بأنّ فيها علاقات وجدانية وذلك أحد العناصر القاسية، أنا أعتقد بأنّ ذلك هو أحد العناصر التي تؤرّقني، إنه عدم استطاعة المرء في هذه الإعدادية ألا

يتورّط وجدانياً. أي أنّه حين تكون الأمور جيدة، فإننا نشعر بأننا بحالة جيدة، وحين لا تسير على ما يرام فإننا نشعر بالاضطراب الوجداني، هذا خطأ، لكنني لا أرى كيف يمكن تجنب ذلك؛ والعلاقات بين الأساتذة...

❖ لا يمكن للمرء أن يحافظ على مسافات...

م. راموس: نعم، هكذا، العلاقات بين الأساتذة هي إما وجدانية أو نزاعية... على كلّ حال فحتى النزاع حالة وجدانية؛ الأساتذة إما أصدقاء جداً أو أعداء؛ واليوم ظهراً كنت أقول بأنّ هناك من الأساتذة من لم يعودوا يستطيعون التحدث معاً في اجتماعٍ للهيئة العامة للأساتذة، وأنا أقول بأنني كنت سأكون محظوظاً لو أنّ الأمر يتعلّق بحلّ نزاعاتٍ أو اختلافاتٍ سياسية أو نقابية أو تربوية، لكنها هنا اختلافات غير عقلانيةٍ، إنها تتعلق بالشكل. إذن، هناك مظاهر عاطفية جداً.

❖ وزميلك في الثانوية، ماذا قال عن كلّ ذلك؟ لديه نفس الطلاّب(...)

م. راموس: ليسوا نفس الطلاب؛ ليسوا نفس الطلاب؛ ليس لديه سوى نصف عدد الطلاب.

❖ نعم، لنقل بأنّ لديه نخبة...

م. راموس: ليسوا نفس الطلاّب، ليست نفس الأعمار وليس لديه نفس الصعوبات. وعلى سبيل المثال فقد لامني بوضوح واتهمني بأنني أقوم أكثر من اللزوم بدور الحاضنة وبالمساندة مما يجعل الأولاد يفتقرون إلى الاستقلالية ويجعل دراستهم أقل جودةً في الثانوية. بالنسبة للبعض، فإنهم يضيعون وقتهم في الثانوية.

❖ ومشاكل الانضباط أقل...

م. راموس: أوه! الأمر مختلف تماماً؛ في الثانوية التي تدرّس فيها زوجتي لا توجد مشاكل انضباط أبداً؛ لكن مع ذلك، فإنها موجودة في ف.؛ في العام الماضي حصلت في ف. اعتداءاتٌ على سياراتٍ للأساتذة تم تخريبها بالكامل، إذن هذا قد يحصل. وفي ثانوية ب. أيضاً، ضرب طالبٌ

مغاربي أصله من المنطقة إحدى المدرّسات العام الماضي أثناء خروجها من مجلس الصف. حسناً، هكذا تجري الأمور. لكن ليس لهذا علاقة بالمعتاد في الإعداديات؛ ففي الإعدادية لدينا حقاً كل أنواع الطلاّب. (...) أنت تسألينني لو أنهم كانوا فرنسيي الأصل لكن فقراء، هل ستكون المشاكل هي ذاتها؟ لو كان ذلك هو السؤال فجوابي هو نعم. نعم، تماماً، أنا أدرك ذلك تماماً، المشكلة تنبع من تكديس العائلات ذات المشاكل مهما كان أصلها الاجتماعي، مهما كان أصلها العرقي؛ نحن على وفاقٍ تامّ حول هذه النقطة.

❖ أنا أشكّ أن يتم العثور على حلّ، وبالتحديد حلّ اجتماعي...

م. راموس: لكن هناك مثال على ما يمكن أن يجري: ففي فينيسيو Vénissieux ، في مانغيت Minguettes عام 81، أخلوا الشقق، أخلوا الأبراج من السكان ثم هدموها، ومنذ ذلك الحين تناقصت المشاكل لأن تكدّس السكان نقص. أنا أصلي من فينيسيو، وكذلك عائلتي كلها، وقد ولد أبي وأعمامي وعماتي وأولاد عمومتي جميعاً في تلك المنطقة. وبالفعل، فإن الوضع كان عام 81 فظيعاً؛ أما الآن، فإنّ السكان من نفس النمط تقريباً لكنهم أقل تكدّساً بكثير مما كانوا عليه. صارت المساحات أكبر. لقد بدأ الناس يتنفسون من جديد. هناك إذن الطبقة الاجتماعية، لكن ربما كان هناك أيضاً فعل التكدّس على ما أعتقد.

نيسان 1991

بيير بورديو

تناقضات الميراث

تبعاً لهيرودوت، فإن كلّ شيءٍ سار على ما يرام عند الفُرس طالما أنهم تمكنوا من الاكتفاء بتعليم أولادهم ركوب الخيل والرمي بالقوس وعدم الكذب. من المؤكد بالفعل أن المسألة الأساسية في كل مجتمع والمتمثلة في نظام الميراث، أي إدارة العلاقة بين الآباء والأبناء، وبصورة خاصة استمرارية السلالة واستمرار ميراثها بأوسع معاني الكلمة، تُطرح بطريقة شديدة الخصوصية في المجتمعات المتمايزة. فمن جهة، ولاستمرارية الأب الذي يمثّل السلالة في مجتمعاتنا، وما قد يشكّل جوهر الميراث الأبوي، أي ذلك «الميل للاستمرار من خلال الإنسان»، ولإدامة الوضع الاجتماعي الذي يلازمه، ينبغي في كثيرٍ من الأحيان التميز عن هذا الأب وتجاوزه وإنكاره بمعنى ما؛ وهي عمليةٌ لا تمرّ دون مشاكل، سواءً بالنسبة للأب الذي يريد ولا يريد هذا التجاوز القاتل، أم بالنسبة للابن (أو الابنة) الذي يجد نفسه بمواجهة مهمةٍ قاسية قد يعيشها كشكلٍ من الانتهاك[1].

من جهةٍ أخرى، فإن نقل الميراث أصبح، بالنسبة لكافة الفئات الاجتماعية، يتعلق بدرجات متفاوتة بقوانين المؤسسات التعليمية التي تعمل بصفتها مبدءاً للواقع فظّاً وقوياً ومسؤولاً عن الكثير من الإخفاقات وخيبات

[1] خلال كل هذا التحليل، اضطررتُ لتفضيل حالة الابن، تاركاً لفرصةٍ أخرى تمحيص التغيرات في علاقة الميراث حسب الجنس بين الآباء والأبناء.

الأمل بسبب تكثيف المنافسة. إن مؤسسة الوارث- التي كانت حتى الآن موزعة بين قرار الأم أو الأب، حارسيْ إرادة وسلطة العائلة كلها- والفعل القدري الذي تمارسه هذه المؤسسة أصبحا أيضاً اليوم من مسؤولية المدرسة التي يمكن أن تؤكّد أحكامُها وعقوباتُها تلك التي تصدر عن الأسرة أو تعارضها وتقف في وجهها، والتي تساهم بشكلٍ فعال في بناء الهوية. ربما فسّر ذلك الأمر أننا كثيراً ما نجد المدرسة في أصل آلام الأشخاص الذين تم سؤالهم والذين خاب أملهم إما بمشروعهم الشخصي أو بالمشاريع التي رسموها لأبنائهم أو بسبب تكذيب سوق العمل لوعود وضمانات المؤسسة المدرسية.

إنّ العائلة، وهي قالب المسار الاجتماعي والعلاقةِ بهذا المسار، وبالتالي قالب التناقضات والمضايقات المضاعفة التي تنشأ بصورةٍ خاصّة من أشكال عدم التوافق بين ترتيبات الوارث وبين القَدَر المسجون في ميراثه، إنّ العائلة هي التي تولّد التوترات والتناقضات العامة منها (التي يمكن مشاهدتها في كل العائلات لكونها ترتبط بنزوعها إلى الاستمرار) والنوعية (التي تتباين بصفة خاصّة). الأب هو موضعٌ وأداةٌ «لمشروع»[2] (أو، وهو الأفضل conatus[*]) ينتقل، بما أنه مكتوبٌ في استعداداته الوراثية، بشكلٍ لا واعٍ ضمن طريقة وجوده ومن خلالها، وكذلك بشكلٍ تفسيري من خلال أفعالٍ تربوية توجّه نحو استمرارية السلالة (استمرارية ما يدعى بالبيت في بعض التقاليد). الوارث الناجح يعني قتل الأب بإيعازٍ منه، أي يعني تجاوزاً للأب يهدف إلى الحفاظ عليه، على «مشروعه» في التجاوز الذي يدخل بصفته هذه ضمن النظام، نظام التوارث. إن تطابق الابن مع رغبة الأب بالاستمرار عبر ابنه يجعل الوارث دون تاريخ[3].

إنّ الورثة الذين ينجحون في الاستحواذ على الإرث بقبولهم له،

---

[2] لتجنب منطق النيّة الواعية الذي تستدعيه كلمة مشروع، فسوف نستخدم كلمة conatus مجازفين بأن يعتبرنا القارئ نستبدل العامية بالفصحى.

[*] conatus: الجهد المبذول للاستمرار عبر الذات.

[3] إن التماثل مع الأب ومع رغبة الأب بالاستمرارية هو أحد الوسائط الأساسية للدخول في الوهم الذكوري، أي للانخراط في الألعاب والتحديات التي تعتبر مثيرةً للاهتمام في جوٍّ اجتماعيٍّ محدّد.

وبالتالي بقبولهم أن يكونوا موروثين بالوراثة، (كمَثَل خريج كليّة العلوم التقنية الذي تخرج أبوه من الكلية نفسها أو عامل التعدين ابن عامل التعدين) ينجون من تناقضات التوريث. فالأب البرجوازي الذي يريد لابنه ما لديه وما هو عليه يمكن له أن يتعرّف على نفسه تماماً في هذا المثيل الذي أنتجه، وهي إعادة إنتاجٍ مطابقة لما هو عليه وتأكيدٌ لامتياز هويته الاجتماعية الخاصة. وهذا ينطبق أيضاً على الابن. كذلك، وفي حالة الأب الذي قُطع طريقه إلى الصعود، فإنّ الصعود الذي يؤدي بابنه إلى تجاوزه هو، على نحوٍ ما، إنجازٌ شخصيٌ له، هو التحقيق الكامل لـ «مشروعٍ» تحطّم يستطيع بهذه الطريقة أن يكمله بالوكالة. أما بالنسبة للابن، فإنّ رفضه لأبيه الحقيقي يعني أن يجيّر لنفسه ويقبل مثلاً أعلى وضعه أبوه الذي يرفض نفسَه هو أيضاً وينكرها ويدعو إلى تجاوزها.

لكن، في هذه الحالة، تتضخّم رغبة الأب أحياناً بصورةٍ مفرطة، خارج حدود الواقعية، مهما كان واقعياً في ما تبقى: فالابن أو الابنة اللذان تشكّلا كبدائل للأب يكلّفان بالوكالة بصورةٍ ما، بدلاً عنه، بتحقيق ذاتٍ مثالية تتفاوت إمكانية تحقيقها: وهكذا نصادف العديد من الأمثلة على آباء أو أمهات يسلّطون على أبنائهم رغباتٍ ومشاريع تعويضية، ويطلبون منهم المستحيل. هذه هي إحدى الأسباب الهامة للتناقضات ولأشكال المعاناة: فالعديد من الأشخاص يعانون بصورةٍ دائمة من التفاوت بين ما حققوه وبين ما ينتظره منهم أهلهم، فهم غير قادرين على تحقيقه وغير قادرين على رفضه[4].

---

[4] يكون الأمر مشابهاً عندما تكون توقّعات الأهل التي تشكّلت في ظروفٍ اجتماعية سابقة بعيدة وغير منسجمة نوعاً ما بالنسبة لمتطلبات العالم الراهن، التي تتوافق معها بصورةٍ أفضل توقعاتُ الأبناء التي تشكّلت في ظروفٍ مجتمعيّة مختلفة. وهناك مصدرٌ آخر للمعاناة هو وجود مسافةٍ بين توقعات الآباء وتوقعات الأمهات، وكثيراً ما ترتبط تلك المسافة بعدم التوافق الاجتماعي بين الأبوين أو بين أفراد ذريتهما، واللذين يحاولان إطالة امتدادهما بإدامة إرثهما (وهذا بالتناقض مع الحالات التي تفيض فيها رغبة الأم عن رغبة الأب). وهناك سببٌ آخر للتناقضات ولمضاعفة المضايقة، وهو وجود تناقضات في المشروع الأبوي.

إذا كان التماثل مع الأب و«مشروعه» يشكّل أحد الشروط الأساسية للنقل الصحيح للإرث (وربما ينطبق الأمر بصفةٍ خاصة حين يكون المشروع ثقافياً)، فإنه لا يكون شرطاً كافياً لنجاح مؤسسة الإرث التي تتبع، بالنسبة للمتمتعين برأسمالٍ ثقافيٍ بخاصة، وكذلك بالنسبة لكل الآخرين بدرجةٍ أقل، تتبع قوانين المؤسسة المدرسية وتمرّ بالتالي عبر النجاح الدراسي. وأولئك الذين تُطلق عليهم عادةً تسمية «الفاشلين» هم بصورةٍ خاصّة أولئك الذين لم يحققوا الهدف الذي حدّده لهم اجتماعياً «المشروع» المسجّل في المسار الأبوي وفي المستقبل الذي افترضه هذا المسار. وإذا كان تمرّدهم ينصبّ دون تمييز على المدرسة والعائلة، فذلك لأنّ لديهم كلّ الأسباب التي تجعلهم يشعرون بالتواطؤ الذي يجمع هاتين المؤسستين، رغم تعارضهما الظاهري، والذي يتجلّى في خيبة الأمل التي يشكل هؤلاء «الفاشلون» سببَها وموضوعَها. ولا يبقى أمام أولئك الذين قتلوا آمال الأب وما ينتظره منهم سوى الاستسلام لفقدان الثقة بأنفسهم وتلبّس الصورة الشديدة السلبية التي تعكسها لهم أحكام المؤسستين المتحالفتين، أو الإجهاز الرمزيّ على «المشروع» الأبوي وذلك بمعارضة كلّية لنمط الحياة العائلية، كما يفعل المراهق الذي يقوم بأكثر المهمات حقارةً في حزبٍ يمينيٍ متطرف، بينما أبوه مهندسٌ يساريّ.

ينبغي أن نتفحّص بصورةٍ أشمل الأشكال المختلفة التي يمكن أن تأخذها الصلة بين أحكام المؤسسة المدرسية التي كثيراً ما تكون ذاتيةً وكلية، وبين الأحكام الأبوية، تلك التي تسبق أحكام المدرسة أو بصورة خاصة تلك التي تليها: فتلك الصلة شديدة التأثر بتصوّر العائلات ل«العَقد التربوي»، الذي يختلف كثيراً تبعاً للفئات الاجتماعية، والذي يختلف بدرجة الثقة الممنوحة للمدرسة وللأساتذة، وبدرجة تفهّم متطلّباتهم المعلنة منها والضمنية، وبشكلٍ خاصّ الضمنية. والمؤسسة المدرسية، المنغلقة ضمن رؤيةٍ تتعلّق بقدرة الطالب الذاتية لا تؤهلها كما ينبغي لملاحظة ومواجهة اختلافٍ الاستعدادات الذهنية عند الطلاب، كثيراً ما تحدث صدماتٍ نوعيّة تنشّط الصدمات الأولى: فالأحكام السلبية التي تؤثّر على صورة الذات تجد سنداً لها، ربما يكون متبايناً جداً بقوته وشكله، عند الأبوين، مما يضاعف المعاناة

ويضع الطفل أو المراهق أمام خيار الخضوع أو الخروج من اللعبة بأشكالٍ مختلفة من الإنكار أو التعويض أو التراجع (تأكيد الرجولة وإقامة علاقات قوّةٍ بدنية يمكن أن تُفهم كطريقة لقلب علاقات القوة الثقافية والدراسية إما بصورةٍ شخصية أو بصورةٍ جماعية).

هنالك نموذجٌ آخر قريبٌ من السابق، لكنّه أكثر مأساوية من زاويةٍ معينة، وهو نموذج الابن الذي عليه، كي«يؤسس حياته» كما يقولون، أن يُنكر حياة أبيه وذلك برفضه التام والقاطع لأن يرث ويورِّث، لاغياً بذلك بمفعولٍ رجعيّ كلّ المشروع الأبوي الذي يجسّده الميراث المرفوض. وتكون تلك المحنة مؤلمةً للأب بشكلٍ خاصٍ (وربما للابن أيضاً) حين يكون قد أنشأ بنفسه ذلك الميراث من أوّله إلى آخره، ذلك «البيت» (المهنة) الذي سيتوقف عند ذلك، كما هي حال المزارع الذي سألناه؛ إذ يلغى كل ما أنجزه، ويلغى بالتالي وجوده كله ويُنزع عنه معناه ومصيره.

من بين كل المآسي والنزاعات، الداخلية منها والخارجية، والتي ترتبط بالصعود بقدر ما ترتبط بالانحدار، والناتجة عن تناقضات التوارث، فإنّ أقلّها توقّعاً قد يكون التمزق الذي ينتج عن النجاح كفشل، أو بتعبيرٍ أفضل، كتعد: فكلّما نجحتَ (أي كلما حققت رغبة الأب في أن يراك تنجح) كلّما فشلتَ وقتلتَ أباك أكثر، وانفصلتَ عنه أكثر؛ وعلى العكس من ذلك، فكلّما فشلتَ، (محققاً بذلك الإرادة غير الواعية للأب الذي لا يمكن أن يريد في أعماقه أن يتم إنكاره كلّياً، بالمعنى الفعال للكلمة)، كلّما نجحتَ. ويبدو الأمر كما لو أنّ موقع الأب الذي كان يجسّد حداً ينبغي عدم تجاوزه قد أصبح يشكل نوعاً من منع الاختلاف معه والتميّز عنه وإنكاره ومقاطعته.

يمكن أن يمارس هذا التحديد للطموحات في الحالات التي حقق فيها الأب نجاحاً كبيراً (وتستحقّ حالة أبناء الشخصيات المشهورة تحليلاً خاصّاً). إلاّ أنّه يكتسب قوّةً خاصّة في الحالات التي يحتلّ فيها الأب مركزاً خاضعاً سواءً من الناحية الاقتصادية والاجتماعية (حيث يكون مثلاً عاملاً أو موظفاً صغيراً) أم من الناحية الرمزية (حيث يكون عضواً في جماعةٍ

موصومة) ويجد نفسه بحالة تناقض تجاه نجاح ابنه وتجاه نفسه أيضاً (حيث يكون منقسماً في داخله بين الفخر بالابن والخجل من الذات الذي يسببه استبطان نظرة الآخرين له). فهو في الوقت نفسه يقول لابنه: كن مثلي واعمل ما عملته، وكن مختلفاً، اذهب. إنّ وجوده كله يشتمل على حكمٍ مزدوج: انجح، تغيّر، تحوّل إلى برجوازي، وابقَ بسيطاً، متواضعاً، قريباً من الشعب (مني أنا). إنه لا يمكن أن يريد أن يتماثل ابنه معه في وضعه واستعداداته لكنه مع ذلك يجتهد بصورةٍ مستمرة لإحداث هذا التماثل في كلّ جوانب سلوكه، وبصورةٍ خاصة بلغة الجسد الذي يساهم بقوة في تشكيل المظهر. إنه يتمنى ويخشى أن يصبح ابنه نسخةً عنه، وهو يخشى ويتمنّى أن يصبح صنواً له. إن الابن، وهو نتاج ذلك الإيعاز المتناقض، منذورٌ للازدواجية تجاه الذات وللإحساس بالذنب لأنّ نجاحه هو بالفعل قتلٌ للأب في هذه الحالة: فهو خائن إذا نجح، ومخيب للأمل إذا فشل. ينبغي للخيانة أن (تُنصف) الأب، ومن هنا ينبع الإخلاص لقضية الشعب الذي هو إخلاصٌ للأب، (وكما تثبت ذلك مثلاً شهاداتٌ قمنا بجمعها، فإنّ بعض حالات الانتساب إلى الحزب الشيوعي مستوحاةٌ من البحث عن مصالحةٍ مع شعبٍ وهميّ، يتم العثور عليه بشكلٍ خياليّ في صفوف الحزب)؛ ويمكن فهم العديد من التصرفات، غير السياسية بالضرورة، على أنها محاولاتٌ لإجراء تحييدٍ سحريّ لتأثيرات تغير الموقع وتبدّل الاستعدادات التي تفصل الابن عملياً عن الأب وعن الأنداد («لم تعد تطيقنا») وللتعويض عن استحالة التماثل الكامل مع أبٍ خاضع[5] بالوفاء لمواقف ذلك الأب.

تميل مثل هذه التجارب إلى أن تُنتج أناساً ممزّقين، منقسمين ضدّ أنفسهم، يتفاوضون باستمرارٍ مع أنفسهم ومع تناقضهم الذاتيّ، وهم بالتالي

---

[5] هنا نفكّر بذلك الشاب من أصلٍ مغاربي الذي يجد نفسه محاصراً بين عالميْن لا يمكن لهما أن يتصالحا، فلا هو يجد نفسه في المدرسة التي ترفضه ولا مع أبيه الذي عليه هو أن يحميه، والذي يبدو بأن توتره يجد بدايةً للحلّ حين يجد في أبوي صديقته عائلةً بالتبنّي، ويجد عبر صديقته نفسها إمكانيةً ليستعيد انسجامه مع المدرسة.

منـذورون لشـكلٍ مـن الازدواجيـة، لإدراكٍ مـزدوجٍ للـذات، ومنـذورون كذلـك لتعدد الهويات ولأشكالٍ متعاقبة من الإخلاص.

وهكذا، فإنّ العائلة تفرض في معظم الأحيان أوامر متناقضة، سواءً بذاتها أم بالعلاقة مع الشروط المتوفرة لتحقيق تلك الأوامر، وذلك على الرغم من أنها لا تحتكر إنتاج المآزق الاجتماعية وأنّ المجتمع يضاعف الأوضاع التي تُنتج تأثيراتٍ مماثلة تماماً. إنها السبب الأساسي والأكثر شمولاً للمعاناة الاجتماعية، بما فيها ذلك الشكل المتناقض ظاهرياً للمعاناة المتجذرة في الامتياز. العائلة هي التي تجعل ممكنةً تلك الامتيازات المفخخة التي كثيراً ما تستجرّ المستفيدين من هدايا التكريس الاجتماعي المسمومة إلى أشكالٍ مختلفة من المآزق المَلَكية، الطرق المَلَكية التي تتكشّف عن كونها طرقاً جانبية دون مستقبل (وهنا، نتذكر عبارة: «الوجاهة تقتضي» وكلّ المستفيدين - الضحايا لشكلٍ من أشكال التكريس الاجتماعيّ أو الانتقاء، كالنبلاء والرجال والأخوة الأكبر سناً وحاملي الألقاب العلمية النادرة). ربما تكون العائلة هي المسؤول الأساسيّ عن هذا الجزء من المعاناة الاجتماعية التي يكون الضحايا أنفسهم موضوعاً لها (وبشكلٍ أدق، المسؤول عن الظروف الاجتماعية التي تنتج عنها استعداداتهم).

وبعدئذٍ، ينبغي الحذر من جعل العائلة السبب الأخير للمشاكل التي يبدو وكأنها تثيرها. وفي الواقع، وكما نرى في العائلة الفلاّحية حيث يحصل التوقف النهائي للعمل بسبب عدم الزواج أو رحيل الابن الأكبر، فإنّ العوامل البنيوية الأكثر أهمية (كتوحيد سوق الممتلكات المادية، والرمزية منها بصورةٍ خاصّة) موجودةٌ ضمن العوامل المسجّلة في قلب المجموعة العائلية. وهذا يجعل التكوينات الأكثر عمقاً في عالم المجتمع والتناقضات الكائنة في ما بينها تعبّر عن نفسها في كثيرٍ من الأحيان عبر سرد الصعوبات الأكثر «شخصيّةً» للتوترات والتناقضات التي هي ظاهرياً ذاتية جداً. وأشد ما يكون هذا الأمر وضوحاً في حالة الأشخاص الذين يحتلون مراكز غير مستقرة والذين يَظهرون بصفتهم «محللين عمليين» بارعين: فهم يوجدون

في مراكز «تفعل» فيها البنى الاجتماعية، وتجعلهم، تالياً، ينفعلون بتناقضات هذه البنى، فيضطرون، كي يعيشوا أو يصمدوا، لأن يمارسوا شكلاً من التحليل الذاتي الذي يفضي، غالباً، إلى التناقضات الموضوعية التي تتحكم بها، وإلى البنى الموضوعية التي تعبّر عن ذاتها من خلالها[6].

ليس هنا المجال المناسب لطرح مسألة العلاقة بين طريقة استكشاف الذاتية التي نقترحها والطريقة التي يمارسها التحليل النفسي. إلاّ أنه ينبغي على الأقل أن نحذّر من إغراء تصوّر العلاقات بينهما بصفتها خياراً بديلاً. إن علم الاجتماع لا يدّعي إحلال أسلوبه في التفسير مكان أسلوب التحليل النفسي؛ بل إنّه يريد فقط أن يبني بطريقةٍ مختلفة معطياتٍ معيّنة يدرسها التحليل النفسي أيضاً، وذلك بالتوقّف عند مظاهر للحقيقة يستبعدها التحليل النفسي باعتبارها ثانويةً أو غير ذات دلالة، أو يعتبرها حواجز ينبغي عبورها للوصول إلى ما هو جوهري (كالخيبات الدراسية أو المهنية والنزاعات في مجال العمل، الخ.) والتي يمكن أن تتضمن معلوماتٍ صائبة حول الأمور التي يعالجها أيضاً التحليل النفسي. ينبغي أن تجرى دراسةٌ حقيقية للعوامل الاجتماعية المكوّنة للأفراد التي تؤدي إلى نشوء الاضطرابات النفسية، وأن تجهد هذه الدراسة لفهم تأثيرات النظام الاجتماعي على التطورات النفسية، كيف يأسرها أو يحدد مسارها أو يقويها أو يقف في وجهها، وذلك تبعاً لوجود تماثلٍ وزيادةٍ وتعزيزٍ بين المنطقين، أو على العكس تناقض وتوتر. وبديهي أنّ البنى الذهنية ليست انعكاساً بسيطاً للبنى الاجتماعية. فالفرد يقيم مع حقلٍ ما علاقة تضامنٍ متبادل ويتحدد الوهم من الداخل عبر اندفاعاتٍ تحرّض على الانخراط في الموضوع؛ ويتحدد كذلك من الخارج انطلاقاً من عالمٍ خاصٍّ من المواضيع التي يقدّمها المجتمع. إنّ فضاء الممكنات المميِّز لكلّ حقل، دينياً كان أم سياسياً أم علمياً، الخ.، يعمل، وفقاً لمبدأ الانقسام النوعي الذي يميّزه،

---

[6] كثيراً ما تكون تلك حالة العاملين في المجال الاجتماعي الذين خطر ببالنا ان نسألهم أساساً بصفتهم مصادر للمعلومات والذين أصبحوا مواضيع مفضّلة لتحليلٍ يزداد غناه بالاعترافات الموضوعية بسبب تعمقه في استكشاف التجارب الذاتية.

كمجموعة متكاملة من المزادات والاستجداءات، بل والممنوعات أيضاً؛ وهذا الفضاء يؤثّر كما تؤثّر لغة ما، كنظام للممكن وللممنوع في العبارات، وهو يمنع أو يشجّع التطورات النفسية المتباينة في ما بينها والمختلفة على كل حال عن تطورات العالم الاعتيادي؛ وهو يفرض على الرغبة نظاماً خاصّاً فتتحول بالتالي إلى وهمٍ نوعي، وذلك عبر نظام الرضى الذي يقترحه. وكما يلاحظ جاك ميتر Jacques Maître ، فإنّ الحقل الديني مثلاً يستحوذ على بعض التطورات النفسية ويشرّعها، وقد تبدو هذه التطورات للفعاليات التي تدير الوجود الاعتيادي كأشكال مَرَضية لرفض الواقع. فتسمح الكائنات السماوية- وهي أشكالٌ خيالية تُذكر ضمن رمزيةٍ مقبولةٍ اجتماعياً وتُشرّع ويُعترف بها- والنماذج المستعارة من تقليدٍ أسطوري مستقل بقدرٍ متفاوت من الإدراك، تسمح بإسقاط أوهامٍ معترفٍ بها من الوسط المحيط وتؤمّن «تنظيماً دينياً للوهم» (مناظراً تماماً لما تؤمّنه النماذج الأدبية في مجال الحُبّ)[7]. وبنفس الطريقة، يمكننا أن نبيّن كيف تحدّد الرغبة ذاتها وتتسامى في كلٍّ من الفضاءات المقتَرحة لتعبير هذه الرغبة عن نفسها، لتأخذ أشكالاً مقبولةً اجتماعياً ومُعترفٍ بها، كأشكال الشهوة المسيطرة libido dominandi هنا والشهوة المُدركة libido sciendi هناك.

في تحليله لـ «الرواية العائلية للعصابيين» لاحظ فرويد بأنّ أحلام

---

[7] انظر ج. ميتر، «سوسيولوجية الإيديولوجيا والمحادثة غير الموجهة» في المجلة الفرنسية لعلم الاجتماع، المجلّد السادس عشر، عام 1975، صفحة: 248-256. لم يظهر كافّة الذين حاولوا التوفيق بين علم الاجتماع وعلم التحليل النفسي نفس الصرامة ونفس الحذر اللذين أبداهما جاك ميتر في أعماله حول الروحانيات، ويمكن لنا أن نستخرج من بعض المحاولات الجديدة الهادفة للتقدّم في هذا الاتجاه أشكالاً من التحريض على أشد حالات اليقظة. وإذا أردنا الأ يكون التحليل الاجتماعي نوعاً من التقاطع السلبي، كما يحصل في كثيرٍ من الأحيان في العقائد الوسيطة، حيث يُفلت من مقتضيات العقيدتين المعنيّتين، فإنه ينبغي بالفعل أن نحذر بأيّ ثمن من أشكال التوفيق النخبوية لـ «تحليلٍ نفسيّ» صحفيّ يكتفي بإعادة تسمية أكثر أفكار علم النفس التلقائي سذاجةً، حيث يصبح الطموح مثالاً للأنا، أو رغبةً نرجسيةً كليّة القدرة، والفشلُ فقداناً للهدف، وينبغي أيضاً أن نتجنّب علم الاجتماع الرخو الذي يتلاعب، باسم «التعقيد» و«ما بعد الحداثة»، بالأفكار الفارغة لميثولوجيا مبنية على تعارضاتٍ بين التعابير المتضادّة، وذلك دون أن يكون له موضوعٌ مرجعيّ، مرددين برتابةٍ مرّةً أخرى اللازمة البرجسونية حول المغلق والمفتوح.

اليقظة لفترة ما قبل البلوغ كثيراً ما تستحوذ على «موضوعة العلاقات العائلية» بنشاط تخيّلي يهدف إلى رفض الأبوين اللذين أصبحا منبوذين ليحلّ محلهما آخران غيرهما من «وضعية اجتماعية أعلى»، أي «أرفع مقاماً». ولاحظ في نفس الوقت بأنّ هذه الأحلام «تفيد في تحقيق رغبات معينة وإلى تصحيح الوجود كما هو، وبأنها تهدف بصورة أساسية إلى أمرين: جنسي وطموحيّ». وأضاف على الفور بين قوسين: «لكن خلفه (خلف الهدف الطموحيّ) يختبئ أيضاً في معظم الأحيان الهدف الجنسيّ»[8]. لست أملك أن أؤكّد أو أنفي هذا التأكيد. لكنني أودّ فقط أن أذكّر بالتأكيد المتمم الذي يغفله التحليل النفسي: في كلّ حقل (ورأينا مثالاً مع الحقل الديني)، لاتتظاهر الرغبة إلاّ بالشكل النوعي الذي يحدده لها هذا الحقل في لحظة معينة من الزمن، وهو يتمثّل في أكثر من حالة بالطموح.

---

[8] س. فرويد، العصاب والذهان والفساد، باريس P U F 1973، صفحة 158 – 159.

آلان أكاردو

المصير المدرسيّ

سيباستيان ك. صحفيّ سياسيّ في إذاعةٍ يتجاوز مستمعوها الإطار المحليّ. في عام 1981، تابع– متأخراً نوعاً ما، فقد كان في الثامنة والعشرين من عمره – دروساً في مدرسةٍ مشهورةٍ للصحافة، وذلك في نهاية مسيرةٍ دراسية ومهنية مضطربةٍ نوعاً ما. تمّ اللقاء في مسكنه الجديد، وهو بناءٌ برجوازيٌّ قديمٌ، إلاّ أنه مجدّد، يقع في وسط مدينةٍ كبيرة في الريف، وهو ذو مستوى أكثر تلاؤماً مع التطور الجديد في وضعه المهني. ورغم النجاح الذي يُظهره سيباستيان، فإنّه يبدو مسكوناً بألمٍ يمكن أن يخففه مع الزمن الاستغناءُ التدريجي الاجتماعي (فهو يسلّم قائلاً: «التمرّد يضعف...»)، لكن مع ذلك دون أن يختفي تماماً.

سيباستيان هو الابن البكر لعائلةٍ من البرجوازية الصغيرة جداً اكتسبت وطوّرت استعداداً للارتقاء، وذلك ببذل العديد من التضحيات الشجاعة؛ وبما أنها لم تستطع الوصول فوراً وبشكلٍ كاملٍ لتغيير وضعها، فقد طبّقت على أبنائها آمالَها في تحقيقٍ حقيقيٍّ لهذا التغيير عن طريق دفعهم الحثيث على طريق الدراسة. والد سيباستيان من عائلة أصلها إسباني مهاجرة من المغرب، وكان أبوه عامل سكك حديدية. فقد بدأ تأهيلاً بعد حصوله على شهادة الدراسة الابتدائية، لكنه اضطرّ للتخلي عنه ليشتغل عاملاً في هيئة السكك

الحديدية المغربية، ثم أصبح رئيس مجموعةٍ بفضل الدروس المسائية وتدريبات الإملاء العديدة التي فرضها على نفسه بمساعدة زوجته التي نالت قسطاً أوفر من التعليم. وبالفعل، فقد درست زوجته في المدرسة الإعدادية حتّى الصفّ الثامن، حيث اضطرت لترك الدراسة بسبب نقص الإمكانيات المادية، في ما يشبه تكراراً تعيساً لتاريخ العائلة، فقبل سنواتٍ عديدة، وجد والدها أحلامه تنهار بسبب الموت المفاجئ لوالديه، وهو الذي كان قد حصل على الشهادة الثانوية وكان يحلم بأن يصبح كاتباً بالعدل. وهكذا، وجد سيباستيان نفسه منذوراً منذ نعومة أظفاره بحُكمٍ عائليّ لرفع سوية العائلة بأكملها عن طريق النجاح المدرسيّ المرتقب.

لقد جثمت على صدر الطفل ضخامة الحِمل المعنوي- حتى لو لم يدرك إلاّ بصورةٍ مشوّشة أهميةَ رهانٍ يتجاوز شخصه- وساهم ذلك الأمر على الأغلب في إعطاء منحى مأساويٍّ للصعوبات التي صادفته في المدرسة. مع ذلك، فحين بدا لوالديْ سيباستيان المسكونين بـ«حرمانٍ هائل» وبِـ«هاجسٍ» دراسيّ «حقيقيّ» أن ابنهما «يقدم لهما الآمال»، اعتقدا أنهما سوف يتمكنان أخيراً من القطيعة مع سوء الطالع الذي عرفته العائلة حتى ذلك الحين، وصبّ الأبوان كلّ اهتمامهما على مسيرة سيباستيان الدراسية، وكذلك على مسيرة أخيه الذي يصغره بخمس سنوات، فقد تخليا مثلاً عن اقتناء جهاز تلفزيون كيلا يعيق دراسة الأبناء. عملت الأم في تنظيف المنازل لتدفع تكاليف دراستهما، وبصورةٍ خاصة لتدفع تكاليف دروسٍ خاصّة في الرياضيات، بينما اهتمّ الأب بشكلٍ حثيثٍ بدراستهما، وذلك بعد أن «احتدمت» طموحاته منذ نجاحات سيباستيان الأولى؛ فهذا الأب كان يشارك في كافّة مجالس الأولياء ويضاعف مقابلاته للأساتذة، رغم أنّ كلاً من هذه المقابلات مثّلت، كما يقول سيباستيان، فرصةً «ليتلقى «صفعةً» من الوسط المدرسي بسبب كونه لا يتكلّم بصورةٍ ممتازة».

وعلى الرغم من أهمية تلك التعبئة العائلية، فإنّ سيباستيان، الذي قد يكون ضحية «القسر» المدرسي الذي خضع له، سرعان ما رأى نجاحه يراوح في مكانه (منذ الصف الخامس، كما يحدد هو نفسه)، وذلك بعد أن

كان يعد بالكثير في البدايات (وهو دخل المدرسة قبل السن النظامية). وإذا كان سيباستيان يحكي قصّته المدرسية بإحساسٍ هو مزيجٌ من العرفان والإحساس بالذنب تجاه والديه ويعزو لنفسه في الماضي الدور السلبي (لم أكن شديد الذكاء)، «أبواي هما اللذان حملاني حقاً، كانا يحققاني باستمرار، ولو لم يكونا موجودين (...)، لما تمكنت من الوصول حتى النهاية»، فإنه لا يخفي واقعَ أنه كان من الصعب عليه أن يتحمّل ذلك الضغط المقلق الذي يلازم في كثيرٍ من الأحيان مشاريع الصعود الاجتماعي.

يُظهر العديد من التفاصيل العلاقةَ النزاعية التي يقيمها الأب مع المؤسسة المدرسية، وهي الموضوع شبه الحصري لكلّ الاستثمارات، وبالتالي لكلّ الملامات. فقد تشاجر مثلاً مع معلّمة سيباستيان الذي كان في الصفّ الثالث لأنه اتهمها بحرمان ابنه عن قصد من المرتبة الأولى في الصف لصالح ابنة الصيدلاني، ويعلّق سيباستيان على هذه الحادثة فيقول بأنها كانت حادثةً مريرة ويضيف: «كان أبي قد أخطأ في جمع علاماتي!». ويسترجع الأب الذي كان مناضلاً عمالياً منضوياً تحت لواء اتحاد العمال العام CGT والذي «طالما ثار على وضعه بدرجاتٍ متفاوتة»، يسترجع برعونةٍ استعداده للمطالبة حتى في علاقته مع المؤسسةِ المدرسية؛ فقد اعتقد، في بدايةِ مسيرة سيباستيان الدراسية على الأقل، بأنه- وهو الفقير ثقافياً والذي لا يملك من سلاحٍ يعارض فيه المدرسة سوى سلاح الرفض والتعنّت المرتاب- يستطيع أن يخدم مصالح ابنه بصورةٍ أفضل إذا اختار تجاهل الأحكام المدرسية في حال تناقضها مع طموحاته. وهكذا رفض في بداية عقد الستينات أن يُدخل ابنه في أقرب إعداديةٍ عامّة إلى مسكن العائلة الذي يقع في محيط المدينة، وذلك رغم أنّ ابنه قد نجح بصعوبة إلى الصفّ الأول الإعدادي، وسجّله في أكبر ثانويات المدينة (وذلك على عكس رأي المعلّمين في تلك المرحلة)؛ وتقع تلك الثانوية في مركز المدينة، وتتمتّع بسمعةٍ تميل إلى النخبوية، ويفرض عليها التقسيمُ حسب المناطق استقبالَ طلاّب مناطق حدودية معينة ينتمون إلى الأوساط البرجوازية، وتحضّرهم للبكالوريا وتأهّلهم للمدارس العليا.

وهكذا، ارتكب الأب خطأً ذا نتائج وخيمة حين أراد «الأفضل لابنه»،

لن يكرره مع الابن الثاني. وشعر سيباستيان الذي غُمس بصورةٍ مفاجئة في المحيط الغريب عنه وعمره لم يتجاوز التسع سنوات ونصف بـ«صدمة» أدّت عنده إلى ما يشبه الشلل الدراسي: فقد حصلت «الكارثة الفورية» منذ الصف الأول الإعدادي وحدث لديه فشلٌ جعله «لا يفهم ما يجري». عانى سيباستيان من الإحساس بالغربة التامة، بالاقتلاع الكامل من الجذور، جغرافياً ومدرسياً واجتماعياً: الانتزاع من العائلة والمحيط المألوف لرفاقه في المدرسة، الرحلات بالحافلة في وقتٍ مبكرٍ جداً، قضاء نهارات كاملة خارج بيته؛ وتغيُّر مستوى المتطلبات المدرسية- فقد اكتشف على سبيل المثال في الأول الإعدادي «ضعفه الشديد بالإملاء»-، وغرابة محيط مدرسيٍّ «يتم فيه إملاء الصولفيج»، وحيث يبدو له «الأساتذة الذين يدرّسون الفرنسية واللاتينية واليونانية وحوشاً، أنصاف آلهة، غرباء»، وباختصار، أشخاصاً «من عالمٍ مختلف» عن عالمه؛ كما أنه شعر أيضاً بغرابة وضعه الاجتماعي الذي كانت تذكّره به دائماً نظرات وتعليقات زملائه وأهلهم وأساتذة الثانوية؛ كان يشعر بأنه ليس في مكانه، ودعّمت لقاءات ومواجهات أبيه المؤلمة مع الجهاز التدريسي هذا الإحساس، «فهو ليس حنوناً دوماً مع الناس الذين ليس لديهم مقاييسهم». لقد كانت ثلاثَ سنواتٍ سوداء، ثلاث سنواتٍ من الألم والفشل المتزايدين. ولن يستطيع أبداً كما يقول «الدخول إلى المدرسة دون أن يشعر بالخوف»، ورعبه المتزايد في الصفّ، بمواجهة أساتذةٍ جاهزين «للسادية» أو للتجاهل المزدري، لا يجد عزاءً في المنزل، وهو أيضاً مسرحٌ «للحملات الشعواء»، العنيفة في بعض الأحيان، ينساق إليها الأب أحياناً لشعوره «بالمرض» من فشل ابنه («أعفيكم من المشاجرات العائلية ومن الهزات»). وبعد الصفّ الثاني الإعدادي «السيئ» لدرجة أنه يكفيه أن يتذكره لكي يتعرّق، «حُوّل إلى صفٍّ انتقالي»، أي أنه طرد فعلياً من الثانوية وبشّره أساتذته «بمستقبلٍ مظلمٍ»، وهذا الحكم يشكّل تكذيباً فظاً لطموحات أبيه التي «ليست في مكانها» اجتماعياً، لأنها مُغالية. وبسبب الألم الذي سببته له تلك التجربة التي جعلته «معقّداً بشدة» ومهاناً، فإنّ سيباستيان لم يستطع لفترةٍ طويلة أن يقطع سلسلة الفشل، حتى بعد

أن أصبحت المتطلبات المدرسية أقل من السابق. وتمكّن، بفضل معارضة أبيه القوية، من تجنّب التوجيه المهني القصير الأمد. وحصل على شهادة ثانوية فنية دنيا بعد رسوبه عدة مرات. خلال تلك المسيرة الدراسية الصعبة، تمكّن سيباستيان من إقامة علاقات شخصية أفضل وأقلّ صداميةً مع بعض أساتذة المواد الأدبية، وحصل في الإعدادية العامة وفي الثانوية الفنية على الاهتمام الذي رفض أساتذة الثانوية المرموقة التي كان فيها منحَه له، وربما كان ذلك تحديداً لأنه قد سبق له أن كان طالباً في تلك الثانوية ذاتها. وقد سمح له اكتشاف حركات طلاّب الثانويات والنضال الفعال عام 1971–1972، حين كان في الصف العاشر، بأن يؤكّد ذاته حين منحته تلك الحركات وذلك النضال وسيلةً للتعبير ودعماً لتمرده الضبابي. وساعده التدرّب على وظيفة الناطق الرسمي بصفة خاصة على التغلب على «خجله» و«عقده» وتلعثماته، وقدّم له بالتدريج كفاءةً ويسراً سمحا له بمتابعة دراسته وبإطالة نضاله من خلال المشاركة بحركات سياسية. إلاّ أن نفوره «العميق» من كافة أشكال السلطة المؤسساتية الذي ولّدته داخله تجربته الأولى مع الوسط التعليمي أوصله إلى أن يقول عن نفسه بأنه «يساريٌ ليبراليٌ مناصرٌ للبيئة» وإلى الإعلان بأنه غير قادرٍ على البقاء طويلاً في منظمةٍ سياسية أو نقابية.

يمكن فهم الجاذبية التي مارستها مهنة الصحافة على سيباستيان، أو على الأقل الصورة الباهرة التي قد يشكلها بعض اليافعين في أذهانهم لها خلال مسيرتهم الدراسية الفاشلة جزئياً، والذين يحتفظون مع ذلك بطموحٍ اجتماعيٍ كبير ولديهم استعدادٌ مسبق للتمرد ولكشف حالات الظلم، بدءاً من تلك التي يتعرضون هم بالذات لها. لكنه تردد مع ذلك قبل الانخراط بتلك المهنة؛ ربما كان ذلك لافتقاده في حينه للعلاقات الاجتماعية التي يقال بأنه لا غنى عنها في تلك المهنة، لكن ذلك أيضاً لأنّ الصلة التي كان يقيمها مع الصحفيين إشكاليةٌ بعمق، إذ أنهم كانوا يمثّلون أيضاً بالنسبة له الناطق الرسمي للمهيمنين. وهذا جعله يحضّر أولاً دبلوماً تجارياً تقنياً عالياً وينجح بسهولةٍ في الحصول عليه، ويقوم «بأعمال صغيرة متنوعة»، بل يخطط للتحضير «لشهادة مهنية في الطبخ»، وذلك قبل أن يدرس في مدرسة الصحافة.

وإذا كان سيباستيان قد تمكّن من إجراء تصحيحٍ رفعه إلى وضعٍ اجتماعي هامٍ نسبياً، فإنّ هذا لا يمنع من أنّ هذا المسار يدين بالكثير لمصادفة اللقاءات والأحداث التي قد تؤثر على مسيرة أولئك «الصاعدين» من النظام المدرسي. وعبر أنصاف النجاحات التي تجعلها ممكنة الحدوث، فإنّ هذه الدفعات المساندة التي يقدمها القدر-نذكر هنا تدخّل أستاذٍ قديمٍ لسيباستيان في الإعدادية العامة عضوٍ في لجنة تحكيم البكالوريا قابله صدفةً قبيل الامتحانات- إن لم تُثرِ النجاح، فإنها تؤدي على الأقل إلى إيقاف الفشل المتتابع وإلى إعادة تنشيط الآمال التي أنتجتها التربية الأسرية والتي أدى الفشل المتتالي إلى إخفائها.

ورغم كونه اليوم صحفياً محترفاً راسخاً ومعروفاً، فإنّ سيباستيان لا يستطيع، أو لا يريد، الانخراط في وسط الصحفيين: فهو لا يعترف بأي صديقٍ صحفيّ، ويرفض أن يحتلّ وظيفةً أعلى في التراتب الوظيفي، حيث رفض مثلاً وظيفة مساعد رئيس تحرير. ربما يكون هذا الابتعاد المُعلن تعبيراً عن رفضٍ أكثر عموميةً للدخول في عالَم المهيمنِين يمكن لمسه بصورةٍ خاصة من خلال استخدامه للغة حافظت قليلاً على بعض التعبيرات الشعبية؛ إلاّ أنه في ذلك الابتعاد يتجلّى أيضاً الرفضُ الأكثر نوعيةً لوسط الصحفيين الإذاعيين. وبالفعل، فإنّ سيباستيان ينظر دون تساهلٍ ودون أوهامٍ إلى ذلك الوسط الذي لا يرضيه فيه شيء: كالعمل الذي ينبغي إنجازه دوماً بسرعةٍ ودون تحضيرٍ جيد، والوقت غير الكافي على الهواء، والمعلومات المثيرة، وزملاؤه الذين يميلون للخضوع لمصيرهم، بل الراضون عنه، والذين ترسخت مواقعهم في الروتين المهني والوضاعة الثقافية. وهو يذهب إلى إدراج نفسه، بطريقةٍ مدمّرة للذات نوعاً ما، ضمن الحكم السلبي الذي يطلقه على المهنة ككلّ، مدفوعاً بوضع المقابلة التي سنذكرها بعد قليل، والتي يريدها أن تكون مناسَبَةً لشيءٍ من التفكير «بنفسه»، بل إنه يعلن بشيءٍ من المغالاة بأنه اختار الصحافة لكونها «مهنةً ليس مطلوباً ممن يمارسها أن يعرف الكثير، وينبغي أن يكون ثرثاراً وأن يكون عنده بعض المهارة في الخداع».

في واقع الأمر، فإنّ سيباستيان لم «يهضم» بعدُ تجربةً مدرسيةً عاشها ككارثة مشينة. إنّ المؤسسة المدرسية، برفضها منحه الاعتراف به، هي التي ساهمت بقوّة في تشكيل حساسيته المتفاقمة تجاه كلّ أشكال الاحتقار في الصف. إنّ شعور سيباستيان يمثّل ردّاً مزدوجاً على الخيبات الانفعالية، التي هي الوجه الآخر لانبهار ورغبة ممزوجة بالعرفان، وهو في الوقت نفسه ردّ فعل على الإهانات المدرسية (سواءً أكانت ملاحظة وليّ أمر أو أستاذ، أو مجرّد الجو العام لثانوية نخبوية)، وبصورة عامّة على كلّ تلك التصرفات التي تعيد من خلالها الأرستقراطيات الاجتماعية الدخلاء إلى أماكنهم، وهذا الشعور هو أيضاً تعبيرٌ عن كره للذات، كما لو كان الصحفي الشابّ يمارس بداخله ما تعتبره الأحكام الاجتماعية مكروهاً، وذلك حين يمارس على نفسه تحقيراً للذات وحين يصبح «جلاّد نفسه».

ويفهم المرء أيضاً ألاّ يكون سيباستيان محايداً تجاه المكاسب والامتيازات المترافقة مع وضع الصحفي، وبصورة خاصة حين تعطيه فرصةً للانتقام الاجتماعي، كما يحدث خصوصاً حين يقابل شخصاً من الأشخاص المهيمنين، وبالأخص من الأساتذة، سبب كلّ ذلك الألم والخوف والكراهية بحيث لا يستطيع أن يمنع نفسه من أن يذكّرهم برعبه أمام اللوح الأسود حين كان طالباً، وذلك حين يرى اضطرابهم وخجلهم المفاجئ أمام الميكروفون. وإذا كان يعتقد أحياناً بأنه يمكن القيام بعمل صحفيّ أكثر نضاليةً وأكثر انخراطاً بالنضالات الاجتماعية في إطار الإذاعة التي يعمل فيها، فإنه لا يفقد أبداً ذلك الصفاء الذهني الذي أصبح يمنعه من الاستسلام للأوهام، ويكبت بشكل خاصّ طموحه الحقيقي المتمثّل في أن يمارس يوماً ما صحافةً رفيعة المستوى على مثال مقالات جريدة لوموند ديبلوماتيك Monde Diplomatique. وربما لأنه تعلّم بصورة مبكرة جداً أن يرتاب بالمشاريع شديدة الطموح، فإنه يبدو بأنه لا يستطيع بعدُ الآن أن يتخيل المستقبل إلاّ كانعكاس بسيط لحاضر بائس يتكرر بصورة لا نهائية: فهو «يرى نفسه {في نفس المدينة} صحفياً بالمستوى نفسه والدرجة ذاتها بعد عشرين عاماً».

مع صحفي

مقابلة أجراها آلان أكاردو

«كانت متابعتي لدراستي هاجس أبويّ»

[...]

سيباستيان: دخلت المدرسة بعمر أربع سنوات ونصف، حيث دخلت الصف الأول وذلك لعدم وجود دار حضانة في ذلك الوقت، وقد أعدتُ الصف الأول في العام التالي. لم يكن ذلك رسوباً، فقد كان عمري صغيراً جداً؛ بعد ذلك، درست الصف الثاني ثم الصف الثالث وكانت الأمور جيدة. سأروي لك حكايةً صغيرة: فحين كنت في الصف الثالث، زجر أبي المعلّمة لأن ترتيبي كان الثاني على الصف، في حين أنه كان يُفترض أن أكون الأول؛ الأولى كانت ابنة الصيدلاني، وبدأ أبي يقول إنها لم تصبح الأولى إلاّ لأنها ابنة الصيدلاني... كان قد أخطأ في جمع العلامات، تلك هي الحكاية التعيسة. بعد ذلك، انتقلت الأسرة إلى ف. حيث بنى أهلي منزلاً صغيراً، ودرستُ فيها الصف الرابع، وكنت جيداً؛ أعتقد بأنني كنت الأول على الصف. وبعد ذلك، في الصف الخامس، بدأت الأمور تسوء، لا أدري لماذا، لكنني نجحت إلى الصفّ السادس(*). كان كلٌّ من أبي وأمي يأسفان كثيراً لتركهما للمدرسة ويشعران بحرمانٍ كبير، وبالتالي ، فإنّ هاجسهما الحقيقي

(*) تبدأ المرحلة الإعدادية في فرنسا اعتباراً من الصف السادس. المترجم

كان في أن يكمل ابنهما دراسته؛ أظنّ بأن ذلك الأمر هامٌ بالنسبة لمسيرتي وأنا أدين لهم بالكثير في هذه النقطة، حتى لو كان الأمر شاقاً بالنسبة لي.

❖ كم ولداً أنتم؟

سيباستيان: اثنان، فلديّ أخٌ أصغر مني بخمس سنواتٍ وهو قد ولد في فرنسا.

❖ إذن، فقد حمّلك والداك آمالهما؟

سيباستيان: تماماً، تماماً، ومن الصعب التعايش مع هذا الوضع، لكنه يفسر وصولي إلى نهاية المطاف تقريباً، لأنه لولا ذلك لما وصلت، أنا مقتنعٌ تماماً بذلك! إذن، فقد نجحتُ إلى الصف السادس فسجلني أهلي في ثانوية م. وذلك لأن لديهم أيضاً تصوّر للعَظَمة، سجلوني في تلك الثانوية على الرغم من رأي المعلّمين المضاد لتلك الخطوة. وكانت الكارثة! لقد حصلت الكارثة على الفور. إنّ ما أتذكره عن تلك المرحلة هو الأساتذة. لقد كنت صغيراً جداً وكان يتوجب عليّ البقاء خارج المنزل طيلة النهار، وكنت أرى الأساتذة الذين يدرّسون الفرنسية واللاتينية واليونانية كالوحوش! لقد كانوا وقتها أنصاف آلهة. إذن، لم أفهم شيئاً في الصف السادس؛ قبل ذلك، لم أكن سيئاً في الإملاء، {وفي الثانوية} وجدت نفسي سيئاً جداً فيه، وأخذت أرتكب كمياتٍ كبيرة من الأخطاء.

تقييم المدير لي كان: «سيكون له مستقبل مظلم»

سيباستيان: إذن، رسبت في الصف السادس لأنني كنت ضائعاً تماماً؛ ثم نجحت إلى الصف السابع؛ كانت سنةٌ كارثية، كارثيةٌ حقاً! لازلت حتى الآن أشعر بالخوف كلما تذكّرت تلك السنة، وكان تقييم المدير لي في نهاية أو منتصف العام بأن «مستقبلي سيكون مظلماً»، وحُوّلت إلى مجلس التأديب لأنّني تبادلت الأوراق مع زميلٍ لي؛ كان عاماً مريعاً حوّلتُ في نهايته إلى صفٍ انتقالي. فمرض والدي، وحدثت مشاحناتٌ يومية في العائلة.

❖ هل كنت مشاغباً؟

سيباستيان: لا، أبداً، لم أكن مشاغباً، بل ربما كنت أتحول بالتدريج إلى شخصٍ معقّد فقد كنت أشعر بأن شيئاً ما يقع فوقي.

❖ وماذا عن علاقاتك مع زملائك؟

سيباستيان: كانت جيدة.

❖ ووجودك في ثانوية م. في تلك الفترة؟

سيباستيان: بالنسبة لأبي، كان يهتم بي كثيراً، ويذهب إلى المدرسة... كان يصادف في صالة الانتظار بعض الأهالي، وهو يذكر تعليقاً وجهه له أحد الآباء حيث قال: «مكان ابنك ليس تماماً في م.»، كما أنني أذكر أحد زملائي في الصف، وقد التقيت به ثانيةً في ثانوية الفتيان الفنية، وكان قد أصبح في الصف الثالث الثانوي بينما كنت في الصف العاشر: «أنا مندهشٌ لوجودك هنا، فقد كنت أتوقع ألاّ تتمكن من المتابعة». في الصف الثامن، ذهبت إلى إعداديةٍ عامة في س. وكانت تلك الإعدادية أكثر مناسبةً لقدراتي. هناك، سارت الأمور بشكلٍ أفضل وقد اضطر أهلي لدفع أجور دروسٍ خصوصيةٍ لي في الرياضيات، وساعدني ذلك كثيراً في النجاح إلى الصف التاسع. في ذلك الصف، كانت الأمور جيدة في الفصل الأول، وبعد ذلك تدهورت أحوالي، وكان ذلك عام 68. ففي نهاية العام الدراسي حصلت اضطراباتٌ؛ رأيت الأحداث عن بعد، فقد كنت في الرابعة عشرة من عمري، ولم أتمكن من النجاح إلى الصف العاشر. ذهبت إذن إلى الثانوية المهنية لأدرس الإلكترونيات. أما أبي، فلم يكن يريد ذلك! إذن، فقد رسبت، وأجريت ما يدعونه بالصف التاسع الخاصّ؛ أي أنهم كانوا يضعون في هذا الصف كل الراسبين ويقدمون لهم دروساً متقدمة. أي أنه لم يكن رسوباً حقيقياً. ثم بعد ذلك، دخلت إلى التعليم الفني. لماذا التعليم الفني؟ إنهم دوماً أهلي، وخاصةً أبي، الذي كان يقول لي بأنني إذا لم أتمكن من الوصول إلى البكالوريا، فإنه يمكنني دائماً أن أتعلم مهنةً، بينما في الفرع الأدبي... ثم إنني لم أكن أعرف أبداً ما الذي سأفعله، وحين وصلت إلى الثانوية الفنية، شدتني مواد اللغة الفرنسية، بينما لم تستهوني مواد التاريخ

والجغرافيا، لكنني كنت قد بدأت أتخذ طريقاً. كان مستواي في الصف العاشر متوسطاً جداً وبالكاد سُجّلت في القسم F1. أفضل الطلاب كانوا يذهبون إلى القسم E، والذين بعدهم إلى القسم F3، ثم F2، وأسوأ الطلاب كانوا يرسلون إلى القسم F1؛ كما أن الثانوية الفنية كانت صعبةً في ذلك الوقت. وبعد ذلك نجحت إلى الصف الحادي عشر حيث كان مستواي ضعيفاً، لكن في البكالوريا كان الوضع أفضل، لكنني رسبت في ذلك الصف في السنة الأولى وأردتُ أن أعيد السنة لأنني كنت أكره الورشات على كل حال. كان لدينا اثنتا عشرة ساعةً من الدوام في الورشات أسبوعياً، وكنت لا أفقه شيئاً في الرسم الصناعي، وكانت علامة الرسم الصناعي في البكالوريا تُضرب بستة، وقد حصلت في العام الأول على علامة أربعة، وفي العام الثاني على علامة خمسة. لذلك، فحين يكون لديك مثل تلك العلامات، يصبح التعويض من الصعوبة بمكانٍ! في العام الثاني، نجحت بزيادة علامةٍ واحدة عن علامة الرسوب، علامةٍ واحدةٍ فقط لأنني قابلت بالصدفة أستاذي السابق في الرياضيات في الإعدادية، وأعتقد أنه قدّم لي مساعدةً فائقة، أظن أنه قد توسّل إلى الأساتذة لكي يضعوا لي علامتين أو ثلاث علامات إضافية وحصلتُ على البكالوريا! كان عضواً في اللجنة لكن حين رأيته، لم أكن أعلم بأنه عضوٌ فيها، رأيته بالمصادفة حين كان على وشك الدخول وكنت مشتاقاً له... أظن أنه كان ينقصني ثمانية علامات، وحصلت على علامةٍ زائدة؛ لقد وضع علامةً هنا وعلامةً هناك، لكن حين تضرب العلامة بمعاملها، فإن المجموع يرتفع. هكذا حصلت على الشهادة الثانوية. حينذاك، أردت بأيّ ثمنٍ أن أترك ذلك التعليم الفني، وتقدّمت بطلبٍ لأصبح صحفياً؛ ذهبت إلى التوجيه الدراسيّ وسألوني هل لديك علاقات؟ أجبت أن لا. فقالوا لي: «حسناً من الأفضل لك ألاّ تعمل بهذه المهنة إذا لم يكن لديك علاقات». وبما أنه لم تكن لي علاقات، وبما أنني كنت معقداً نوعاً ما من التوجه الفني، فقد بحثت عن شيءٍ آخر.

كان الاقتصاد يثير اهتمامي نوعاً ما بسبب علاقته بما هو نضاليّ؛ كل ما يتعلق بالاقتصاد كان يثير اهتمامي. اخترت بالتالي الدراسة في معهدٍ

فنيّ تجاري في ت. هناك، جرت الأمور بشكلٍ جيد جداً، فقد كنت في المكان المناسب لي. حصلت إذن على الدبلوم بسهولةٍ شديدة، بل إنني أعتقد أنني حصلت على تقديرٍ جيد، ثم بحثت عن عمل.

كنت محتاراً بعد ذلك بين شهادة التأهيل المهنية

في الطبخ وبين مدرسة الصحافة

سيباستيان: عملتُ في مخزنٍ لعدة أشهر ثم عملت قليلاً في مجال التأمين على الحياة، ثم في مؤسسة و. (وهي مؤسسة صناعية متعددة الجنسيات)؛ تلك كانت أعمالاً صغيرة غير متناسبة مع مؤهلاتي، لكن عملي الأول كان في مخزنٍ لشركة سينجر في قسم خدمات ما بعد البيع، حيث أرادوا استخدام شخصٍ فنيّ. لقد كانوا منذ ذلك الحين يفضّلون أن يكون لديهم شخص حائز على شهادةٍ فنية، واستخدموني؛ صحيح أنه لم يكن اختصاصي لكن الموضوع كان مع ذلك يتعلق بالإدارة، ففي مخزنٍ، هناك أعمال إدارة المواد في المستودع. إذن، كانت شهادتي أكثر من المطلوب لكنني بقيت مع ذلك ثلاث سنوات، وتركت العمل بعد ذلك لأنني مللت منه. ثم إن بقائي ثلاث سنوات لم يكن اعتباطياً لأنه كان لا زال من الممكن في ذلك الحين الحصول على تأهيل مأجور؛ إذن، فقد قمت بذلك ثم تركت العمل. عملت في مطعم في س. وكان العمل فيه يتم بالإدارة الذاتية، كما أنني كنت أهتم بالطبخ. ترددت بين شهادة التأهيل المهني في الطبخ ومدرسة الصحافة، ثم توقفت التجربة وانتابتني الرغبة في تنفس بعض الهواء النقي، فذهبت إلى الريف. وهناك قمت ببعض الأعمال الزراعية لأكسب قوتي، كنت عاطلاً عن العمل نوعاً ما، وبعد فترة، قلت لنفسي: «ينبغي أن تفعل شيئاً! لا يمكن أن تبقى هكذا!» ثم ذهبت إلى مدرسة الصحافة لأن أحد أصدقائي كان قد درس في مدرسة الصحافة قبلي مباشرةً، وعمل معي في مؤسسة و، وسُرّح من العمل. إذن، عادت لي الرغبة في الانخراط بذلك المجال. هذه هي على وجه التقريب مسيرة حياتي. كيف وصلتُ إلى هنا؟ التفسير هو أهلي الذين استمروا في إمدادي طيلة الوقت. ولولاهم، لما

وصلتُ، ففي الحيّ الذي كنت أسكن فيه، ليس هناك شاب واحد حائز على البكالوريا!...

❖ هل كنت تسكن في تجمّع سكني؟

سيباستيان: كنت أسكن في تجمّعٍ سكنيٍّ، مؤلف من منازل تحيط بها حدائق صغيرة، وقد اشترى أهلي منزلهم بالتقسيط، ولم يكن ثمنه مرتفعاً في ذلك الحين، ويقع في بداية مدينة ف. كان معظم السكان من العمال والموظفين الصغار؛ ثلاثة أرباعهم يعملون في مؤسسة السكك الحديدية.

❖ ربما كنت أحد الطلاب القلائل في ذلك الحي في دخول ثانوية م.

سيباستيان: نعم، كنت الوحيد. لم يذهب إلى م. أحدٌ غيري ولم يرتكب أهلي نفس الغلطة مع أخي الأصغر وأرسلوه إلى إعدادية ف.؛ إذن، كانت النقلة أسهل بكثير ولم يتعرض لصدمة. أنا لم أستوعب ما حدث حتى الآن، أجد صعوبةً في فهم ما حدث.

❖ هل كان لديك إحساسٌ بأنك تدخل محيطاً أجنبياً بالنسبة لك؟

سيباستيان: نعم، بشكلٍ كلّي! صحيحٌ أيضاً أنني كنت صغيراً لأنني دخلت المدرسة بصورةٍ مبكرة، ورغم كل ما عانيته من رسوب، فإنني كنت صغيراً، لم أكن أتجاوز التسع سنوات والنصف من عمري، وكنت لا أصل إلى قبضة باب الحافلة، كان عليّ الاستيقاظ في السادسة والنصف صباحاً، والذهاب، والبقاء خارج المنزل طيلة النهار، كنت أتناول وجبة الغداء في المدرسة، كل تلك الأشياء... الصغار يتأقلمون، ليس هناك مشكلة، هذا ليس خارقاً، لكن بالنسبة لي، أعتقد أنها كانت صدمةً؛ ثم ثانوية م.! في تلك الفترة، كانت م. أفضل ثانوية، وكان أهلي قد اختاروا الأفضل، كان ذلك الخيار هو الأفضل بالنسبة لابنهم. لقد كنت أثير الآمال في المدرسة الابتدائية، هذا أكيد، ثم تراجعت في الصف الخامس، لكن ليس تماماً، الواقع أنني لم أعد بنفس التفوّق، ، لكن ينبغي مع ذلك معرفة كيف كانت المدرسة في س. وفي ف. في ذلك الحين. لم أر أياً من رفاقي بعد ذلك. في ذلك الحين، كان أقصى طموحٍ دراسي لا يزال الشهادة الابتدائية؛ أظن أن

الكثير من رفاقي لم يحصلوا سوى على الشهادة الابتدائية. كانت س. في الستينات تشكّل القاع دراسياً، وكذلك الأمر بالنسبة لِ ف. إذن، حين ذهبت إلى م.، كان هناك فرق كبير، كان هناك دروس موسيقى، كانت هناك علامةٌ للموسيقى، كانوا يجرون في الثانوية إملاءً في الصولفيج وأنا لم أكن أفقه شيئاً، بينما كان هناك طلاّب يعرفون العزف على آلاتٍ موسيقية وكان الصولفيج بالنسبة لهم مادةً سهلة.

❖ هل كنت تقرأ كثيراً؟ هل كنت تحبّ القراءة؟

سيباستيان: كلاّ، لكن فيما بعد، قرأت كثيراً، قرأت الأدب الكلاسيكي، كلّ الأدباء الكلاسيكيين.

❖ وكنت لا تزال في م.؟

سيباستيان: كنت أقرأ للمتعة، وللواجب. قرأت من أجل المتعة، لكن متأخراً؛ لا بدّ أنني قرأت حين كنت صغيراً جداً لأنه لم يكن لدينا جهاز تلفزيون. لم يصبح لدينا جهاز تلفزيون إلاّ بعد فترةٍ طويلة جداً، حين أصبحت في الثامنة عشرة من عمري. لم يشترِ أهلي جهاز تلفزيون إلاّ بعد فترةٍ طويلة جداً لأنهم لم يكونوا يريدون أن يكون عندهم تلفزيون كيلا يمنعني من الدراسة. بل إنهم لم يكونوا قادرين على شرائه. لقد اشترى أبي أول سيارةٍ له حين أصبح في الأربعين من عمره، وحصل على شهادة السواقة في ذلك العمر. لذلك فقد كنا نتنقّل بالدراجة الآلية أو بالدراجة الهوائية.

كنت طالباً ليبرالياً يسارياً مناصراً للبيئة

❖ هل لمّحت قبل قليلٍ إلى نشاطاتٍ نضالية؟

سيباستيان: لم أفهم شيئاً من أحداث أيار 1968، فقد كان عمري حوالى 14–15 سنة كما أنني كنت متأخراً دراسياً، وأخي عاش تقريباً ما عشته في نفس الوقت، رغم أنه أصغر مني بخمس سنين. وقد جعل هذا الأمر مسيرته الدراسية أسهل بكثير من مسيرتي. ينبغي عليّ أن أشرح أمراً، فوالدي كان عضواً في اتحاد العمال العام CGT حين كان في المغرب؛ ولدى عودته إلى

فرنسا، تعامل معه أعضاء الحزب الشيوعي على أنه مستعمِر، فمزق بطاقة عضويته في اتحاد العمال، ولم ينضمّ بعد ذلك إلى أية حركة نقابية.

❖ في أي عامٍ عاد إلى فرنسا؟

سيباستيان: لقد عاد بين 1953-1956؛ كانت العقليات قبل أحداث الجزائر...

❖ بدأت الأحداث في الجزائر عام 1954.

سيباستيان: تماماً، وحصلت في المغرب أيضاً بعض الأحداث، فعاد أهلي، وهم ديغوليون كما كانت حال الكثير من أفراد الشعب، وأنا كنت نوعاً ما مثل أهلي، أي ديغولياً. بعد ذلك، رأيت الفارق نوعاً ما. كان هناك فارقٌ في المؤسسات المدرسية. حين رسبت في الصف التاسع، كان لديّ مدرّسةٌ للغة الفرنسية كانت تناقشنا، وكان عملنا مع هذه المدرّسة مثيراً للاهتمام. ثم نجحت إلى الصف العاشر، وهناك لا أدري ما جرى، قابلتُ أناساً لم يكونوا مسيّسين كثيراً؛ ثمّ في الصف الحادي عشر، قلتُ لنفسي بأنني سوف أصبح مندوباً طلاّبياً، فقد كنتُ معقداً نوعاً ما وكانت تلك رغبةً في تجاوز نفسي، في أن أغيّر ذلك، وكان ذلك في عام 71-72... وبعد ذلك بقليل حصلت تحركات طلاّب الثانويات. إذن، تلك كانت استراتيجيةً استخدمتُها بصورةٍ لاواعية، ثم انخرطتُ في حركة التمرّد، لكنني لم أنتسب لأية حركة؛ لم أكن منضماً لأي تنظيم.

❖ ألم تنضوِ أبداً تحت لواء أية منظمة بعينها؟

سيباستيان: كلاّ، في عامي الأول في المعهد الفني العالي، ذهبت إلى اجتماعٍ للطلاّب الاشتراكيين ، لكن ذلك كان عن طريق الخطأ... فقد كنت أحاول الانضمام إلى من يجرون مونتاج جريدة ليبراسيون Libération ، فأخطأت في الاجتماع، وذهبت إلى اجتماع الطلاّب الاشتراكيين. {ضحك} كما أنه لم يكن في ذهني أبداً أي استعدادٍ للانضمام إلى «حزبٍ سياسي»؛ بالنسبة لي، كان هناك الناس الذين يناضلون والناس الذين يقبَلون. لم أبقَ في منظمة الطلاّب الاشتراكيين إلاّ فترةً قصيرةً لأنني لم أكن أشعر

بالارتياح. لقد بقيتُ فيها في فترة 74، انتخابات ميتيران-جيسكار، أول مبارزة على الانتخابات الرئاسية بين فرانسوا ميتيران وفاليري جيسكار ديستان. عدا تلك الفترة، كنتُ ليبرالياً -يسارياً- مناصراً للبيئة، أي أنني كنت كلّ ما كان يُعتبر في تلك الفترة...

❖ معادياً للنظام القائم؟

سيباستيان: تماماً. لكن هناك أمرٌ يجب عدم إغفاله، وهو أنّ أبي كان دائماً بطريقةٍ ما ثائراً ضد... وضعه. لقد كان لفترةٍ طويلة نقابياً في اتحاد العمال العام، وكانت لديه بالتالي حساسية خاصة؛ لقد شارك في إضراباتٍ كبيرة، الخ.، وكان لديه دوماً معارضة كبيرةٌ جداً للنظام التراتبي، لكن بطريقةٍ فردية نوعاً ما، أي أنها ليست مميزة جداً، ولا بدّ أنه تلقى الكثير من الصفعات في تلك المواجهات مع الأساتذة! أضع نفسي مكانه، هو الذي لا يتكلّم جيداً، والذي يكتب بشكلٍ سيئ، الخ.، لا بدّ أنه عانى كثيراً، فالوسط التعليمي ليس دائماً حنوناً جداً مع الناس الذين ليست لهم مقاييسهم، كالمعلمين والمدراء، الخ.، لابد أنه تألم كثيراً.

لقد تأخرت كثيراً جداً في تخيل أن تكون غالبية المعلمين يساريين

❖ لماذا كان يواجه المعلمين؟ لمتابعتك دراسياً؟

سيباستيان: نعم، لمتابعتي، كان يذهب إلى كلّ اللقاءات مع المعلمين، كان يحضر كافة مجالس الصفوف - وكان مندوباً لأولياء الأمور. لكن هدفه الوحيد كان البحث عن كافة الطرق لمساعدتي، وقد جرى الأمر بنفس الطريقة بالنسبة لأخي. أريد أن أضيف بأنه حين يكون المرء فتياً ويقال له: «مستقبل مظلم»، فإما أن يشعر بالانسحاق الكامل، أو أن يبقى لديه شيء؛ بالنسبة لي، أدى ذلك الأمر إلى نشوء عقدةٍ لديّ، وكنت خجولاً، الخ. وهناك أيضاً تأثير الأشخاص الذين يلتقي بهم المرء؛ حين كنت في الصف الحادي عشر، كان لدينا أستاذٌ ممتاز للتاريخ والجغرافيا دفعنا إلى التفكير العميق بالتاريخ، كما كان لديّ أيضاً أستاذةٌ ممتازة للغة الفرنسية؛ كانت تلك السنة

مهمةً في حياتي، وحصل خلالها أيضاً تصارع أفكار، كانت الأفكار تنبثق من كل حدبٍ وصوب، ولم يكن من الصعب أن يتأثر المرء بها.

❖ إذن، فقد كنت تشعر بأنك إلى جانب من يحتجّون، حتى لو كان احتجاجهم غائماً.

سيباستيان: كان الأمر ازدواجياً جداً حتى لو كان غائماً: فهناك البيض وهناك السود، أولئك هم اليساريون وأولئك هم اليمينيون، هكذا كانت الأمور طيلة سنوات عدة؛ لم أفهم قليلاً الدقائق إلاّ فيما بعد، لكنني كنت أفكر بتلك الطريقة في ذلك الحين. أريد أن أقول لك أنني كنت خجولاً في فترةٍ معينة، ولم أكن أجرؤ على التحدث أمام جمعٍ من الناس- وهذا لا يزال يحصل لي أحياناً- لكنني كنت مع ذلك فضولياً نوعاً ما، وذهبت إلى اجتماعاتٍ كنت أرغم نفسي فيها في كل مرة على التحدث أمام الآخرين، حتى لو لم يكن لما أقوله أهمية، حتى لو كان ما أقوله هراءً تاماً، فقد كان ينبغي أن أرغم نفسي على السيطرة على نفسي، على التحدث، على تعلم الكلام، الخ.، كان ذلك رهيباً!

❖ لكن، بما أنك لم تكن تنتمي إلى أية منظمة، هل كنت تتحدث بصفتك الشخصية؟

سيباستيان: نعم {ضحك} باسمي أنا، فقد كان من الصعب عليّ دائماً أن أنتمي إلى منظمة. لقد تركت الاتحاد العام للعمال بسرعة.

❖ هذا يعني أنك انتسبت إلى الاتحاد؟

سيباستيان: نعم، بعد شهرٍ من وصولي إلى الإذاعة.

❖ وكم من الزمن بقيت فيه؟

سيباستيان: ربما سنة، لكن انتمائي كان... لم أتأقلم أبداً بسبب...

❖ هل تركت الاتحاد بسبب مشكلةٍ هامة، أم أنك ابتعدت بالتدريج؟

سيباستيان: لا أستطيع أن أقول بأنّ تلك الفترة كانت تتسم بتطرّفٍ يساريّ، لكن كان هناك رفضٌ كامل لكلّ ما هو سلطة، ولعمل الأحزاب، وللنقابات، الخ.، وللبيروقراطية، وكان هناك رفضٌ لكل ذلك.

❖ هل تعني النزعة المعادية للمؤسسات التي ظهرت عام 68؟

سيباستيان: تماماً! لقد كانت تلك النزعة أساسيةً حقاً بالنسبة لي ولا زلت أحتفظ بها، ربما أصبحت الآن ثانوية، لديّ زهوٌ يجعلني أعتقد بأنها أصبحت ثانوية، لكنها عميقةٌ جداً، فقد كان لديّ مثلاً على الدوام شعورٌ بالكره تجاه الأساتذة! كنت أكره الأساتذة.

❖ وأنت تتحدث عنهم أحياناً الآن بلهجة العرفان.

سيباستيان: نعم، لكن ليس كثيراً! إن كنت أستثني ثلاثةً أو أربعة، إلاّ أنني أكره الباقين، أكرههم، أكرههم! حين تكون في الصف الثامن وتنسى ثلاثة دفاتر لنفس المادة، وتحصل على ثلاثة أصفار في الصباح، حين تكون مجبراً على حلاقة شعرك بالكامل، على الصفر، لأنّ الأستاذ يشدك من شعرك ويحملك هكذا، حين تتلقى ضربات بالمسطرة على مؤخرتك لأنك لم تكتب الواجب، فإنّ هذا مريع، بل أريد أن أقول بأنه تصرفٌ سادي! لقد لزمني وقتٌ طويلٌ جداً لكي أتخيل بأنّ غالبية المعلمين يساريون، لزمني وقتٌ طويلٌ جداً. لم نكن من نفس العالم، هذا أمرٌ مؤكد في اللاوعي، الأساتذة كانوا شيئاً آخر. بالنسبة لي، فإنّ اللغة الفرنسية واللاتينية واليونانية كانت عالماً غريباً عني تماماً، كانت غريبةً عني، كانت تقع على كوكب آخر. كما أنني كنت أشعر دائماً بالرعب، وقد لزمني وقتٌ طويلٌ لأعرف أن هناك فتياناً ليس لديهم مشاكل مع المدرسة، ويذهبون إلى المدرسة دون خوفٍ وبشكلٍ طبيعي؛ أما أنا، فلا أذكر أنني ذهبت يوماً إلى المدرسة دون أن أشعر بالرعب.

❖ هل كنت تشعر بذلك في المدرسة الابتدائية أيضاً؟

سيباستيان: لا، لا، كنت أتحدث عن الإعدادية؛ وفي المرحلة التالية، في العاشر والحادي عشر والبكالوريا، جعلني الالتزام أتراجع، كما أنني كنت قد سيطرت على بعض الأمور، كما تشكل لدى بعض الأساتذة اعترافٌ بي؛ لم يكونوا يعترفون بي بسبب نتائجي الدراسية- فأنا لم أكن لامعاً في هذا الجانب- لكنهم اعترفوا لي بدورٍ وبوضعية... ربما كانت تلك أيضاً طريقتي

بالتواجد، فبسبب عدم تمكني من التواجد بفضل نتائجي المدرسية، كنت أتواجد بالمقاومة.

درست في مدرسة الصحافة وأنا أكره المهنة

❖ لماذا انتسبت إلى مدرسة الصحافة؟

سيباستيان: كنت أريد أن أدرس الصحافة بعد أن حصلت على البكالوريا، فالجانب الملتزم لديّ جعلني أهتم بالشؤون الراهنة الدولية التي كانت غنيةً في تلك الفترة، وبالشؤون الراهنة الوطنية السياسية والاقتصادية. كنتُ إذن مستهلكاً كبيراً للصحف، وكنت ثائراً على الراديو والتلفزيون، لكنني كنت أتعاطى كثيراً الصحافة المكتوبة؛ أنا لم أكن يوماً شيوعياً، لذلك فإنني لم أكن أقرأ صحيفة الأومانيتيه l'Humanité، لم تكن ضمن ثقافتي؛ ثم جاءت بدايات جريدة ليبراسيون، Libération وقد كانت متنفساً لنا، كما ظهرت في تلك الفترة صحفٌ أخرى مثل شارلي الأسبوعي Charlie-hebdo والشدق المفتوح La Gueule ouverte؛ حسناً، هكذا كانت علاقتي بالأمر. أذكر أنني كتبت عروضاً للصحافة حين كنت في الصف الحادي عشر، وذلك في إطار التاريخ والجغرافيا؛ إذن، بما أنني كنت مستهلكاً نهماً للصحف، فسرعان ما أصبحت شديد الاهتمام بالأمور الراهنة، وذلك على الرغم من تواضع قدراتي {ضحك}. أردت أن أقول بأنني لم أكن موهوباً في مجال الرياضيات أو اللغة الفرنسية. والموهبة الوحيدة التي كنت أمتلكها نوعاً ما هي موهبة الثرثرة، التكلم، التعبير الشفهي، وكنت قد بذلت جهوداً لتنمية تلك الموهبة، ونجحتُ نوعاً ما في ذلك. فقلت لنفسي بأن مهنة الصحفي لا تتطلب معرفة الكثير، بل تتطلب أن يكون لدى المرء القدرة على الثرثرة، أن يعرف قليلاً من الخداع. إذن، فقد تمكنت من ممارسة هذه المهنة بعد الدراسة. بعد ذلك، مررت بمرحلة... تباً! {ضحك} لقد كنت أكره أيضاً الصحفيين مثلما كنت أكره الأساتذة... ولا زلت أكرههم نوعاً ما، لكن تلك الكراهية أصبحت ثانويةً. لقد درست في مدرسة الصحافة في حين أنني كنت أكره المهنة. كانت لديّ كراهية حقيقية،

كما أنني لم أعد وقتها أقرأ شيئاً، بل إن هناك جانباً تحريضياً في ذلك الموقف: أنا لا أقرأ شيئاً من الصحافة! أذكر أنني قلت لأحد أساتذتي، وكان مستنكراً لموقفي بشدة: «كلاّ، لم أعد أقرأ شيئاً، الأمر لا يهمني» {ضحك}.

❖ هل ذهبت مباشرةً من المدرسة إلى إذاعة- ز؟

سيباستيان: نعم. لقد صادفني الكثير من الحظّ في هذا الشأن لأنّ رئيس التحرير جاء ليتسوق، أي ليجري اختبارات، ولم أُقبل أنا في تلك الاختبارات، لأنني لا أمتلك صوتاً استثنائياً، والصوت هو الذي كان يهمه، لكن أحد الأساتذة قال له: «أعطه ميكروفوناً وسوف يعطيك مقابلةً». تم توظيفنا إذن، وكنا ستة طلاب، على أساس الأجر حسب العمل، وبقيت أنا بعد ذلك. كما أنه كان عندي خبرة مهنية؛ إن كل من عمل سابقاً يعرف عالم العمل، ويعرف بالخطوط العريضة ما الذي ينبغي أن يفعله لكي يتم توظيفه، وقد ظهرت أمامي مصاعب كبيرة لأنهم لم يكونوا يريدون أن يستخدموا خروفاً أسود(*)؛ كانوا قد جمعوا عني بعض المعلومات في مؤسسة و. وهذا ما جعلهم لا يرغبون في استخدامي؛ والمفارقة المُضحكة تتمثّل في أنه تم استبقائي بين صحفيي راديو-ز. الذين تدفع لهم أجور بمقدار ما يعملون أثناء زيارةٍ لمؤسسة و. مع صحفيٍّ من ن.ك. NQ {وهي صحيفةٌ محلية يومية}!

❖ والآن، هل أنت مجاز؟

سيباستيان: نعم، أنا الآن مجاز، وقد تخرجت من قسم الصحافة السياسة، أي أنني اليوم صحفيٌّ متخصص، وهذه عموماً أول درجة على السلم، وكانوا يريدون مني أن أتبوأ مركز معاون رئيس تحرير، لكنني لا أريد الصعود في السلك الوظيفي، أنا لا أمانع في الصعود، من أجل الكفاءة ولزيادة معلوماتي، لكنني لا أريد أن أصعد إلى مراتب أحوز فيها على سلطاتٍ وظيفية. إذن، لقد رفضتُ ولا زلتُ أرفض. لقد عرضوا علي منصب معاون رئيس تحرير في CNT كنوعٍ من التحريض لأنهم كانوا يريدون أن يعرفوا رأيهم في حالةٍ مثل حالتي، وقد عابوا عليّ أني أخاطب المدير بصيغة

(*) المقصود شخصاً مختلفاً عن المجموع. المترجم.

الاحترام بعد أن كنت أخاطبه بصيغة المفرد قبل أن يصبح مديراً، إنها أمورٌ صغيرة...

❖ هل لا زلتَ «تكره» الصحفيين؟

سيباستيان: نعم {ضحك} أريد أن أقول أنني لا أخالط أحداً؛ في ما عدا شخصين أو ثلاثة خارج العمل، فأنا لا أخالط الصحفيين. بلى، لديّ علاقة مع ثلاثة أو أربعة أشخاص، لكنني أخالطهم «على الرغم» من كونهم صحفيين. لديّ صديقة استقالت من إذاعة ز.، وهي كوليت د. وقد تعرضت لمشاكل مع العدالة. لديها مسيرتها هي الأخرى. لديّ صديقةٌ أخرى هي فاني ر. التي كانت ممرضة في المجال النفسي وهي الآن تحاول القيام بعملٍ آخر، ثم هناك جيرمينال ج. الذي لديه ماضٍ خارقٌ نوعاً ما، فأبوه لاجئ إسباني خاض الحرب الأهلية ودفع ابنه للدراسة؛ وهو حائز على ماجستير في الآداب وأصبح صحفياً، لكنه... أي أنّ أصدقائي ليسوا شباناً صغاراً تخرجوا لتوهم من المدرسة.

نحن نمثّل نوعاً ما أشواك الآلة

سيباستيان: إنه ليس كرهاً للأفراد! إنّه كرهٌ للعمل الذي يتم، والناس من أمثالي يمثلون نوعاً ما أشواكاً في الآلة التي هي أقوى منّا، ونحن نقوم بِ 99% من العمل «القذر». كما أنه ينبغي ألاّ يكون لدينا الكثير من الأوهام، لكن هناك عدد من الصراعات، حتى على الصعيد اليومي، مثل الزمن الذي تستغرقه المقابلات. ففي بعض الإذاعات مثلاً، لا يتجاوز الوقت الممنوح للمقابلة الواحدة 35 ثانية، 35 ثانية! ولكي يرتفع الزمن إلى دقيقةٍ واحدة، فإنه ينبغي أن نناضل! وحين يتجاوز زمن المقابلة الدقيقة الواحدة ويصبح دقيقةً وعشر ثواني أو دقيقةً واثنتي عشرة ثانيةً، فإنه ينبغي أن... إنها مسألة دولة! هذا أمرٌ سخيف. بالنسبة لشخصٍ من خارج وسطنا، فإنّ هذا الصراع سخيفٌ لكنه صراعٌ على المحتوى.. كما أنه ينبغي أن نحاول تمرير بعض الأفكار. بالنسبة لي شخصياً، فإن نضالي الآن هو الصحافة، لكن هذا الأمر شديد الصعوبة، كما هي الحال في كافة الأوساط. عليك أنت في

التعليم أن تناطح جبالاً، والنظام مصاغٌ بطريقةٍ يعرف فيها الآخرون إذا ربحنا المعركة.

❖ أنت تنتقد النظام وليس الأفراد؟

سيباستيان: أعني أن الأفراد هم مسؤولون وغير مسؤولين في نفس الوقت، فالصحفي هو أيضاً شخصٌ يتوجب عليه أن ينقل ما يراه. والناس الذين في السلطة يجيدون أكثر من غيرهم استخدام وسائل الإعلام، كما أنّ صوتهم يُسمع أكثر. سوف أقدّم لك مثالاً: مساء البارحة، أقام نائب العمدة «حفلاً» كبيراً تحت يافطة: «مدينة س. والبحر»، وفي هذا الصباح أجرى مؤتمراً صحفياً حول: «الأعمال الكبرى في مدينة س.» ولم يقل فيه شيئاً. لم يكن ذلك سيُقبل من أي شخصٍ آخر، ولو حدث ذلك من غيره لعاد الصحفيون وهم شديدو الغضب ولنشروا مقالاتٍ غاضبة؛ أما في هذه الحالة، فالأمر سوف يمر. لقد جنّد نائب العمدة الصحافةَ طيلة مساء البارحة وحتى الواحدة ليلاً، وهذا الصباح قدّم «إفطاراً» صحفياً لكي لا يقول شيئاً! وأريد أن أقول بأن كلّ الصحافة منبطحة. إنه مثال، لكن هناك غيره؛ إنّ ما ينبغي معرفته هو أنّ المجتمع يعمل، هناك غطاءٌ من الرصاص يجثم فوق المجتمع! حاول أن تجعل العاملين في إدارة الأعمال الصحية والاجتماعية DAAS التي تغطي الحقل الاجتماعي كله يتكلمون. مستحيل! لا يمكن للموظفين أن يتحدثوا عن عملهم؛ يمكن للمساعِدة الاجتماعية أن تتحدث عن خمسين أمراً.. عن المزارع الكبيرة في المنطقة التي تعامل المستخدمين لديها وكأنهم زجاجات نبيذ، وعن الأماكن الضيقة والقذرة، والأمية المتفشية، والرجال الذين يقيمون في منازل من التراب الممهد؛ لن تسمع أبداً أي ريبورتاج عن هذا الموضوع. فالمساعدات الاجتماعيات اللواتي يذهبن إلى تلك الأماكن لا يستطعن قول شيء بسبب التزامهن بسر المهنة. وبالطبع، فإن العمال الزراعيين أيضاً لا يستطيعون التكلم. كما لا يمكنك الدخول إلى هناك؛ إن كل ما تستطيع عمله بالطول والعرض هو الاستمتاع بطعامٍ لذيذ مثلاً. أما عن حقيقة البلاد، فإنك لن تُجري أبداً أي ريبورتاج.

❖ ألا يمكنك، وأنت صحفي، أن تقترح تحقيقاً صحفياً؟

سيباستيان: بلى، أستطيع، بإمكاني بالفعل أن أقترح مثل ذلك التحقيق الصحفي. لكنه تحقيقٌ معقّد! بالنسبة لنا، فإنّ الوقت يستهلكنا؛ في إذاعتنا إنتاجٌ يوميّ، لذلك، فإن علينا أن نجري ثلاث، أربع، أو خمس تحقيقات في اليوم. إذن، كلما كان علينا إجراء عدد أكبر من التحقيقات، كلما انخفضت قدرتنا على رؤية الأمور في عمقها، وتعقيد آليات العمل، الخ. لكي أجري مثل هذا التحقيق، عليّ أن أبقى في المكان الذي أجري عنه تحقيقاً، فصحافة الاستقصاء تعني الوقت. ينبغي التوصل إلى فك الحصار. كل الناس يشعرون بالخوف في هذا المجتمع، وقلائل هم الذين يتحدّثون عن عمق الأشياء، وهذا صحيحٌ على كافة الأصعدة. فأنت تذهب مثلاً إلى النقابات للتحدث عن المدرسة، عن الشركات، الخ. لكنهم لن يتحدثوا إليك عنها لأنهم ملزمون بدور الدفاع عن الموظفين، لن يحدثوك عن الكيفية الحقيقية التي يعمل بها المجتمع. ولكي تفهم تلك الكيفية وتتحدث عنها حقاً، فإن عليك أن تقوم بعمل عالم اجتماع، ونحن ليس لدينا تلك الإمكانية؛ كما أننا نعاني الكثير في حال أردنا العمل مع الوسط الجامعي... هناك أمور ثقيلة في مثل هذا التعامل، وما إن ألفظ كلمةً مثل: «أستاذ جامعي»، أو «حلقة بحث» حتى يبدأ الجميع بالاحتجاج: «مرةً أخرى! لقد أضجرتنا بقصصك، الخ.»

❖ هل هناك نزعةٌ معادية للثقافة في عالم الصحافة؟

سيباستيان: نعم، هناك نزعة معادية للثقافة، خذ مثلاً كلمة «عامل»، ينبغي ألاّ تقول كلمة «عامل»! أنا أشهد بنفسي إزالة كلمة «عامل» من برامجي! ينبغي أن أقول: «ماذا دهاكم؟ هل تلك كلمة بذيئة؟».

❖ ما الذي ينبغي قوله إذن؟

سيباستيان موظف، مستخدم...

الرقابة تجري على كل المستويات

❖ من الذي يجعلك تحذف تلك الكلمة؟

سيباستيان: إنهم الصحفيون، وليس بالضرورة الرؤساء. إنها الرقابة السائدة. إنه الضغط. وهو موجود في كافة المستويات. فخلال حرب الخليج مثلاً، وفي ما يتعلق بنداء بيرو Perrault لترك ميدان المعركة، حصلت رقابةٌ على إذاعة هـ .-فقد أجروا مقابلةً مُنعت من البث على أمواج تلك الإذاعة. فكُتبت مقالةٌ عوضاً عن المقابلة الإذاعية، وكردّ فعلٍ، ذهبتُ في اليوم التالي إلى المظاهرة. طلبوا مني أن أتحدث مع الناس، فخاطبتُ شاباً وقلتُ له: «وماذا عنك أنت؟ هل كنت ستترك الميدان؟» أجاب: «نعم». وحين تمّ بث البرنامج، حذفوا تلك الفقرة! حسناً، في أوقات الأزمات، تكون الرقابة موجودة! أثناء حرب الخليج، كان ينبغي على الناس أن يكونوا مع حرب الخليج، أما الأفكار الأخرى...

❖ هل الرقابة دوماً غير رسمية؟

سيباستيان: المشكلة هنا بسيطةٌ جداً، وأنا ألاحظ ذلك، فألطّف من لهجتي وكلماتي ...

❖ لكن لست أنت الذي حذف إجابة الشاب؟

سيباستيان: صحيح، تماماً! لقد قُطعت الإجابة بضربة مقص! إنها ضربة مقصٍ هنا، وقد تم التنديد بتلك الضربة واعتُبرت منعاً. لا يمكن تطبيق القضاء على الصحفيين؛ هذا يعني أنه يمكن أن نقذف الناس ونُجري ما نشاء من المؤامرات، لا أحد يستطيع شيئاً، القضاء لا يحرك ساكناً ضدنا، وحين يفعل القضاء شيئاً ما، يحصل تمرّدٌ، ويعتبر الموضوع «مساساً بحرية الصحافة، الخ.»، في حين أننا نحن الذين نمس الآخرين... مثلاً في المقابلات المنوعة، في تلك «المنوعات المقدّسة»، يقابل الصحفيّ على الدوام أشخاصاً عاديين تتم السخرية منهم عن طريق جعلهم يقولون أشياء مختلفة؛ إنهم يتكلمون بصورةٍ سيئة ويرتكبون هفواتٍ وتجري السخرية منهم، ويمر هذا الأمر! إنه إذن احتقار ما هو شعبي! إذن،..

❖ برأيك، هل هذا الاحتقار صفةٌ للوسط الصحفي؟

سيباستيان: آه نعم، نعم! إنه احتقارٌ للشعب، أي أنهم يعتبرون أنّ

«الشعب يحب الأغاني الدارجة»، نقطة، انتهى. إنه احتقارٌ للشعب، وهو أيضاً احتقارٌ لكلّ من ليس صحفياً، احتقارٌ أيضاً للطبقات الثقافية العليا.

❖ لكن ربما كان لديهم في الوقت ذاته نوعٌ من الانبهار بتلك الطبقات العليا؟

سيباستيان: السلطة هي ما يبهرهم. ليس لدى الطبقة المثقفة سلطة، بينما يحوز على السلطة كل ما هو اقتصادي. لأي مستثمرٍ صغير الحق في التعبير عن نفسه وفي أن يكون له أفكاره حول كل شيء، ثم السلطة السياسية، ثم كل ذلك الجو السائد تابي Tapie وسيغيلا Séguéla،..

❖ يبدو لي بأنك لستَ صحفياً سعيداً... هل يحصل أن تشعر بشعور انتقام؟

سيباستيان: نعم، نعم، صحيحٌ أن أكبر شعورٍ لي بالثورة هو حين أرى... لقد ذهبت مؤخراً لأجري تحقيقاً في منطقةٍ قريبةٍ بعد جسر المحطة، وهي مدينةٌ عمالية انتقالية يعود بناؤها إلى فترة الحرب الأخيرة. إنهم أشخاصٌ يكسبون 4700 فرنكاً في الشهر، وقد تورطوا في مشكلة، فقد أراد صديق ابنتهم أن يشتري دراجةً نارية، فكفلوه، ثم حصل حادثٌ للدراجة واشترى الشاب دراجةً آليةً أخرى، وكفلوه ثانيةً، وهرب ولم يعد يدفع ثمن الدراجة، ووجدوا أنفسهم بقرضٍ يبلغ 30000 فرنك، مقابل لا شيء. هناك من يستدينون لشراء منزل، لكن في هذه الحالة، لا شيء سوى 30000 فرنكاً، ولم يعد لديهم شيءٌ من المال. وتبدو الأم وكأنها قد حاربت على الدوام، وأصبحت مسمّرةً بأنبوبة أوكسجين لأنها لم تعد تستطيع التنفس. يتساءل المرء كيف يستطيعون السكن في تلك المنازل! سوف يجددونها، وسوف تتضاعف بالتالي الأجرة. حسناً، حين أعود من مثل تلك الأماكن، فإنني أشعر بالكراهية، إنّ ما أشعر به هو حقاً كراهية. لكن هل أشعر بالانتقام؟ سأحكي لك دعابةً: حيث أجريت لأول مرة مقابلة مع أستاذ، قال لي: «اعذرني، لكنني لست معتاداً، جسمي كليّ يرتجف» فقلت له: «نعم! هذا يشبه ما كان يحصل لي حين كنت أذهب إلى السبورة، فأنا أيضاً كان جسمي

كله يرتجف!» {ضحك}. صحيح أنه حين يكون مقابلي أشخاصٌ من السلطة، فإنّ الأسئلة التي أوجهها لهم تهدف بالضرورة لهزمهم، بالضرورة، إنها بالنسبة لي معركة. إنّ أكثر ما ينقصنا هو الأسلحة، المعرفة. إن مهنة الصحافة تتطلّب من ممتهنها أن يمتلك ذخيرة كبيرة من الثقافة، ونحن لا نمتلك من الثقافة ما يكفي.

❖ هل هي مشكلة تأهيل؟

سيباستيان: نعم، لكن هذا هو المجال الذي لم أعد أشعر فيه بالعُقد، فقد رممتُ النقص الذي كان لديّ بطريقةٍ ما، وربما كان ذلك جزئياً بسبب الفضول الاجتماعي، أي أنني الآن أمتلكُ معارف عن المجتمع على أرض الواقع تتجاوز ما يمتلكه أناسٌ لديهم معرفةٌ مدرسية أو جامعية، لديهم ثقافةٌ أرفع من ثقافتي. كما أنه صحيحٌ أنه من المفيد للمرء في هذه المهنة أن يعرف الآلية التي تسير بها الأمور.

● هل ما تكسبه يرضيك؟

سيباستيان: يبلغ راتبي الصافي أحد عشر ألف فرنكاً، مع تخفيضٍ على الضرائب بنسبة 30%، والدخول المجاني للسينما والحفلات الموسيقية، والحصول على الكتب بسعرٍ شبه مجانيّ، أحد عشر ألف فرنكاً. إضافةً إلى ذلك، فإنني أعطي في بعض الأحيان درسين أو ثلاثة، وهذا أمرٌ أستمتع به أيضاً لأنه يسمح لي بالعودة إلى مهنة الصحافة، بالتفكير بطريقةٍ مختلفة؛ لقد حسبتُ ما كسبته خلال العام الماضي، وكان ثلاثة عشر ألفَ فرنكٍ شهرياً، بعد حذف الضرائب. هذا راتبٌ ممتاز، بل إنه يتجاوز ما ينبغي للصحافي أن يقبضه بالمقارنة مع ما يعمله. الصحافي يدرس عامين بعد البكالوريا، أما الممرضات، فهنّ يدرسن ثلاثة أعوام بعد البكالوريا، وراتبهن نصف راتب الصحافي {ضحك} وأي عمل! {ضحك}.

ثلاثة أرباع الصحافيين يلازمون مكاتبهم وتحت تصرفهم سكرتيرة

❖ كثيراً ما يجري الحديث في هذه الأيام عن آداب المهنة عند الصحفيين.

سيباستيان: إنّ آداب المهنة هي أيضاً مشكلةٌ اقتصادية، أي أنّ ما ينبغي أن نأخذه بالاعتبار على الدوام في هذه المهنة هو مفهوم الزمن. كيف تريد أن يقوم شخص... حين يحصل أي شيءٍ في مكانٍ ما من العالم، فإنك تُرسل صحفياً إلى ذلك المكان الذي جرى فيه الحدث. الأمر المثالي هو أن يكون الصحافي دارساً للمسألة. إنه لم يذهب إلى هناك منذ عامين، وسوف يذهب هذه المرة، وعليه، خلال ساعتين أو ثلاثٍ من وصوله أن يكتب تقريراً؛ كيف تريد منه أن يتصرّف؟ كيف تريده أن يعكس ما حدث؟ سوف يذهب إذن إلى وكالات الأنباء وسيرى الشخص الموجود هناك، وسوف يقابل شخصين أو ثلاثة، والسفير، وسوف يكتب ورقةً حول هذا الموضوع؛ هذا في أحسن الأحوال. أما في أسوأ الأحوال، فإنّه لا يعرف شيئاً عن الموضوع، لذلك فإنه سوف يأخذ ثلاث... وينبغي أن يضع عنواناً مثيراً وأن يكون هناك جانبٌ محبّب في الموضوع، الخ. وهذا صحيحٌ بالنسبة لكلّ شيء، ينبغي العمل بسرعة.

لماذا تبدو المقالات التي تُنشر في جريدة لوموند ديبلوماتيك Monde diplomatique مختلفةً تماماً؟ لأنّ أمامهم أولاً شهرٌ بين العدد والآخر. وثانياً، لأنهم أناسٌ أمضوا سنواتٍ في دراسة المسألة نفسها! صحيحٌ أنّ دراسة المسألة نفسها لسنواتٍ عديدة أمرٌ معقّد؛ كما أنه صحيحٌ أيضاً بأنّ المرء لا يكون في مقدمة الأحداث، كل هذا صحيح. إلاّ أن ذلك يُنتج عملاً أكثر جدّيةً بكثير، أكثر عمقاً بكثير، يشرح الأشياء حقاً. كما أنّ ثلاثة أرباع الصحفيين، والأمر هنا أسوأ بكثير، يعلّقون على الصور بالاعتماد على وكالة الأنباء الفرنسية. أذكر لك مثالاً هو ب.، الذي يعمل مقدّماً في إذاعة هـ. وهو ذلك الذي يمرر صيغةً معينة قبل الخبر، لأنه ينبغي أن يمر الخبر عبر صيغته- لديه صيغة مسلية أو مدهشة- وينبغي أن يدخل الخبر ضمن الصيغة! وهو يرسل صحفيين ويقول لهم: «أريد هذا!». وأنا لديّ صديقةٌ تقدم برامج أخبار منوعة، أعادت منذ بضعة أيام بداية المقابلة أربع مراتٍ لأنه كان ينبغي على الشخص الآخر أن يقول لها الجملة التي يريدها مقدّم

البرنامج قبل أن تنطلق! هكذا هو الأمر! كما أن هناك العديد من الصحفيين الذين لم يضعوا قدماً خارج مكاتبهم أبداً منذ سنوات عديدة! إنهم في مكاتبهم، ولدى الواحد منهم سكرتيرة؛ ولديهم وكالة الأنباء الفرنسية، هكذا! في أحسن الأحوال، فإنّ هؤلاء الأشخاص يقومون بالحوار الودّي مع السلطة، مهما كانت تلك السلطة. إنهم لا يرون شيئاً من المجتمع.

❖ هل هناك أمثلةٌ حولك على ما تقوله؟

سيباستيان: كافة المذيعين!

❖ أنت تتحدث على الصعيد الوطني...

سيباستيان: نعم، لكن في ما حولي أيضاً. أعرف مذيعاً يقدم نشرة أخبار «الثامنة عشرة»، وهو لم يظهر منذ فترةٍ من الزمن. تصوره للمجتمع هو جدِّ... لقد ذهب إلى المدرسة، وهو الآن في وسطٍ من المحامين والقضاة، أما ما تبقى، فهو لا يعلم عنه شيئاً. فهو مثلاً لم يعرفْ ما الذي تعنيه عبارة «العجل تحت الأم»(*) لم يعرف إن كانت تلك طريقةً في توليد البقرات {ضحك}. كلامي أكيد، أنا لست أحكي لكم نكتة! إذن، فإن الشبان الذين يتخرّجون من مدرسة الصحافة يعملون مباشرةً كمذيعين في محطة -France Info الإخبارية. مباشرةً! إنهم لم يروا شيئاً من الواقع، هؤلاء الناس! إنهم لا يعرفون كيف يجرون تحقيقاً صحفياً! إن ألف باء هذه المهنة هو أن تأخذ ميكروفوناً أو كراساً ثم تذهب إلى مكان الحدث، وأن تبقى في ذلك المكان فترةً، أن تنغمس، أما هو فلا، إذن، فإنه يحصل على النتائج التي يحصل عليها! إذن، فإن ما يقوم به يعطي ما يعطيه! إنها مشكلة تأهيل، إنها مشكلة فضولٍ معرفيّ، إنها مشكلة اقتصاد.

❖ وكيف ترى إلى مستقبلك في المهنة؟

سيباستيان: أعترف بأن المهنة ليست كلّ شيءٍ بالنسبة لي، أعني أنني

(*) المقصود: العجل الرضيع. المترجم.

أحبّ أن ألتقي بأصدقائي، أن نشرب كأساً سويةً، أن أسافر، أن أذهب إلى البحر، أن أتسلّق الجبال، أن أمشي. أصلاً، بالنسبة لي، هذه هي الحياة، فالعمل هو...

❖ **هل يعني هذا أنك لا تحاول أن ترتقي في مهنتك؟**

سيباستيان: لا! لكنني أرى نفسي صحفياً في س.، بنفس المستوى، بنفس الدرجة، بعد عشرين عاماً.

تشرين الأول 1991

شارل سولييه

نجاح مثير للشبهة

بشعرٍ مقصوص وحقيبةٍ بنفسجية على الظهر وشيءٍ من الحزن على وجهها، هكذا بدت لي كورين في المقهى الذي تمّ فيه اللقاء، قرب محطة مونبارناس، وهي معلّمة في الثانية والثلاثين من عمرها تعمل في أحد أكثر أحياء محيط ز. فقراً، وهي مدينةٌ ريفية تعدّ خمسين ألف نسمة. ربما كانت السرعة المدهشة التي أسرّت لي فيها بمكنوناتها نابعةً من أنّ أختها هي التي قدّمتني إليها، وإلى أنني أعيش وضعاً اجتماعياً مشابهاً لوضعها، مما سمح بشكلٍ من التحويل. كما أنني سرعان ما شعرتُ أنا أيضاً بالودّ تجاهها.

أهلها مزارعون يعملون في أرضٍ مساحتها خمسةٌ وسبعون هكتاراً، وهي مساحةٌ متواضعة نسبياً بالنسبة للمنطقة التي تقع على تخوم منطقتيْ بوس Beauce وبيرش Perche. وبعد متتاليةٍ طويلةٍ من النكبات، وجدوا أنفسهم مثقلين بالديون وموضوعين تحت وصايةٍ محاسب، ومجبرين على القيام بعملٍ إضافيٍّ ليعيشوا بصورةٍ «لائقة» (يقود والد كورين منذ أربع سنوات حافلةً مدرسية). وحسب كورين التي تحدّثت إليها مطوّلاً، فإنّ لديهم إحساساً بأنهم «خُدعوا» وبأنّه قد تمّ «نزع ملكيتهم»، وبأنه لم يعد بإمكانهم كما في السابق أن يعرضوا ذلك «الفخر بكونهم فلاحين» الذي ورثوه عن الأجيال السابقة. وقد زاد من حدّة إحساسهم بالانزعاج أزمةٌ عائلية حدثت

بمناسبة ميراث الجدّين: فقد بقي والد كورين يعمل في مجال الزراعة مع أربعةٍ من أخوته وأخواته، وهو الابن الثاني في عائلة تتألف من عشرة أبناء، لكنه وجد نفسه يحوز أقلّ مقدارٍ من الميراث. ورغم أنه كان طالباً مجدّاً، إلاّ أنه اضطر لترك المدرسة في وقتٍ مبكرٍ جداً ليعمل في مزرعة الأب، مما جعله لا يقدر على التخلّص من الإحساس بأنه قد تمت التضحية به كي يتمكن والده من أن يجعل أملاكه تزدهر، وللسماح لأخوته الأصغر منه سناً بإكمال تعليمهم، ويتأجج هذا الإحساس على الدوام عندما يقارن وضعه كمزارعٍ مأزوم بوضع أخوته الأصغر منه سناً (حيث أصبح اثنان منهم أطباء، والثالث قائد طائرةٍ نفّاثة ومدرّبٌ في سلاح الطيران، وإحدى أخواته مساعدةٌ اجتماعية)، وخاصّةً حين يفكّر بموقفهم تجاهه الذي لا يُظهر عرفاناً بجميله ولا تضامناً معه.

لقد تابعت كلٌّ من كورين وأختيها دراستهن، وذلك رغم أن والديهنّ لم يدفعاهنّ لذلك بسبب خيبتهما لعدم إنجابهما لابنٍ ذكر. فقد انتسبت كورين دون حماسٍ إلى دارٍ للمعلّمين بعد حصولها على الشهادة الثانوية، وإحدى أختيها تقوم الآن ببعض الأعمال ذات الراتب غير المناسب بعد أن حصلت على البكالوريا قسم ج وتخلّت بعد ذلك على دراستها للتمريض؛ وحدها الأخت الثالثة يبدو كأنها لم تعرف في دراستها أشكال التردد والصعوبات المادية والنفسية التي عرفتها أختاها: فهي تحضّر حالياً أطروحةً من الحلقة الجامعية الثالثة ستسمح لها بالتفكير في صعوبات العالَم الزراعي التي عبّرت عنها المظاهرات الفلاّحية، وذلك بعد حصولها على إجازةٍ في علم الاجتماع.

لدى إجراء اللقاء، كانت كورين في إجازةٍ سنوية للتأهيل تسمح لها بتحضير إجازةٍ في علم النفس، وذلك «لتفعل شيئاً آخر» (ربما تحلم بأن تصبح محللةً نفسية): فهي تشعر، على الرغم من الاستثمار الكامل للطاقة الذي يتطلبه ذلك التحضير منها، أو ربما بسببه، بأنها ليست على ما يرام في مهنة المعلّمة تلك التي تمارسها في مدرسةٍ تستقبل أبناء عائلاتٍ شديدة الفقر.

الحيّ الذي تقع فيه مدرستها، في موقعٍ تحيط به طرق المواصلات

الكبيرة، كان آصلاً مدينةً مؤقّتة تهدف إلى الإسكان «المؤقت» لسكان المنطقة المنخفضة من المدينة الذين تم طردهم من المركز التاريخي نحو المناطق المحيطة بالمدينة إثر عملية تجديدٍ لها. تحوّل هذا الحيّ إلى منفى يرسِل إليه مكتب الإسكان في المنازل المنخفضة الإيجار الذي يدير المدينة الانتقالية كلّ أولئك الذين لا يفون بالتزاماتهم المالية وكلّ تلك العائلات التي «استُنزفت تماماً»؛ وحسب أقوال عددٍ من الناس، فإنّ هذا الحيّ يمارس «تأثيراً ضاراً» على كافّة القادمين الجدد، «الناس الذين رأيناهم يقعون، الذين عرفناهم يعيشون بصورةٍ طبيعية في أماكن أخرى، حيث كانوا متزوجين ولهم أولاد». إن الغالبية العظمى من السكان، وثلاثة أرباعهم من الفرنسيين، يعيشون من المعونات التي تمنح لهم أو من تعويض البطالة أو من الإعانات العائلية (العائلات الكبيرة الحجم شائعة) ويعيشون أحياناً من السرقة. فكورين تذكر تلك العائلات التي يستضيف السجن واحداً من أفرادها على الدوام، والتي تلفت الانتباه برخائها الماديّ الاستثنائي، حيث يرتدي الأطفال «أحذيةً رياضية من أنواع مشهورة»، و«أحذيةً آخر صيحة على الدوام، وليس تلك التي تشترى في المخازن الكبيرة». علاقات القرابة في العائلات معقّدة في كثيرٍ من الأحيان، فهي «مفككة» بفعل «انفصالاتٍ متكررة» ويمكن فيها أن يكون الأبناء «أخوةً وأبناء عمٍّ في آنٍ معاً».

إنّ المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المركّزة بتلك الصورة في المساحة ذاتها تنعكس على مستوى المدرسة، حيث وجدت كورين نفسها بمواجهة ردود أفعال رافضة من قبل العائلات: «العلاقات مع العائلات صعبةٌ للغاية.. فمثلاً، حين أتيتُ إليها، كانت المدرسة تمثّل كلّ ما يرفضونه. فالعائلات ترفض المدرسة، والأولاد يرفضون المدرسة، والكتابات في كلّ مكان. والطريقة التي كانوا يتكلّمون بها عن المعلّمين، والمدرسة بالنسبة لهم قذارة، كما لو لم تكن المدرسة تمثّل جزءاً من عالمهم..»

حاولت كورين، بمشاركة عددٍ من زملائها من المعلمين الشباب، أن تواجه ذلك الوضع. وباشروا عدّة فعاليات، كالمساندة المدرسية المكثّفة التي تقدّمها كورين بشكلٍ خاص، المعلّمة المتخصصة في تلك المدرسة المصنّفة

ضمن منطقة ذات أفضلية تعليمية، ومشاركة المدرسة في عملية التجديد الحضري في الحيّ: فقد صنع الأطفال لوحات صغيرة من الخزف الملوّن وُضعت في أقفاص الأدراج، وأحدثت صالة جودو، والأهم من ذلك أنّ المعلمين حاولوا أن يفتحوا المدرسة أمام الأهالي للسماح لهم بالدخول إليها كي يبدؤوا بالاهتمام بما يفعله أولادهم فيها. وكان أكثر النتائج وضوحاً أنّه أصبح بإمكان المعلمين أن يركنوا سياراتهم في المدينة دون أن يخشوا من أن يعثروا عليها مكسورةً، إلاّ أنّ النتائج المدرسية للطلاّب تظلّ مخيّبةً جداً للآمال (فمن بين اثني عشر طالباً نجحوا إلى الصفّ السادس في العام الماضي، لم تتمكن سوى بنتٍ واحدة من النجاح إلى الصفّ السابع). ولتفسير هذا الفشل، ترى كورين بأنّ السبب يكمن في نقص الدافع عند بعض أعضاء الجهاز التعليمي أكثر مما يكمن في الوسط الاجتماعي والثقافي البائس بصورةٍ خاصّة الذي ينتمي إليه الطلاب. إنّ خمول بعض زملائها يثقل عليها («إذاً لم تتطور الأمور في رأس المعلّم، فإنّها لا يمكن أن تتطور في رأس الأولاد»)، وهي تهاجم بصورةٍ خاصة موقف أحدهم، وهي امرأةٌ يبدو بأنها من وسط غنيّ، لم تدخل دارَ المعلمين مثل الآخرين ولا تشاركهم تصوّرهم للدور المهنيّ للمعلّم ولا تكريس أنفسهم للأولاد، ولا استثمارهم لكلّ الأوقات في المدرسة، الذي ترى كورين بأنه ضروريّ للنجاح مع أولادٍ محرومين بهذه الدرجة. إنّ التجربة الشخصية لكورين، وهي تجربة شكلٍ من الحرمان الثقافيّ، تؤهّلها مسبقاً لترى نفسها في هؤلاء الأطفال الذين يتعرّضون للفشل، وهي لا تستطيع أن تستسلم لفكرة أنّ أبناء هؤلاء المحرومين يفشلون في المدرسة، في مدرستها، وسوف يعرفون نفس مصير أهلهم لمجرد أنهم «وُلدوا في مكانٍ ما» وأنهم «يشعرون بأنهم على الهامش تماماً»، وأنه، كما تضيف أيضاً، «ليس لديهم أيّ تصوّرٍ للمستقبل»؛ وعلى العكس من العديد من المعلمين الذين استسلموا للأمر الواقع، فإنها لا تتقبّل جيداً كون «المدرسة تعمل بشكلٍ جيّد بالنسبة للأولاد الذين ليس لديهم مشاكل» ولا تعير اهتماماً للآخرين، لأولئك «العشرين بالمائة الذين يُسمح برسوبهم في البكالوريا». إنها تريد أن تؤمن بفعاليّة تربيةٍ موجهة بصورةٍ

خاصّة لهؤلاء الأطفال، وذلك على الرغم من أنها ترى مخاطر التكفّل التربوي المتقدم الذي قد يؤدي إلى نقل المسؤوليات التربوية من العائلة إلى المدرسة وإلى حرمان العائلات منها، كما هي الحال بالنسبة للمساعدات الاجتماعيات اللواتي يُنظر إليهنّ أحياناً في الأوساط الشعبية على أنهنّ «سارقاتُ أطفال» حقيقيات.

لم تكن كورين ستشعر بكل المصاعب والتناقضات في نشاطها المهنيّ بتلك الحدّة لو لم يكن الانزعاج الذي تتسبب به المؤسسة المدرسية يذكّرها على الدوام بانزعاجها الخاصّ، ذي الأصل العائليّ: فهي لا تحتمل بصورة جيدة القطيعة التي حصلت موضوعياً، رغماً عنها، بينها وبين أهلها؛ فهي تشعر بأنّ هناك «فارقٌ يتأسس» بينها وبينهم منذ أن ابتعدت عنهم اجتماعياً، وهذا الفارق مؤلمٌ للجميع، ويؤثّر عليها ككابحٍ دائم: «لديّ انطباعٌ بأن عليّ أن أتمهّل، إذا استطعنا أن نقول ذلك، كي.. كي أنجح.» ومما يزيد من ألمها لاحتمال إنكارٍ اجتماعيّ لها انتماؤها للتاريخ العائلي لأبيها الذي لم يتجاوز بعد كون أخوته وأخواته قد خانوه بشكلٍ ما ورفضوه اجتماعياً. وهذا قد يفسر أنها قد حددت بصورةٍ إرادية نوعاً ما دراستها في مجال التعليم الابتدائي المقبول من قبل أبويها. «لقد كانت لديّ رغبةٌ شديدة في الذهاب إلى الجامعة، لكنني كنتُ في وضعٍ حرج منذ ذلك الحين، (...) ثمّ إنه نظراً لأصلنا الذي يمكن أن يقال عنه بأنه فلاّحيّ، فإن كوني معلمةً لم يكن مثار انزعاجٍ للعائلة، بل كان جيداً من الناحية الرمزية بالنسبة لأهلي، بل كان هاماً، وحتّى مادياً، فإنني أظنّ بأنّ الأمر كان هامّاً أيضاً، وإلاّ فلست أدري ما إن كنتُ سأتابع أم لا.»

كورين مقتنعة اليوم بأنه من الضروريّ بالنسبة لها أن تترك هذه المهنة المخيبة للآمال يوماً ما التي «يشعر فيها المرء بأنه حبّة رمل» والتي تعاني من أزمةٍ جماعية حقيقية (ثلاثةٌ من المعلّمين الخمسة في مدرستها يتابعون الدراسة أو يفكرون بذلك). إنها تتوقّع أن تساعدها إجازة علم النفس التي تحضّرها على تحليل وبلورة انزعاجها، وأن تفتح أمامها بشكلٍ

خاصّ إمكانية أن تفعل شيئاً آخر يوماً ما، تلك الإمكانية الممنوعة على مجرّد معلمة بسيطة بحوزتها شهادةٌ «لا يعترف بها أحد إطلاقاً خارج إطار التعليم» إلاّ أن تصميمها يكبحه نفس العائق، نفس التثبيط الماضي الذي كانت تشعر به أثناء الفترة الأولى من دراستها: فهي تجد من جديد في الكلية المشاكل التي عرفتها حينذاك، في العلاقات مع الطلاّب الآخرين، وبصورةٍ خاصة في العلاقة مع اللغة المدرسية التي تفهمها تماماً والتي لا تتمكن مع ذلك من إعادة استخدامها وتجييرها لنفسها، كما لو كانت لا تستطيع تجاوز شكلٍ من المانع الأبويّ الداخليّ، وكما لو أنها تخشى من أن تخون بدورها أباها، كما حدث لها في السابق: «لديّ انطباعٌ بأنني إذا استخدمتُ أيضاً المفردات، فإنني سوف أنتقل إلى الجانب الآخر، لا أعرف كيف أشرح الأمر.» هذا الشكل من الشلل يضعها في موقفٍ لا يُحتمل، على حدود عالَميْن لا يمكن أن يتصالحا: «إنني لا أتمكّن حالياً من أن أعرف حقاً أين أنا، لا هنا ولا هناك. وفي الوقت ذاته، يمكن أن يكون لديّ توقٌ لأحد العالمين دون أن يؤدي ذلك إلى أن ألفظ الآخر، كما أنني لا أشعر بالراحة في هذا العالم ولا في الآخر».

مع معلّمة مكلّفة بتعليم الأطفال الفقراء

أجرى اللقاء شارل سولييه

«يبدو لي بأنه عليّ أن أتقدّم ببطء»

[...]

❖ أنتِ تعيشين وضعك بشكلٍ سيئٍ ولديك الرغبة في التغيير، أليس كذلك؟

كورين: نعم، فأنا في الحقيقة لا أتمكن.. وأنا لا أعرف إذا كان الأمر مرتبطاً بي، فأنا شخصياً أتغير، ونحن لا نتمكن من الحصول على النتائج التي نودّ الحصول عليها مع الأطفال. أقول لنفسي بأنني صامدةٌ حتى هذه اللحظة، إلاّ أنه ربما ينبغي أن يعطي المرء من ذاته أكثر مما يجب، وربما لن أكون قادرةً دوماً على التقديم للآخرين. وأقول لنفسي بأنه ينبغي أن أؤدي عملاً آخر حينما لا تعود لديّ الرغبة بعملي الحاليّ، ينبغي ألاّ آتي إن لم يكن لديّ الرغبة بالمجيء.

❖ أي أنك لا تريدين أن تفعلي مثلما يفعل زملاؤك، أليس كذلك؟ {ضحكات}

كورين: تماماً. أي أنني حين أستيقظ في الصباح، فإنني لا أزال أشعر تقريباً بالسرور بالذهاب إلى المدرسة. وأقول لنفسي بأنه يجب أن أتمكن من أن أقوم بعمل آخر عندما لا تعود الرغبة موجودة. وبصورةٍ عامة، فحين يكون المرء معلّماً، فإنه لا يستطيع أن يقوم بعملٍ آخر إن لم يعد للدراسة، لأنّ

هذه المهنة غير معترف بها أبداً في الخارج، فلو قدّمت نفسي مثلاً وقلت إنني معلمة وأريد أن أقوم بعملٍ آخر لضحكوا عليّ.

[...]

يبدو للمرء وكأنه حبة رمل

❖ لكن لنعد إلى غياب الحافز عند زملائك، أليس لديك فرضيات؟

كورين: البعض خاب أملهم، أي أنّ أملهم قد خاب بالنسبة للنتائج التي يحصلون عليها بطريقةٍ ما مع الأطفال.

❖ ألا يمكن أن يكون الأمر ناتجاً عن عجزهم؟

كورين: بلى، أنا أشعر بالعجز... لديّ انطباعٌ بأننا، لا أعلم، {ضحكات} لقد حان الوقت كي أخرج من المدرسة لأنّ... لقد كنتُ بحاجةٍ إلى التراجع {ضحكات} يشعر المرء وكأنه حبّة رملٍ، وبالتالي فإنّه ليس لديه الكثير من القدرة. (...) هناك الكثير جداً من العمل الواجب إنجازه.

❖ هل كنتم ستكونون أكثر فعاليةً لو كنتم فريقاً حقيقياً؟

كورين: بلى، لكن هناك مع ذلك... أعتقد أننا كنا سنكون أكثر فعاليةً مع بعض الأطفال، لكن هناك أطفالٌ آخرون...

❖ لكن ألا تكمن المشكلة قبل كلّ شيء في الناس الذين لديكم، في تلك العائلات؟

كورين: العلاقات مع العائلات شديدة الصعوبة، فهم في نفس الوقت.. على سبيل المثال، حين وصلتُ إلى المدرسة، كانت المدرسة تمثّل بالنسبة لهم كلّ ما يرفضونه. كانت العائلات ترفض المدرسة والأطفال يرفضون المدرسة، وكانت الكتابات منتشرةً في كلّ مكان. والطريقة التي كانوا يتكلّمون بها عن المعلّمين، كانت المدرسة بالنسبة لهم قذارةً. كان الأمر كما لو لم تكن المدرسة تشكّل جزءاً من عالمهم... (...) بالنسبة لهم، كان ذلك الرفض طريقةً يعبّرون من خلالها عن فشلهم، أنا أعرف ذلك، كان الرفض يحيلهم إلى فشلهم. لست أدري، لكننا نحن نظرنا إلى الأمر بهذه الطريقة. إنهم يشعرون تماماً بأنهم لم ينجحوا، ولا يستطيعون بالضرورة أن يساعدوا

الطفل. هناك العديد من الأهل الذين لا يعرفون في أيّ صفٍ ابنهم؛ قد يبدو ذلك شاذاً، إنهم يعرفون من هو معلّم ابنهم، لكنهم لا يعرفون المستوى الذي يقابل ذلك. يبدو للمرء أحياناً أن المدرسة بعيدةٌ عن هؤلاء الناس لدرجة أنّ الأمر يبدو شاذاً حين يتحدّث مع البعض عن ذلك. العديد من الناس يقولون لنا: «أنتم تبالغون، أنتم تضخّمون الأمور». لكن لا، ليس الأمر كذلك. إذن، فإنّ ما حاولناه هو السماح لهم بالعودة إلى المدرسة وتكوين نظرةٍ أخرى إلى المدرسة وتحديد موقعهم على ذلك الأساس، بحيث تصبح مخاوفهم أقلّ من السابق. إنه عملٌ اجتماعيٌّ أكثر منه تعليمياً وأظنّ بأننا قد نجحنا على هذا المستوى. لكن هناك أمرٌ لا ننجح فيه حقاً، ولا أقول أننا خارج اللعبة تماماً، وهو أنّ الأولاد، على مستوى المعارف، على مستوى الاكتساب المدرسي الحقيقي، ... إنّ مستواهم لازال متوسطاً نسبياً، لكن من غير الممكن أن تتغير الأمور خلال عامٍ واحد. لنقل أننا في العام الماضي كنا نقول لأنفسنا أنّه يمكن أن يزداد عدد الناجحين، إلاّ أنّ جهودنا لم تثمر فعلياً على المستوى المدرسي حتى الآن؛ لكن يمكن أن نقول أنها أثمرت على أصعدة أخرى، أي في ما يتعلّق بالنظرة إلى المدرسة. فهم على الأقل لم يعودوا يبصقون علينا كما في السابق عندما يصادفوننا في الشارع.

❖ لكنهم يرحّبون بأن ينجح أبناؤهم، أليس كذلك؟ ماذا يعني ذلك بالنسبة لهم؟

كورين: بالنسبة لهم؟ إنه يعني أنهم يريدون أن يدرس ابنهم في المدرسة، وبالتالي... الأمر صعبٌ للغاية، فهم في الواقع يرغبون في ذلك، وهم في الوقت ذاته يعيدون إنتاج موقفٍ يؤدي في النهاية إلى فشل الابن. أي أنّهم يريدون من ابنهم أن يدرس، ولكنهم سوف يضربونه إن لم يتمكن من الدراسة. فإذا لم يتمكن الابن من الدراسة وضُرب بسبب ذلك، فإنّ الدراسة تصبح أكثر صعوبةً.

[...]

سنعيده لكم وهو أفضل من السابق

كورين: أتساءل أحياناً إن كنتُ أنا السبب أم أنها المؤسسة التي تمثّل

مشكلةً في ما يتعلّق بـ.. فأنا في بعض الأحيان أشعر بأنّ... بأنّ المدرسة تعمل بصورةٍ جيدة بالنسبة للأولاد الذين لا يعانون من مشاكل... لكن بالنسبة للعشرين بالمائة الذين يُسمح برسوبهم في البكالوريا، فإنه يمكن أن يظلوا عشرين بالمائة، أي أنّ هناك ثمانون بالمائة سوف ينجون، بينما الباقون غير مهمّين، هناك عشرون بالمائة...

❖ أي أنّ الأمر مثل حوادث الطرقات...

كورين: تماماً، لكن المشكلة هي حين يعمل المرء مع أولئك العشرين بالمائة {صوتها يرتجف وضحكات}، الأمر هو...

❖ ألا يكون الأمر أفضل مع طلّابٍ من بيئات أوفر حظاً؟

كورين: {صمت} نعم، نعم... لكنني أعتقد بأنه ليس لدينا الإمكانيات أو الوسائل من أجل مساعدة هؤلاء، أو أنّ الأمر لا يتعلّق بالمدرسة، لست أدري. هناك بالتأكيد نواقص على مستوى الوسط، وهناك أيضاً نواقص على مستوى ما تقترحه المدرسة.

❖ هل تعتقدين بهذا المعنى أنّ المدرسة تستطيع أن تقدّم ما هو أكثر من ذلك؟

كورين: هي بالتأكيد قادرةٌ على أن تقوم بعملٍ أفضل. ينبغي تغيير عدد لا بأس به من الأمور على مستوى العمل {صمت}، لست أدري حقاً. لديّ زميلٌ اصطحب الأولاد لمدّة ثلاثة أسابيع في عطلة الثلج. الأطفال هم الذين حضّروا الإقامة، لقد تكفّلوا هم بها، لم تكن تلك إجازة ثلجٍ مضافة بصورة مصطنعة، فالناس يذهبون ليتزلجوا على الثلج. كانت الأمور رائعةً خلال ثلاثة أسابيع والأطفال حققوا قفزةً إلى الأمام. ثمّ عادوا إلى وسطهم، إلى المدرسة، إلى الجدران، وكلّ ما تريد، وبعد ثلاثة أيام... هذا لا يعني أنه ينبغي انتزاع، إخراج الأطفال من وسطهم، لكن ما أريد أن أقوله هو أنّ هناك إمكانيات. ماهي؟ أنا لا أعرف. ولن نكون أولئك الطيبين، بين قوسين، الذين ينتزعون الأطفال من الناس المأزومين لنقول لهم «سوف نعيدهم لكم وهم أفضل من السابق».

❖ أي إنقاذهم رغماً عنهم: أنتم لا تعرفون كيف تعتنون بهم، لذلك فإننا سوف نأخذهم منكم وسنعيدهم لكم وهم نظيفون، جيدون، مثقفون، الخ.

كورين: ليس هذا على الإطلاق، ليس بهذا المنظور أبداً.. وأنا أرى ذلك، ولكن..

أنا أعلم بأنني أتألم

❖ لكنهم سوف يجدون أنفسهم في وضعٍ غريبٍ بالنسبة لأهلهم، أليس كذلك؟

كورين: لكنني أعرف تماماً هذه الحالة {ضحك}

❖ تريدين الحديث عن نفسك شخصياً؟

كورين: بلى، هذا صعب، صعبٌ جداً...

❖ هل تذكرين هنا حالة تخلخل الوسط الاجتماعي؟

كورين: أنا أعلم بأنني أتألم {صمت}.

❖ بالنسبة لأهلك؟

كورين: نعم.

❖ هل بإمكانك أن تصفي لنا كيف يجري الأمر عملياً؟ أنتِ هنا تقلّدين بيديكِ ميزاناً، ماذا يعني ذلك؟

كورين: {صمت.} لديّ انطباعٌ بأنه ينبغي عليّ التقدم ببطء، إذا أمكن قول ذلك... وذلك كي أنجح. فبالنسبة للناس الموجودين في الكلية مثلاً، لديّ العديد من مشاكل النطق، وأنا أعبّر عن نفسي بصورةٍ سيئة. إنني على الأقل أفهم، ليس لديّ مشاكل في الفهم، لكن إعادة استخدام المفردات مشكلةٌ بالنسبة لي. إنها مشاكل سواءً في علاقتي مع الناس أم على مستوى محتوى الجامعة. فعلى مستوى محتوى دروس علم النفس مثلاً، ليس لديّ حقاً أية مشكلة في فهم ما يمكن أن يجري على المستوى الوظيفيّ، لكن حين يجب أن أعيد استخدامه، فإن لديّ انطباعٌ بأنني أقاوم، بأنني أنحصر، وبأن الأمر مرتبط رغم كل شيء بأهلي، وبأنه ينبغي على الأقل... هناك فارقٌ يتعمّق في ما يتعلّق بيني وبينهم، وليس بالضرورة أن يكون لديّ رغبةٌ في... أن أجعله يكبر، لذلك، لا أعلم، الأمر صعب التفسير. لكن الأمر جليّ مع أختي سيلفي Sylvie {الأخت الصغرى التي تحضّر لأطروحة} ثم أختي الثانية {التي هي ربة منزل ولم تتابع دراستها} فلا يوجد لديّ الكثير لأقوله لأختي الثانية التي هي

متزوجة، على الرغم من أنه يمكن أن أكون أكثر قرباً منها لأنّ أولادنا بأعمارٍ متقاربة. في حين أنّ الأمور أفضل مع سيلفي، لكنني أشعر مع ذلك بأنّ سيلفي بعيدةٌ جداً بالنسبة لي على هذا المستوى، وأرفض ذلك أيضاً نوعاً ما.

❖ هل تقصدين بأنها بعيدةٌ جداً من الناحية الثقافية؟

كورين: أنا أرفض كذلك قليلاً ذلك الجانب الثقافي. لكنني لا أستطيع حتى الآن أن أحدد مكاني في أية جهة. ففي الوقت ذاته، يمكن أن تكون لديّ طموحاتٌ باتجاه جانبٍ ما، لكن دون أن أرفض الآخر، كما أنني لا أشعر بالراحة مع هذا ولا مع ذاك.

❖ وكيف تجري الأمور في الجامعة؟ لديكِ صعوبةٌ في إعادة استخدام اللغة المدرسية، أليس كذلك؟

كورين: بلى، أصادف صعوبةً في الدخول إلى مستوى اللغة، إلى مستوى... {صمت}. يبدو لي بأنّني لو امتلكتُ المفردات أيضاً لانتقلتُ إلى الجانب الآخر، لا أعرف كيف أشرح ذلك.

❖ وماذا عن أبويك؟ هل يريان ذلك أيضاً، أم أنّ الأمر لا يتعلق إلاّ بك؟

كورين: لا، أظنّ بأنهما يلاحظان ذلك أيضاً. أعتقد بأنّ لديهما بشكلٍ ما انطباعٌ بأنّهما لا يعرفان تماماً ما الذي نعيشه بين قوسين، وقد قالت لي أمي منذ فترةٍ ليست طويلةً جداً: «ما الذي تفعلينه حقاً في الكلية؟»

❖ ما الذي كان ذلك السؤال يعنيه؟

كورين: لم تكن تعلم حقاً ما الذي أفعله وأعتقد بأنها لم تفهم لماذا لديّ رغبة في أن أتابع دراستي، فبرأيها لديّ مهنة، ومسكن، ولديّ موقعٌ اجتماعيّ على نحوٍ ما... لم تكن تعرف مضمون ما أفعله، وهي تجد صعوبةً في أن تفهم لماذا لديّ رغبة في أن أفعل شيئاً آخر.

[...]

1991

إيمانويل بورديو

روح التناقض

بيلغ فريديريك من العمر تسعة عشر عاماً. يعيش والداه اللذان يصفهما بأنهما «برجوازيان صغيران» في مدينة نويي Neuilly: فوالده مهندس في شركة الكهرباء الفرنسية EDF وأمه لا تعمل. وهما مشتركان في جريدة اللوموند ويقعان من الناحية السياسية في اليسار: بل إنّ والد فريديريك قد ناضل في صفوف الحزب الاشتراكي. لقد مثّل فريديريك، بطبعه الشديد البرودة والسيئ الظنّ لأقصى درجة، مثّل «حالةً» بالنسبة لأبويه، إذ أنه كان سبباً للكثير من الخيبات العائلية. وهو، في فترة إجراء المقابلة، في صف البكالوريا ب B بعد أن رسب في الصف الثامن وفي الصف العاشر. وهو يدرس في صفٍ خاص في نويي، حيث يوجد العديد من أبناء العائلات الجيدة، القريبة من أقصى اليمين الملكيّ أو من الجبهة الوطنية. تصادف رسوبه في الصف العاشر مع دخوله في فرع نويي لقسم الشبيبة التابع للجبهة الوطنية FNJ. وبعد ذلك بقليل، وخلال العام الدراسي، تعرّض لحادث دراجة أصيب فيه إصابةٌ شديدة في عينه اليسرى: فلم يحضر أية دروسٍ خلال عامين بعد أن تشوه وجهه؛ واليوم، بقيت عينه اليسرى معاقةً وتضايقه كثيراً. مشاجراته مع والده عنيفة ومتكررة، وهما لم يعودا يتكلمان مع بعضهما تقريباً.

صحيحٌ أنّ من سأل فريديريك بصفته ممثلاً لشبيبة أقصى اليمين هو أخٌ لأحد أصدقائه، إلا أنّ فريديريك يعلم بأنّ هذا الأخ ينتمي إلى عالمٍ يميل بشكلٍ مسبق إلى اليسار، ولا يمكن لفريديريك بالتالي إلاّ أن يكون في موقف الدفاع، ويمكن أن يقال بأنه يتخذ صفة الممثل للجهة التي ينتمي إليها. وبالتالي، فإنّ أيّة محاولةٍ للتحليل تواجه مشكلةً منهجيةً مسبقة: كيف يمكن تفسير أقوال محادثٍ يعترف هو ذاته بأنه يصوغ الحوار بعباراتٍ استراتيجيةٍ بلاغية؟ كيف يمكن استخلاص حقيقةٍ سوسيولوجية ما من خطابٍ يمكن تماماً ألاّ يكون سوى إعادة بناءٍ تخيليةٍ للحقيقة، رُتّبت بحيث تتلاءم مع المتطلبات والمقاييس المفترضة لمن يقوم باستجوابه وجمّلتها رقابة المواقف غير المعلنة والإخفاء الخجول للمعاناة الشخصية؟

حين سئل فريديريك عن الحجج التي يستخدمها للحصول على انتماءاتٍ جديدة إلى تنظيمه، فإنه يقول: «هذا يتعلق بالأشخاص الذين أكون بصحبتهم.» من جهةٍ أخرى، فإنه يبدو بأنه يطابق بين الثقافة والبلاغة، بين التأهيل والتدريب الكلامي: وإذا صدقناه، فإنّ السبب الحقيقي الوحيد الذي جعله ينتمي إلى الجبهة كان الأمل في الانتساب إلى جامعة صيفية ليتعلم فيها بشكلٍ أساسي فنّ «التحدث إلى وسائل الإعلام»؛ إنه رجلٌ كبير، خطيبٌ كبير؛ ويذهب فريديريك إلى حدّ تطوير نوعٍ من الجماليّة السياسية المستوحاة من جملٍ قاطعة و«مؤلمة» لـ: دريو لاروشيل Drieu La Rochelle مبنية على «المفارقة» والتحريض.

وبعد ذلك، فإن البلاغة تفشل في بعض الأحيان، ويخرج خطاب فريديريك أحياناً عن سيطرة الرقابة والإنشاء؛ والشخصيات التي يقدّمها ليست أبداً خاطئة بالكامل، وبصورةٍ خاصة، فإنها تتناقض لدرجة أنها، أثناء العرض ذاته، تنقل التوترات والتناقضات الحقيقية والعميقة لمراهقٍ مع حالة نزاعٍ مع أبيه، لا يزال مقسماً بين انتماءٍ تحريضيّ ومتحمس للحركة، وبين رؤيةٍ خائبة للحياة السياسية: يعرض فريديريك نفسه مرةً كمناضلٍ مثاليّ يجيبُ على الأسئلة التي تُطرح عليه بلهجةٍ حربيةٍ، كما ينبغي له أن يفعل،

وعند اللزوم فقط، بلهجة فنية، ومرّةً أخرى كخائب لم يعد مؤمناً تماماً بما يفعله ويسخر من أوهام «المثقفين»، تماماً كما يسخر من وقاحتهم كجنود أوبريت صغار «يتكلمون عن أشياء لا يمارسونها»، كمجرّد واضع للملصقات، كرجل تنفيذ، حيث يكتفي بتواضع بالمهام المادية لمناضل القاعدة، بل إنه يصل إلى رفض كونه يمثّل المنظمة، ويصل بالتالي إلى رفضه لشرعية المقابلة.

إنّ عدم ثبات شخصية فريديريك يجد انعكاسه في النزاعات التي تعارض تلك الشخصيات المختلفة: فالشخصية التي خاب أملها تلوم الشخصيتين الأخريين على انتمائهما غير المدروس وانخراطهما التام في حياة سياسية سُلّمت لأيدي الوصوليين ولخداعات القادة (حيث خانَ جان ماري لو بين Jean Marie Le Pen ذاتُه قواعد تنظيمه حين لم يعارض صدام حسين)؛ وهو يزدري المشاركة التقنية البحتة لشخصية واضع الملصقات في الجبهة الوطنية للشباب (ج. و. ش) حيث يعتبرها مهمةً «تنتهي سريعاً» وهي «بمتناول أي شخص كان»؛ كما أنه يعتبر بأن مناضل القاعدة «غبيّ» لأنه لا يدرك بأنّ كوادر الجبهة الوطنية (ج.و) والمناضلين الحقيقيين «الذين لا يظهرون، إطلاقاً» يعاملونه على أساس كونه مجرد «يد عاملة» («ما إن يتوجب إلصاق بعض الملصقات حتى ينادوننا، وإلاّ فلا شيء»).

أما المناضل الملتزم، الفكرويّ الصغير المناوب في الحيّ، المسجون ضمن «حركة»، و«جهاز»، و«بلاط»، والذي يعميه «ولعه» بجان ماري لو بين، فإنه لا يفعل شيئاً سوى تكرار «المعلومات الصغيرة»، التي تحملها مجلة الجبهة الأسبوعية National Hebdo (السيدة كذا هاجمها أحمد كذا) أو أنه، في أحسن الحالات، يقوم باجترار «مواضيع خادعة» ليس هو مؤلّفَها. ويعارض خائبُ الرجاء على الفور السبّاقَ في «التأهيل» أمام الحماسة الساذجة للقادمين الجدد: «النضال جيد، إلاّ أن المرء لا يحصل على أيّ تأهيل». وأخيراً، فإنّ لخائب الرجاء بلاغته الخاصة: فهو يهتمّ بالمفارقة («أحب كثيراً أن أناقض أقوال الآخرين») وبإخماد منهجيّ للتعبير: فقد قال

عن نفسه بأنه كان «مهتماً بشدة» بالجامعة الصيفية التابعة لِ ج.و.ش ، ثمّ يصحّح قائلاً: «لا، لم أكن مهتماً «بشدة»، ربما كنت «مهتماً» وحسب» وبعد جملةٍ واحدة، يستدرك من جديد وهو يستذكر مفاجأته وحماسه قائلاً: «لم أكن قد رأيت «الاتساع» من قبل، لا أعلم إن كان ذلك «اتساعاً»، لكن...»

إلاّ أنّ فريديريك يبدو وكأنه يناقض نفسه: «لا يمكن للمرء أن يعرف ما هو الأمر بطلعةٍ واحدة لوضع الملصقات». ومن جهةٍ أخرى، فإنّ التشاؤم الذي يُظهره لا يكبح تماماً الانبهارَ الذي عرفه في بداياته أمام عمل مناضلِ القاعدة المنخرط روحاً وجسداً في النشاط الحزبيّ الملموس والذي ينطوي أحياناً على بعض الخطر: فهو يحنّ إلى روح وحماسة حملات الإلصاق الأولى، حين كان هو ورفاقه يعملون في الشارع بسرعةٍ وصمت، مزاوجين بين الرفاقية والفعالية، وذلك بعد أن يكونوا قد ضحكوا كثيراً في الشاحنة الصغيرة التي تقلّهم. وفي ذهنه، فإنّ الخروج ليلاً لوضع الملصقات، كما يذهب المرء إلى مغامرة، يبقى المثالَ للالتزام السياسي الأصيل، وذلك بالتعارض مع بقاء عناصر الحزب الدائمة في منازلهم، وكذلك الأمر بالنسبة «للمثقفين» الذين ينفقون كلّ طاقاتهم في «حفلات» غير ضرورية وفظّة: «ينبغي القول بأننا نتسلى كثيراً حين نكون في شاحنةٍ صغيرة، والجو السائد حماسيٌّ للغاية».

إنّ شخصية اللاصق هي رومانسية ومتواضعة في الوقت ذاته؛ فهو ينمحي أمام غطرسة الفكرويّ المحليّ، ويترك له الكلام، ويعرف حدوده الخاصّة وعدم جدارته في مجال الأفكار: فإذا كتب شيئاً، فإنّ ذلك يكون حول أمورٍ فنيّة أو إدارية، «بناء مقرٍ في فرساي Versailles»، أو «المعدّات التي تلقّيناها»؛ لكنه يعترف بأنه ليس «جديراً بعدُ بكتابة مقالاتٍ عميقة» وأنه «يترك ذلك الأمر لآخرين أكثر منه تمكّناً». أما علاقته مع «المنظّرين»، فهي شديدة التناقض: فلديه «كلمةٌ يقولها» وهو ينزع بصورةٍ خاصة إلى اعتبار المناظرات الأيديولوجية مجرد أعذارٍ بسيطة تسمح للوصوليين و«للمثقفين» في الحزب بتسلّق الهرم على حساب بعضهم بعضاً، دون أن

ينزلوا أبداً إلى الشارع. وباختصار، فإنّ مثالَ الالتزام الأصيل يهيمن على مثال التفكير والنقد المرتاب، بل خائب الرجاء.

لكن ما إن نتطرّق إلى أسئلةٍ تصنّف على أنّها سياسية، حتى يتغلّب الخطاب الاعتيادي والمسيطَر عليه للمناضل النموذجي: فهو يدافع عن الدعوة إلى عزل المصابين بالسيدا (الإيدز)، «لدفعهم إلى التفكير»، وعن التنديد «بالارتفاع الكبير» لعدد المغاربيين في فرنسا في المستقبل، مستنداً إلى أرقام رسمية («سيكون هناك ثغرة في هرم الأعمار») وإلى ذرائع مدرسية («طردهم خارج البلاد (...) لإزالة الغيتوات»)؛ ويعلن فريديريك بأنه يمكن له أيضاً أن يفصّل أي «موضوعٍ خادعٍ» آخر، كالأمن وطريقة الاقتراع كما لو كان يستعرض براعةً كلاميةً مميزة. وهو يلتزم بصورةٍ خاصة بالمواضيع المسموحة فقط، ممارساً على نفسه رقابة الجهاز؛ فما إن يخرج من الدروب الممهدة للنقاش السياسي المعتاد حتى تفرغ إجابات فريديريك من أي محتوى، ويقتصر على استعادة محتوى الأسئلة بصورةٍ غائمة، على طريقة تحصيل الحاصل.

في بعض الأحيان، ينزلق الخطاب القابل للنشر نحو ما هو غير قابلٍ للنشر، إلاّ أنّه يُستدرك على الفور ويُخفف: «إخراجهم من البلاد، هذا صحيح، لكن ليس كيفما اتفق. لإلغاء كافة الغيتوات.» ليس لدى المناضل المثالي لا الحماس المتواضع لواضع الملصقات ولا الانسلاخ الساخر لخائب الرجاء، وهو ليس سوى ممثلٍ للحزب، مجرد عيّنة ممثلة له، لا أكثر.

تبدو الاعتبارات الجمالية مناسبةً بشكلٍ خاص لزلات اللسان وللأشكال الأكثر انفلاتاً للانزلاق البلاغيّ، كما لو كان المنطق الخاصّ بالعالَم الجماليّ يسمح برفع أشكال الرقابة والممنوعات الأيديولوجية: «أحبّ كثيراً الأزياء الموحدة (...) لكنني لا أحبّ الجيش.» يملك فريديريك «متحفاً عسكرياً» صغيراً يتكوّن من خوذاتٍ وقبعاتٍ عسكرية متنوعة. إلاّ أنّه لا يعترف بوجود أيةِ صلةٍ بين هذا الميلِ للأشياء العسكرية وبين انتمائه إلى الجبهة الوطنية. كذلك، فهو يبدي حاجةً غير عادية ليحدد موقعه بالنسبة

لميول غير عادية حين يتكلم عن الموسيقى: فبعد أن ذكر فرقة «سكاي روك Skyrock»، الرمز الثقافي التافه، قال بأنه يقيم سباقاً للأغاني العسكرية لأقصى اليمين، ويصفها أولاً بأنها «أغاني تقليدية»، ثم يقرّ في النهاية قائلاً: «الأغاني النازية أو الأغاني الألمانية، الأمر سواءٌ تقريباً...»، ويختم بتلك الجملة الجديدة المتحفّظة: «أنا لا أفهم الكلمات، لذلك...»

عبر تلك الكوكبة من الشخصيات المتناقضة، ترشح الصعوبات والأهواء الخاصة بفريديريك التي لا تظهر مع ذلك إلاّ بالإنكار: فمرةً يؤكّد بصورةٍ عفوية أنّ مشاكله مع والده «لا علاقة لها بالسياسة»، وفي مرةٍ ثانية، وحين يتم سؤاله من جديد عما إذا كانت هناك علاقة بين انتمائه إلى «ج.و.ش» وصعوباته العائلية، فإنه يجيب ببساطة: «إذا عدنا إلى ذكر أهلي، فهم لم يكونوا يعطونني المال». كذلك، فإنّ أبويه كانا مصرّين على أن يرى طبيباً نفسياً: «كنت سأفعل لو أنني كنت فعلاً... إلاّ أنّه لا يبدو لي بأنني بحاجةٍ للمساعدة»؛ ولا يمكن للمرء هنا إلاّ أن يسمع هنا طلباً للمساعدة غير معترف به. يبدو وكأنّ فريديريك بحاجةٍ إلى إقناع نفسه بأنّ قراره في الانضمام إلى الحزب مجرّد خيارٍ شخصيٍّ بحت، وبأنّ عدم وفاقه مع أبويه ينبغي ألاّ يعطى صبغةً مأساوية، «لأنه معتاد»، ثم يصحح قائلاً بأنّ «الأمر ليس خطيراً»؛ ويبدو كما لو أنّه يجهد في طرد «المثقف» الذي بداخله، ذلك اليافع «غير المنسجم مع ذاته» الذي يعتبر الجبهة «عائلته» والذي «لا يعيش إلاّ بها»، ذلك «المفلس»، وهو بذلك يستعيد قيماً موروثةً دون ريب عن أبيه – وهنا المفارقة: «التأهيل»، «الحصول على البكالوريا من أول مرة»، «الدراسة في مدرسة عليا للهندسة» (كأبيه). وتبدو علاقته بأبيه، ذلك «البرجوازي الصغير» الذي يحتقره ابنه، لكن الذي يظهر مع ذلك أنّه قد استبطن رؤيته للعالم، تبدو أكثر تناقضاً مما يتوقع المرء للوهلة الأولى. لذلك، فإنّه يمكن أن نفترض بأنّ النزاع الأول الذي يسكن فريديريك والذي هو أساس الأدوار المتناقضة التي يعطيها لنفسه هو نزاع يافعٍ مأزوم، عقّدته عاهته ومصاعبه المدرسية، خاضعٍ مادياً لأبويه، ابنٍ لمهندسٍ اشتراكي، لا يتمكن من الحصول

على البكالوريا، يريد، ليؤكّد ذاته، أن يجري قطيعةً مع هذا العالم المثقف والتقدمي نسبياً، دون أن يتمكن فعلياً من الانسلاخ عن قيم ذلك العالم وعن الادّعاءات الثقافية التي ينطوي عليها.

يبدو بأنّ القدر قد حسم الأمر لصالح القطيعة: فبعد بضعة أشهرٍ من المقابلة، نجح فريديريك في الحصول على شهادة البكالوريا ب وبناءً على طلبه، سجّله أهله في مدرسةٍ خاصّة في جنوب شرق فرنسا تعطي شهادةً فنيةً تجاريةً عليا، ودفعوا لأجله تكاليف مدرسية مرتفعة للغاية، مما زاد من اعتماده المادي عليهم. لكن، وبعد أن بدا بأنّ كل شيءٍ قد عاد إلى وضعه النظامي، ذهب فريديريك للقتال في صفوف الكرواتيين بعد أن تلقّى تدريباً عسكرياً في وحداتٍ عسكرية تابعة لأقصى اليمين. ويأتي هذا الانخراط غير المتوقّع لمناضلٍ خائب الرجاء ليؤكّد افتراضات القراءة المقترحة للمقابلة: إن خطاب فريديريك أقلُّ جذريةً من مواقفه الحقيقية، ولا يمكن إحباط الرقابة التي تسيطر على هذا الخطاب إلا من خلال تناقضاته الداخلية.

لقاء مع مناضل شاب في الجبهة الوطنية

أجرى اللقاء دوني بوداليديس Denis Podalydès

«لم يكن لديّ أيّ سبب للانتساب»

❖ متى انتسبتَ للجبهة الوطنية (ج . و)؟

فريديريك: منذ عامين ونصف.

❖ كم كان عمرك حينذاك؟

فريديريك: سبعة عشر عاماً أو ستة عشر عاماً ونصف. لم أكن أعرف الحركة إلاّ بصورةٍ غائمة، قليلاً جداً في الواقع.

❖ هل كنت تعرفها عبر وسائل الإعلام، التلفزيون، الصحف، أم عبر أصدقاء سبقوك إليها؟

فريديريك: لم أكن أعرف أحداً. لم أكن أرى أهميةً في أن يذهب المرء إليها ليرى ما يوجد داخلها. كانت بالنسبة لي مجرّد مجموعةٍ من الشبان، أصدقاء في ما بينهم. بالنسبة لي، كانت منظمة الجبهة الوطنية الشبيبية (ج. و. ش) تتوقف عند ذلك الحد. وفي إحدى الأمسيات، كان أحد أصدقائي يعزم على الذهاب ليقصّ له شعره شخصٌ من ج.و.ش. وكان رفيقي في امتطاء الدراجة، بنفس عمري، وفي صفي، وقال لي أنّ ذلك قد يعجبنا لا أكثر، فلم يكن لدينا أية مصلحة في الذهاب إلى هناك. كان ذلك الشخص قد عرض على صديقي أن يقصّ له شعره في ذلك المساء، فذهبنا

إذن. لم يكن هناك أحد. رأيت هناك بعض الدعاية وكومةً من الصحف، وما شابه ذلك..

❖ أين كان ذلك؟ في مسكن الشخص المعنيّ الذي كان سيقصّ شعر صديقك؟

فريديريك: لا، كان ذلك في المقر.

❖ مقرّ الجبهة الوطنية أم مقرّ ج. و. ش؟

فريديريك: ج.و.ش، كان مقراً صغيراً لِ ج.و.ش. تناقشتُ قليلاً معه بينما كان يقص شعر صديقي. وفي نهاية السهرة، حضر اثنان أو ثلاثةٌ آخرون وتناقشوا. لقد تحدّثنا قليلاً.

❖ عمّ تحدّثتم؟

فريديريك: أنا لم أتحدّث، فقد كنت أستمع إليهم وهم يتحدّثون. بالنسبة لي، كان شيئاً مجهولاً. لم أكن قد رأيت قبل ذلك أشخاصاً يقومون بوضع الملصقات في الشارع، لم أكن قد وزّعتُ أية مناشير، لم أكن قد رأيت شيئاً من كلّ ذلك.

❖ ألم يكن أبواك أيضاً قد مارسا أيّ نشاطٍ سياسيّ؟

فريديريك: أوه... {تعبير ازدراء}. بعد عودتي في ذلك المساء، قلتُ لهما بأنني كنت هناك، ولم يُسرّا لذلك بصورةٍ خاصة. وقد عدتُ إلى هناك لأرى الناس الموجودين، ووجدتُ الأمر مثيراً للاهتمام لأنّ النضال السياسي كان شيئاً مجهولاً بالنسبة لي؛ كان رأيي أن هناك فعلاً شيء ما، أن الأمر أكثر من مجرد مجموعةٍ من الشباب... لقد جذبني ذلك بالفعل.

❖ لكن في مقرات التجمع من أجل الجمهورية RPR أو الحزب الاشتراكي PS أو حتى الحزب الشيوعي PC هناك أيضاً نضال ووضع ملصقات وتوزيع منشورات...

فريديريك: {يبتسم وهو يخفض عينيه.} نعم، ولكن صديقي لم يذهب إلى هناك ليقص شعره... لكن... لم أكن سأكون مرتاحاً في مكانٍ آخر، ثم إنّ...

❖ هل كان صديقك يعلم إلى أين هو ذاهبٌ ليقص شعره؟

فريديريك: الآخر كان أيضاً حلاّقاً...

❖ هل ذهب ليجري له قصّة شعرٍ مميزة؟

فريديريك: لا، لا، كان سيجري له قصةً متحاذية، وهي ليست بقَصّة الشَّعر الخاصة. هكذا إذن، ذهبتُ إلى هناك، ورأيت مسؤول ج.و.ش، وكان شاباً في الثالثة والعشرين من عمره يشغل منصب سكرتير منطقة أعالي نهر السين Hauts-de-Seine.

❖ هل كنت تظنّ حين عدت إلى منزلك بعد أول مرةٍ ذهبت فيها إلى هناك بأنك سوف تنتسب؟

فريديريك: لا. لقد انتسبت بعد ذلك بسنة، لكن لسببٍ خاصٍّ، فقد كنت أرغب في أن أرى الجامعة الصيفية لِ ج.و.ش. تلك كانت أول مرةٍ أنتسب فيها رسمياً. أما في ذلك المساء الأول فقد استمعت إليهم فقط وهم يتكلمون.

❖ عمّ كانوا يتكلمون؟

فريديريك: عن النضالية.

❖ ماذا تعني؟

فريديريك: كانوا يقولون بأنهم سوف يضعون ملصقاتٍ يوم الأربعاء. اثنان منهم كانا يلفّان تلك الملصقات، وقد أدهشني ذلك كثيراً.

❖ ما الذي أدهشك، ما قالوه لك أم ما كانوا يفعلونه؟ هل كانوا يحاولون إقناعك؟

فريديريك: كلاّ، لقد وجّهوا لي التحية. لقد قالوا لأنفسهم بأنهم لم يروني قبل ذلك أبداً. لكنهم لم يكونوا مرتابين بي. بينهم واحدٌ اسمه جوسلان كان يتحدّث عن سهرةٍ مع بعض الفتيات. أي أنهم كانوا يتحدّثون عن أمورٍ مختلفة.

❖ هل عدت لرؤيتهم في فترة السنة التي فصلت تلك السهرة عن انتسابك؟

فريديريك: نعم، لقد رأيتهم عندما وضعوا الملصقات يوم الأربعاء لأنني كنت أريد أن أعرف ما الذي يفعلونه في المساء، بعد الخروج من الدروس أو المعامل. بعضهم يعمل في المعامل، رغم أنّ الأشخاص في نويي هم على الأغلب أناسٌ يتوجهون نحو الدراسة، برجوازيون، أو برجوازيون صغار مثلي. لقد أردتُ إذن أن أعرف كيف يتم وضع الملصقات، وتوزيع المنشورات والصحف في ساحة السوق. هناك أيضاً التعليب.

❖ ما هو التعليب؟

فريديريك: إنه وضع المنشور في علب البريد. الأمر يجري حياً تلو آخر، وخاصةً خلال الانتخابات. لقد وصلت في فترة حملة الانتخابات الرئاسية، فكان هناك العديد من النشاطات، ومقدارٌ لا بأس به من العمل الواجب إنجازه. ذهبت إذن إلى حملتين أو ثلاث لوضع الملصقات كي أكون تدريجياً في صورة ما يجري. فمن خلال حملةٍ واحدة، لا يستطيع المرء أن يعرف الموضوع.

❖ كل ذلك قبل أن تنتسب؟

فريديريك: لولا ذلك لما انتسبتُ أبداً إلى ج.و.ش. كان ينبغي أن أعرف أكثر عن الحركة، كلّ ما يتعلّق بها، الأفكار، ومواقف الجبهة الوطنية.

❖ لقد قرأتَ كتباً حول الموضوع...

فريديريك: نعم، كنت أقرأ الصحف. في الواقع، لقد قرأت دائماً الصحف، لكنها لم تكن أبداً... كنت أقرأ دوماً لوكوتيديان Le Quotidien واللوموند Le Monde لأن أبي يحضرها كلّ مساء، أما لوكوتيديان، فأنا أشتريها في الحقيقة كلّ يومين. أما في تلك الفترة، فقد كنت أشتريها مرةً في الأسبوع فقط. كما أنني كنتُ أقرأ أيضاً مجلّة الجبهة، ما اسمها... الوطنية الأسبوعية National Hebdo وهي في رأيي ليس لها أية أهمية. لا شيء فيها، ليس فيها أي تأهيل.

❖ لكنك تعطي الانطباع بأنك انتسبت بالصدفة نوعاً ما. ما الذي جعلك تنتسب؟

فريديريك: لم يكن لديّ أي سبب للانتساب، لم أكن أرى لماذا سأعطي مائة وعشرين فرنكاً لتلك الحركة- لم أر مصلحةً في حصولي على بطاقة العضوية، لم يكن ذلك ينفعني في شيء. لكن جاء موضوع الجامعة الصيفية.

الجامعة الصيفية: «قلت لنفسي بأنّ ذلك لن يضيرني في شيء، سأذهب إلى هناك وسنرى»

فريديريك: إذن، للذهاب إلى الجامعة الصيفية خلال عطلة نهاية الأسبوع للتأهيل في قصر «نيفي آن بارونجان Nevis-en-Baronjean»، والتي تدوم ثلاثة، بل خمسة أيام، كان ينبغي أن يكون مع المرء بطاقة عضوية. قلت لنفسي: لا يمكن أن يضيرني ذلك في شيء، سوف أذهب إلى هناك وسنرى، سيكون هناك أصدقاء. وفي الواقع، لم يكن الأمر سيئاً، عدا بعض المحاضرات الطويلة نوعاً ما، لكن بعض الخطباء لم يكونوا سيئين، وفي نهاية الدورة حضر جان ماري لو بين بالضرورة. لم يحضر إلاّ في النهاية، لأنه كان بصورةٍ خاصة في الجامعة الصيفية للجبهة وليس في جامعة ج.و.ش. كان هناك إذن جان إيف لو غالو Jean-Yves Le Gallou والأستاذ فاغنر Maître Wagner .

❖ كيف كانت الأمور تجري؟

فريديريك: كنا نستيقظ في السابعة أو الثامنة صباحاً، ونتناول طعام الإفطار، ثم محاضرة مع أسئلة حتى موعد الغداء، وكذلك الأمر بعد الظهر. كان هناك جلسات لتعليم التحدث إلى وسائل الإعلام. كان على الجميع التحدّث أمام كاميرا، وكان كلّ شخصٍ يُقيِّم في النهاية. كما كان هناك تمرينٌ آخر ينبغي فيه الإجابة على بعض الأسئلة.

❖ كيف جرت الأمور بالنسبة لك؟

فريديريك: كان هناك مواضيع، وكلّ شخصٍ يسحب موضوعه بالقرعة، وبالنسبة لي، كان هناك موضوعان لم أكن أريدهما: الاقتصاد

وحماية البيئة، فهما أقلّ موضوعين كنت أهتمّ بهما. وكانا بالذات الموضوعين اللذين وقعتُ عليهما بالقرعة، ولم أُجب تقريباً. لقد جرى الحديث عن حماية البيئة ولم أتمكن من تذكّر اسم فريديريك ميسترال Frédéric Mistral، وأزعجني الأمر كثيراً.

❖ هل هم الذين سألوك عنه؟

فريديريك: لا، أنا الذي كنت أريد التحدّث عنه. إنه أول مناصرٍ للبيئة من اليمين، وأردت أن أضعه في هذا المكان، في مقدّمةٍ عن البيئة ولم أتمكن من تذكّر اسمه.

❖ ما هي مناصرة البيئة اليمينية؟

فريديريك: لكن ذلك كان فقط من أجل وضع الاسم؛ إنها ليست مسألة مناصرة البيئة اليمينية أو اليسارية، بل لأنّ اليسار هو الذي يسيطر حالياً على الموضوع. هذا ما أردت قوله وإبرازه أمام الكاميرا. لكن التمرين لم يكن يدوم سوى خمس دقائق فقط، وكان ذلك في الصباح، كنتُ قد استيقظتُ لتوّي.

❖ هل كنت تتوقع الكثير من تلك الجامعة الصيفية حين وصلتَ إليها، أم أنّ الأمر لم يكن يتعدى الفضول، إن لم يكن التوجّس؟

فريديريك: بل كان حماساً. كنت مهتماً للغاية. لا، لم أكن مهتماً «للغاية»، ربما لم أكن. كنت مهتماً. كنت في الحركة منذ عام، لكنني لم أكن قد رأيت أبداً اتساع الحركة، «الاتساع»؟ لا أدري، لكنه كان نشاطاً يتألف من نقاشاتٍ وحوارات، كانت خمسة أيامٍ بهذا الشكل... كنت أريد أن أرى شيئاً آخر في الحركة: فهناك أولئك الذين أدعوهم ب«المنافقين»، وهم أولئك الذين يظلّون على الدوام حليقي الذقون وما شابه ذلك، الذين يتحدثون عن أي موضوعٍ كان، يتحدّثون عن أمورٍ لا يمارسونها، وكان ذلك يقضّ مضجعي، كنت أريد أن أعلم إن كان هناك العديد منهم أم لا. لكنني لم أرَ واحداً منهم هناك، وقد أدهشني ذلك كثيراً. كانت شعورهم قصيرةً لا أكثر، أي مثلي أنا حالياً.

❖ هل من تدعوهم بالمنافقين هم المتعصبون؟

فريديريك: لا، إنها ليست حتى مسألة تعصب، إنهم أولئك الذين لا يشعرون بالانسجام مع أنفسهم، والجبهة هي عائلتهم، لا يعيشون إلاّ من خلالها، وهم لا يخرجون إلاّ للذهاب إلى المدرسة، وهم بائسون. لم يكن هناك أحدٌ منهم في الجامعة الصيفية، وكنتُ مسروراً لذلك. لكن لا زال يوجد منهم حتى الآن، وهم ليسوا شريرين، ولا يتحدّثون سوى عن الجبهة، بل إنهم لا يتحدّثون حتى عن الجبهة، فليس هكذا يتحدّث المرء عن الجبهة، أشخاص أغبياء لهذه الدرجة. هناك اثنان منهم في نويي: جان بول Jean-Paul الذي هو برأيي مريضٌ نفسياً نوعاً ما، بالكامل، ربما أكون شريراً نوعاً ما في وصفي له. لكن لابد أنّ لديه عيبٌ صغيرٌ ما، فوالداه مسنّان نوعاً ما. ينبغي عدم قبول الأشخاص الذين يأتون إلى الحركة بشكلٍ اعتباطي، كما ينبغي أيضاً عدم استبقائهم. إذن، فقد انتسبتُ بعد ذلك. كنت أستلم كل شهرٍ رسالة جان ماري لو بان وكنتُ أقرؤها بالكاد، فمقدار ما تحتويه من أهميةٍ لا يزيد على ما تحتويه المجلّة الأسبوعية للحركة. إنه مجرد تكرارٍ مملّ، أو أنها أخبارٌ صغيرة لنعرف أين ستلقى المحاضرة التالية للجبهة. متابعة الأمور الراهنة ضعيفة، وهي إعلانات من نوع «السيدة كذا تعرّضت لاعتداءٍ من أحمد كذا». كلها دون أية أهمية على الإطلاق.

❖ أي أنّ ما كان يثير اهتمامك في الجبهة لم يكن المواضيع التي أفرط في الحديث عنها في وسائل الإعلام، كالهجرة والأمن؛ ما هو الموضوع الذي جعلك تنتسب إليها؟

فريديريك: لكن لم يكن لديّ أية رغبة في الانتساب! إلى أية حركة! الأمر لا يهمني.

❖ أي أنّ الأمر كان فعلاً بالصدفة، من أجل الذهاب إلى تلك الجامعة الصيفية؟

فريديريك: لكن الأمر كان في حالة صعودٍ وهبوط حتى في الأوقات

التي كنت فيها أقرب ما أكون إلى الجبهة. كنت أقول لنفسي بأننا لن نتمكّن أبداً من عمل شيء إطلاقاً، كان الكيل قد فاض بي. هناك أمرٌ أعيبه دائماً على الجبهة: النضال أمرٌ حسن، إلاّ أننا لا نتلقى أي تأهيل. فمثلاً، في اتحاد 92، في منطقة أعالي نهر السين، وهو اتحاد يسير بصورةٍ حسنة، ليس هناك تأهيل. ولن يصمد أكثر من عامين أو ثلاثة لا أكثر حتى لو كان لدينا رئيس مجموعة كفؤ وأناس لديهم دوافع جيدة. فالناس يأتون، ينجذبون، ثم يذهبون بعد ذلك لأنه لا يتم تأهيلهم، حتى لو أعجبهم الأمر في البداية. فهم يرون الأشخاصَ نفسهم على الدوام، ويذهبون لوضع الملصقات معاً، وينتهي الأمر بسرعة.

❖ هل وضعت الكثير من الملصقات؟

فريديريك: لقد قمت بذلك أسبوعياً لمدة ستة أشهر، ولم تحصل أية مشاكل أبداً، لم نتعرض لأيّ اعتداء. لكن بالنسبة لأعضاء الجبهة، فإننا نحن أعضاء ج.و.ش لا ننفع إلاّ لذلك الأمر: الإلصاق. فما إن يحتاجوا لوضع ملصقاتٍ حتى يطلبوننا وإلا، فلا شيء.

❖ أي أنكم أيدي عاملة وحسب.

فريديريك: تماماً، بالضبط.

❖ كنت تقول بأنك عرفت حالات صعودٍ وهبوط خلال الفترة التي كنت فيها أقرب ما تكون للجبهة.

فريديريك: أنا أذهب مثلاً إلى اجتماع، ويأتي أحمقان أو ثلاثة ليتكلموا معي عن أمورٍ تافهة، ليقولوا لي حماقاتٍ، وهذا يثير أعصابي: أو أنني أحضّر لعملية لصقٍ، وأرى بأنني حين أطلبُ من أحد الأشخاص أن يحضر لي المادة اللاصقة، أو مجرد أن يعثر لي على شيءٍ منها {يتوتّر} فإنه لا يتمكن من أن يجدها، وأضطر أنا بسببه لأن أصرفَ الأشخاص الذين كنت قد استدعيتهم للّصق، إذ كيف يضع المرء ملصقاتٍ دون مادة لاصقة؟ لحسن الحظ، فإنه لا يوجد الكثير من أمثال هذا الشخص. فمن أصل عشرين عملية إلصاق باشرتُ بها، فشلت اثنتان.

❖ ما هي المسؤوليات التي كنتَ تمارسها في ج.و.ش؟

فريديريك: الاهتمام بوضع الملصقات.

❖ هل حصلتَ على ترقية؟

فريديريك: أصبحتُ مسؤولاً عن وضع الملصقات. أنا لا أعتبر تلك المهمة ترقيةً. لقد قالوا لي بأنني أجيد هذا الأمر، لكنه يمكن القول بأنّ تنظيم وضع الملصقات بمتناول أيٍّ كان. الأمر يتطلّب استدعاء حوالى عشرين شخصاً ليحصل المرء على عشرة أشخاص، والعثور على شاحنةٍ صغيرة، وهذا ليس صعباً.

❖ هل كانت لك صلاتٌ مع الأعضاء الآخرين لِ ج.و.ش؟

فريديريك: نعم، في مدينة ليل، وفي إيكس Aix بصورةٍ خاصة. لقد كان لنا جريدة اسمها القلعة Citadelle وسوف أعطيك بعضة نسخٍ منها. كنا نكتب بأنفسنا. لقد كتبتُ مقالةً صغيرة عن بناء المقر في نويي وشرحتُ ما هي المعدّات التي حصلنا عليها. لست مؤهلاً بعدُ لكتابة مواضيع عميقة. أنا أترك كل ما هو ثقافيّ لآخرين أفضل مني، رغم أنّ لديّ ما أقوله.

❖ ما الذي تقوله لتقنع شخصاً ما بالمجيء إلى الجبهة؟

فريديريك: الناس يطرحون عليّ الأسئلة حول الجبهة، وأنا أجيبهم بأفضل ما يمكنني، وهذا كل شيء.

❖ ما الذي تقوله بالضبط؟

فريديريك: إنهم يسألونني: ما الذي تفعلونه؟ ما الذي يجري؟

❖ هل هم أشخاصٌ موافقون مسبقاً، جاهزون للانتساب؟

فريديريك: نعم.

❖ ألم تقنع أشخاصاً معادين للجبهة؟

فريديريك: لم أقم أنا بمثل ذلك، لكن هناك شيوعيون سابقون، أشخاصٌ متقدمون في السن بصورةٍ خاصة.

❖ إلامَ يتحسس مثل أولئك الأشخاص أكثر؟

فريديريك: ليست لديّ أية فكرة.

❖ وأنتَ، ما الذي تحسستَ له أكثر؟ شخص لو بين؟

فريديريك: ليس شخصه فقط. الجبهة كلٌّ متكامل. (لو بين) خطيبٌ، وهو خطيبٌ جيّد، هذا صحيح. لكن ليس لديّ أنا عبادة الشخصية. حين وصلتُ إلى الجبهة، كنت مسروراً، ووضعتُ ملصقاً كبيراً لِ(لو بين) في غرفتي، ثم نزعته بعد يومين. ليس هناك العديد من الناس في الجبهة ممن أقدّرهم. غالبية الناس أصبحوا من الوصوليين وما أشبه. إنه جهازٌ، هناك بَلاطٌ حول (لو بين)، لكنهم وضيعون. لن يتوصلوا لشيءٍ أبداً. كما لو كنت أحلم بأن أصبح فيما بعدُ نائباً مروراً بالحركة فقط. الآن لم أعد أحاول كثيراً أن أضم الناس إلى الحركة. الناس تبهرهم عبارة «أقصى اليمين»، لكن ذلك لا يكفي. إنّ ما نريد أن نفعله لتغيير الأوضاع هو بعثُ الروح الرفاقية والتضامن، وهي أمورٌ لم تعد موجودة!

بالضرورة، فتلك كانت مرحلة المراهقة

ذلك أنني اليوم لم أعد أثق حقاً بالناس في ج.و.ش، فهم يأتون إلى هنا بسبب أزماتهم، لمدة شهر، ثم ينتهي الأمر. كذلك الأمر بالنسبة لِـ «المثقفين» في المجموعات، المنتمين إلى الدرب الثالث، كل ذلك لا يؤدي إلى شيء، أبطال مجموعة اتحاد القوة، أو ال Sidos ، أوليفييه ماتيو Olivier Matieu، أو باد سكين Bad Skin، الذي هو أحمق، مجنون، أبله. والدته قاضية، أما هو، فإنه من ال MNR، أو من الـ JNR ، حليقي الرؤوس في باري سان جيرمان Paris-Saint، Germain كلّ هؤلاء ليسوا ج.و.ش. إنهم مجموعات من الأصدقاء، سكيرون شديدو الغباء، مرتدو الأحذية الضخمة وحليقو الرؤوس.

❖ ألم يكن لك أبداً ذلك المظهر؟

فريديريك: هذا غير مسموح به عندنا. نحن نرتدي ملابس عملٍ

زرقاء، وبنطلونات جينز بالية لوضع الملصقات... أما مظاهر الفاشيين الصغار تلك فتعتبر مضحكة.

❖ ألم يتسبب ذلك في مشاكل مع أهلك؟

فريديريك: أهلي لم يكونوا يتقبلون ذلك، وكانوا يقلقون حين كنت أذهب ليلاً إلى الجبهة. بعد ذلك، لم أعد أقول لهم بأنني ذاهبٌ لوضع الملصقات.

❖ وحين رأتْ أمك صورة (لو بين) في غرفتك؟

فريديريك: لقد ظنّت بأنها أزمة مراهَقة صغيرة لن تدوم طويلاً. لكننا نادراً ما نتكلّم في السياسة، لأنهم على الأغلب لا يوافقون تماماً. لذلك، فقد حصلت بالضرورة مصادمات بيننا.

❖ هل حاولتَ أن تتحدث معهم حول الأمر؟

فريديريك: نعم، نعم، لقد حاولتُ إقناعهم. لقد كنت أدرى منهم بكثير بالأمور الراهنة، وكنت أتكلم بصورةٍ أفضل منهم. كنت أدغدغهم بالحجج. لكن الأمر كان يدوم خمس دقائق، فوالدي لم يكن يريد أن نتحدث عن الأمر في البيت. لم نكن نتفق أبداً، وكانوا يقولون لي: «أنت أحمق، وغد، أنت لا تعرف شيئاً». في البداية، كان طبيعياً أن أتحدث عن الأمر؛ كنت مسروراً، كان ذلك جديداً بالنسبة لي، لكنّ ردة فعلهم كانت على الفور: «اصمت، أنت لا تعرف عمَّ تتحدث.» لم يحاولوا أبداً أن يستمعوا لي. هذه المشكلة غير مطروحة مع أخي لأنني لا أراه إلا نادراً. السياسة لا تثير اهتمامه. لاحِظ أنني أفهمه، فالسياسة اليوم ليست مثيرة للاهتمام؛ هذا مؤسف. من المفروض أن تثير اهتمام كلّ الناس. لكنني أميل إلى الاشمئزاز، وإذا لم تتبدل الأمور... على كلّ حال، أنا لم أنتخب أبداً، أبداً. لم أنتخب حتى لصالح الجبهة. كانت أمي تقول لي: «أنت هنا لتضع ملصقاتٍ كي تجمع أصواتاً للجبهة، ولا تنتخب حتى!»

❖ في هذا تناقضٌ بالفعل، أليس كذلك؟

فريديريك: نعم، تماماً. حتى إنني لم أذهب لإحضار بطاقة انتسابي للجبهة. هناك اثنان آخران في الجبهة يتصرفان مثلما أفعل. لماذا؟ لا أستطيع أن أجيب. أنا لا أشعر بالرغبة في الانتخاب.

❖ هل يبدو لك النظام الانتخابي ناقصاً؟

فريديريك: لا، لا. بلى، نوعاً ما بالطبع. هذا الأمر يصدم أمي دائماً. أما أهلي، فهم ينتخبون. هم لا يصوّتون لِ (لو بان)، هذا مؤكّد، لكنهم لا يقولون لي لمن يصوّتون، لأنني في تلك الحالة سأسألهم لماذا، سواءً صوّتوا لميتيران Miterrand أم لشيراك Chirac، ولن أتركهم بسلام. على كلّ حال، سواءً صوّتوا لميتيران أم لشيراك فليس هناك فارقٌ تقريباً. وأنا أعتقد بأن (لو بان) أيضاً قد أصبح مثلهما. لقد استحوذت عليه الطبقة السياسية.

❖ هل أدى انتماؤك إلى ج.و.ش إلى مشاكل دراسية لديك؟

فريديريك: لم أتغيب يوماً عن المدرسة للذهاب إلى ج.و.ش. وإن كنت قد تغيبت يوماً ما، فلأسباب أخرى، لأنه لم يكن لديّ رغبة في حضور الدروس. إنّ أكثر الأمور تأثيراً على دراستي كان الحادث الذي تعرّضت له. كنت على درّاجة آلية في نويي وتزحلقتُ لأنني كنت قد أفرطتُ في الشراب. لقد أُصبتُ فيّ عيني، وأجريت لي عملية جراحية، كانت عيني مائلة واضطررتُ للخضوع لثلاث عمليات جراحية كي تعود عيني إلى وضعها الطبيعي.

[...]

لم أفكر سوى بعيني لمدة عامين. كان شكلي فظيعاً. بعد ذلك، فقدتُ عادة الذهاب إلى المدرسة. والآن أجد صعوبةً بالغة في العودة إلى الثانوية. إنني الآن في البكالوريا ب B وينبغي أن أبذل أقصى الجهود لأنجح في الحصول على الشهادة.

❖ هل غيّرتك الجبهة الوطنية؟

فريديريك: بالضرورة لأنني كنت في مرحلة المراهقة...

❖ أو شخصٌ ربما تعرّفت به..

فريديريك: أقرب أصدقائي ليسوا من الجبهة، بل إنهم نسبياً غير مسيّسين. لديّ صديقٌ خلاسيّ ذو ميولٍ فوضوية. في بعض الأحيان، في نهاية السهرة، نتشاجر قليلاً إذا كنا قد شربنا أكثر مما ينبغي، لكن الأمر لا يذهب أبعد من ذلك. بل إننا قد تعرّفنا ببعضنا بهذه الطريقة.

[...]

إن معرفة الناس بكوني في الجبهة لا يعجب البعض دائماً، لذلك فقد فقدتُ بعض الأصدقاء أحياناً. لكنني في الواقع لا أهتمّ للأمر. وكنتُ أتجاهل الأساتذة الذين يعلمون بأنني في الجبهة، وهم أيضاً كانوا يتجاهلونني. يبدو بأنني كنتُ أُكثر من الحديث عن الأمر في البداية، فقد كنت أفرط في الحماس، كان الأمر يعجبني كثيراً. لكنني عوّضتُ الأصدقاء الذين فقدتهم. أنا أعترف بأنني كنتُ أكثر من الحديث قليلاً عن الأمر. هذا طبيعي.

❖ هل كنتَ تتفوّه بعباراتٍ عنصرية؟

فريديريك: لقد قيل لي: «أنت في الجبهة، إذن أنت عنصري!». أنا أفهم الأمر قليلاً لأنّ هذه هي الصورة التي في أذهان الناس، إنه نقص المعلومات... يمكن للناس أن يصفوني بما يشاءون. ثم إن الناس لا يستطيعون التمييز بين العنصرية وبين ما نقوله حقاً. ينبغي علينا أن نكرر آلاف المرات، وهذا الأمر أصبح يوتّرني. إننا نضيع وقتنا، ونطيل الحديث.

ليس هناك تأهيل

❖ هل هناك نشاطٌ ثقافي في الجبهة الوطنية، هل تذهبون إلى المسرح أو إلى حفلاتٍ موسيقية، هل هناك نظامٌ لشراء بطاقاتٍ للمجموعات؟

فريديريك: لا، وهذا مؤسفٌ للغاية. هذا ما كنتُ أقوله: ليس هناك تأهيل. هذا هو الأمر بالضبط. ليس لدينا مكتبة. لدينا مكتبة صغيرة ضاعت كتبها.

❖ وما هي الكتب التي كانت فيها؟

فريديريك: دوديه Daudet.

❖ ليون أم ألفونس؟

فريديريك: لا أعلم. لا أعرف جيداً. لكنني عن طريق المكتبة عرفت دريو لا روشيل Drieu La Rochelle الذي أحبه كثيراً. أحبُّ كتبه: المرحوم فولليه، ومذكرات رجلٍ مخدوع، والوضع العائلي، والرجل المتطي حصاناً. ما أحبّه كثيراً هو الأسلوب المقطّع، الجمل الصغيرة المريرة التي يرميها بشكلٍ عشوائي، المقارنات المسلية. وهو يتحدث عن المواخير، وكان يقول بأنها تمثّل تحيّةً للعذراء. كانت كتاباته تعجبني كثيراً. لقد استعرت كتبه عدة مرات.

❖ لماذا يعجبك كثيراً؟

فريديريك: إنه يتحدّث عن تبجيل المرأة. في الأمر تناقضٌ يعجبني. وأنا مغرم بِ المرحوم فولليه. فهو يتحدّث ويصف شيئاً ما، وفجأةً يطلق ملاحظةً صغيرة مؤلمة. لقد قرأت أيضاً «كما يمرّ الزمن» لبرازيلاك Brasillach، لكنه لم يعجبني كثيراً. وقد سمعتُ عن كتّاب اليمين، النظريين منهم، لكنني لم أقرأهم.

❖ من الذي جعلك تكتشف دريو؟

فريديريك: إنه ريجيس، أحد أصدقائي، وهو مثقف. لقد حكى لي قليلاً عن شخصيته. أما في مجال الموسيقى، فأنا أستمع لفرقة سكاي روك Sky Rock كما أنني أحب أيضاً الموسيقى العسكرية والأناشيد، لكنني لا أحب أغاني الحركة الفاشية الإيطالية. أما الأناشيد الألمانية، فلديّ اسطوانة منها، لكنني أستمع أيضاً إلى الموسيقى الكلاسيكية. لكن الأناشيد التي عندي ليست أناشيد نازية، بل هي أغاني تقليدية ألمانية، الأمر مختلف. لكن أناشيد نازية أو أناشيد ألمانية، الأمر لا يختلف كثيراً، أنا لا أفهم الكلمات، لذلك... فإنني لا أرى الفارق بينها. الآن، سوف أضع بعض الملصقات للجبهة الوطنية لا أكثر. هناك عددٌ لا بأس به من الوجوه الجديدة، لذلك فإنني سوف أذهب لأتحدّث معهم من حين لآخر.

العلاقة بيني وبين أبي مُكَهرَبة.

❖ هل علاقتك مع والديك أفضل الآن؟

فريديريك: الأمور معقولة في هذه الفترة. وأنا أحاول أن أقوم بجهودٍ بين حينٍ وآخر، وهم أيضاً، لكن نادراً ما نقوم بتلك الجهود في الوقت نفسه. لكن الأمر يعود لفترةٍ طويلةٍ مع أبي. لقد كنتُ في الخامسة من عمري حين رحلتُ لأول مرة من المنزل. كنتُ قد هربتُ، وكنا حينذاك في المغرب. ومنذ عامين، طردني أهلي.

❖ لماذا؟

فريديريك: دون سببٍ محدد. ربما كنت أنا المخطئ، لأنني كنت أصرخ بمجرّد أن يضايقني أحدٌ ما قليلاً. كانوا يحمّلونني مسؤولية أية مشكلة في المنزل. بعد ذلك، وعلى مائدة الطعام، كانت تعابير وجهي تشي بانزعاجي، فيبدأ أبي بالصراخ. وكانت أمي تبدأ أيضاً بتأنيبي لأنني لم أكن آكل. وصلت الأمور حدّ الانفجار فرحلتُ. يكفي أن تنطلق شرارةٌ جديدة حتى يتكرر الأمر. وخاصّةً مع أبي. مع أمي، الأمور معقولة، أما مع أبي، فهي مكهربَة.

[...]

لكن كل ما أورده هو لأبيّن أنّ مشاكلي مع أبي ليست حديثةً وليس لها أية علاقة بالسياسة أو بالحادث الذي تعرّضتُ له. الأمر أقدم بكثير. أنا لم أتفق معه أبداً.

❖ لكن ألم يكن انتسابك لِ ج. و. ش موجهاً ضدّه بشكلٍ ما، كي تخيفه؟

فريديريك: أنا حقيقةً لا أعلم. على كل حال، فإن الأمر لم يعجبه بالتأكيد. أهلي برجوازيون صغار يميلون للخوف نوعاً ما، لذلك فقد كان من الطبيعي أن يتوقّعوا كل شيء بانتسابي إلى الجبهة الوطنية. لقد ظنّا بأنني

قد أصبحتُ وغداً حقيقياً وقتها، حين كنت أعود من مهمة وضع الملصقات في وقتٍ متأخر جداً.

❖ هل كانت معرفتك بأنّهم يعتقدون ذلك تسرّك؟

فريديريك: لا، لأنّ ذلك لم يكن صحيحاً، ولم أكن أريدهم أن يظنّوا بي ذلك أبداً. لكنهم لم يريدوا أن يفهموا، وكانوا يريدون أن أذهب إلى طبيبٍ نفسي، وألحّوا على هذا الأمر. لكنني لم أفعل. كنتُ سأفعل حقاً لو أنني ... لكنه لا يبدو لي بأنني بحاجةٍ إلى أن يساعدني أحد. أبي لا يعاملني على أنني مجنون أو شخص من ذوي المشاكل، لا، إنه ببساطة يعاملني على أنني أحمق صغير لأنني أثير أعصابه. إنه لا يظن بأنني أحمق أو أي شيءٍ من هذا القبيل. وأنا أجيبه بالمثل.

❖ هل تقول له: أيها الأحمق الصغير؟

فريديريك: نعم.

❖ وما الذي يحصل عندئذ؟

فريديريك: تطير حقيبتي من النافذة وأذهب هكذا، دون مال، دون أيّ شيء. كان ذلك يدوم ثلاثة أيام أعود بعدها بهدوء لآخذ دفتر توفير، ثم أذهب إلى أحد أصدقائي.

❖ يبدو الأمر مسلياً بالنسبة لك وأنت تتحدث عنه بخفّة...

فريديريك: لأنني قد اعتدت عليه، والأمر غير خطير.

❖ ألا تعتقد بأن هناك علاقة واضحة بين مشاكلك مع أهلك وبين انتمائك إلى ج.و.ش؟

فريديريك: بلى، ربما، لكن لا أكثر. وبالعودة إلى أهلي، فهم لم يكونوا يعطونني مالاً. فقمت بعملٍ بفضل ج.و.ش للحصول على المال، وهو الحفاظ على النظام خلال عيد برج إيفل؛ وقد دفعوا لي 900 فرنكاً من أجل عمل أمسيتين فقط.

❖ ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟

فريديريك: أتمنى أن أحصل على البكالوريا من أول مرة، ثم الذهاب إلى مدرسة للهندسة. سأجد دون صعوبة مدرسة لهندسة الطيران.

❖ هل لديك مشاكل دراسية هذا العام؟

فريديريك: لا زلت أتغيب عن الكثير من الدروس.

{أُعلن لفريديريك بأننا سنتوقف هنا على الأرجح، فيقترح عليّ أن أجد شخصاً أهم منه في ج.و.ش كي أسأله. وأسأله إن كان يعرف شخصاً شديد الفعالية، شديد الانتماء.}

ربما نكون على طريق بلبلةٍ كبيرة

فريديريك: أعرف شخصاً شديد التعلّق بالحركة لكنه أبله تماماً، ولن ينجز في حياته شيئاً أبداً. لذلك، ربما لا يفيدك في شيء أن تراه. أما الآخرون، فهم جميعاً ينفصلون مثلي. إنّ اتحادنا ينهار ولا أحد يفعل شيئاً، لا أحد يحرّك ساكناً؛ وهذا يبعث على الغثيان نوعاً ما. لقد حصلنا على مقر، لكننا لم نفعل شيئاً داخله. انتظرنا ذلك المقر عاماً ونصف العام وكنا نقول بأنّ حصولنا عليه سيكون أمراً رائعاً، وحين حصلنا عليه، لم نفعل به شيئاً. لقد استحدثنا فيه مشرباً كنا نبيع فيه علبة المشروبات الغازية أو البيرة بخمسة فرنكات، فكانوا يأتون ويسترخون على المقاعد الوثيرة دون أن يفعلوا شيئاً.

❖ لماذا هذه الرخاوة بعد أن كنتم تبدون في البداية مصممين؟

فريديريك: من بين ثلاثين شخصاً في الاتحاد، لم يكن هناك سوى عشرة لديهم بطاقات صالحة. لكننا في الواقع لا نرى أبداً المنتسبين الحقيقيين الذين لديهم بطاقة انتساب. إنهم لا يأتون أبداً. نحاول الاتصال بهم، لكن هذا شيءٌ آخر يبعث على الغثيان! فقلنا لأنفسنا بأنه ينبغي أن يكون لدينا مقر نستطيع من خلاله أن نتصل بالأعضاء وأن ننظّم ونبني: طلبنا من عضوين الاتصال بالآخرين، فاتصلوا بثلاثة أشخاص وانتهى الأمر هنا. لم يفعلوا شيئاً بعد ذلك. لقد أصبحوا جميعاً رخوين! ربما نتجه نحو

بلبلة كبيرة. قصة العراق هذه سوف توصلنا إلى النهاية، أنا متأكد من ذلك. إذن، إنّ ما قاله (لوبين) وما فعله بهذا الصدد عسيرٌ على الفهم، لكنه يصبح مفهوماً إذا عرفنا بأنّه قام بذلك لتجنّب الكارثة التي تنتظرنا، هذا ما أظنّه على كلّ حال.

❖ أية بلبلةٍ كبيرة؟

فريديريك: إذا أُعلنت الحرب فإن ذلك سوف يؤدي إلى باقةٍ من الفوضى، ولا نعلم كيف ستُحاك الأمور، وسوف تسود الفوضى في إسرائيل أيضاً، وسوف تحصل انتفاضاتٌ في كلّ مكانٍ، على اليمين، وعلى اليسار، وحتى في فرنسا.

❖ من الذي سوف ينتفض؟

فريديريك: الجاليات المهاجرة، هذا يبدو لي محتمل الحدوث. من غير الممكن حساب مدى انتفاضهم، إلاّ أنّ هناك براهين على هذا الأمر. فمنذ عامين ونصف، تم اكتشاف رشاشاتٍ ومدافع بازوكا ومتفجرات أثناء مداهمة مقهى عربي في نويي. إن كان ذلك ما وجدوه منذ عامين ونصف، فإنهم اليوم أقوى بعشر مرات. وقد وجدوا أيضاً مخططاً لشيءٍ ما. إنهم منظّمون بصورةٍ جيدة جداً. لدينا بعض المخبرين وهم أناس من الجبهة الوطنية يعيشون في التجمعات السكنية. هم بالطبع لا يقولون بأنهم من الجبهة الوطنية، وإلاّ فإنهم سيعاملون بعنف. وإذا أمسكوا يوماً ما بأحد المخبرين، فإنّ الأمور تتفاقم حينذاك. فنعود في اليوم التالي لتسويد الملصقات. نذهب جميعاً. وإذا هوجم أحدٌ من الجبهة، فإننا نردّ، بالتأكيد. إلاّ أنّ الناس لا يتجرأون كثيراً على الهجوم علينا، لأنّ هناك أسطورة أقصى اليمين وما شابه. هذه الأسطورة تخمد كل الناس. الأمر مشابهٌ بالنسبة لي، فإنّه لن يخطر ببالي أن أهاجم مظاهرةً للاتحاد العام للعمال CGT لأنّ لديهم تنظيمٌ لحفظ النظام! أما نحن، فإنّ أسطورة الشريرين وحليقي الرؤوس، ومتعاطي البيرة، والشفرات.. تلعب لصالحنا.

❖ لصالحكم وضدّكم؟

فريديريك: نعم. تلعب لصالحنا في أنها تجنّبنا أن يكون بيننا جرحى. وتلعب ضدنا لأنها تقدّم صورةً سيئة عنا. من البديهي أنّ كل تلك الجاليات التي تسكن في الجيتوات هي جالياتٌ محكومٌ عليها، ولن يكون هناك اندماجٌ ممكن طالما أنّ هناك غيتوات. أنا أعرف اثنين من السود الجيدي الفهم، أحدهما اسمه مامادو، والآخر ستيفان، وهو من الجبهة، بل إنه أصبح سكرتيراً لتنظيم المنطقة. هناك منهم أكثر بكثير مما يمكن للمرء أن يظنّ. ليس فهم الأمر بديهياً. هناك سيدة اسمها ميدفيتا، وهي سوداء، وهي أيضاً نشيطةٌ جداً في الجبهة. هؤلاء يدركون جيداً بأنّه ينبغي عكس الاندماج. صحيحٌ أنّه ينبغي وضعهم خارجاً، لكن ليس كيفما اتفق، بل لإلغاء كافة الغيتوات. الهجرة تدرّ علينا أكثر من مليار فرنك، لقد قرأت الأرقام، وهي تكلّف أربعة مليارات فرنك على شكل نفقات الضمان الاجتماعي. هناك مهاجرون غير نظاميين كلّ يوم. بالنسبة للمغاربيين الشبان الذين وُلدوا في فرنسا، فإنه ينبغي أن نولّد لديهم الرغبة في العودة إلى بلادهم، فثقافتهم فرنسية وهم يشكّلون مشكلة. كما أنه ينبغي إعادة صياغة قانون الجنسية، فالحصول عليها أسهل مما يجب، حتى أنه لا يتوجب معرفة اللغة. كما أن اللجوء السياسي يمنح بكثرة، بحجة أنّ سلامة الشخص الذي منح له هذا اللجوء مهددة بالخطر. من المؤكّد أن هذه المشكلة هي الأكثر صعوبةً وأهميةً. كما يمكنني أيضاً أن أتحدث عن المواضيع الوهمية أو الأمن، الخ. المشكلة هي أن الجبهة الوطنية حزبٌ غير مؤهّل للحصول على السلطة، برأيي أنهم لن يحصلوا على السلطة، وهذا هو السبب الذي يجعلني أمتنع عن التصويت. لكن حتى إن كنت أشعر بأنّ هذا الحزب لن يحصل على السلطة، إلاّ أنه يعجبني لأنه يتطرّق لهذه المواضيع: وأنا أعتبر بأنه عليّ أن أدافع عنها.

[...]

بالنسبة للسيدا (الإيدز) فسوف يكون لدينا قنابل بشرية ستنشره في كلّ مكان... ينبغي تجميع المصابين بالسيدا لفترةٍ معينة وتوعيتهم بالخطر

الذي يمثلونه. ينبغي ألاّ يقتل المرء الآخرين بهذا المرض إذا أصيب به... على كلّ حال، سوف يكون هناك فراغٌ في هرم الأعمار.. ربما كان هذا الموضوع وهمياً إلاّ أنه ينبغي تكراره باستمرار. الأمر مماثل بالنسبة للمخدرات، إنها مسألة صرامةٍ تجاه هذه المشاكل، والأمر مماثل في مجال الأمن، لكنني لا أظنّ بأنّ (لوبين) الذي لن يحوز أبداً على السلطة قادرٌ على التوصّل لأي شيءٍ على الإطلاق.

❖ هل النزعة العسكرية في الجبهة الوطنية هي ما شدّك إليها؟

فريديريك: لا، لا. لكنني أحبّ كثيراً الأزياء العسكرية، ولديّ متحفٌ عسكريّ، إلا أنني لا أحبّ الجيش. وأنا لا أنوي أن أقوم بالخدمة العسكرية. ربما كان في ذلك كلّه الكثير من التناقض. الجانب العسكري لديّ خاص. لديّ متحفٌ عسكريّ منذ أربع سنوات: فقد بدأت بشراء خوذةٍ ألمانية، ثم خوذاتٍ لجنود من الحرب العالمية الأولى، لديّ عدد منها، كما أنه لديّ عددٌ لا بأس به من القبعات العسكرية. بل إنني قد تمكنت من الحصول على بذلةٍ عسكرية كاملة لعقيدٍ في الدرك. ولديّ أيضاً حربة. لكن قد أُمنع من اقتناء الأسلحة.

❖ ألا يمكن أن يكون هناك تقاربٌ بين ميلك لما يتعلق بالأمور العسكرية والزي العسكري وبين الجاذبية التي مارستها عليك الجبهة الوطنية؟ يبدو انتماؤك لها نوعاً من الولع، بل لنقل نوعاً من الغريزة المخففة.

فريديريك: نعم، أنا لستُ دوماً على وفاقٍ مع الجبهة، وأحبّ أن أعارض. بل إنني أحياناً أعارض شخصاً من الجبهة لمجرد المتعة. وهذا يحصل أيضاً لأنهم في كثيرٍ من الأحيان بلهاء. وهذا الأمر لن يتغير، وهذا يؤدي في النهاية إلى أن يشعر المرء بالقرف. لكن حين أحاول أن أتحدث عن الأمر، فلا أحد يدرك بأنه ينبغي التحرك.

ينبغي أن أحصل على البكالوريا، وسنرى بعد ذلك

❖ ألا تتعرضون أبداً لمشاكل أثناء وضعكم للملصقات؟

فريديريك: لا، فنحن في كثيرٍ من الأحيان نضع الملصقات يوم الجمعة، في الرابعة صباحاً، حين يكون الناس نياماً، بل إنه يمكننا الذهاب إلى المناطق العمالية. حتى أنّه في إحدى المرات توقّف أحد الأشخاص وقدّم لنا خمسمائة فرنك وهو يهنئنا. لقد وضعنا المبلغ في صندوق الجبهة الوطنية. عدا ذلك، فإنّه يتم سؤالنا أحياناً عن بُعد، ويصرخون من مسافةٍ بعيدة لينعتونا بالمثليين جنسياً، ثم تقلع السيارة التي يستقلونها على الفور، ويتركوننا ننهي وضع الملصقات بأمان. لكن وضع الملصقات ليس كلّ شيءٍ في الحياة. ينبغي أن أحصل على البكالوريا، وسنرى بعد ذلك.

1991

جان بيير فاغر

زوجة ومشاركة

تعمل هيلين د. مونتيرة أفلام لصالح التلفزيون والسينما (لقد حالفها الحظ بأن عملت مع مخرجين مهمين من الموجة الجديدة حين كانت مبتدئة) وكثيراً ما مارست مهنتها مع زوجها الذي يعمل كمخرج سينمائي، وقد أدى رحيله بعد أكثر من عشرين عاماً من الحياة المشتركة إلى زرع الاضطراب في حياتها العاطفية وحياتها المهنية في آنٍ معاً.

تبلغ هيلين حوالي الخمسين من عمرها، وهي تعيش في شقة تقع ضمن عمارةٍ تحيط بها حديقة كبيرة في الضاحية الباريسية الغربية، وقد أصبحت هذه الشقة كبيرةً عليها بعد أن أصبحت تعيش فيها بمفردها مع أصغر بناتها، كما لم يتغير فيها شيء منذ أن رحل زوجها (وهو يأتي، كما تقول، بين حينٍ وآخر، بعد أن يتصل بالهاتف ليتأكد من أنه لن يصادفها، وذلك ليأخذ أسطواناتٍ وكتباً من مكتبة الصالون، كما لو أنّ غيابه ليس إلاّ مؤقتاً). وقد وضّحت خلال اللقاء الذي جرى بعد أكثر من عامٍ ونصف على انفصالهما بأنها لم تبدأ أية إجراءاتٍ للطلاق حتى ذلك الحين.

لقد تمكنتُ من مقابلة هيلين د. بواسطة إحدى زميلاتها من معهد الدراسات السينمائية العليا الذي انتسبت إليه في نهاية الخمسينات، في وقتٍ كانت النساء تشكل أقلية في المهن السينمائية المؤهلة. وعلى الرغم من أنه قد تم قبول النساء في دفعتها بأعداد تتجاوز أعداد الرجال، فقد كنّ

يعلمن بأنّ حظوظهن في الترقية لن تكون مماثلة لحظوظهم. في تلك الفترة التي اتسع فيها انتشار التلفزيون، كان الطلب على «تقنيي السينما» كبيراً، ووجدت معظم النساء اللواتي تخرّجن من معهد السينما أنفسهنّ يعملن في وظائف تقنية أكثر أماناً، لكن رواتبها أدنى من رواتب وظائف الإخراج التي احتلها معظم زملائهن من الرجال. فعلى سبيل المثال، إنّه لأمرٌ ذو دلالة أن تكون صديقة هيلين تلك هي المرأة الوحيدة من دفعتها التي نجحت في أن تصبح مخرجة بعد أن كانت مونتيرةً هي أيضاً خلال المرحلة الأولى من حياتها المهنية، علماً بأنّ وظيفتها كمخرجة لا تزال هشة. وطيلة المحادثة، ستبقى تلك الصديقة بالنسبة لهيلين «المرجع» الإيجابي والسلبي في آنٍ معاً، ويرتسم عبرها حقل الممكن بالنسبة لجيلها.

لم يكن هناك شيء يحضّرها لاختيار مهنةٍ تقدّمها كنتاجٍ «لمصادفات» إعادة التوجه الدراسي. وقررت في التاسعة عشرة من عمرها، وكانت حينذاك في السنة الأولى من المعهد الكاثوليكي، أن تتخلى عن دراسة الآداب التي لم تكن تشدها كثيراً للتحضير لدخول معهد الدراسات السينمائية العليا بعد أن سمعت عنه بالمصادفة. في البداية، شجع أهلها ذلك التغير في توجهها حيث لم يريا فيه أساساً سوى جانب مسابقة المدارس العليا، والصفوف التحضيرية في ثانوية، بعيداً عن متطلبات الحياة الطلابية الجامعية، والدبلوم المعترف به، الخ.، ومسحوا الجانب الفني.

هيلين هي الابنة الوحيدة لعائلةٍ برجوازية صغيرة كاثوليكية، وكان والدها مهندساً، أما والدتها فلم تعمل أبداً. وقد درست هيلين في ثانويةٍ للبنات في مدينة صغيرة من الضاحية الباريسية كانت لاتزال ريفيةً جداً في الخمسينات. وقد عاشت هيلين في بيت والديها حتى الخامسة والعشرين من عمرها، حين اشترى لها أهلها استوديو في باريس، بعد أن انتابتهم الخشية من كونها لم تُظهر حتى ذلك الحين أية رغبة في الزواج. تزوجت في الثلاثين من عمرها، وكان ذلك الزواج متأخراً نسبياً في ذلك الحين، ويفسر ذلك التأخر كون دراساتها السينمائية التي بدأتها «بالمصادفة نوعاً ما» ودون

أن يكون لديها «رغبةٌ جارفة في ممارسة تلك المهنة» قد قذفتها نوعاً ما إلى داخل محيطٍ لم تكن تعرفه جيداً، حالات الزواج فيه غير مستقرة، مما جعل التواصل مع الرجال صعباً في البداية، وذلك حتى على صعيد العمل.

وهكذا، تفسر هيلين بشكلٍ مطوّل في الجزء الأول من المقابلة كيف أن الإخلاص، وبالأحرى التفاني الذي برهنت عليه في حياتها الزوجية (إن ما دعم ارتباطها بزوجها لم يكن زواجها بالرجل وحسب بل أيضاً اقترانها «بمشروع الرجل»، في حين أنها لم تكن تشعر شخصياً بالرغبة في الإبداع بنفسها) ليس سوى الوجه الآخر لما يمكن أن نطلق عليه السلوك «المضحّي» الذي كانت تسلكه مع الرجال في محيط عملها: فما بدا وكأنه تغيير ثانوي في التوجه الدراسي، والذي كان في واقع الأمر تغيراً في المحيط الاجتماعي (إذ أنّ المعهد هو وسطٌ ثقافي) قد قادها إلى الالتقاء برجالٍ مختلفين عن الرجال في محيطها، «كائنات عليا» قادرة على الخلق، تدين لهم بتأهيلها السياسي والثقافي، في تلك الفترة المميزة لحرب الجزائر («في البيت، لم نكن نتحدث في السياسة إطلاقاً»)، وذلك على الرغم من أنها تعترف، بعد أن بلغت الخمسين من عمرها، بأنّها قد «فقدت كثيراً من أوهامها منذئذ». وشيئاً فشيئاً، فإنّ ما سلبه إياها اختيارها للمهنة، وقبل كل شيء الثقة بالذات في علاقاتها مع الرجال، قد أعادته لها المهنة كلما انخرطت بصورةٍ أفضل في محيطها المهني. وبعد تدريبٍ طويل هدف إلى إحداث إصلاحاتٍ غير ملموسة في علاقاتها مع الرجال، أتاح لها الزواج في النهاية أن تحقق بصورةٍ شبه سحرية رغبتها في إنجازٍ مهني وشخصي في آنٍ معاً مع شخصٍ أصغر منها بشكلٍ ملموس. «عوضاً عن أن أصبح معجبةً بهؤلاء الشبان وأن أجعل منهم أمثلةً، فقد تمكنت أخيراً من أن أقيم صلاتٍ مع من يصغرونني سناً، أي مع شبانٍ كان يمكن أن أمثّل بالنسبة لهم شيئاً مهنياً موجوداً. لم أعد بالنسبة لهم فتاةً ساذجة بل كنت شخصاً يعرف مهنته جيداً يمكن لهم أن يقيموا معه علاقةً مهنية قيّمة، أي أنه يمكن لعلاقتهم به أن تتطور.»

يشرح الجزء الثاني من اللقاء تبدل نظرتها إلى الرجل الذي عملت

وعاشت معه لأكثر من عشرين عاماً. إنّ ما شدّها قبل كل شيء إلى ذلك المخرج المبتدئ الذي لم يكن يبلغ حينها سوى اثنين وعشرين عاماً، والذي كان منذئذ يتمتع بسمعة طيبة في المهنة، ما شدّها هو بالتحديد «سلوكه كمبدع» الذي كان يمكن له أن يضفي معنى أكثر إرضاءً وشيئاً من الملاءة لحياتها كتقنية، الخالية من «الطموح النوعي». ويبدو بأن تعاونها مع زوجها كان دون أي خلل لفترة تجاوزت خمسة عشر عاماً: فقد كانت في ذات الوقت تقنيةً ونجيّةً له، ولم تقم بمونتاج أفلامه الأولى وحسب، مما لم يكن يمثل إلا جزءاً صغيراً من نشاطها، لكنها قامت كذلك بالدور الذي ربما يكون أكثر حسماً، وهو التشجيع والمؤازرة المعنوية اللذين يريد «المبدع» تلقيهما من شريكته دون أن يتجرأ أبداً على طلبهما بصراحة. لكنها، مع مرور الزمن، أصبحت أقل «إعجاباً» بزوج لم تقدّم مسيرته المهنية ما كانا كلاهما يأملان منها. وشيئاً فشيئاً، ابتعدت عن مشاريع زوجها، مع استمرار اهتمامها بأفلامه، وأخذت تلومه على «الانقياد للسهولة»؛ ودون أن يشعر أحدٌ بذلك، افترق أصدقاؤهما الذين كانوا مشتركين في البداية؛ واضطرت هيلين إلى أن تستعيد زمام مسار مهنتها التي أصبحت أكثر صعوبة، ليس بسبب ازدياد المنافسة وحسب، بل لأنها أهملتها قليلاً خلال السنوات التي اضطرت لتكريسها بشكلٍ أساسي لتربية ابنتيهما. من جهةٍ أخرى، فإنّ معرفتها «التقنية» بأوساط السينما قد قدّمت لزوجها إضاءةً سلبيّة لا تحتمل على مسيرةٍ مهنية لم يكن بإمكانها إلاّ أن ترى حدودها. وككثيرٍ من المخرجين من جيله، عرف مرحلةً صعبة في حوالي الأربعين من عمره، ودفع غالياً ثمن رفضه «للتسويات» مع السينما التجارية، حيث عرف فتراتٍ طويلة من التشتت في حياته المهنية قام خلالها بمشاريع قليلة الأهمية، بل إنه عرف البطالة أيضاً، ولم يعد لديه القدرة ذاتها التي كانت لديه في البدايات على احتمال ضرورة أن يثبت ذاته في كلّ مرة (كان يقول: «لقد سئمت من تقديم البكالوريا في كل مرة أخرج فيها فيلماً»). وعلى الرغم من أنها لا تشاطر أهلها وجهة نظرهم حين يقولون بأن الأمر كان سيكون أفضل لو أنها تزوجت «موظفاً» ولو أنها اختارت «حياةً عاديةً أكثر لكن أكثر رسوخاً»، فإنها أخذت تفكر مثلهم نوعاً ما: «حين يجري المرء التقييم

النهائي بعد خمسة وعشرين عاماً، فإنه لا يكون إيجابياً بالضرورة»، وذلك بعد أن انفصلت عن رجلٍ أصبح مختلفاً منذ كفّ عن العيش معها («لقد تغير (...)، وليس لديه كثير من العلاقات مع ابنتيه ولا مع أصدقائه القدامى»).

في البداية، استطاع حبهما المشترك للسينما أن يسهّل التواطؤ العاطفي والتعاون المهني بين هذين الطالبين القديمين، بفاصل بضعة سنوات عن جان لوي بوري Jean-Louis Bory وهنري آجيل Henri Agel. وهكذا، كانت هيلين تتمتع بنظر زوجها بخبرةٍ مهنية متينة أصلاً، تأكدت بفضل مشاركتها في مونتاج أفلامٍ تعتبر اليوم من أهم أفلام الستينات. لكن، إذا كانت السينما قد استطاعت أن توحد بينهما في البداية على الرغم من الفوارق في أصولهما الاجتماعية (فوالده كادرٌ تجاري) والفارق في العمر بينهما (حيث يصغرها بست سنوات)، فإنّ المصالح المتناقضة للمسار المهنيّ الخاصّ بكلٍ منهما يمكن أن تبدو مع الزمن كأحد العوامل الأساسية في انفصالهما.

وبالفعل، فإنّ منطق العمل يظهر في مركز نظرتها إلى ماضي حياتها؛ إذ أنَّ اختيارها للمهنة هو الذي أخّر كما يبدو زواجها ومشاريعها في الأمومة (حتى لو لم يكن ذلك سوى بتحويل أنظارها عن الرجال الذين كانت تربيتها ترشحهم لها بتأثير وسطها العائلي)، كما أنه ربطها بزوجها بصورةٍ مضاعفة كزوجة ومشارِكة، حيث أدى عملها كتقنيةٍ إلى تعزيز المظهر المتواري والخجول للزوجة الفعالة التي تدبرت أمورها على الدوام بحيث استطاعت الجمع بين القيام بمهنتها وبين إدارتها لشؤون البيت، وذلك رغم أوقات العمل التي لا تتوافق مع حياةٍ عائلية منتظمة. ونرى هنا كل ما يشكّل الفارق مع الآخرين كالأزواج المعلمين مثلاً، حيث تجعل مصاعب المهنة من إجراء توزيعٍ أكثر عدلاً للالتزامات المنزلية بين الزوجين موضوعاً أكثر سهولة، ولو لم يكن ذلك سوى بفعل إمكانية القيام بجزءٍ من الأعباء المهنية في البيت. ومن وجهة النظر هذه، فإن مسار هيلين المهني يتقارب بالأحرى مع أولئك النساء المهندسات أو الأطر في القطاع الخاص اللواتي كثيراً ما يكنّ عازبات، واللواتي انطلقن بعد جيلٍ كامل لاقتحام أوساط مهنية يهيمن عليها الرجال.

عبر ذلك المسار النموذجي للنزاعات المهنية والعاطفية التي تصادفها النساء ممن لم يعرفن الحركة النسوية إلاّ بعد أن أصبحن راشدات، فإننا نرى كم تفصل الظروف التاريخية التي تحدد تجربة جيلٍ ما الأشخاصَ الذين تتفاوت أعمارهم على الرغم من كافة أشكال التضامن العائلي، لا بل الطبقي أو الجنسي.

ولدت هيلين قبل الحرب بقليل، وهي تنتمي إلى جيلٍ مخضرم بين الجيل الذي سبق التوسع التعليمي وجيل 68 (كان لديها حوالي عشر سنوات من الخبرة المهنية في عام 1968). وهي تنتمي إلى أولئك النساء اللواتي خضعن في حياتهن الخاصة إلى التأثيرات الملتبسة للتدريب على «الاستقلالية» التي يمكن أن يوفرها الانخراط في مهنةٍ تتطلب تأهيلاً. وبالنسبة للنساء اللواتي بنفس عمرها والمنتميات لوسطها الاجتماعي، وهو وسطٌ يتميّز بتأثير القيم العائلية الكاثوليكية، حيث من البديهي مثلاً أن تبقى النساء في البيت، فإنّ «كسب العيش» لم يكن يقدّم ضمانةً «لمفاوضةٍ» أكثر مساواةً مع الرجال، بل على العكس تماماً. لقد اضطر ذلك الجيل، رغم أنه لم يسبق الحركة النسوية إلاّ بسنواتٍ معدودة، إلى مجابهة النزاعات ذاتها، لكن من وجهة نظر ما تدعوه هيلين بـ «التربية الكلاسيكية»، وهو جانبٌ «ساذج» وتصورٌ تقليديٌ للزواج ينبغي فيه على أحد الطرفين، ولا يمكن أن يكون سوى الزوجة، أن يعرف كيف «يظلّ متواضعاً بصورةٍ كافية» لكي يكون التعاون الزوجي متناغماً.

والمفارقة أن الاستقلال المهني الذي استطاعت هيلين أن تكتسبه بدراستها قد انقلب عليها بطريقةٍ ما، وسمح مثلاً لزوجها بأن يتركها دون أن يشعر بالذنب، وحتى دون أن يشعر بأنه مجبر على تقديم عونٍ ماليّ لابنتيهما اللتين لا تزالان تدرسان. ولا يبقى لديها سوى الشعور بالرضى، رغم كونه ممزوجاً بالمرارة، لأنها فهمت أخيراً ما حدث لها، وهو رضى يمكن أن يساعد على تغيير مصيرٍ لا يُحتمل ظاهرياً إلى حريةٍ جديدة، غير متوقعة.

مع مونتيرة أفلام

أجرى اللقاء جان بيير فاغر

«لقد أخطأت تماماً حين تخيلت أنني

اقترن بمشروع رجل»

هيلين: (...) لم تكن لديّ رغبةٌ جارفة بأن أقوم بهذه المهنة. كنت قد أنهيت السنة الجامعية الأولى وفجأةً غيرت اتجاهي تماماً خلال ذلك العام، وذلك بسبب نزوة، وأنا في النهاية مسرورة جداً لذلك. الأمر هو نوعاً ما عبارةٌ عن سلسلةٍ من المصادفات. لقد حدّثني أحدهم عن معهد الدراسات السينمائية العليا IDHEC وعن تلك المهنة، وقد أُخذت بالأمر وقلت لنفسي: «لمَ لا» دون أن أعرف حقاً ماهيتها ودون أن أعرف السينما حقاً (...). لقد حضّرت لفولتير(*). تم قبول العديد من الفتيات في دفعتي لأنه كان معروفاً بأن التلفزيون سوف يقدم فرص عمل في تلك السنوات، التي شهدت الإقلاع الكبير للهيئة الفرنسية للإذاعة والتلفزيون ORTF. كان من المعروف بأن التلفزيون سوف يستخدم الخريجين بصورةٍ منهجية. وبالفعل، كان ذلك صحيحاً: فنصف جيلي، بل أكثر من النصف ربما، قد عملوا لصالح التلفزيون، رغم أنهم لم يعملوا جميعاً بموجب عقود عمل (...). من بين عشرين شخصاً تم توظيفهم، كنا اثنتي عشرة فتاة (...)، إلاّ أنه لم يكن

(*) هي ثانوية تدعى باسم فولتير وتحضّر الطلاب لامتحانات القبول.

هناك وظائف في الإخراج للفتيات، لم يكن هناك لهن سوى وظائف تقنية (...)؛ من بيننا نحن الاثنتي عشرة، كان هناك اثنتان أو ثلاثاً يرغبن في الإخراج، وقلن لأنفسهن بأنهن سوف يبدأن بالمونتاج وسيقمن بالإخراج فيما بعد، ولم تتمكن سوى واحدة منهن من ممارسة الإخراج فيما بعد. لم تفتح الوظائف أمام الفتيات إلاّ في عام 68. على كل حال، فإننا لم نكن نتخيل أنفسنا إلاّ كتقنيات وكنا نعرف بأننا سوف ندخل إلى التلفزيون. لقد تم اختيارنا لأجل ذلك على نحوٍ ما (...). وللدخول إلى المهنة في تلك الفترة، كان هناك نوعٌ من الرفض لمن أتموا ذلك التأهيل، فكان يقال «لقد تخرجوا من معهد الدراسات السينمائية العليا، إنهم مدّعون، مثقفون، سوف يضايقوننا» (...). إلاّ أننا كنا محظوظين، كما هي حالتي أنا، فقد تدربنا في أفلام هامة (...).

❖ ماذا كانت أحلامك حين كنت في الثانوية؟

هيلين: أنا كنت في ثانوية للبنات في مدينة صغيرة، لنقل أنها كانت في ضاحيةٍ بعيدة، وكنت أفكر في أن أصبح مساعدةً اجتماعية، أي أن ما كنت أطمح إليه كان مختلفاً تماماً عما صرت إليه (...). من بين الفتيات اللواتي كنّ معي في المعهد، كان هناك البعض ممن كانت لديهن مواهب أهم بكثيرٍ مني، أكثر رسوخاً بكثير، أكثر وضوحاً بكثير (...). أما أنا فكنت جاهلةً تماماً. إن رجالاً مثل هنري آجِل وجان لوي بوري هم الذين فتحوا لي ذهني وعلموني أن أعرف السينما وأن أحبها. صحيحٌ بأن صفاً مثل فولتير وعامين دراسيين سمحت لنا بأن يتكون لدينا ثقافة سينمائية نوعاً ما، إلاّ أنّها قدمت لنا بصورةٍ خاصة فيروس السينما (...). حين تخرجت من المعهد، حصلت مرتين أو ثلاث مرات على عروض للعمل في التلفزيون كمونتيرة بعقدٍ سنوي، وقد رفضت مرتين، على الرغم من أنه قد تم اختيارنا في الواقع بأعدادٍ كبيرة بهذا الهدف؛ لكنني رفضت لأنه تصادف أن المهنة كانت تسير في القسم الأول من الستينات بصورةٍ حسنة، ولم نكن كثيرات نسبياً، وقد عملنا كثيراً، وكان العمل يجر العمل، وقد انخرطنا في السينما

على عكس ما كان يراد لنا، ورافقنا حركة الموجة الجديدة، ولم يكن لدينا الرغبة في العمل لصالح التلفزيون.

كان الرجل يمثّل كائناً متفوقاً،
وقد غيّرت رأيي قليلاً منذ ذلك الحين

❖ ما هو الفارق بين الصف التحضيري والمعهد السينمائي IDHEC والثانوية من حيث العلاقة بين الفتيان والفتيات؟

هيلين: بالنسبة للصف التحضيري، يمكنني أن أقول لك بأنني درسته بصفته استمراراً مباشراً للمرحلة الثانوية، دون أي انفتاحٍ للذهن. كان هناك فتيان، لكنني لم أكن أراهم، فقد كنت في الأخوية الكاثوليكية حيث كانت الأمور أكثر جدية {ضحك} بالنسبة لأمي التي كانت قلقةً نوعاً ما بالنسبة لمستقبلي (...). كنت شديدة السذاجة بالمقارنة مع الفتيات اللواتي يبلغن الثامنة عشرة من عمرهن اليوم. كنت أسكن في الضاحية البعيدة، وكنت أعود إلى البيت في المساء، مما تسبب لي ببعض المشاكل فيما بعد؛ حين كنت أريد مثلاً الذهاب إلى السينما مساءً، كان الأمر معقداً. وفي المكتبة السينمائية، كنت أخرج قبل أن تنتهي معظم الأفلام كيلا يفوتني آخر قطار. وبالفعل، فقد بدأت أرى الفتيان في التاسعة عشرة من عمري في فولتير وفي المعهد السينمائي، لكنني لم أكن أقيم كثيراً من العلاقات معهم بحكم تربيتي الشديدة الصرامة (...). المهم بالنسبة لي هو أنّ الفتيان كانوا يتكلمون عن السياسة اعتباراً من عمر التاسعة عشرة. كان ذلك عام 56، كانت فترة بودابست. كان الشيوعيون جميعاً يناصرون الانقلاب. هذا الأمر هو الذي فتح ذهني، فلم يكن لديّ أيّ تأهيلٍ سياسي. في بيتنا، لم يكن أحد يتحدث في السياسة أبداً، وفي تلك الفترة تعلمت، كانت فترة الحرب في الجزائر، وكنا نذهب إلى المظاهرات (...). أنا كنت أتعلم الأشياء. كنت أستمع ثم أختار الجهة التي أنحاز إليها وفقاً لذلك (...). كانوا جميعاً شيوعيين أو مناصرين لهم، كانوا كلهم من اليسار، كانوا جميعاً ضد حرب الجزائر. كان هناك على الدوام مظاهرات، وكنت أتبع بكل إخلاص، بكل

إيمان، معتقدةً بأنّ ذلك ما ينبغي عمله فعلاً، أنّ تلك كانت الحقيقة، كانت مشاعرنا جميعاً مخلصةً جداً، وفي عام 58 انتخبنا جميعنا ضد مجيء ديغول، ضد رجل واحد.

❖ هل كان بعض زملائك يعيشون معاً كأزواج منذ ذلك الحين؟

هيلين: بلى، طبعاً، كان البعض يعيشون معاً كأزواج، وكان هناك غراميات صغيرة، وكل ما يريد المرء (...)، أما أنا، فلم أعش مثل تلك الأمور لأنني في التاسعة عشرة كنت محاصرةً تماماً، لم أكن أعرف كثيراً من الأمور، ولم أبدأ بأن أعيش حياةً طبيعية إلا بعد أن أنهيت دراستي في المعهد السينمائي. لقد كنت مأسورةً تماماً بسبب تربيتي. وقد استغرق فكاكي من الأسر فترةً طويلة نوعاً ما. ولو لم أجد نفسي في وسطٍ كوسط المعهد السينمائي، وهو وسط مثقف، لا أدري، ربما كنت سأصبح موظفة، ولكان تطوري أبطأ بكثير.

❖ كيف كنت تنظرين إلى الفتيان في تلك الفترة؟

هيلين: أنا كنت مغرمةً بأحدهم أو بآخر بصورةٍ متفاوتة، كنت معجبةً.

❖ ما الذي كان يدفعك للإعجاب بهم؟

هيلين: لم يكن هناك ما يدفع إلى الإعجاب بهم سوى أنهم يريدون أن يصبحوا مخرجين. أنا شخصياً لم أكن أريد أن أصبح مخرجة. وبالفعل، فقد اكتفيت طيلة حياتي بما حصلت عليه؛ كان ذلك يكفيني تماماً، إنه كافٍ تماماً. علاوةً على ذلك، لم يكن لدي رغبةٌ في الإبداع، لم يكن لديّ طموح، وبالنسبة لي، فإنّ كلّ أولئك الفتيان الذين سيصبحون مخرجين كان فيهم شيء يشبه المعجزة. كان هناك بيننا موسيقيون أيضاً. كنت مذهولةً تماماً من قدرتهم على الخلق، وكان الرجال يبهرونني، لذلك فقد كنت أجد صعوبةً كبيرة في الاقتراب منهم. بالنسبة لي، كان الرجل كائناً متفوقاً، وقد غيرت رأيي قليلاً منذ ذلك الحين {ضحك}، لقد كنا رومانسيين وأغبياء نوعاً ما.

لقد تخلّى مستقبلي المهني عن نفسه بنفسه

❖ هل تعتقدين بأنّ المرء يحوز في مهنتك على أفضلية في ما لو كان زوجه من المهنة ذاتها؟

هيلين: برأيي نعم، إلا أنه قد تحصل أحياناً مشاكل بين الزوجين.

❖ هل هناك أمثلة من حولك على ما تقولينه؟

هيلين: نعم، أعرف أزواجاً لديهم مشاكل، حيث كلا الزوجين مخرج، وفي بعض الأحيان تسير الأمور بصورةٍ سيئة.

❖ برأيك، ما هي الشروط الضرورية لكي تسير الأمور بصورةٍ حسنة؟

هيلين: ينبغي أن يكون أحد الزوجين متواضعاً بما يكفي، وألاّ يكون لديه طموحات شخصية. أعتقد بأنّه إذا كان لدى الزوجين طموحات شخصية، فإنّ الأمر يصبح صعباً.

❖ ألا يمكن أن يكون لكلٍّ دوره؟ هل هذا غير ممكن؟

هيلين: لابدّ أنّ مثل هذا موجود، ربما، لست أدري، لكن ليس بكثرة. أنا أعرف العديد من الأزواج الذين يعملون في هذه المهنة والذين انفصلوا، معظمهم انفصلوا (...). هذا هو ما كان يقلق أهلي كثيراً: فقد كانوا يرون تماماً بأنّ كافة الأزواج من هذه المهنة غير مستقرين، وقد أقلقهم ذلك كثيراً. أما أنا، فقد قدّرت بأنني واثقة من نفسي وبأنه كان يمكنني أن أفعل شيئاً على المدى البعيد. كنت أظن، ولا أزال، بأنني قادرة على أن أفعل ذلك. أنا لست هشةً جداً، إلاّ أنني أظنّ بأنّ معظم الناس لا يستطيعون بسهولة، في هذه المهنة، أن يتبنّوا مشاريع مشتركة على مدى فترةٍ طويلة.

❖ هل كان تأثير الحركة النسوية كبيراً في محيطك المهني؟

هيلين: في البداية، عملت في مشاريع نسوية، إلاّ أنها كانت مرتبطة بشكلٍ وثيق بمشاريع تلك الحقبة؛ بالنسبة لي شخصياً، فإنني أظنّ بأنني عشت حياةً مستقلة نسبياً، مستقلةً جداً على صعيد مستقبلي المهني، أي

على صعيد مهنتي وعلى صعيد المال. إلاّ أنني لا أصف ذاتي كمناضلة نسوية. على أية حال، فإنني لم أكن نسويةً إلاّ بشكل نسبي.

❖ على أيّ صعيد؟

هيلين: بالنسبة لي، النسوية تعني بصورةٍ خاصة أن يكون المرء مستقلاً على الصعيدين المهني والمادي، إلاّ أنّ هذا لا يعني شيئاً على صعيد العلاقات مع رجلٍ ما؛ في ما يتعلق بي، فقد فكرت على الدوام بالرجال على مستوى المساواة وليس على مستوى المنافسة. صحيحٌ أنني لو رغبت أن أصبح مخرجةً، لو أنني امتلكت تلك الرغبة على الدوام، فإنني لا أرى لمَ لم أكن سأحاول أن أصبح مخرجة؛ لقد اخترت أن أكون مونتيرة لأنه لم تكن لديّ الرغبة في أن أعمل في الإخراج.

❖ لقد قلتِ بأنه ينبغي أن يكون أحد الزوجين أكثر تواضعاً من الآخر. هل تعرفين حالاتٍ يكون فيها الزوج هو ذلك الطرف؟

هيلين: بلى، أعرف (...) حيث يكون الرجل بالذات هو الطرف الأكثر تواضعاً. إنني أفكّر الآن بعدة أزواجٍ من الأصدقاء (...). ربما كان ما أقوله الآن تبسيطياً، وكثير من الناس سوف يسخرون منه، لكنني رُبّيت بحيث أخضع لرغبة وإبداع الآخر، وذلك الآخر هو الرجل؛ ربما اختلفت ردة فعلي في ما لو أنه كانت لدي تلك الرغبة، لكن بما أنه لم تكن لديّ تلك الرغبة في الإبداع الشخصي، فإنه لم تكن لديّ سوى رغبةٌ وحيدة، هي أن أساعد الآخر للوصول إليه.

❖ في الواقع، كان الآخرون ينظرون إليكما كزوجين مستقرين في وسطٍ يفتقد معظم الأزواج فيه إلى ذلك الاستقرار، أليس كذلك؟

هيلين: بالضبط. لقد كان الناس ينظرون إلينا بطريقةٍ دفعت كثيرين لأن يقولوا لي: «كنا نتخيّل بأنّكما سوف تظلاّن معاً على الدوام، وأنّ ارتباطكما كان وثيقاً»، وكان ذلك خاطئاً (...).

❖ ألم تكن المهنة تفصل بينكما؟

هيلين: لا، لقد كان يذهب إلى الأرياف وإلى الخارج بشكلٍ متزايد؛ لم

تكن المهنة تفصل بيننا. كنت أحاول، رغم مهنتي التي هي مهنة مضنية نوعاً ما، أن أصل إلى البيت قبل الثامنة مساءً من أجل الأولاد (...)؛ لقد أثّر ذلك عليّ على صعيد المهنة، فلم أتمكن من أن أقوم بما أريده تماماً، وتخلّيت عن فكرة أن يكون لديّ مستقبل مهني. لقد تخلّى مستقبلي عن نفسه بنفسه لأنني، وبشكلٍ متزايد، كنت أقوم بأعمال هامشية (...). وشيئاً فشيئاً تدهورت أموري قليلاً؛ لم يكن الأمر بسبب الأطفال وحسب، بل هي الظروف التي أبعدتني عن السينما التجارية.

❖ هل كان لديك تصور معيّن عمّا تريدين فعله؟

هيلين: نعم، كان لديّ توجه يقضي ألاّ أقوم بأيّ عملٍ كان وبأن أرفض القيام بأعمال صغيرة لا قيمة لها.

❖ هل كنتما تتحدثان في ما بينكما عن الخيارات المهنية؟

هيلين: نعم، كثيراً ما كنا نتحدث عنها. ففي عام 74 مثلاً، كنت أعمل مع منتجة من التلفزيون، وكانت الأمور بالغة السوء بيني وبينها، ولم يكن لديّ سوى رغبةٍ واحدة، هي أن أرمي بكلّ شيء، فقد كان العمل معها لا يحتمل أبداً (...). وبما أنه كان لدينا في الواقع مشاكل مالية، فقد قال لي: «حين يبدأ المرء عملاً ما، فإنّ عليه أن يصل به حتى النهاية»، وفي آخر الأمر، قلت لنفسي أنا أيضاً بأنه ينبغي على المرء أن يصل بما بدأه إلى نهايته، فأجبرت نفسي على إنهاء العمل، وأفقدني ذلك عاماً كاملاً، وقد قلنا معاً فيما بعد، «لقد أخطأنا، وكان من الأفضل أن أتخلى عن كل شيء».

لقد تغيرت شخصيته

(...) كان لدينا أصدقاء مشتركون منذ أكثر من عشرين عاماً وكانوا أحياناً في الأصل أصدقائي أنا أو أصدقاءه هو (...)، لكن شيئاً فشيئاً، عرفنا غيرهم (...) ثم حصل شيء مختلف: ففي السنوات الأخيرة، أصبح لديه أصدقاء شخصيون له، كانوا «أصدقاءه هو»، لنقل بأنّنا قد بدأنا نختلف في علاقاتنا. لقد افترقنا قليلاً على هذا الصعيد. وبدأت أعود

للعمل في الأفلام الروائية الطويلة، عملت مع أشخاصٍ لا يعرفهم كثيراً، كما أنه هو قد قام ببعض الأعمال للتلفزيون، والفيديو، بينما لم أكن أنا أعمل في هذا المجال. لم أكن في ذلك الوقت أعرف تقنيات الفيديو. وبما أنه كان لديه بالإضافة إلى السينما اهتمامات مهنية أخرى، واهتمامات ثقافية أخرى، فقد أصبح لديه كثير من الصداقات الموازية، وقد أصبحوا أصدقاء مشتركين نوعاً ما؛ لقد وافقت بصفتي زوجته، لكن أصدقاءه الأخيرين كانوا أصدقاءه أكثر مما كانوا أصدقائي. وأنا ألاحظ أنني لم أعد أراهم، في حين أنني أستمر في لقاء الأصدقاء المشتركين، أما هو، فلم يعد يراهم.

❖ هل غيّر حياته؟

هيلين: لقد تغير كشخص، وحصل نوع من الانكسار، من القطيعة. وفي الواقع، فإنني أرى بأنه لم يعد لديه كثير من العلاقات لا مع أبنائه ولا مع أصدقائه القدامى.

❖ هل تغير شكله أيضاً؟

هيلين: نعم، لقد تغير شكله، إلاّ أنّ التغير الأساسي هو تغيرٌ في الشخصية حصل برأيي بشكلٍ خفيّ خلال السنوات العشر الأخيرة (...). لقد أدركت الأشياء منذ عشر سنوات؛ ومنذ عام 85 حصلت انكسارات وجرت أمورٌ كنت أعرفها وكنت أعلم بوجودها، ثم انطلقنا من جديد، ثم أصبحت أقل حرصاً بسبب الحياة، وأبوي اللذين توفيا، وكثير من الأشياء التي تجري، كما أنني اهتممت بالأولاد أكثر مما فعلت في السابق، وبأهلي، وخفّ اهتمامي به عن السابق، وهكذا. كما أنني بدأت أهتم بمهنتي أكثر من السابق بكثير لأنني بدأت أعمل بالأفلام الروائية الطويلة، وقد عملت كثيراً خلال الأعوام الماضية.

لم تعد المهنة تربطنا

(...) ثم إنّ هناك بالفعل واقع أنّ المهنة لم تعد تربطنا منذ حوالى عشر سنوات؛ فقد عملنا هو في التلفزيون، في المجال الوثائقي، وأنا في

أفلام الخيال؛ وقد أخرج عام 85 فيلماً وجدتُ بأنه جيد جداً إلاّ أنني أصبحت أكثر بعداً عنه، وقد أدرك ذلك.

- هل كان يشعر بأن عمله يُحاكَم؟

هيلين: ربما كان يشعر بأن عمله يحاكم؛ كان إعجابي به يتناقص، لكننا لم نتحدث في الأمر أبداً (...). لقد كان شخصاً يمتلك إمكانياتٍ مدهشة، كان غنياً جداً من وجهة نظر الثقافة، من وجهة نظر الحساسية، وكذلك من وجهة النظر الإبداعية، وقد تصلّب شيئاً فشيئاً بتماسه مع المهنة لأن المهنة قاسية جداً، وهو لم يتمكن من أن يفعل ما يريده حقيقةً لأن المهنة لم تسمح له بذلك، وقد حاول أن يخرج بعض الأفلام الروائية الطويلة، لكنه لم يستطع لأنه كان مجبراً على العمل لصالح التلفزيون مثل الجميع، ثم أفقره ذلك قليلاً، وشيئاً فشيئاً أصبح أقل تطلّباً بالنسبة لما يريد فعله في المهنة، واستسلم للسهولة، وأخذ يقبل بأشياء شديدة السهولة في التلفزيون؛ لديّ أصدقاء لم يوافقوا على ذلك، وهم يتدبرون أمورهم لأنهم لم يوافقوا. إلاّ أنّ ذلك كان قاسياً، وقد مرت بهم أوقات صعبة، بينما ربما وافق هو لأنّ لدينا أولاد، لكن الآخرين لديهم هم أيضاً أطفال (...).

❖ ألم تكوني تحذّرينه؟

هيلين: لقد حدث ذلك في الفترة الأخيرة، لكن ربما لم تكن تحذيراتي كافية. علاوةً على ذلك، هل كان لي الحق في أن أحذّره؟ بعد فترة من الزمن، لم أعد أظن بأنّ من حقي أن يكون لي تأثير على مسيرته المهنية؛ أظنّ بأنّه كان سيد نفسه.

- ربما كان يعتقد بأنّ لديك نظرةٌ احترافية، بين قوسين، له؟

هيلين: ربما فاض به الكيل في النهاية من تلك النظرة المحترفة الموجهة له وأراد أن يتحرر منها، لكن، في الوقت ذاته، فإنه يقول لي الآن بأننا كنا معاً بأفضل ما يكون حين كنا نعمل معاً، وربما كان الأمر صحيحاً بالفعل، إذن فالأمر مؤسفٌ إن كان ذلك صحيحاً، لكنه على الأغلب صحيحٌ تماماً. في السنوات الخمسة عشرة من حياته المهنية حين استطعت أن

أساعده، كان يعتقد بأن ذلك دعمٌ له. أعتقد بأنه أخذ الآن يفكر بأنني لم أعد دعماً له، أنني لم أعد أنفعه في شيء؛ يبدو بأنه لم يعد يحتاج لأن يكون مع شخصٍ له نفس الهدف المحدد على الصعيد المهني، لست أدري، لا أستطيع أن أعرف (...).

لست أعرف كثيراً من الأزواج القدامى ممن يعملون معاً؛ فمن بين الأزواج الذين أعرفهم، لا تقوم الزوجة بصورةٍ عامة بالمهنة ذاتها: فالزوج مثلاً مخرج، أما الزوجة فليست مخرجة؛ وربما لا تعمل في مجال السينما أصلاً، أو أنها تعمل في مجال الإنتاج أو السكرتاريا، لكن بصورةٍ ملحقة. لست أعرف كثيرين ممن عاشوا حياةً طويلةً معاً بهذه الصورة.

❖ هل يبدو لك الأمر أسهل حين لا يمارس الزوجان المهنة ذاتها؟

هيلين: أظنّ بأنّه أكثر صعوبةً ففي كثير من الأحيان، لايستطيع الأشخاص الذين من خارج المهنة أن يفهموا ضرورة الانخراط المطلق، وهم لا يندمجون، لكن مع الزمن، أليس ذلك أفضل؟

الحالة المعتادة في هذه المهنة، هي تبديل الشريك

❖ وماذا عن النساء اللواتي ينتمين إلى أجيال أصغر سناً من جيلك ممن دخلن إلى المهنة؟ هل تنتشر العزوبة بينهنّ؟

هيلين: بالنسبة للنساء الأصغر سناً اللواتي يبلغن الأربعين الآن، لا. أما النساء اللواتي من عمري واللواتي تقبّلن العزوبة كرسالة، فهنّ لازلن حتى الآن يدّعين ذلك، إلاّ أنّ النساء اللواتي تجاوزن الخمسين واللواتي اخترن تقريباً أن يبقين عازبات شديداتُ التعاسة، والأمر كارثة؛ إنهن يعشن العزوبة بصورةٍ سيئة للغاية، وهنّ شديدات التعاسة، والأمر هو بالفعل أسوأ من كل شيء، وقد أفسدن حياتهن فعلاً من أجل المهنة، وفي معظم الأحيان من أجل خيار الحرية والاستقلالية والمهنة. ينبغي أن ترى بأيّ حماسٍ يحاولن فجأةً وكيفما اتفق أن يكون لديهن طفل عندما يبلغن الأربعين. وعندما لا يتمكّنّ من ذلك، تحصل الكارثة. أما النساء الأخريات اللواتي بلغن الأربعين وعشن

خلال العمر «الطبيعي» حياةً زوجية «طبيعية» وأنجبن الأطفال ولا زلن يعشن مع أزواجهنّ بعد خمسة عشر أو ثمانية عشر عاماً، فإنهنّ ينجحن بالفعل؛ وأنا أظنّ بأن أولئك الأزواج مخلصون جداً، وأعتقد بأنّ أحدهما، وهو عادةً الرجل، يسيطر بالضرورة على الآخر، وينبغي أن يقول المرء ما هو موجود على أرض الواقع، فنادراً ما تكون المرأة هي الطرف المسيطر؛ وإن كانت المرأة هي المسيطرة، فإنها على ما أظن تبقى مستقلة، وأظن بأنها لا تتزوج، أو أنها تعيش حياةً زوجية لكن دون أن تتزوج؛ على كلّ حال، فإن الناس لم يعودوا يتزوجون، وذلك كي يبقوا أكثر استقلالية؛ لكنني أعتقد بأنه لم يعد بالإمكان رؤية زوجين مثلنا في إطار من يمارسون مهنتنا (...). اليوم يعيش الرجل والمرأة معاً وينجبان الأطفال ويعيشان عدداً معيناً من السنوات معاً، وحين يصلان إلى الثلاثين أو الأربعين من العمر يجد كلٌّ منهما رفيقاً آخر يمضي معه بقية حياته دون زواج. أظن أن الأمور تستوي أكثر بهذا الشكل. أي كما لو كان الاختيار الثاني أضمن. لست أدري إن كانت تلك حالة زوجي، لست أدري شيئاً عن ذلك (...). الأمر مختلف بالنسبة لي، فقد حصلت القطيعة في وقتٍ متأخر، بعد فوات الأوان (...). أنا لست مقياساً لما يجري عادةً في هذه المهنة. أعتقد أن تبديل الشريك هو، بصورةٍ عامة، أمرٌ سهلٌ دائماً بالنسبة للرجل. أما بالنسبة للمرأة، فهو صعبٌ حين تصل إلى عمرٍ معين (...) لكن ربما يكون ما أقوله لك أبسط مما ينبغي، أعتقد أنّ ما أقوله لك مبسّطٌ نوعاً ما.

يبدو لي بأن استقلاليتي قد خدعتني

(...) خارج إطار مشكلة تنظيم تربية الأولاد، كانت حياتنا مستقلةً بالكامل وحرة، وكان هو يفعل حقاً ما يريده، بالشكل الذي يريده، وفي الوقت الذي يريده. لكن ربما يكون له رأي مختلف.

❖ هل أنت من كان يعتني بالأولاد؟

هيلين: نعم، كنت أنا مع ذلك.

❖ ألستِ من الجيل الذي كان يتقاسم المهمات؟

هيلين: لا، لست من الجيل الذي يتقاسم المهمات؛ أعتقد أنني أنتمي لسوء الحظ إلى الجيل السابق الذي ربّي ضمن أطرٍ قديمة نوعاً ما، تتضمن على نحوٍ ما أنّه على المرأة أن تحمل أعباء المنزل، وعليها بالتالي أن تتحمل مسؤولية كل ما يتعلق بتغذية الطفل، وغذاء الأسرة، وابتياع الحاجيات، وكل شيء، ولم يكن هو في الواقع يشارك في تقسيم الواجبات حينذاك، وأظنّ أنه الآن يشارك فيها. لكنّ الذنب ذنبي، فقد كان عليّ أن أطلب منه ذلك بالقوة، لكنه كان يبدو لي بأن قيامي بكل شيءٍ في البيت أمرٌ طبيعي، كان عليّ أن أطلب منه؛ ربما كان سيفعل؛ وبما أنه كان شخصاً يهتم بشدة بمهنته، مهنته، مهنته، فقد كنت أترك له المجال ليتحرر تماماً من هذه الناحية، وذلك بشكلٍ كامل. ربما أخطأت من هذه الناحية (...). ربما لم ننطلق من أسسٍ واضحة تماماً، محددة تماماً، لا أدري، لا أستطيع الآن أن أحلل الأمور. إلاّ أنه يبدو لي بأنه هو الذي كان يهيمن عليّ على كلّ حال. ربما كنا قد انطلقنا من أسس عرجاء؛ لقد رحل منذ فترةٍ لا تزيد عن سنةٍ ونصف، وأنا لم أقم بفرز كلّ الأشياء حتى الآن.

❖ ما الذي غيّره هذا الانفصال بصورةٍ ملموسة في حياتك؟

هيلين: كثيراً من الأشياء. وبالمناسبة، فإنني أشعر نوعاً ما بأنني خُدعت. لا أفضل التحدث عن الأمر على الصعيد العاطفي، لأنني ربما أبدو لك نوعاً ما ساذجةً أكثر من اللزوم، ورومانسية، لذلك لا داعي لكي نتحدث عن الأمر، لكن ما سأقوله سيبدو لك كلاسيكياً للغاية على الصعيد الاجتماعي البحت، بل ربما رجعياً نوعاً ما، فإنه يبدو لي بأنني قد خُدعت نوعاً ما لأننا قد تقاسمنا شيئاً ما على كافة الأصعدة لفترةٍ زادت على عشرين عاماً وأجد بأنّ عليّ الآن أن أتحمل مسؤولية كلّ شيء وحدي على الصعيد المالي، وربما كان قد ترك لي هذا الأمر فجأةً بين يومٍ وآخر دون أن يشاركني بشيء من أعبائي المادية، حتى في ما يتعلق بالبنات؛ ربما سهّل الأمرَ عليه أنني كنت مستقلةً، وأمتلك مهنة، وأنني كنت حرة، كنت سيدة

نفسي. في النهاية، فإنّ ما آراده آبي هو أن أكون سيدة نفسي، وهذا ما كنت أريده أنا أيضاً؛ لديّ انطباعٌ بأنني كنت على نحوٍ ما ضحيةً للنسوية، لكوني سيدة نفسي بالنسبة لأنني أتخيل جيداً بأن زوجي، مثله مثل أبناء جيله الذين تزوجوا نساءً لم يعملن أبداً، لم يكونوا ليستسلمون بسبب ذلك، حسب اعتقادي، ولو قلت له ذلك، فإنه كان سيضحك ويقول لي: «لا، لا بالطبع، كنت سأرحل بالطبع»، وهذا صحيح دون ريب، كان سيرحل حتماً، لكنه فعل ذلك بكل بساطة قائلاً: «سوف تدفعين كلّ ما يتوجب عليك دفعه، وأنا لم أعد ملتزماً بشيء»، أي أنه فرض عليّ كلّ شيء (...). وبما أنني لم أبدأ بعد بإجراءات الطلاق، فإننا لم نستطع حتى الآن أن ننهي الأمر بشكلٍ رسمي، قانوني، لكنني أجد نفسي في واقع الأمر أخضع الآن للأعباء ذاتها، وابنتي الصغرى لا تزال تعيش الآن معي، لكنه لا يساهم في المصاريف، وهذا يجعل أعبائي ثقيلةً جداً ويجعل الأمر شديد الصعوبة، وقد فعل ذلك بكل سهولة لأنه يعرف بأنني سيدة نفسي. وبما أنني عملت كثيراً في الفترة الأخيرة، فإنه لا يوجد لديه أي إحساسٍ بالذنب.

❖ هل كنتما تتوصلان دوماً إلى تقاسم حياتكما المهنية؟

هيلين: لقد كان لكلٍ منا حياته الخاصة على الدوام، فقد كنت أنا أعمل في أفلامي، وربما لم تكن الأفلام التي أعمل بها تعجبه، ثم كنا نتحدث في الأمر. وقد كان قادراً أن يقول حين يرى فيلماً: «أعتقد كذا، أظن كذا، هذا جيد، هذا غير جيد. هذا سيئ، كان عليك ألاّ تعملي به»، لكنني أعتقد بأنه لم يكن يبالي في السنوات الأخيرة بما أفعله، كما أنّ إعجابي بما كان يقوم به قد تناقص (...). أعتقد بأنّ رحيل زوجي ليس سوى نتيجة لحياة زوجين، وهو أيضاً لحظة من حياته المهنية تتبدل، تتغير، ولا أستطيع أن أقول لك بأي اتجاه، فليست لديّ حتى الآن المعطيات الضرورية كي أتحدث عنها، أما مهنتي أنا فلم تتبدل، لأنه ليس لدي طموحات شخصية، وهدفي لازال القيام بالمونتاج، لم يتغير عملي، وليس لديّ إذن أزمة على صعيد العمل (...)، حياتي أكثر بساطةً، إنها المونتاج، والأولاد، ثم كان هو؛

ويبدو بأن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة له: فنجاحه المهني كان يعلو على كلّ شيء، والواقع أنه في السنوات الأخيرة كان هناك مشكلة، مشكلة لاتقتصر عليه، إنها مشكلة جيلٍ بأكمله، وهذه المشكلة سوف تكون حاسمة أكثر في السنوات القادمة بالنسبة لجيلٍ بأكمله، فقد وصل إلى الخمسين من عمره دون أن يقوم حقاً بالعمل الذي كان يريد أن يقوم به، والأمر واضح، فكلّ ما استطاع فعله في السنوات العشرة الماضية لم يكن كله جيداً على الرغم من أنه قام ببعض الأعمال الجيدة، لكنه أيضاً صنع بعض الأعمال التي لاقيمة لها، وهذا بالنسبة له أمرٌ ملحّ، فإما أن يفعل شيئاً مهماً الآن أو أنه لن يتمكن من فعل شيء أبداً، وأعتقد بأنه يدرك ذلك، وأعتقد أنه الآن يشعر بالخوف، وأظنّ بأنّ رحيله من هنا كان نوعاً ما بسببي، بسبب أنني أكثر منه بساطةً، وأنّ لديّ أفكاراً عنيدةً أكثر من أفكاره، ولديّ خيارات أكثر وضوحاً من أفكاره، لنقل بأنها أكثر أخلاقيةً بين قوسين من أفكاره، وأريد أن أسير في طريقٍ مستقيم، ويبدو بأنني كنت أشعره بالضيق لهذا السبب لأنه لا يعرف جيداً أين هو، وهو ينوس بين عدة احتمالاتٍ بما فيها تخليه عن المهنة، لم يقل ذلك لي لكنه قاله لابنتيه، وربما كان يقول لنفسه بأنه أخطأ لمدة عشرين عاماً ولم يتبع الطريق الصحيح، لست أدري، أعتقد أنه يعيد النظر في أمورٍ عديدة.

كان يقول، «لقد ضجرت من تقديم

امتحان البكالوريا في كل فيلم أصنعه

(...) في مهنتنا، ليس من الضروري أن يتوصل المرء إلى أن يكون له مستقبل مضمونٌ أكثر فأكثر. وما كان يجعله تعيساً كما كان يقول: «لقد مللت من أن أُمتحن بالبكالوريا في كلّ فيلم أصنعه»، وبالفعل، فإنه يبدو للمرء بأنّ عليه في كلّ مرة أن يبرهن على أنه لازال موجوداً، على أنه لا زال الأفضل، وأنه صنع شيئاً جيداً، وهي فعلاً ليست مشكلة التقنيين. إذا تم صنع فيلم غير ناجح، فإننا نخضع أيضاً لبعض الانعكاسات السلبية، لكن

ليس بمقدار ما يتعرض له المخرج. الأمر بالنسبة له دراماتيكي، إنه لأمرٌ دراماتيكي أن يصنع شيئاً لا يتم الاعتراف به في كلّ مرة. وحين يكون المرء في الأربعين من عمره، فإن الرغبة تتولد لديه في أن يُعترف به أكثر فأكثر، وإن لم يتم الاعتراف به فعلاً بصفته الأفضل، فإنه يمكن أن يعتبر فاشلاً (...). والنساء المخرجات معرّضاتٌ للمشكلة ذاتها، ويتفاقم الأمر بسبب كونهن نساء، فرغم كلّ شيء، لا يزال التوصل إلى القيام ببعض الأشياء في أيامنا أصعب بكثير حين يتعلق بامرأة، فإثبات الذات يصبح أكثر مشقة.

❖ هل من الأسهل بالنسبة لك أن تعملي مع امرأة؟

هيلين: العمل مع امرأة أصعب بالنسبة لي، (...) لقد أقمت على الدوام علاقات طيبة مع النساء، وأحياناً كانت علاقاتي معهنّ لاتحتمل؛ (...) على المرأة أن تثبت ذاتها طيلة الوقت، بل إنها تتوصل بصورةٍ غريبة إلى أن يكون لديها نزاعات وإلى أن تصبح قمعيةً حين تعمل امرأة مع امرأةٍ أخرى. النساء المخرجات هنّ حقاً نساء شديدات القسوة، واللواتي منهنّ يحتفظن بأنوثتهنّ (...) يعانين من مشاكل كثيرة. فهنّ مدانات بسبب كونهنّ نساءً، وهنّ يعملن في السينما بطريقةٍ أنثوية جداً ويعاب عليهنّ ذلك بصورةٍ دائمة. أو أنّه ينبغي على النساء أن يعملن مثل الرجال (...).

❖ إذا عدنا إلى الأزمة المهنية للرجال، هل تظنين بأنّ الزواج يمكن له أن يصمد أمامها؟

هيلين: أعتقد بأنه يمكن الصمود أمامها. ربما تكون المشكلة هي أنه لا يتم في الواقع إدراكها حين تعاش، ويتم إدراكها فيما بعد.

❖ وماذا عن زميلاتك الأصغر سناً؟ هل يتمكّنّ من التوفيق بين الحياة المهنية والحياة العائلية؟

هيلين: أنا حقاً لا أستطيع أن أتحدث عن الأمر، فأنا لا أعرف عدداً لا بأس به ممن هنّ أصغر مني سناً. النساء الأصغر مني ممن أعرفهن قد بلغن الأربعين ولديهنّ أولاد بلغوا الآن حوالى عشر سنوات من عمرهم. أما الأصغر سناً اللواتي أعرفهن فهنّ عازبات، ويتراوح عمرهنّ بين ستة

وعشرين وثلاثين عاماً، وهنّ لازلن يردن أن يبقين عازبات وأن يعملن كي ينجحن، وربما سيكون لديهن أطفال بعد أن يتأكد نجاحهنّ.

❖ وهنّ بالتالي لا يمارسن ضغوطاً على الآخرين، أليس كذلك؟

هيلين: بلى، بلى، بعضهن يمارسن الضغوط على الآخرين، بلى. لكن هناك ضغوط المهنة بشكلٍ أساسي، والمهنة هي التي تقتضي ذلك. فعلى سبيل المثال، حين يريد مخرج فيلمٍ روائي طويل أن يؤمّن مزجاً لفيلمه وينبغي أن يُمضي من يقوم بهذا العمل ساعاتٍ طويلة، حتى التاسعة أو العاشرة من كلّ ليلة، فإنه من المؤكد بأنه لن يستخدم امرأةً لديها طفلٌ رضيع. لقد تمكنت أنا من الاستمرار في مهنتي وأنا أحاول أن أفرض ساعاتٍ معينة على المخرج، فقد كنت رئيسةً حينذاك، لم أكن مساعِدة. لست أدري إنْ كنت سأتمكن من ذلك لو أنني كنت لاأزال مساعدة.

❖ هل يحصل أن يأخذ أحد المخرجين على أحد أعضاء فريق عمله تقديمه حياته العائلية على حياته العملية؟

هيلين: لومٌ مباشر، لا، لكن يحصل أن يوجه له لوماً غير مباشر (...)، ومن المتعارف عليه أنه حين يستعين بمساعدةٍ له، فإنه ينبغي أن يكون وقتها حراً.

ينتهي المرء بأن يجد نفسه وحيداً

(...) قد تؤمن الشابات بالحياة الزوجية؛ لكنهن لا يراهنّ عليها بكلّ شيء، فهنّ يعتقدن في الواقع بأنّه يمكن أن يحصل أي شيء، في أي وقت، وأنّ لاشيء يُقال بصورةٍ نهائية، صحيحٌ أنني كنت أقول لنفسي بأنه لاشيء يتم بصورةٍ نهائية، إلاّ أنني كنت مقتنعةً بالحياة الزوجية رغم كل شيء، كانت لديّ الرغبة في أن أؤمن بها، وكان ذلك ينسجم أيضاً مع طبيعتي، لكنني أردت الإيمان بها رغم كلّ شيء. هو أيضاً أراد أن يؤمن بها؛ لقد حاول هو أيضاً أن يؤمن بها، ثم جعلته الحياة يفهم بأن ذلك الأمر صعب؛ لكنه يتألم، ربما أقل مما أتألم أنا، من ذلك الشكل من الانقطاع في حياته، وربما كان

ذلك بسبب كونه قد استثمر في الزواج أقل مما استثمرت أنا فيه خلال أكثر من عشرين عاماً. أظنّ إذن أنه يتألم أقل مني من ذلك الشكل من.. الفشل. فهو إذن ليس ضحيةً، وأنا أشعر بأنني ضحية، وربما كان إحساسي هذا خاطئاً نوعاً ما. أظن بأن الجميع من جيلي لم يعودوا في مثل حالتي، هناك العديد من النساء القادرات على مواجهة هذا الوضع بصورةٍ أكثر هدوءاً.

❖ لكن عملك يترك القليل من الوقت للحياة العائلية على كل حال، وبصورةٍ ملموسة، كم ساعةً من العمل يمثل عمل المونتاج؟

هيلين: لدينا أوقات صارمة نوعاً ما لإنجاز العمل. وإذا عمل المرء بصورةٍ طبيعية لمدة ثماني أو تسع ساعات يومياً، فإن هذا يكفي عادةً؛ يلزم تسع ساعات بالأحرى. أنا احسب، فأنا أذهب عادةً في حوالي التاسعة وأعود في حوالي السابعة والنصف مساءً، هذا يعني إذن إحدى عشرة ساعةً من الغياب عن البيت، وهذا يعادل إذن تسع ساعات عمل. هناك أفلام أوافق فيها على العمل أكثر. هناك زميلاتٌ لي يعملن أكثر من ذلك، يعملن كالمجانين؛ لديّ صديقات عملن من أجل حريتهنّ، وأحببن عملهن، وعملن كثيراً، ولم يعد لديهن حياة شخصية، واضطررن للعمل لسد الثغرات. هناك نوع من الحلقة المعيبة: فالمرأة تعمل لأنها وحيدة كي تكسب المال، وهي تعمل لدرجة أنها تصبح وحيدة، وحيدة تماماً، ثم تجد نفسها قد بلغت الخامسة والأربعين وهي وحيدة تماماً، ولا يعود أمامها سوى أن تعمل إلى نهاية عمرها. هذا يشبه وضعي الآن؛ أجد نفسي الآن وقد استثمرت كثيراً، رغم كل شيء، كثيراً في العمل وأجد نفسي وقد عملت وربيت أولاداً، لكنني أقول لنفسي: ما هو مستقبلي؟ عليّ الآن أن أتابع العمل، عليّ قبل كل شيء أن أتقبّل نفسي، عليّ أن أعيش وحدي، إذن فالأمر يشبه كوني عازبة، سوى أنّني قد سعدت بالإنجاب (...). إنها مهنةٌ ينبغي ألا نضفي عليها صبغةً مثالية، فالمرء يستثمر كثيراً من الوقت أثناء مونتاج فيلم، وتتشكل علاقات متينة، وتكون الأجواء دافئة جداً، ثم ينتهي الفيلم، وينتهي كل شيء معه، ويذهب كلٌّ في طريقه. ينبغي على المرء أن يعتاد على تلك الانفصالات التي

تلي انتهاء العمل بالأفلام؛ يعتاد المرء على الأمر بعد ثلاثين عاماً. لكنه قاسٍ في البداية لأنّ المرء يستثمر كثيراً، أكثر مما ينبغي، هذا صحيح(...). بالنسبة لي، فإن المحصلة هي سلبية بالأحرى، وذلك على صعيد العلاقة الزوجية، لأن زواجي قد انفصم بصورةٍ ملموسة، ولكن أيضاً إذا راجع المرء الأسباب التي لم نعد نريد بسببها العيش معاً، وهي أسبابٌ ليست شخصيةً وحسب، بل هي مهنيةٌ أيضاً، فإنه يظهر بأننا كنا نعيش على الخديعة نوعاً ما (...). إنني أتأرجح بين جيلين: فقد أردت أن أحوز على الاستقلالية والحرية، وكنت في الوقت ذاته أشعر بأنني لم أكن قادرةً على أن أتمثّلهما تماماً لأنني كنت مع ذلك أريد أن أعيش بطريقةٍ كلاسيكية، كما تعلمت، وبالطريقة التي ربما كنت أحب أن أعيشها (...). لم أستطع أن أحرر نفسي كلياً وأنا بالتالي ضحيةٌ نوعاً ما لتربيتي، وضحية كوني كبيرة في السن، فلكي تعيش بصورةٍ جيدة مثل هذا الوضع، ينبغي أن تكون أصغر سناً بمقدار خمسة عشر عاماً (...). وفي النهاية، فإن الناس جميعاً يبقون شديدي الوحدة بالنسبة للأفكار التي يحملونها. لقد أخطأت تماماً حين تخيلت بأنني أقترن بمشروع رجل، حتى لو كان ذلك صحيحاً خلال عددٍ من السنوات؛ يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، إلاّ أنّ ذلك نادر جداً. هذا غير صحيح بالمطلق. وأنا لم أحاول أن أعرف لماذا، فالأمر صعبٌ جداً.

كانون الأول 1991

عبد المالك صياد

اللعنة

ما هي حياة العامل المهاجر؟ للإجابة الواعية على هذا السؤال، ينبغي على المرء في بداية الأمر أن يعيش تلك الحياة بشكلٍ كامل، وكما يقال، دون أن «يفكر بها كثيراً» ؛ ينبغي أيضاً أن يتشكل شيئاً فشيئاً ذلك الاستعداد الخاص الذي يسمح «بالابتعاد عن الحياة وأكاذيبها»، أي الابتعاد عن أباطيلها، وهي الصيغة شبه المعتادة للحكمة التقليدية، مستخدمةٌ هنا بالمعنى المليء: «تعليق حياة (المرء) ليراها كما كانت»، واستحضارها أمام ذاته كموضوعٍ للملاحظة، يمكن أن تطبّق عليه تحديداً كلُّ قدرة التأمل التي تهبها التجربةُ المكتسبة على مدى تلك الحياة لأولئك الذين يهتمون بِ «معرفة ذاتهم ومعرفة الحياة على الرغم من الخداع الذي تمارسه هذه الحياة (الغدر: أي الفخ، والخيانة)»؛ وهذا كله بمساعدة بعض الظروف التي تساعد على تسهيل الابتعاد عن تلك الحياة، كوفاة الأبوين، وتجاوز الأبناء لسنّ الوصاية، سواءً كانوا صبياناً أم بناتاً، والمرض، وحوادث العمل، وما يسبق التقاعد، والتقاعد ذاته، وكلها مناسباتٌ ليشعر المرء بفراغ وجودٍ ليس له معنى إلاّ بالعمل.

عباس، الذي يتحدث بهذه العبارات، هو من أولئك الناس. هو عاملٌ متقاعد كان يعمل في مؤسسةٍ صناعيةٍ كبيرة تقع في المنطقة الباريسية،

وهو مثقف على طريقته. وعلاوةً على المؤشرات الموجزة وذات الدلالة حول أصوله الاجتماعية («لم يخلق أبي ليكون فلاحاً»... «كان جدي المتعلمَ الوحيد في العائلة، وقد عاش دوماً من تعليم القرآن»)، فإنّ خطابه كله هو الذي يقدم البرهان على كونه مثقفاً، وبصورةٍ خاصة ذلك النمط من الابتعاد عن ذاته الذي يطلق عليه بألمٍ تعبير: «الطلاق من الذات». وبالجمع بين التجربة المباشرة لوضعية المهاجر التي عاشها مطولاً وبين الوضع التأمّلي الذي يسمح بتطوير التجربة الذاتية من أجل ذاته أولاً، وتسمح بإخضاعها للتمحيص النقدي وبتقديمها للآخرين، وهذا أكثر ندرةً، بطريقة الرواية التي تبدو ظاهرياً اعتيادية جداً (كما هي الحال هنا)، فإنه يتملص من الخيار المعتاد للتجربة الصامتة والخطاب الفارغ حول تجربةٍ لا يمكن الوصول إليها (إنّ عالم المهاجرين وتجربة هذا العالم هما دون ريبٍ مغلقان تماماً بالنسبة لمعظم أولئك الذين يتحدثون عنهما). مع عباس، يصبح المفحوص والمراقَب هو الفاحص والمراقِب لنفسه، ولا يعود وجود المستقصي المحترف سوى الفرصة المنتظَرة كي يبوح بصوتٍ مرتفع بنتاج استقصائه حول ذاته بعد أن فكّر به وأنضجه طويلاً («لقد فكّرت ملياً بكلّ ذلك... الأصح أنني لم أتوقف عن التفكير وعن تمحيص وإعادة تمحيص هذه الأسئلة في داخلي»). وهو نتاجٌ يقترب من التماثل مع نتاج العلم طالما أنّ الفاحص والمفحوص يتوافقان بسبب مصلحتهما المشتركة بالاستقصاء الذي يجمع بينهما. ويكون هذا التوافق دون تشاورٍ مسبق، فالمفحوص يطرح بنفسه الأسئلة التي يود الفاحص أن يطرحها عليه.

كيف يتوصل الإنسان إلى تلك المقدرة على «نسيان ذاته» كما يقول المعنيّ، كي «يتذكر ذاته» بصورةٍ أفضل؟ لازال من الضروري البحث عن مصدر الخيبة العميقة التي تحث على العودة إلى الذات في التقاء بعض العناصر الاجتماعية المميزة، وخاصة في العلاقة التي تقيمها عائلة عباس مع الهجرة، وهي علاقةٌ استثنائية في تلك المنطقة التي قامت منها هجرةٌ كبيرة وقديمة جداً إلى فرنسا. ولكي يكون بالإمكان تحملها، فإن ظروف ذلك اليوم تحثّ على النظر من جديد إلى المسيرة التي أدت إليها منذ «اليوم

الأول» المشهود، وهو موقع «اللعنة الأساسية»، وعلى إعادة بناء التكون الاجتماعي، وعلى إعطائه نوعاً من التفسير؛ لكن ظروف الأمس التي يستمتعون بالتذكير بها تؤدي على العكس من ذلك إلى تبني وجهة النظر النقدية التي تبشّر بصفاء أحاديثه عن مسيرته الشخصية (والتي هي مسيرةٌ جماعية أيضاً)، وتبشّر بصورةٍ خاصة بتأثير الانعتاق الذي يؤدي إليه عمل التحليل الذاتي والاعتراف من الذات إلى الذات. وهو اعترافٌ بحالة الأزمة التي وصل إليها ذلك «الجيل» من المهاجرين الذين لم يعد من الممكن الحديث عنهم الآن سوى بصيغة الماضي. «لم يعد شيءٌ كما كنا نعتقد». إن ذلك «الجيل» يعيش بصورةٍ مأساوية الانقطاع الجذري مع الحالة السابقة وهي ليست بعيدةً جداً، ويصف عباس، وهو موقظ الضمائر، هذا الانقطاع تارةً بأنه حالة سبات («كنا منومين»)، وتارةً بأنه «حالة خدر». ولكونه يعي ما يفصله عما هو مشترك بين المهاجرين من معاصريه الذين يشاطرهم مع ذلك- وهو يؤكد على تلك الجالية القدرية- كل مساره وشروط الحياة كلها، فإنه يدعوهم إلى المزيد من الحذر؛ ويدعوهم كذلك إلى شكلٍ من «اليقظة». ولأنه يعتقد بأنه قد سيطر على وضعه وتمثّل «حقيقته»، فإنه يودّ لو أنّ الجميع يشاطرونه «الحقيقة» التي يقترحها عليهم، ولو أنهم يعملون جميعاً على إنتاج «حقيقتهم» وعلى التخلص من كافة الأقنعة وكافة الأمور المخفية التي تفرضها الهجرة على الجميع ليكونوا مقبولين. الأمر ليس سهلاً، وهو اختبار شديد الإيلام، حتى لو عرف الجميع بأنّ تلك المراجعة المضنية هي شرط استمرارهم في الحياة ومقاومتهم للعدم الذي يهددهم بسبب التغيرات التي تطرأ على شروط حياتهم، وخاصةً على التصور الذي اعتادوا أن يقدموه عن أنفسهم وعن وضعهم كمهاجرين. ويشعر عباس بأنه منذورٌ مسبقاً لدور موقظ الضمائر، ولديه إحساسٌ شديد الأرستقراطية بتميزه يوصله إلى نوعٍ من الرأفة تجاه الآخرين («إنهم يستحقون الشفقة»، «ينبغي فتح أعينهم (...)، لكنهم لا يقبلون») الذين يرفضون شكل الزهد الذي يعرضه عليهم ليس بأفعاله وحسب، بل أيضاً، وبصورةٍ خاصة، بأقواله. الجميع من حوله، وبالأخص عائلته، ينظرون إليه بصفته استثناءً ويشعرون

حياله بالإعجاب والاحترام والانبهار، ويشعرون في الوقت ذاته بالمضايقة والانزعاج اللذين يثيرهما كل استثناء. الجميع، سواءً الأقربون أو الأقل قرباً منه، يستشيرونه، وكثيراً ما يحيط به عددٌ كبيرٌ من الحضور الذين يأتون ليستمعوا إليه (وهو يدعى بالشيخ، فهو الحكيم)، وقد تكونت له سمعة كونه «متوحداً» وهو ينزوي بصورة شبه متباهية حتى ضمن عائلته، في «انعزال» مصطنعٍ وحقيقيٍّ في آنٍ معاً لم يؤدّ تعطله عن العمل إلاّ إلى تقويته.

إنه رجل الحقيقة والاستقامة، يخشاه الآخرون لصرامة أحكامه، وإذا كانوا يعترفون له بفضل قوله للحقيقة، فإنهم يلومونه في كثيرٍ من الأحيان لقيامه بذلك. هذه هي الحال بصورةٍ خاصة في كلّ مرة يتم فيها طرح موضوع وضع الأطفال، وهي مناسبةٌ لملاحظة الأزمة التي تعيشها بشكلٍ ملحّ كافة عائلات المهاجرين، وتتجلّى هنا في القطيعة بين جيل الآباء وجيل الأبناء التي نتجت عن الاختلاف التام للظروف الاجتماعية والثقافية بينهما. من الممكن تجاوز إعلان الحكيم، الذي يتحول أحياناً إلى نبيٍّ للتعاسة، بأنّ الهجرة كانت «خطأً» وبأن الجميع قد أخطأوا في تلك المناسبة. لكن حين يعلن بأن هجرة العائلات - وعائلته هو أولاً - هي خيانةٌ وإنكارٌ وردّة (بالمعنى الديني للعبارة)، وبأنّ هذه الهجرة قد أدت إلى انقلابٍ كاملٍ جعل المهاجرين (كعائلاتٍ) «يعملون في الواقع من أجل ازدهار الآخرين عوضاً عن أن يعملوا من أجل ازدهارهم (هم)»، فإنه يصعب تحمل مثل ذلك الإعلان، لكونه تنديداً في الوقت ذاته.

مع «عامل مهاجر»

أجرى اللقاء عبد المالك صياد

«كلّ شيءٍ كان مغايراً لما اعتقدنا»

عباس- لا شيء على ما يرام.. وينبغي الوصول إلى النهاية، الآن وقد انتهى كلّ شيء، وأصبحنا ندرك بأن لا شيء على ما يرام.. وأننا قد أخطأنا على طول الخط. لم يكن شيءٌ {بالفصحى: لم يخرج شيء.. بمعنى أنه ما من شيءٍ أدى إلى نتيجة..} كما كنا نظن. أنا نفسي لا أصدّق. أنا أشك بنفسي.. أعتقدُ بأنني أكذب على نفسي. لقد فكرت جيداً بهذا كلِه.. وبالأصح، فإنني لم أتوقف عن التفكير، وعن تمحيص وإعادة تمحيص كل تلك المسائل في داخلي.. وحين أقول بأنني أفكّر، فإنني الآن فقط وصلت إلى هذه النتيجة، وذلك لأنني وصلت إلى حقيقة (واقع، قناعة تامة) اليوم. وبالنسبة لما تبقى، فالأمور ذاتها تعود إلى الذهن. كيف وصلنا إلى هنا؟ هل نحن كما كنا، هل نحن الكائنات ذاتها التي كنّاها في اليوم الأول {لهجرتنا إلى فرنسا}؟ ما الذي غيّرنا؟ ومنذ متى تمّ مسخنا {بالمعنى القوي، بتأثير لعنةٍ ربانية}؟ لم نر عملية المسخ هذه. لقد وقعت علينا بعد فوات الأوان ليكون لنا رد فعلٍ ضده. ينبغي أن نتقبله كما هو... ينبغي أن نقبل ذواتنا بهذه الصورة. لم يعد هناك ما يمكن فعله. لم يعد أمامنا سوى أن نشكر الله. إنه يعرف ما يفعله، وما نحن إلاّ دمى بين يديه. إرادته هي التي تحكمنا.

❖ ممّ تتكون هذه «اللعنة»؟ لم هذه اللعنة؟

عباس- لتفهم ذلك، ربما يتوجب عليّ أن أحكي لك كل شيءٍ منذ اليوم الأول، ودون ذلك، لا يمكن فهم شيءٍ أبداً. أنا ذاتي لا أفهم التحول إلاّ حين أتذكر اليوم الأول، وحين أعيد بناء المسار الذي مشيناه.. وأنا لست وحدي في هذا الأمر.. إلاّ أنّ الآخرين محظوظون لأنهم عميان.. لأنهم لا يرون شيئاً..، لا يرون الأشياء القريبة جداً منهم، التي بين أرجلهم، في بطونهم بالذات. إنهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً، لقد نسوا كلّ شيء وهم لا يتذكرون شيئاً. إنهم سعداء.

[...]

المرء لا يعرف من أين يبدأ حين يريد ذلك... لا يمكن جمع كلّ هذه الأمور معاً إلاّ ذهنياً. وحين ينبغي الحديث عنها، حتى بالنسبة لي، فإنها تأتي كلها في الوقت ذاته، ككتلة واحدة، وتنتظم سويةً، ولايمكن أن نفصلها عن بعضها- يحصل أحياناً أن أحدّث نفسي، أن أتكلّم مع نفسي بصوتٍ مرتفع، لولا أن الآخرين قد يعتبرونني مجنوناً. الأمور مختلطة وغائمة. حينذاك، وحتى حين أحدّث نفسي، فإنني أتوقف عن ذلك بسرعة فأصمت وأترك الأمور تصطدم في ما بينها وتختلط، وتعود كلها معاً، ثم تذهب كما جاءت... ليس من السهل الحديث عن هذا كله.

[...]

لكلّ فترةٍ مشاكلها وصعوباتها، ومع التقدم في العمر، فإنّ الأمور تتفاقم. لكن المرء يقيّم الأمور بصورةٍ أفضل مع تقدمه في السنّ، ويعرف كيف يشارك الآخرين بها: فمن جهة، هناك الأشياء التي ليس لها أهمية والتي كنا نتكالب عليها في السابق؛ ومن جهةٍ أخرى، هناك الأشياء الأكثر أهميةً التي كنا نُدفع لإهمالها واحتقارها. ليست الأشياء هي التي تغيرت خلال الدرب، لكن نحن الذين تغيرنا؛ نظرتنا لهذه الأشياء هي التي تغيرت في تلك الأثناء.

❖ مثلاً؟

عباس- مثلاً، في الماضي كان سكني سيئاً جداً، فقد كنت أسكن في غرفةٍ واحدة وكان لديّ ثلاثة أولاد... ثمّ سكنت في شقة غير صحية مع خمسة أولاد. أما الآن، فأنا أسكن في شقةٍ حقيقية، في عمارةٍ حقيقية، وإن كانت تلك العمارة ضمن السكن ذي الإيجار المعتدل HL M، وهذا تقدّمٌ بالتأكيد. لكن الأمور تغيرت على هذا الصعيد وحسب: الآن فقط تمّ حلّ مشكلة السكن... واكتشفنا بأنه مهما كانت المشكلة حقيقية، فإنها ليست المشكلة، المشكلة الحقيقية، تلك التي لا يمكن لشيءٍ أن يحلها، التي لا حلّ لها، فلا أحد يمكن أن يقدّم لها حلاً، لأنه ما من حلٍ يأتي من الخارج. لقد أعطيتك مثالاً. هل تريد مثالاً آخر؟ إنه العمل، إنه الشيء ذاته: فقد عرفت البطالة والرواتب المنخفضة وبؤس العامل... كل تلك الأمور كانت مشكلةً في وقتها؛ وفيما بعد، حصلت على عملٍ دائم، عملت خمسة عشر عاماً في المؤسسة ذاتها، وتحسنت الرواتب. لم تكن الرواتب ثروةً لكننا كنا نتمكن من أن نأكل وأن نلبس وأن نربّي الأطفال، بل وأن نوفّر قليلاً.. هنا أيضاً، اكتشفت بأن تلك المشكلة التي لم تعد تطرح نفسها عليّ الآن أو التي تطرح نفسها بصورةٍ مغايرة ليست المشكلة الحقيقية أيضاً.

❖ ما هي المشكلة الحقيقية إذن؟

[...]

أليست هذه هي اللعنة؟

عباس- اليوم الأول! ما هو ذلك اليوم الأول؟ إنني أتساءل، أطرح السؤال على نفسي. (...) لقد فكرت بالأمر ملياً. لقد حاولت أن أفهم لمَ كان ذلك «اليوم الأول» مختلفاً بالنسبة لي عن «اليوم الأول» بالنسبة لكل {المهاجرين} الآخرين. فهناك «يومٌ أول» بالنسبة للجميع. لماذا؟ لأنني كنت أول من هاجر من عائلتي إلى فرنسا.

❖ ممن كانت تتألف تلك العائلة؟

عباس- من أبي وزوجته، فقد توفيت أمي حين كنت بين الثانية عشرة

والثالثة عشرة من عمري، ثم كان هناك أخٌ أصغر مني سناً، بل إنه أخٌ غير شقيق (كان ابناً لزوجة أخرى لأبي، توفيت هي أيضاً عام 1948، حين كنت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمري)، وأخي البكر، وهو أخٌ شقيقٌ لي مات صغيراً، شاباً، ربما كان عمره في حدود الثامنة عشرة أو العشرين عاماً.

أتذكر ذلك اليوم، السابع عشر من تشرين الثاني 1951، إنه يومٌ نتذكره دوماً. كنتُ ألحّ على أبي منذ عدة سنواتٍ من أجل الرحيل إلى فرنسا. لكنه صمّ أذنيه وكان يقاوم... لكننا لم نكن نعيش في بحبوحة، وكنا أفقر أسرةٍ في العائلة. كان هناك سببٌ لذلك، سببٌ سريٌّ، لكنه سببٌ شكّل جزءاً من عقليتنا، من الطريقة التي ننظر بها لأشياء العالم. كان عمري واحداً وعشرين عاماً، كنت كبيراً. كنت أتكلم مع أبي عبر وسطاء، وأرسل إليه الأشخاص الذين كان بإمكاني أن أقول لهم أشياء معينة وأشخاصاً يقيم لهم أبي بعض الوزن. ومن جهته، كان أبي يردّ عليّ بالطريقة ذاتها، لكنه لم يكن يستخدم بالضرورة أولئك الأشخاص الذين كانوا يتدخلون معه لصالحي. وفي النهاية، شكلنا مجموعتين: مجموعة «محاميّ» لديه و«المدافعين» عن موقفه أمامي. دامت هذه الملاحقة عامين. وقد شعرت بأنني قد ربحت الجولة – إن أمكن القول – حين أجابني أبي ببيان أسبابه، أسباب رفضه، وذلك عبر الشخص الذي أرسلته إليه. (...) كان أحد الأقرباء، حكيماً، رجلاً شديد الجدية، رجل دين، عاملاً مجداً، تقياً، رغم أنه أمضى حياته كلها في فرنسا. كان أبي يحترمه كثيراً، وكان ذلك الاحترام متبادلاً. وبفضل ذلك الشخص، ولأنّ ذلك الرجل كان هو ذاته عاملاً في فرنسا، فإنّ موقف أبي ورده لانا، لكن دون أن يعطيني موافقته الرسمية مع ذلك (...). وأتيت إذن إلى فرنسا بصحبة ذلك الشخص. كانت تلك أول رحلةٍ لي خارج قريتنا ومحيطها، أول تماسٍ لي مع المدينة: القطار، الجزائر العاصمة، المركب، فرنسا... في السابع عشر والثامن عشر من تشرين الثاني 1951. كان عمري واحداً وعشرين عاماً (...).

لقد شرح لي والدي (الذي كنت حينذاك أصفه بأنه مستبد ومتخلف يريد البؤس) سبب معارضته، في صباح ذلك اليوم، السابع عشر من تشرين الثاني أثناء وداعه لنا، وحين وصلنا إلى اللحظة التي كنا سنفترق فيها، عندما جاء وقت قبلات الوداع قال لي بصوت مرتفع، كما لو كان يريد أن يشهد كل الناس الموجودين هناك، رجالاً ونساءً، فقد كان هناك أيضاً نساء، أمهات الرجال الذين كانوا سيرحلون: «الله شاهد عليّ، اسمعوني جميعاً، أنا لم أطلب منك أبداً أن تذهب إلى فرنسا من أجلي، لكي ترسل لي المال من فرنسا. لم أعتقد طيلة حياتي بأن شيئاً كهذا قد يحصل لي. أن يضطر المرء لأن يأكل المال الآتي من فرنسا! لقد جعلت من ذلك كفراً. أنا مصرٌّ على أن يعلم كل الناس بذلك. أتوسل إليك، ذاك المال، احتفظ به لنفسك، احتفظ به هناك؛ تلك خدمة تؤديها لي، إنها أكثر من خدمة، إنه أمرٌ أعطيه لك، وفّر عليّ تلك القذارة. لأنك لو أرسلت لي المال، فإنني لن أعرف ما الذي سأفعله به. لن أستطيع أن آكله، ولا أن أحرقه.» تلك كانت آخر كلمات أبي، وقد مات بعد بضع سنوات دون أن أراه ثانيةً. والأنكى من ذلك أنني لم أفهم حينها شيئاً من تلك الموعظة. لقد قلت لنفسي، إنها حركات سينمائية {بالفرنسية} يقوم بها أمامي. لم أفهم أهمية كلماته إلاّ فيما بعد، بعد فوات الأوان. أليست تلك هي اللعنة؟ أليست هي اللعنة التي لا تزال تلاحقني؟ وهي لا تزال تلاحق الآخرين، حتى إن لم يعرفوا ذلك..

المال الآتي من فرنسا هو مالٌ غير شرعي.

❖ لنتحدث قليلاً عن والدك. من كان؟ هل كان فلاحاً لم يخرج من بيته أبداً، لم يترك أبداً حقوله، أم أنه عمل هو ذاته في الخارج، مقابل المال؟

عباس- (...) لم يُخلق أبي ليكون فلاحاً. لقد أصبح فلاحاً بسبب الضرورة، في حين أنه لم يكن لدينا أرض للزراعة أو أن أرضنا كانت صغيرةً لدرجة أنها كانت بائسة. لكن قبل أن نتكلم عن أبي، ينبغي أن نبدأ بجدّي. كان جدي أصغر أفراد العائلة، لديه العديد من الأخوة والأعمام. كان «متعلم» العائلة، الأصغر {سناً}، ضعيف البنية وكثير المرض نوعاً ما؛ وقد

أجرى دراسات {قرآنية}، لقد عاش طيلة حياته مع القرآن، في البداية في الزوايا بصفته طالباً. أنت تعرف كيف كانت الأمور تتم في تلك الفترة. كان جميع الناس، الطلاب والمعلمون، وكل الرجال الأتقياء («الإخوان») الذين يذهبون إلى تلك الأماكن يعيشون في المكان ذاته، يعيشون معاً. كانت الزاوية تتلقى الهبات، وتنظّم حملات لجمع المؤن، وكنا نذهب لنجمعها، كنا نطبخ أيضاً ونتعلم في الوقت ذاته، كلنا معاً. لقد نشأ في ذلك الوسط، ويقولون عنه بأنه بعد أن تزوج كان يحصل أحياناً أن يترك كل شيء ويعود إلى الزاوية بين حين وآخر. وبالطبع، فإن كل ما عدا ذلك لم يكن يثير اهتمامه، لاشيء من أمور الحياة. وحين كان يعمل أحياناً، أي أن يكسب ما يعيش منه، فقد كان ذلك بصفته طالباً في إحدى القرى، وكانوا يدفعون له مواد عينية، كما كانت الحال في تلك الفترة. كانوا يعطونه مقداراً يكفيه فقط كي يعيش. وبالطبع، فقد كان الضحية حين حصلت القسمة مع أخوته وأعمامه. لم يكن موجوداً ولم يكن يعير بالاً لكل تلك الأمور، بل إنه لم يكن يعرف أين كانت أراضي العائلة. وبحجة أنه لم يعمل في الأرض ولم يبذل جهداً ودُلّل بأن عُلّم، فقد أعطي قطعة أرض صغيرةً جداً، أصغر جزء من الميراث؛ لا شيء تقريباً. لقد نُهب بكل بساطة. ويقال بأنه لم يقل شيئاً ولم يحتج طيلة حياته على أي شيء. ويقال أيضاً بأن أول من وجد مرارةً في ذلك التصرف وحاول أن يتمرد فيما بعد على ما بدا له ظلماً كان عمي الأكبر؛ لم أعرف ذلك العم أبداً فقد توفي قبل ولادتي أو في العام الذي ولدتُ فيه. يقولون بأنه كان أكثر تصميماً وعزماً وحيويةً من أبي. لكنّ كلاً منهما كان يشعر بأنه قد أضاع شيئاً ما، وكانا بصورة خاصة يشعران بأنهما لم يخلقا ليكونا ما أصبحا عليه. لقد قبلا الأمر، وخضعا، كما كان أبي يقول، لمشيئة القدر. لم يكن ذلك احتقاراً لعمل الأرض كما يقال؛ بعيداً عن ذلك. لكن ذلك كان ببساطة لأنهما لم ينشأا على مهنة المزارعين ولأنه لم يكن هناك أرض ليزرعاها. لقد اضطرا للعمل الشاق. (...) وبلا ريب، فإنهما لم يصلا إلى نهاية تأهيلهما القرآني؛ ربما كانت ظروف مهنة الطالب قد تغيرت. والنتيجة أنهما اضطرا للعمل بأيديهما، في حين أنهما لم يكونا قد هُيّئا لذلك. لقد

عملا كثيراً في المزارع كعمالٍ موسميين؛ لقد تمكن كلّ منهما أن يكوّن لنفسه اختصاصاً سمح له بتجنب الأعمال الشاقة في المزرعة، كالعمل بالفأس وجني البطاطا: فقد تعلما تطعيم الكرمة. كانا يعملان لموسمين في العام: ففي الربيع، تحضير الطعوم، أو «التطعيم على الطاولة»، كما كان يقال؛ وفي الخريف، «التطعيم على خطوط المحراث». كان أبي بصورةٍ خاصة يذهب من تونس إلى المغرب، وكان الناس يعرفونه جيداً ويقدّرونه. هذا ما كان عليه أهلي (...).

نعم، لقد كانت تلك هجرة {بالفصحى، «خروجاً» من البلاد}، لكن لم تكن تلك الهجرة تشبه في شيءٍ هجرتي أنا... كانت ضمن البلد ذاته، لم يتوجب عليهما أن يعبرا البحر؛ لقد كانت هجرةً موسمية، وكانت تدوم ما بين ثلاثة أسابيع وثلاثة أشهرٍ ونصف على الأكثر؛ كانا يعملان في الأرض، وكانا يعيشان في الريف وليس في المدينة... والأهم بالنسبة لأبي- وقد سمعت ذلك منه في عدة مناسبات- أنهما بقيا في بلدٍ مسلم. تلك كانت مشكلة أبي، المال القادم من فرنسا هو بالنسبة له مالٌ مشكوكٌ به، مالٌ مكروه، مالٌ غير شرعي. أنت تفهم الآن لماذا لم يكن يريد ذلك المال! (...) لقد عاش بهذه الطريقة طيلة حياته، ولم يكن لديه أية راحة، أي عزاء. حتى هجرتي استجابت بصورةٍ ما إلى آماله؛ كان ذلك رغماً عني، وأنا لم أشأ ذلك على كل حال، لكن تلك الهجرة قد وافقت حرفياً ما كان أبي يتوقعه وربما يريده. ونظراً لحالة الفقر التي كنا نعيشها، فإنني لم أكن أريد الاعتراف أن بإمكان والدي أن يرفض المال الذي سوف يأتي إليه. كان ذلك غير مفهومٍ بالنسبة لي؛ كما أنني كنت أقول لنفسي بأن ذلك ليس من حقه: فإذا كانت تلك إرادته، إذا كانت تلك رغبته، إن كان يريد أن يعيش كناسك، فإنه ليس من حقه أن يفرض طريقته تلك في الحياة على الآخرين، على زوجته وأخوتي وأخواتي، الكبار منهم والصغار.

❖ كيف استجابت هجرتك لآماله؟ لست أفهم.

عباس- لقد استجابت لآماله بمعنى أنه لم يمس مليماً من أموالي. لم

تترك له الحياة الفرصة لذلك؛ لم تترك الفرصة لا له هو ولا لي أنا. لقد وصلت إلى فرنسا في فترةٍ سيئة: فالحقبة كانت صعبة من 1951 إلى 1953. لم أجد أبداً عملاً يعجبني، فكنت أقوم ببعض الأعمال الصغيرة هنا أو هناك لا أكثر. ولم أستعجل في إرسال النقود له كما كان الآخرون يفعلون في تلك الفترة لأنه كان قد أعلمني بما يسببه ذلك له من إرباك: هل كان ذلك المال غير شرعي أم أنه كان ممنوعاً؟ (...) لم أقترض المال لأرسله له كما كان الجميع يفعلون في تلك الفترة، وكما يفعلون حتى الآن: هذا ما كان يجعل الناس يظنون بأنه يتم جمع المال في فرنسا وبأنه يكفي أن يصل المرء إلى فرنسا حتى يجد المال... الثمينَ والنادرَ بل والعَصِيِّ على الكسب – وليس الصعب فقط – في الجزائر. لكن مع ذلك، لم يكن الدعم ينقصني في فرنسا: مثل صهري الذي نزلت عنده لفترةٍ غير قصيرة، وخالي وهو مهاجرٌ قديم جداً في فرنسا، والعديد غيرهما، وكلهم أقارب لي بدرجات متفاوتة (...). وحين استقرّيت بشكلٍ جيد وبدأت أكوّن نفسي، كان ذلك المخرجَ المميت...، الحرب وأهوالها (...) لكن تلك حكايةٌ أخرى. {حسب ما يقال، فإن والده كان أحد أوائل ضحايا الحرب في المنطقة، في ربيع عام 1955.}

هذه هي الذكرى التي أحتفظ بها عن أبي... إنها ليست حتى صورة وجهه حين افترقنا – هل كان يعلم بأننا سوف لن نرى بعضنا أبداً؟ لكنه صوته، ذلك الصوت الرهيب الذي لا يزال يرن في مسامعي حتى الآن: «تذكر... ليشهد عليّ الجميع...، أنا لم أفعل شيئاً كي تذهب إلى فرنسا، لم أطلب منك ذلك يوماً، لم أدفعك يوماً إلى الرحيل؛ العكس هو الصحيح، لقد فعلت ما بوسعي كيلا تخطر الفكرة بذهنك أبداً... لقد قررتَ خلاف ذلك. لست أملك أن أمنعك...، لن تلوم إلاّ نفسك فيما بعد، وهذا ما لا أتمناه لك (...)». بلى، كانت رؤيته بعيدة المدى. إنه لم يتمنّ لي ذلك، لكنه حصل. لقد حصل ما كان بلا ريبٍ يخشاه، وأبكر مما كان يتوقع. إنني أسمع ذلك الوداع دائماً. لقد أصبح هاجساً يؤرقني. وكلما مرّ الزمن كلما انحفر في داخلي. وقد قال لي في النهاية: «أتمنى لك سفراً سعيداً، الله معك...».

.[...]

كنا نعرف بأن فرنسا ليست الجنة

❖ إذن، فقد نشأت في عائلة يمكن أن نقول بأنها «مثقفة». ماذا شكل ذلك بالنسبة لك؟

عباس- عائلة مثقفة؟ في هذا القول مبالغة. ربما جدي. أما أبي...، كان الأمر انتهى بالنسبة لجيله... أما بالنسبة لي، فلا شيء على الإطلاق؛ لم يعد ذلك الزمان زمان التقوى ولا حتى زمان الإيمان البسيط بالله.

❖ بلى، لقد بقي شيءٌ من الإيمان رغم كل شيء. ما الذي وجدته في البيت من ذلك الميراث «الثقافي» في طفولتك؟

عباس- ما الذي وجدته في البيت؟ بعض الألواح {التي كانت تكتب عليها سور القرآن}، وكنا نحتفظ بها بحرص، كنا نحملها باحترام، فكلام الله هو الذي كان مكتوباً عليها، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانوا يقولون لي بأن ذلك اللوح قد كتب عليه بيد جدي أو عمي! كما كان هناك في البيت بعضٌ من نسخ القرآن القديمة، والتي لا بدّ أنها كانت تستخدم. (...) وفي صندوقٍ صغير ... لم يكن من المسموح لمسه، كان هناك أيضاً كتاب صغير، هو القرآن بالكامل. وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك بعض الكتب... في الاجتهاد، وخاصةً البخاري {وهو فقيهٌ وعالم لاهوت}. أنا أعرف بوجوده لأن البعض كانوا يحضرون لاستعارته من أبي. وعلاوةً على ذلك الرأسمال الصغير، فإن أبي كان قد احتفظ من صهره، وهو زوج أصغر أخواته، أصغر عماتي، ببعض الكتب، كتفاسير القرآن، وكتب عن التاريخ الإسلامي وكذلك بعض المجلات باللغة العربية ومنها البصائر {وهي مجلة كانت تصدرها «جمعية العلماء» في الخمسينات}. هذا هو الغذاء الذي كان متاحاً لمتعلمٍ لم يكن فلاحاً مثل بقية الفلاحين، ولم يكن متعلماً بحق لدرجة أنه كان يمكنه أن يعيش من معارفه فقط. كان والدي حالةً وسطى. لقد قَبِل، ليس دون مضض كما يمكن للمرء أن يتخيل، بأن يترك وضعيته كمتعلم. كان الجميع

يعرفون ذلك ويحترمونه لهذا السبب. كانوا يحترمون فيه الفلاح الذي كانه وكانوا معجبين به لأنه رحل كي تكون «يداه نظيفتين»، وها هو يقوم كما ينبغي له بمهنته كمزارع. وأكثر ما كانوا يحترمونه فيه هو الرجل التقي. كثيراً ما كان له الأفضلية على طالب القرية. وعلى كل حال، فإن ذلك الأخير كان يفعل كل ما بوسعه ليحظى بموافقة أبي. كان والدي ينجده في كلّ شيء، كان والدي يحلّ محله في الصلوات وفي خطبة الجمعة حين لايكون موجوداً.. كان أبي يحضر كل حالات السهر على الموتى في القرية وجوارها، حين كان ينبغي قضاء الليل في ترتيل القرآن. لكنه لم يكن «محترفاً»، فلطالما رفض أن يتقاضى قرشاً واحداً مقابل هذه الخدمة في حين أن الطالب المحترف كان يتقاضى راتباً (...).

هذا ما كانه أبي. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك خيار في تلك الفترة: فقد كان الرحيل إلى فرنسا طريق كل الشباب، سواءً كانوا أغنياء أم فقراء. كان الرحيل يمثّل الطريق الوحيد ليبرهن المرء على أنه قد أصبح رجلاً أخيراً ولم يعد طفلاً. لم يعتقد أبي أبداً في أعماقه بأنني سوف أفعل مثل الآخرين، وأنني لم أكن أنتظر سوى ذلك.. العمر الذي يتطلبه مثل هذا الإجراء.. لقد كان ذلك معاكساً تماماً للحياة التي كان يتخيلها لنفسه والتي كان يتخيلها لي. لم تكن الفترة تشجع على الدراسة بل على العمل؛ والعمل الحقيقي في فرنسا.

❖ في هذه الشروط، لا بد أنك قد تلقيت تعليماً دينياً، أليس كذلك؟

عباس- حين أتيت إلى الدنيا، كان الوقت قد فات. حتى شقيقي الأكبر مني والذي عرف جده بصورةٍ أفضل- يقولون بأنه قد توفي عام 1931-، فاته القطار هو أيضاً ولم يستطع أن يستفيد من التعليم الذي كان يمكن انتظاره منه. (...) حين كنت صغيراً، كان وقتي يتوزع بين العمل في الأرض والتدريب القرآني. كان ذلك يتم في مسجد القرية الصغير في الشتاء بصورةٍ خاصة؛ ففي الصيف، لم تكن أعمال الحقل تترك لنا الوقت الكافي. وقد كان من حسن حظي أنني عرفت معلماً جيداً جداً. لقد كان حكيماً وصاحب ضمير.

لكن كل ذلك لم يكن يتعدى كونه حرتقة. وحين أتممت حفظ الربع {خمسة عشر سورةً، وهي تمثل ربع السور الستين للقرآن}، كان عمري ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً. كنا في حالة فاقة شديدة ولم نكن نجد ما نأكله، وكانت الأوبئة تجتاحنا، والناس يموتون بالجملة. أراد أبي أن أستمر في تعليمي، فتوجب عليّ الذهاب إلى مدرسة الزاوية. (...) وكنت علاوةً على ذلك مريضاً... وقد استمر مرضي حتى وصولي إلى فرنسا حيث أدخلت المستشفى بعد تعرضي لأزمة؛ كان لديّ «حصى في الكليتين». كل ذلك جعلني أتخلى عن كل شيء ولا أعود أريد أن أسمع شيئاً عن تلك الحياة. وقد عدت بالطبع إلى البيت ورفضت العودة {إلى الزاوية}، وأدى ذلك إلى خلافٍ بيني وبين أبي؛ كان كلٌّ منا يتجنب الآخر. لقد دام جو الخلاف ذاك بصورةٍ متفاوتة الحدة حتى رحيلي إلى فرنسا. هذه هي الظروف التي كنت أعيشها حين أتيت إلى فرنسا. وكما ترى، لم أكن فرحاً منذ البداية، هذا أقل ما يمكن أن يقال. إن ترك الأهل لا يمكن أن يكون أمراً مفرحاً، فكيف بترك البلد؟ حتى لو كان المرء يحلم بما هو خارج البلاد، وحتى لو كان ينتظر كثيراً منه، فإنه دوماً يترك أقاربه وعالمه الذي اعتاد عليه بأسفٍ وألم. وحين أسمع البعض يقولون بأننا قد هاجرنا جميعاً لأننا كنا نتخيل أن فرنسا هي الجنة، فإنني أتساءل ما إذا كانوا يعتبروننا أطفالاً! كنا نعلم بأن فرنسا ليست هي الجنة؛ بل إننا كنا نعرف أنها جهنم من بعض النواحي. (...) في حالتي، كان الأمر أكثر من ذلك: فالأمر ليس فقط ألم الفراق، وليس فقط فقدان الثقة التي يشعر بها المرء دائماً حين يكون في بلده والخوف من المجهول الذي يتوجه نحوه، أو الحنين الذي يشعر به المرء ويهزه أحياناً من الداخل، بل يضاف إلى ذلك كله الندم، الندم على عدم الطاعة. لم يوافق أبي أبداً في داخله على رحيلي إلى فرنسا، رغم أنه قد أعطاني موافقته الظاهرية، فقد كانت تلك الموافقة شكليةً تماماً. أنا لم ولن أغفر ذلك لنفسي أبداً. ويزيد من إحساسي ذاك أنني لم أعرف كيف وجدت نفسي في الوضع الحالي: بعد حوالي أربعين عاماً من ذلك، وقد أصبح لديّ زوجة وأبناء، وبعد أن اعتقدت أنني قدمت إلى فرنسا وحيداً كي أعمل بضعة

أشهر أو بضع سنوات، سنتين أو ثلاثاً على الأكثر. خلال هذه السنوات الأربعين، وإذا جمعنا كل الفترات التي أقمت فيها في الجزائر، فإنّ مجموعها لا يبلغ سوى ستة أشهر. لست أدري لماذا!

هل أراد أحد ذلك حقاً؟

❖ أنت من سيقول لي لماذا.

عباس- بعد فترةٍ قصيرة من رحيلي، بدأت الأمور السيئة، أقصد فظاعات الحرب. لقد بدأت مآسي الجزائر قبل أن يكون لديّ الوقت كي أتوازن بعد مصاعب البداية، وأتعود على فرنسا وعلى وضعي الجديد، فقد عانيت كثيراً من البطالة خلال السنة الأولى. لم تنج قريتنا وعائلتنا من تلك المآسي. في البداية، ساد الحماس لدى الجميع... كل الناس كانوا يتطوعون، فأصبح البعض من المجاهدين والبعض الآخر من المسبلين. كانوا منذ ذلك الحين يعتقدون بأنهم في بلدٍ مستقل.

[...]

حين احتل الجيش القرية فيما بعد، كانوا في الصفوف الأولى؛ لقد كانوا الأدلاء والمرشدين، وحصلت أمور رهيبة من كلا الطرفين. حينذاك مات أبي. وقد حاول كلّ شخص النجاة بنفسه مع احتلال القرية والحرب بين معسكرات القرية، والمناطق الممنوعة حولها، والقصف الذي قام به الطيران. فمن كان باستطاعته الهرب ولديه مكانٌ ليهرب إليه هرب، وحيداً أو مع أسرته. وهكذا استضاف أحد الأقارب الذي كان يسكن في ضواحي العاصمة زوجتي وأختي مع أولادها. وفي أحد الأيام من عام 1956، جاء هؤلاء كلهم إلى فرنسا، واصطحبهم ذلك القريب الذي لم يعد يستطيع إيواءهم.

[...]

لقد وضعنا أمام الأمر الواقع (...). كان زوج أختي في فرنسا هو أيضاً... وكان لديهما في ذلك الحين ثلاثة أولاد. أنا نفسي كان لديّ طفلة

وليدة. لم يكن ذلك عبئاً بسيطاً. علاوةً على ذلك، فإننا لم نكن نتوقع هذا الأمر أبداً، لأن الأخبار لم تكن تصلنا بانتظام، فتوجب علينا أن نرتجل كل شيء. لم يكن لدينا مسكن من نمط الشقق المعدة للعائلات، كبيرةً كانت أم صغيرة. لم يكن من الممكن أن تعثر في باريس في تلك السنوات على شقة ذات إيجارٍ معتدل HLM. لم يحالفنا أي حظٍ في هذا الإطار. لقد تدبرنا أمورنا بين بعضنا، بإمكانياتنا. توجب علينا بين ليلةٍ وضحاها... بل في يومٍ واحد من الصباح حتى المساء، أن نجد سكناً للأسرتين. لم نكن الوحيدين في ذلك الوضع؛ فقد بدأت عائلاتٌ بأكملها تصل إلى فرنسا من كل المناطق، ربما للأسباب ذاتها: الحرب وعدم الأمان والموت. ماذا كانت إمكانيات السكن بالنسبة لنا؟ غرفة في فندق كنا نتقاسمها بمعدل ثلاثة أو أربعة أشخاص في الدائرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة أو العشرين، في منطقة بيلفيل، أو مينيل مونتان، أو في شارع مو، أو في شارع سكريتان؛ لقد ذهبت إلى تلك الشوارع كلها. بل إنني كنت محظوظاً: فلم نكن سوى اثنين نتقاسم الغرفة ذاتها خلال الشهر، وكنت أسكن مع أحد أقاربي من القرية ذاتها وبمثل عمري، وكانت الغرفة له، باسمه، ثم تركها لي وذهب ليسكن مع آخرين استضافوه. (...). وقررنا أن نجمع الأسرتين في الغرفة الوحيدة الفارغة – وعلى كل حال، فإن ذلك سمح لزوجتي ولأختي بأن يكونا معاً، فلم تكونا تعرفن شيئاً عن فرنسا – وفي المساء، حين يتم ترتيب كل شيء وينام الجميع، كنا أنا وصهري نذهب للنوم في مكانٍ آخر، حيث نجد مكاناً للنوم. لقد دام هذا الوضع فترةً طويلة: السكن كعائلة في حجرةٍ واحدة، في غرفة فندق... بعد ذلك، وكما كان ينبغي أن يفعل المرء في تلك الفترة، ذهبنا للسكن في مدينة الصفيح القديمة، في معسكرات نانتير (...).

وبعد كل حساب، وبعد أن أصبحت هذه الحكاية كلها من الماضي وبدأنا ننظر خلفنا (أنا لا أفعل سوى النظر)، هل أردنا فعلاً ذلك؟ هل أردنا أن نعيش حياتنا كلها في فرنسا...، دون أن ندرك حتى بأننا نملأ فرنسا بأولادنا، في حين أننا كنا نظن بأن أولادنا لنا! هل أراد أحدٌ ما ذلك؟ هل

فكر أحدٌ ما بذلك؟ من جهتي، فإنني أعترف بأنني في تلك الفترة لم أكن أنوي ذلك أبداً. أبداً. لم يكن بإمكاني ذلك... ولم يكن بإمكان أحد أن يظن ذلك. هل أردت أن آتي إلى فرنسا وأن أعمل فيها طيلة حياتي؟ ومع ذلك، فإنّ هذا ما جرى. هل أردت أن أحضر زوجتي وأولادي إلى فرنسا؟ أقول لك بصدق أنه لايمكنني أن أقول أو أعترف لذاتي بذلك. في أيامي، كان ذلك لا يزال جزءاً من الأمور الممنوعة ولم يكن أحدٌ يتحدث عنه؛ كان ذلك معيباً. ومع ذلك، فإن هذا قد حدث. لقد حدث ذلك لي وللعديدين مثلي، بل ربما للجميع تقريباً. قبل ذلك، لم يكن أولئك الذين كانت عائلاتهم معهم في فرنسا يمثّلون سوى حالاتٍ نادرة، استثنائية. (...) يتقبّل المرء الأمور كما تأتي. فذلك الذي هنا، في فرنسا، مع أسرته التي قدمت من هناك - يتزوج البعض الآن هنا، وهذه الحالات تتزايد - لايمكنه ألا يقول لنفسه وللجميع بأنه أحسن صنعاً. (ألا يقولون عنا، نحن المهاجرين في فرنسا، بأننا أرامل بحياة زوجاتنا، وبأننا قد فقدنا أولادنا؟) والشخص الذي ليست عائلته بصحبته وذلك ببساطة لأنّ مصادفات الحياة لم تجعل الهجرة عائلية، يستدرك الأمر بالتأكيد على أنه جاء وحيداً إلى فرنسا بملء إرادته، لأنه يستنكر السهولة التي يستسلم لها الرجال قليلو الشرف. ولم يعد المرء يسمع إلا ذلك بين المهاجرين منذ أن أصبح استقدام الأسرة هو العادة: فالبارحة، وكما أصبحت عليه الحال اليوم، كلٌّ يدافع عن قضيته؛ والجميع يتظاهرون بأنّهم أرادوا حقاً وضعهم، ولا يجدون في ذلك الوضع سوى الحسنات. إنني أعرف هذه المناقشات التي لا تنتهي منذ أن أصبح عدد الأسر في فرنسا كبيراً، ومنذ نهاية الحرب في الجزائر (...). لماذا؟ لأنه لم يعد لدينا ذريعة الحرب وكل الأخطار الناتجة عن حالة الحرب، سواءً كان ذلك صحيحاً أم لا.

[...]

لقد آن الأوان كي ندرك بأننا وصلنا إلى الفشل التام.

❖ لكن ما الذي يمكن عمله غير ذلك؟

عباس- هذا صحيح. أنا أيضاً عاجز، أنا الأكثر عجزاً. لكنني لا أريد أن نغلق أعيننا. لا أحب أن نصنع الأوهام {الأخيلة}. الحقيقة هي أولاً في داخلنا (أو بيننا)، نحن ندين بالحقيقة لأنفسنا أولاً (...). هذه هي الحقيقة التي أحاول أن أقولها لنفسي وللآخرين: لنفسي أولاً -وأنا أقولها لنفسي بصمت- وللآخرين ثانياً -إن استطعت ذلك-، لكنها أمورٌ يستحيل قولها لسوء الحظ.

[...]

يصفونني بأنني «متوحش». وأنا أسمعهم يقولون ذلك عني؛ وحين يرغبون في أن يكونوا لطيفين، فإنهم يقولون «إنه رجل الحقيقة، إنّ ما يقوله حق، لكن لا يمكن العيش معه، لا يمكن لأحد أن يحتمله!» هذا ما أسمعهم يقولونه عني.. هذا صحيح. الحقيقة تؤلم وينبغي لها أن تؤلم. وحين لا تؤلم، فإنها مشبوهة. لست أنا من يقول ذلك بل القرآن. لقد علّمني أبي ذلك، ولم يكف عن ترديده وأنا أردده على نفسي باستمرار... الحقيقة تؤلم، وربما لهذا السبب أفضّل أن أقولها لنفسي بصمت... حينذاك لا أشتم أحداً... ولا أحد يشتمني.

[...]

❖ لماذا حين يتعلق المرء بقول الحقيقة، بأن تقول للمهاجر حقيقته، تلك التي تعتقدها، يصبح ذلك شتيمة، يعادل ذلك شتمه؟

عباس- ليست الهجرة للعمل في فرنسا هي الخطأ، بل هو كل ما تبعها، إنه الطريقة التي عاش بها كل من عاش كل هذا الزمن في فرنسا: هو بادئ ذي بدءٍ ما فعله بنفسه طيلة تلك الفترة؛ هو ما فعله بأسرته وأولاده فيما بعد. إنه كل هذا. وحين ننظر اليوم إلى هذا كله، وبعد أن أعدنا النظر بكل ذلك بعد فترةٍ طويلة، بعد أن حدث، اليوم وقد وصلنا إلى نهاية حياتنا هنا في فرنسا، لأننا نصل إلى نهاية حياتنا الكلية، واقتربنا من الموت، اليوم آن الأوان لكي ندرك بأنه الفشل التام. هذا ليس أمراً مفرحاً. خلال ذلك حصلت فوضى؛ خلال ذلك انحرفنا نحو الغرب {لقد أضعنا «الشرق»، وأصبح الغرب منفى لنا أيضاً}.

❖ لماذا حصل ذلك؟ يبدو وكأنك تقول بأنه قد حصلت «خيانة»، كأنها غلطةٌ ارتكبت وهي ليست غلطةً في السلوك، بل تجاه الذات وضد الذات؛ كما لو كانت إنكاراً للذات.

عباس- نعم، إنه هذا بالضبط. لقد أنكرنا كل شيءٍ من ذواتنا وأسلافنا وأصولنا وديننا. لقد كفرنا جميعاً.

[...]

ذلك المسجد في المصنع، إنه محض كذب.

{هذا الرجل الذي فهم إلى هذه الدرجة وضعه كمهاجرٍ والآثار الحتمية التي أحدثتها الهجرة عليه وعلى أسرته قد فهم كذلك الدور السياسي الذي يعطيه البعض لديانةٍ مهيمنٍ عليها في مجال «تدجين المقهورين».}

عباس- لا المسجد ولا الصلاة هما ما يصنع المسلم. يمكن للمرء أن يصلي ويذهب كل يومٍ إلى المسجد، لكن حين يكون قلبه أسود، حين يكون مدنساً، حين تكون كلّ أفعاله عوجاء، فالصلاة لا يمكنها أن تفعل شيئاً. إنه بنظر الناس خبيث، والخبثاء كانوا دائماً عديدين في الدين. هناك ما هو أخطر...، فلو اقتصر الأمر على ذلك لما كان له أهمية كبيرة، لكن «الخبثاء» يُصغى إليهم دائماً. أذكر أنه قيل كثيراً، حين كنت لا أزال أعمل، عن إحداث مسجدٍ في المصنع، وقد أثار ذلك الأمر ضجةً كبيرة. لقد شارك الجميع في ذلك. كان لكلّ شخصٍ رؤيته للأمر: فالبعض كانوا مع إقامته...، وعارض البعض الآخر... لمَ يكون هناك مسجدٌ في المصنع؟ لم يكن قد وجد أبداً قبل ذلك. في الحقيقة، هذا المسجد مجرد كذب. لقد كثر الحديث عن هذا الأمر في حينه. ينبغي أن يكون لنا مسجد. لست أدري كيف تجري الأمور اليوم في المصنع، فقد تركته، لكنني أعرف بأن الجميع قد نسوا وجود مسجدٍ في المصنع، بدءاً من أولئك الذين كانوا الأكثر حماساً في مطالبتهم بوجوده. لم يدم الأمر سوى فترةٍ وجيزة. وبعد أن حققوا ضربتهم – ويمكن أن نقول بأنهم حققوا تلك الضربة – لم يعد للمسجد أهمية، وعرف الناس

حقيقة الضربة التي أخرجت بشكلٍ جيد، وهي أنّ المسجد، بذاته ولذاته، لم يكن له أية أهمية: لم يكن الأمر يتعلق به في واقع الأمر، بل بشيءٍ آخر؛ وقد تأكد الجميع من ذلك، لقد أجمع الكلّ على هذا الأمر، الكل ساروا في هذا الاتجاه. أنا أعرف جيداً جميع أولئك الذين تبجحوا في تلك الفترة قائلين: «سنقدم لكم مسجداً هنا؛ سوف ننتزعه منهم، سواءً قبلوا بذلك أم لم يقبلوا!». ربما كانوا يتخيلون في تلك الفترة بأنهم سوف يذهبون بعد ذلك إلى الجنة مباشرةً. (...) كان انتصارهم سيتمثّل في أن ترفض الإدارة إقامة المسجد، وكان سيكون له في تلك الحالة قيمة، قيمته الحقيقية. عوضاً عن ذلك، رمي بوجههم كشيءٍ لا قيمة له؛ فقد كان أقل كلفة من زيادةٍ في الرواتب بمقدار يقل عن مائة فرنك شهرياً، وهي زيادةٌ كان سيتوجب الإضراب والتظاهر والتحرك مع النقابات والتفاوض لأسابيع وأسابيع للحصول عليها. إنّ إقامة مسجد تكلّف من المال والاهتمام أقل من بضعة فرنكات. لكن هل يمكنهم أن يفهموا ذلك؟ لا هؤلاء ولا أولئك. وحين يقولون بأنه «لا يوجد كنيسة لكنه يوجد مسجد» فإنهم لا يعلمون بأنّ النضال كان سيكون شرساً لو أنّه وجد بعض المجانين ليطالبوا بكنيسة. لكننا نعلم بأنه لا يمكن أن يوجد عندهم مجانين من هذا النوع. ثم إنّ الكنيسة بالنسبة لهم مقدسة لدرجة أنهم لم يكونوا سيلوثونها بوضعها داخل المصنع.

[...].

اليوم، وبعد أن أصبحت متقاعداً وتركت المصنع ولا أعلم ما الذي يجري هناك، فإنني لا أزال أتساءل كيف قبلوا بأن تفتح صالة سموها بالمسجد. لماذا قبل المصنع ذلك، لماذا قبلت فرنسا ذلك؟ ليس بمقدوري أن أعطي الدليل، فهو ليس بحوزتي. لكنني متأكد بأن المصنع وفرنسا يقبلان بذلك ضد الإسلام...

❖ لماذا؟ هل لأن فرنسا مسيحية؟

عباس- لا، ليس ذلك لأن فرنسا مسيحية، بل لأن فرنسا لا تكترث. إنها لا تهتم بالأمر. لا تهتم لا بالإسلام ولا بديانتها هي. (...) «إنهم يريدون

مسجداً، وسيحصلون عليه؛ لنعطهم مسجداً...، المهم هو أن لا يزعجونا...»
هكذا فهمت الأمر. لقد أعطونا المسجد بدافع الاحتقار نوعاً ما. (...) بلى، لقد كان علينا نحن أن نفرض الاحترام الذي يستحقه الدين وأن نعيد إلى النظام أولئك الذين اعتقدوا بأنهم سيكسبون شعبيةً بفرض وجود المسجد...
كان ينبغي أن تسمعهم في تلك الفترة. لقد كانوا يقولون في كل مكانٍ يذهبون إليه بأنهم سوف يُخضعون أرباب العمل والحكومة وفرنسا وكل العالم. كانوا يصورون الأمر على أنه تحدٍ وطريقةً يزعجون بها الإدارة: فإما أن تخضع الإدارة ويتخيلون إذن بأنهم منتصرون، أبطال؛ أو أن ترفض، ويربحون أيضاً لأنهم تجرأوا على أن يقيموا نزاعاً لم يسبق له مثيل معها. إذا حصلوا على المسجد، فهذا حسن؛ وإلاّ فإننا نكون قد أزعجنا الإدارة. وهم في الحالتين يريدون أن يظهروا بأنهم مسلمون جيدون، بأنهم مدافعون عن الإسلام. لم يكن بإمكاننا أن نحارب كل الناس علناً، لأنه كان سينبغي محاربة الناس كلهم، كجميع العمال المسلمين أو الذين يظنون بأنهم مسلمون – وحينذاك، فإننا كنا سنبدو أعداء للمسجد وللدين– وكذلك للأسف، وهذا ما يؤلم، ضد المؤسسة التي ليس لديها دون شك رغبةٌ في أن تدخل في نزاعٍ مع جزء من العاملين لديها. ومن أجل ماذا؟ من أجل مسجد! إنها تقبل بمثل هذا النزاع حين يتعلق الأمر بالرواتب أو بشروط العمل، لكن من أجل مسجد بسيط، ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني عنبراً، خمسة عشر متراً مربعاً... ، الأمر لا يستحق النزاع. والمؤسسة تنوي بالتأكيد أن تأخذ بثأرها، إنها تنوي أن تستدرك الأمر وأن تسترد ثمن كرَمها وتساهلها الذي لا يكلفها شيئاً بالنسبة لأمورٍ أخرى. وحين يأتي الوقت المناسب، فإنها سوف تتذكر وتقول، «لقد أردتم مسجداً، وقد أعطيتكم إياه؛ إن وجود مسجدٍ في المصنع يعني ربع ساعةٍ على الأقل على حساب وقت العمل...». ولذلك، فإنها تدخل في الأمر كافةً العمال المسلمين، سواءً كانوا يصلّون أو لا يصلّون، فالأمر لا يعنيها. «ربع ساعة، دون إنقاص الراتب، هذا يعني زيادةً في الراتب بالقيمة ذاتها...، وينبغي استدراك هذه الزيادة قبل التفكير في أية زيادةٍ أخرى.» هذا ما ستقوله إدارة المصنع وستكون على حق. أي أن من سيدفع الفاتورة

في نهاية الأمر هم العمال المسلمون الجيدون الذين سوف يتابعون الصلاة في بيوتهم كالعادة، وكذلك كافة العمال غير المسلمين.

[...]

المسجد إذن ليس هو المسجد، ونحن لا نطالب به بصفته مسجداً؛ إنه شيءٌ آخر. والجميع يعرفون ذلك: مناصرو المسجد والنقابات التي تساندهم دون أن تساندهم، وكافة العمال المسلمين، وإدارة المصنع.

المهاجر هو «العار مرتين»

❖ كنت تشرح لي على ما أظن ما هو المهاجر.

عباس- كان ذلك لكي أقول لك بأن المهاجر يعني العار. إنه العار مرتين: مرةً بسبب الوجود هنا، فيوجد دائماً شخصٌ ليقول لك ولكي يجعلك تقول - يجعلك تقول لنفسك، هذا ما أحسسته طيلة حياتي - لماذا، ولأية أسباب أنت هنا، أنت هنا فائضٌ عن الحاجة، ليس هنا مكانك، لست أرى إن كنت أنت تشعر بالأمر على هذا النحو أم أنّ الخطأ خطأي وحدي، إن كان ذلك يعود لي أنا، كما لو كان شكلاً من الجنون، هل أنا مجنون؟ إلاّ أنني متأكد من أنّ هذا هو الأمر بالنسبة للجميع، وبصورة تتفاوت حسب الأشخاص، فهذا ما يعنيه كون المرء مهاجراً وهنا، بتجربة هذا المكان، نتعلم ذلك. ينبغي أن يمر المرء بذلك (...).

❖ ما هو العار الثاني؟

عباس- العار الثاني هناك، إنه يتمثل في ترك البلد، في الرحيل من هناك، يتمثل في الهجرة. فالهجرة هي خطأٌ دوماً، سواءً شئنا أم أبينا، حتى حين يخفي الجميع ذلك، حين يخفونه على أنفسهم، حتى حين لا يريد أحدٌ الاعتراف بذلك. يفعل المرء كل شيء لتُغفر له وليغفر هذه «الغلطة» الضرورية، هذه «الغلطة» المفيدة، هذه «الغلطة» التي لا يريدها أحدٌ والتي لا يريد أحدٌ أن تكون «غلطة». هذا هو «عار» المهاجر، وهو، سواءً أردنا ذلك أم لم نرده، «عارٌ» على نفسه، «عارٌ» على أهله، «عارٌ» على الجزائر..

وفي كلّ مرةٍ أُشتم فيها لكوني مهاجراً، فإن الجزائر هي التي يتم شتمها (...).

❖ بكلمات أخرى، فإنّ صورة المهاجر في البلد الأصلي ليست أفضل من صورته في بلد الهجرة.

عباس- على الإطلاق. بل هي أسوأ بالتأكيد. في السابق، لم يكن الأمر بهذه الصورة بل كان صحياً أكثر. كان الناس يهاجرون كي يعملوا، من أجل عائلاتهم، وكان الأمر قاسياً على الجميع؛ كانوا يرثون لنا، لكن لم يكن من الوارد أن نتّهَم بأيّ شيءٍ أبداً. وإن كان هناك اتهام، فإنه كان يحصل فقط حين نفشل أو حين نخلّ بالتزاماتنا، أو حين ننسى أن نرسل المال. كان هناك اتفاقٌ كامل من كلا الجهتين، وكان الكلام هو ذاته: فقد كان رجالنا يهاجرون ليعملوا من أجلنا؛ كنا نهاجر لنعمل من أجل عائلاتنا! لكن لم يكن من الممكن أن يستمر هذا الأمر على الدوام، وخاصةً حين اخذ معظم الرجال يهاجرون إلى فرنسا بصحبة عائلاتهم، إذ أنَّ كلّ شيءٍ تغيّر حينذاك. لم يعد بإمكان تلك العائلات أن تقول، «لقد هاجر رجالنا من أجلنا» ولم يعد باستطاعتنا، نحن المهاجرين، أن نقول «لقد هاجرنا من اجل عائلاتنا». لقد وصلنا الآن إلى توجيه الشتائم لبعضنا: كلّ جهة من الجهتين تحاكم الأخرى، وأصبحت تقول للأخرى بأنها لا تساوي شيئاً؛ وقد تفاقم الأمر بصورةٍ خاصة بعد أن دخلت أمور المال، أي ما يسميه الجميع، هنا وهناك، السندات المالية: فقد أصبحنا الآن نبيع ونشتري المال، ولم نعد نرسل المال لعائلاتنا مثلما كان المهاجرون يفعلون ليكونوا مهاجرين يعملون من اجل عائلاتهم. الجميع يأتون إلى فرنسا ليشتروا السندات المالية والجميع هنا يبيعونها، لكن الجميع يتهمون بعضهم، ويمقتون بعضهم بعضاً بسبب ذلك. يقال بأن الناس هناك الذين لا يملكون شيئاً والذين ينقصهم كل شيء لا يأكلون إلاّ بفضلنا، وبأنهم يعيشون على حسابنا.

❖ كم هو الآن سعر السوق الموازية، «السوق السوداء» للمال؟

عباس- حين تريد أن تقدم خدمةً لأحد أقاربك أو أحد أصدقائك،

فهو 1 إلى 6؛ وعدا ذلك، فإن السعر هو 7. بل إنه يقال بأن السعر سوف يرتفع إلى 8. لمَ لا؟ ليس هناك سببٌ ليتوقف هذا الأمر يوماً ما (...). نعم، ستة أو سبعة أو ثمانية دنانير مقابل فرنك واحد من فرنسا! لكن بما أن كل شيءٍ هناك مرتفع الثمن، وكل شيءٍ يباع في السوق السوداء، فإنهم يردون الأمر لنا جيداً. فما أن تصل إلى هناك وتحتاج لشراء شيءٍ ما حتى يقولوا لك: «فرنسا هي التي تدفع!» {بالفرنسية}.

نحن ننظر إلى بعضنا لا أكثر

❖ .. كيف تجري الأمور؟ ألست نادماً؟ أبناؤك يتدبرون أمورهم جيداً، الذكور منهم والإناث، كيف تجري الأمور بينكم؟

عباس- (...) أقول لك بدايةً بأنّني في كلّ ما قلته حتى الآن، حين كنت أتكلم عن الآخرين... عن الآخرين ظاهرياً، فإنني أتكلّم أيضاً عن نفسي... أنا أعرف وأشعر بأنك قد فهمت ذلك، ولأنك فهمته، فإنه بإمكاني أن أعترف به. وحين أتكلم عن نفسي، فإنني أتكلم عن الآخرين...

❖ لكنه يبدو مع ذلك أنك تلوم الآخرين وتتألم من كون الآخرين لا يطبقون على أنفسهم الكلام الذي توجهه لهم، ولنفسك بالتالي.

عباس- هذا لا يمنع. نحن لا نقول إطلاقاً الأشياء ذاتها، لا نقول لأنفسنا الأشياء ذاتها، لكن هذا لا يمنع من أننا نتحدث عن المواضيع ذاتها، ربما بشكلٍ مختلف، لكن الأمر يؤدي لنفس النتيجة في النهاية: سواءً كان الكلام صادقاً أم كاذباً، فإننا نقول الشيء ذاته، كلٌّ بطريقته، لأننا جميعاً نعيش الوضع ذاته. كلٌّ يحلّ مشاكله كما يستطيع.

❖ لكن هل بوسعك أن تتحدث عن أولادك مثلما تتحدث عن أولاد الآخرين؟ ... فحين نرى مثلاً المصائب التي تصيب كلّ أولئك الأولاد كالبطالة...، والمخدرات...، والعنف...، والسجن في كثيرٍ من الأحيان...، فإنه لا يمكن قول الشيء ذاته عن أولادك. أمورهم مستتبة.

عباس- أوه! الأمر ليس صحيحاً تماماً... بل نسبياً فقط. لكن الأمر

مماثل في كل مكان. إنه صحيحٌ في بعض الحالات، والأسوأ لم يحدث لكن كان حدوثه ممكناً. إنه أمرٌ يخصنا جميعاً... يمكن أن نتساءل: ماذا يعني أن يكون للمرء أولاد في هذه الظروف، أولادٌ كهؤلاء؟ نحن ننظر لبعضنا بعضاً لا أكثر؛ نتقابل في البيت وكلٌ حسب أوقاته. وإذا شاؤوا، فإنه يمكن أن لا نرى بعضنا لعدة أشهر في حين أننا نعيش تحت السقف ذاته.

❖ ولمَ ذلك؟

عباس- لمَ؟ لأن أبي رباني بطريقةٍ تختلف عن الطريقة التي ربيت بها أولادي.

❖ هل كنت تودّ لو أنك ربيتهم مثلما رباك أبوك؟

عباس- لا، ليس بالضرورة؛ بل على العكس، فأنا أعرف بأن ذلك غير ممكن... وكذلك لأنني لست راضياً عن الطريقة التي رباني بها والدي. لكنّ الطريقة التي رُبيت بها تمّت لأنّه لم يكن بوسع أهلي أن يفعلوا غير ذلك. لا هم ولا أحد غيرهم. كانت الأمور تجري هكذا لا أكثر. لكن حين تغيرت الظروف – هنا، الأمر مختلفٌ تماماً- فقد أصبح بإمكاني أن آمل، كان من حقي أن أفكر بأن الأمور يمكن أن تجري بطريقةٍ مغايرة.

❖ وإذن، ألم تجرِ الأمور بطريقةٍ مغايرة؟

[...]

عباس- لا، الأمر لا يتعلق بالطريقة التي يمضي بها من يعملون أوقاتهم، بل على العكس، فلأنّهم لا يعملون، يكون قضاؤهم لأوقاتهم مختلاً: النوم حتى الظهيرة، والاستيقاظ، ثم تحضير فطورٍ دسم، ثم الخروج وعدم العودة قبل الواحدة أو الثانية ليلاً؛ وإذا جاع أحدهم، فإنه يفتح الثلاجة ويتناول منها ما يشاء، ثم يذهب للنوم حتى اليوم التالي في الثانية عشرة أو الواحدة ظهراً وتعود الكرّة من جديد (...). البيت لا يجمع كما تقول. ليست مشاغل النهار أو العمل هي فقط التي تفرّق أو تجمع، ففي الحقيقة، كلٌ يمشي في دربه، كلٌ يسير حسب طريقه. لم تعد دروبنا تتقاطع في ما بينها، وهذا ينطبق على كل شيء: على الطريقة التي نعمل بها، والطريقة التي

نكسب بها المال وننفقه، والطريقة التي نأكل أو نشرب وفقها (...). وهذا لا يتعلق بالدين فقط؛ فالأمر مختلف حتى حين لا ينغمسون في الخطيئة، إنها ليست الطريقة ذاتها في الأكل والشرب. وفي النهاية، فإننا نصبح مختلفين جداً عن بعضنا بعضاً. يجمعنا شيءٌ واحد: أنا أبوهم وأمهم هي أمهم، نحن أبواهم، وهم أولادنا. هل هم يقولون ذلك، يقولون بأنهم أولادنا؟ الأمر ليس أكيداً بالدرجة ذاتها(...). نحن ضمن عالمين مختلفين؛ كلٌّ حسب ذهنه، إنه لأمرٌ طبيعيٌّ ألا يجري بيننا شيء... إلاّ في بعض الاستثناءات النادرة، حين تحصل كارثة. وهذا في أحسن الأحوال: فحين يكون هناك شيءٌ هام، أنادي واحداً منهم ليأتي إليّ وأطلب منه أن يستمع إليّ جيداً أن ينتبه إلى ما سأقوله له، ربما يتذكرون حينذاك بأنه يوجد شيءٌ يجمعنا.

❖ يصعب عليّ أن أتخيل الأمور على هذه الصورة المأساوية التي ترسمها لي مع أولادٍ كأولادك.

عباس- نعم، على هذه الصورة. وهذا في أحسن الأحوال؛ وهي الحال مع أولادي. ومع ذلك، فلا توجد عندنا مشاجرات، ولا أحد يرفع صوته. كلّ شيءٍ يتمّ بأقصى أشكال التهذيب. لكن الأمور هي كما قلت لك. هناك من حينٍ لآخر تبادل حقيقي، ويجري مع أمهم أكثر مما يجري معي. أما في باقي الأحيان، فنحن نعيش معاً، وهذا كل شيء.

[...]

كما لو كانوا لا يريدون أن يعملوا إلا حين يطيب لهم

❖ بالنسبة لابنك البكر، كم هو عمره وماذا يعمل؟

عباس- نعم.. الأول هو.. وقد بلغ الآن.. لقد ولد قبل الاستقلال {في الجزائر}، وليس لديه بالتالي جنسية فرنسية. إذن عمره واحدٌ وثلاثون أو اثنان وثلاثون عاماً. إنني أفهمه أقل من باقي أولادي. لديه كلّ شيء، وقد عملنا كلّ ما يمكن عمله من أجله. يمكن له أن يعمل، هو بالذات يستطيع أن يجد عملاً بسهولة، لكنه لا يفعل. أنا لا أفهم. ليس هناك أي سببٍ لذلك. لم

أتوصل إلى العثور على تفسير. ينبغي عليّ الإقرار بأنه ما من سببٍ آخر سوى الكسل...، إنه التفسير الوحيد المتبقي: فهو لا يحب العمل، لا يريد أن يعمل، يرفض أن يعمل... هذا يعني بأنه كسول. ليس بمقدوري أن أرثي له، ولا أن أقول بأنه لم يجد عملاً، فهو لم يبحث يوماً عن عمل... بل على العكس، لقد رفض عملاً. أعتقد بأنهم متخاصمون مع العمل، فهو ليس وحده، إنهم مجموعةٌ كاملة يجرجرون أنفسهم بهذه الطريقة.

❖ لماذا إذن لا يعمل كلّ أولئك الشبان، في حين أن بإمكانهم إيجاد عمل كما تقول؟

عباس- تستطيع أن تسألهم!... وما أدراني أنا؟... إنني أتساءل مثلكم، ولن يقولوا لك هم أنفسهم لماذا لا يعملون. إنهم على الأغلب لا يعلمون. يحصل أن أطرح هذا السؤال...، ولم أتمكن يوماً من الحصول على بداية إجابة. الصمت! إنه الجواب الوحيد المتوافر. فالمعني يدير ظهره لي ويذهب. لكنني مع ذلك أسمع ما يقال: الأشياء التي لا بد أنهم يقولونها في ما بينهم، لأنّنا نسمعهم مع ذلك يتكلمون؛ الأمور التي يقولها البعض لأهلهم، فالبعض يتكلمون... ويتكلمون بعنف- إنهم ليسوا كلهم مثل أولادنا الذين يظلون مؤدّبين، أعترف بذلك-؛ الأشياء التي نتحدث عنها في ما بيننا، فنحن لا نتحدث إلا عن هذا! لم أقابل أحداً يوماً إلاّ وأخذ يشتكي إليّ على الفور من أولاده: إنه الشيء ذاته في كل مكان، إنه الداء ذاته، ونحن جميعاً نشتكي من الأمور ذاتها بدرجةٍ متفاوتة، حسب الدرجة التي بلغها الشبان... فهناك بالطبع فروقٌ بين الحالات التي حصل فيها سرقة أو تحطيم أو تدخل للشرطة أو سجن، الخ.، والحالات التي تبقى فيها الأمور في البيت، والتي لم يحصل فيها انحراف، ولا شيء يُرى، لا شيء يُسمع، وحيث يبدو كل شيء على أفضل ما يكون؛ الحق معك، فآباء الحالات من النوع الأول يحسدون آباء الحالات من النوع الثاني.

❖ وما هي تلك الأمور؟

عباس- إذا أخذنا أقوالهم، فإنهم يقولون: إننا لا نريد أن نعمل ولا

نريد عملّهم. أفترض أنهم يقصدون الفرنسيين، العمل الذي يمنحه إياهم الفرنسيون، الذي تمنحه لهم فرنسا... حين كنا نحن نبحث عن عمل، كنا مسرورين جداً حين نجده وكنا نقول: «عمَلنا»... لم نكن نقول «عملهم». الأمر الآن معكوس، فالعمل الذي يمكن لهم أن يجدوه، وهم يجدونه، أصبح عمل الآخرين، إنهم يعملون لحساب الآخرين. لذلك، فهم يقولون، يقولون لك ولأنفسهم، بأنّ الأمر لا يستحق أن يعملوا لحسابهم، لحساب الآخرين. المرء يعمل دوماً لحساب شخصٍ آخر، لصالح ربّ عمل، هناك على الدوام ربّ عملٍ يعمل المرء لصالحه. إنهم لا يتقبلون هذا الأمر. أما أنا، فيبدو لي بأنه ليست لديهم رغبةٌ في العمل، بأنهم لا يحبون العمل، بأنهم يفضلون أن يعيشوا حياةً بائسة، فهم متأكدون بأنهم لن يموتوا من الجوع، لذلك فإنهم يرددون بأنهم «لن يعملوا لحساب الفرنسيين!» إنهم لا يتذكرون إلاّ بمثل تلك المناسبة أن هناك فرنسيون وأنهم في فرنسا؛ أما بالنسبة لكافة الأمور الأخرى، فإنهم فرنسيون وهم يقولون ذلك، يقولون بالفعل - حين يناسبهم أمرٌ ما- بأنهم موجودون في فرنسا وبأنهم فرنسيون! لكن ليس بالنسبة للعمل!

❖ لكن كيف يتدبرون أمروهم؟ إنهم بحاجةٍ لبعض المال كل يوم من أجل نفقاتهم حتى لو كان المأوى والطعام مؤمنين لهم عند أهلهم. وهم ينفقون كثيراً: سجائر، سينما، مقهى؛ لديهم سيارات، ويلزمهم إذن مال لوقود السيارات ولصيانتها. لا بد أنهم لا يعودون لطلب المال من أهلهم كالأطفال الصغار.

عباس- آه! إنهم يعرفون كيف يتدبرون امورهم من أجل الحصول على المال، فهو لا ينقصهم أبداً. وهم يفعلون ذلك دون أن يحتاجوا أبداً لسرقته. هم يعملون أقل ما يمكن: عاماً من أصل عامين، أو بضعة أيامٍ في الأسبوع، أو بضع ساعاتٍ في اليوم. يعملون أقل ما يمكن بحيث يظلون في حالةٍ نظامية، بحيث يكون لديهم بيان راتب. ويتراوح وضعهم بين العمل أحياناً والبطالة أحياناً أخرى. ويمضي الوقت.

❖ هذا ما يدعونه الآن «بالأعمال الصغيرة».

عباس- ربما يسمى ذلك بالأعمال الصغيرة {بالفرنسية}. لكنها عادة ليست وظائف صغيرة مثلما يمكن للمرء أن يتخيل، إنها ليست صغيرةً جداً...، فهي تدرّ عليهم أو ينبغي أن تدرّ عليهم ما يكفي لحياتهم، وهي تدرّ عليهم خاصة، أو أنها بالأخص «تملأ أفواههم {بالفصحى: «تنفخهم»: «أنا أعمل أستاذاً هنا، أو أعمل أستاذاً هناك»، مثلاً}. لا أعلم ما هو مقدار الصحة في كلّ هذا.

❖ إلى من تلمّح؟

عباس- كثيرون هم من يعيشون هذا الوضع، كأكبر أبنائي مثلاً. لديه دائماً بضع ساعات تدريس في تلك المدرسة أو تلك. وهو يدرّس الرياضيات أو الفيزياء، فهذا ما درسه هو. ومعه أيضاً ابن أختي الذي يزيده سناً، والذي يعطي هو أيضاً دروساً أجهل ما هي بالضبط، لكنه هو أيضاً يقول بأنها أحياناً دروسٌ في الاقتصاد وأحياناً أخرى دروسٌ في المحاسبة. وأفكر أيضاً بشابٍ آخر هو ابن أحد أقاربي؛ كان يجب أن يكون مهندساً فقد درس في كليةٍ للهندسة، لكنه يعيش هو أيضاً بهذه الطريقة. وأنا هنا لا أتكلم سوى عن الأشخاص الذين يستطيعون الحصول على عملٍ حقيقيٍ مؤهل، وليس عن الآخرين الذين ليس بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً. كما أنّ القول بأنّ أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً هو قولٌ لا يمكن أن ينطبق على أحدٍ إلاّ في حال كان ذلك الشخص معاقاً، والحال ليس كذلك في ما نقوله. وما ينبغي قوله أيضاً، وهو أمرٌ ينبغي أن نعترف لهم به، هو أنهم عند الضرورة، حين يحتاجون لكسب المال، يَقبلون بأن يقوموا بأيّ عملٍ كان، ولديهم شبكتهم الخاصة. فما إن ينفتح بابٌ أمام أحدهم حتى يتبعه العديدون، ويتناقلون المعلومات التي بحوزتهم. إنهم يعملون، لكن الأمر يبدو كما لو أنهم لا يريدون أن يعملوا إلا حين يطيب لهم ذلك؛ وهم يقولون بأن الذهاب إلى العمل كل يوم في ذات التوقيت للقيام بذات العمل شيءٌ مملّ وأنّ مثل هذا العمل لا يستهويهم.

[...]

يبدو لي أنه كان بإمكانهم خلال كل هذه الفترة أن يجدوا عملاً

حقيقياً. بما أنهم قادرون على العثور على عمل بين ليلة وضحاها، فإنه كان بمقدورهم أن يبقوا فترةً أطول في أحد هذه الأعمال، سواءً أعجبهم أم لم يعجبهم. وبعد أن أصبحوا لا يتوقفون عن التجريب، وعن تغيير الأعمال، وعن القيام بكافة الأعمال الممكنة والتي يمكن تخيلها، من نقل الأثاث إلى الدهان والأعمال اليدوية المتنوعة، فإنهم سينتهون إلى العثور على شيءٍ يناسبهم، على شيءٍ يعجبهم! لكن لا شيء.

❖ لكن هنالك مع ذلك من لا يجدون عملاً، من هم عاطلون فعلاً عن العمل.

عباس- أوه! بلى، وهم للأسف كثيرون جداً. لكنهم ليسوا مثل أولئك، لا يمكن أن يقارنوا بهم. بل إنني أعتقد بأنهم لا يختلطون في ما بينهم ولا يحبون بعضهم. يمكن بنظرةٍ واحدة ملاحظة الفارق بينهم وكلّ ما يفصلهم عنهم. لكن النتيجة هي ذاتها بعد كلّ حساب: فالبعض لا يعملون لأنّ العمل ليس على مزاجهم، والبعض الآخر لا يعملون لأنهم لا يجدون عملاً؛ ويتفق هؤلاء وأولئك في أنه لا عمل لديهم إلاّ من حينٍ لآخر، لا عمل لديهم إلاّ ما يجدونه هنا أو هناك. وهذا في أحسن الأحوال، حين يتفق الجميع على أن العمل هو الوسيلة الشريفة الوحيدة لكسب المال، فلا سرقة ولا سوق سوداء.

❖ لقد بدأت في الحديث عن ابنك البكر. وإذا كنت قد فهمت جيداً، فإنه قد نجح نسبياً في المدرسة، فقد قلت لي بأنه أحياناً يدرّس الرياضيات والفيزياء.

عباس- نعم، لقد قمنا بكل ما بوسعنا كي ينجح في دراسته. لقد أمضى وقتاً طويلاً في الدراسة لأنه اضطر لتغيير وجهته عدة مرات؛ هذا ما قاله لي دوماً. أما أنا، فإنني عاجزٌ عن معرفة الأمر. لقد فعلنا كل شيء وقبلنا بكل شيء من أجله. وفي النهاية، درس في مدرسةٍ في شمال فرنسا، في مدينة ليل، وهي مدرسة للميكانيك، وحصل منها على دبلوم. كان بإمكانه أن يعمل كمهندس ميكانيك في مصنع؛ كان سيكون مهندساً صغيراً بالطبع لكنه درس من أجل ذلك وحصل على الدبلوم الضروري لذلك العمل. لكنه لم

يحاول أبداً؛ وهو دائماً يقول لي بأنّ ذلك سيحصل قريباً، وهو ينتظر. ونحن ننتظر معه.

❖ هو غير متزوج، أليس كذلك؟...

حتى لو كنا نتظاهر بأننا لا نرى شيئاً

عباس- لم يكن ينقص إلاّ أن أزوجه... لا يكفي أنني أطعمه، بل عليّ أيضاً أن أطعم زوجته وقريباً أولاده. ربما يضع ذلك بعض العقل في رأسه: فحين يرغب في الزواج - لقد طُرح الأمر في فترةٍ معينة-، فإنّ ذلك سيوجب عليه أن يجد مسكناً، ولكي يمكنه ذلك، فإنه سنبغي عليه أن يعمل بجدٍ. لقد آن الأوان لذلك.

{تركت ابنته الكبرى البالغة من العمر خمسةً وثلاثين عاماً البيت منذ عشر سنوات}

عباس- هناك في الواقع بنتٌ قبله. إنها بكر أولادي وقد بلغت الرابعة أو الخامسة والثلاثين من عمرها. لقد تركت البيت منذ حوالي عشر سنوات، وهي غير متزوجة.

❖ هل تعمل؟

عباس- إنها تعمل مذ تركت البيت، ولم تتوقف عن العمل أبداً... هذا على الأقل ما أسمعه. هذا ما تقوله لي أمها. أما أنا، فلا أعرف عنها شيئاً محدداً. بل يبدو أنها تكسب عيشها جيداً...، فهي تتكلم عن شراء الشقة التي تسكن فيها الآن.

❖ ما هي مهنتها؟

عباس- أوه! إنها حكايةٌ طويلةٌ جداً. لقد بدأت كلّ تأملاتي حول حياتنا هنا بسببها. كيف يكون المرء هنا، ويعيش هنا، دون أن يكون كما هم الناس هنا، دون أن يعيش كما يعيشون هنا؟ في البداية، كنت أعتقد بأن هذا ممكن؛ بل إنّ ذلك كان يجب أن يكون ممكناً. كان ينبغي أن يكون ممكناً، ولم يكن من الممكن أن يكون الأمر غير ذلك. كان ذلك في البداية، حين كنا

نعيش البؤس في مسكننا الذي كان بيتاً قديماً على وشك الانهيار (...) كان الأمر مقبولاً في المدرسة الابتدائية التي كانت قرب بيتنا، وكانت لا تزال صغيرة. لم أستطع أن أعرف حقاً كيف جرت أمورها في المدرسة. كانت تذهب إلى المدرسة، وحين أنهت مرحلة التعليم الإلزامي في السادسة عشرة من عمرها، كان ذلك أفضل برأيي. لقد عادت إلى البيت ولم تخرج منه بعد ذلك.

❖ ماذا يعني قولك «لم تخرج منه بعد ذلك؟»

عباس- ولماذا تخرج؟ ما الذي تفعله في الخارج؟ مكانها في البيت. كنت أجد ذلك الأمر طبيعياً جداً. لم يكن وارداً أن تسير الأمور بشكلٍ مختلف. كان الأمر على هذه الصورة لا أكثر. حتى أمها لم يكن ينبغي لها أن تخرج.

❖ وكم دام ذلك؟ ألم يحصل من طرفها تمرد أو احتجاجات؟

عباس- لست أدري... ربما لم تكن سعيدةً بوضعها ذاك، لكن ما العمل؟ أعتقد بأنها هي نفسها لم تكن تعلم.

❖ ألم تطلب أن تعمل خارج البيت؟ ففي تلك الفترة التي لا بدّ أنها السبعينات، كان العثور على عمل أسهل مع ذلك منه اليوم؟

عباس- لم يطرح الأمر أبداً في تلك الفترة، فلم يكن ذلك وارداً ولا يجري... لم يكن يجري بعد في محيطنا.

❖ لقد رفضتَ وعارضتَ أن تعمل.

عباس- لا، لم أضطرّ لذلك. لم يرد عملها في ذهن أحد.

❖ كيف جرت الأمور بالنسبة لها خلال تلك الفترة؟

عباس- لقد عاشت في البيت، هذا كل شيء. لكن المشاجرات بينها وبين أمها لم تكن بالطبع تتوقف.

❖ ومعك أنت؟

عباس- معي، لم يكن ذلك وارداً إطلاقاً. لا معها ولا مع الآخرين.

ليس لي أن أناقش تلك الأمور معها. إنها تعرف رأيي وليس لنا أن نعود إليه، هي وكل الآخرين؛ هي وأمها أيضاً.

❖ لماذا لم تزوجها والحال كذلك؟ لقد طُلبت بالتأكيد للزواج، أليس كذلك؟

عباس- بلى، لقد طُلبت للزواج عدة مرات. لكن كل تلك الطلبات كانت تمر عبر أمها، وبما أن أياً منها لم يناسبني وأياً منها لم يناسبهما كما يبدو، فإنني لم أشأ أن أضغط عليهما. إنها بعد كل شيء ابنتي: لها الحق في الحياة في البيت حتى آخر أيامها... أو أيامي؛ من حقها ألاّ ينقصها شيء، ضمن إمكانياتي.

❖ لها الحق في ألاّ ينقصها شيء، سوى حرية تحركاتها!

عباس- أظنّ أنها لم تطلب يوماً أكثر مما لديها. رغم أنها لم تكن تفعل سوى أن تقاطع الآخرين كما سبق لي القول. كانت تقاطع كل شيء وكل الناس وأمها والوجبات بل وذاتها (...).

❖ وكيف انتهى كل ذلك؟

عباس- لقد انتهى بصورةٍ معاكسة لما كنت أريده في تلك الفترة... وما لا زلت أريده، لو لم يتجاوزنا الزمن، لو لم يهزمنا الزمن، لو لم يجبرنا الزمن على الخضوع وقبول ما لا يُقبل.

❖ بكلماتٍ أخرى، فإنّ الزمن هزمكم لكنه لم يقنعكم.

عباس- لا، إنه لم يقنعنا أبداً؛ ينبغي القول بأن ذلك صحيح. إنّ الله أقوى...! هناك أوقاتٌ ينبغي فيها أن يصمم المرء على قبول ما لايمكن تجنبه؛ لقد قاومناه وأبعدناه عنا ما أمكننا ذلك. لكن الحقيقة موجودةٌ هنا: لا يمكننا أن نعيش وحدنا في هذا العالم؛ نحن في فرنسا، وسواءً أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا، فإن فرنسا هي هنا ونحن في داخلها، ومن الطبيعي أن تصبح في داخلنا، أن تدخل إلى داخلنا، حتى لو لم تدخل إلى قلوبنا. بالنسبة لي، فإن فرنسا لم تدخل ولن تدخل أبداً إلى قلبي، وهذا شيءٌ لا أخفيه، وأنا أقوله باستمرار، وأعيشه يومياً. أنا أعلم بأنني سوف أموت هنا،

وقد رأيت العديدين ممن هم في عمري وممن هم أكبر مني سناً يموتون، وكانوا قد أتوا إلى هنا لفترة مؤقتة مثلي، لكن كم كان من المفترض أن تدوم هذه الفترة؟ لم يكن بإمكان أحد أن يعرف، لكن لم يكن بإمكان أحد أن يعتقد بأن ذلك كان سيمتد طيلة الحياة، وأنه سيمضي حياته كلها هنا. والأمر سيكون هو ذاته بالنسبة لكلٍ منا، وبالنسبة لي أيضاً. سوف يحصل ذلك يوماً ما، لكن ليس باستطاعتي أنا أن أعتبر بأنّ هذا البلد بلدي. إذن، ولهذا السبب، فإن المقاومة لم تعد تفيد في شيء. (...) أنا لم أتغير في أعماقي، ولم أتخلَّ عن شيء. لذلك فإنه ليس عليّ أن أساعد أو لا أساعد. إنني الآن أحتفظ بكلّ شيءٍ لنفسي. الآن، بعد أن أصبحت أعلم بأنه لا يمكن لأحد أن يؤيدني، حتى من أهل بيتي، فإنني أصمت. ليتصرفْ كل شخصٍ بالطريقة التي تجري هنا.

❖ هذا يعني بأنك تكتفي بعدم منع ما لم تعد قادراً أصلاً على منعه. لكن كيف جرت الأمور في حالة ابنتك؟

عباس- أنا نفسي لا أدري... هناك سلسلةٌ كاملة من الأسباب الصغيرة والتي توصل إلى حدوث الأمر دون أن نعرف حقاً كيف حدث. هذا صحيح. وحتى لو تظاهرنا بأننا لا نرى شيئاً وأننا بالتالي لا نقول شيئاً، فالأمر جليّ: تلك الفتاة كانت تعيسة. نحن متفقان على أنه لم يكن ينقصها شيء وأنها كانت في البيت وأنني كنت أصرف عليها، وأنها كانت عند أهلها أي في بيتها بشكلٍ طبيعيّ جداً. لا يمكن توجيه أي مأخذ على هذا كله...، ولم يكن يبدو بأنها تقول شيئاً ضده، لم يكن يبدو بأنها تقول شيئاً إطلاقاً. لكننا كنا في الواقع نتظاهر بأننا لا نرى شيئاً، وهناك سلسلةٌ كاملة من العلامات التي كانت تشي بعدم الوفاق مع هذا الوضع وبالاحتجاج ضده، معي أنا على الأقل، فالمناقشات مع أمها كانت عنيفةً بالأحرى.

❖ بما أنك كنت تعلم، كيف كان رد فعلك؟

عباس- نحن معتادون على هذه الأمور. بالنسبة لي، هما امرأتان في البيت، حتى لو كانت إحداهما هي الأم والأخرى هي الابنة، ولا يمكن تجنب

وجود مشاكل بينهما؛ هذا ما كنت أقوله لنفسي. ولم أكن أستمع، أو أنني كنت بالكاد أستمع حين كانت أمها تقول لي، وكنت أجيب في كل مرة: «الأمر يخصكما، تدبرا الأمر في ما بينكما، لست أنا من سيتدخل في أموركما». أي أنني كنت أتصرف وكأنه لا يحدث شيء.

❖ هل كانت هناك علاماتٌ أخرى تشي بضيق ابنتك، علاماتٌ أهملتَها في ذلك الحين، وفضّلتَ، كما تقول، عدم رؤيتها؟

عباس- لا، لم تكن هناك علاماتٌ كثيرة. ربما كان من بينها العزلة والصمت الذي كانت تتحصن داخله تلك الفتاة. لكن ذلك طبيعي على كل حال. لا يوجد ما تقوله، لنا على الأقل، اليوم كما البارحة. وحتى الآن، وحين تأتي لقضاء بضعة أيام في البيت، فإنها لا تقول شيئاً... ولا يوجد ما تقوله. لن نحكي الحكايات لبعضنا. لكن ما يدعو للتفكير، هو حين ينبغي مواجهة المكاتب الحكومية في مثل هذا النمط من الأوضاع. حينذاك أدركتُ بأنّ هناك العديد من الأمور عندنا لا يفهمها الآخرون، والتي لا مكان لها هنا. إنّ العديد من الأمور التي نعتبرها طبيعيةً مثل كون ابنتي تقيم في بيتي هي غير مقبولة هنا. لقد كانت ابنتي مريضةً لفترةٍ طويلة، وعاودها المرض عدة مرات، لا أحد يعرف لماذا، لكن توجب في كلٍ مرة إرسالها إلى مصحة للراحة. وفي كل مرةٍ أدخلت فيها إلى المشفى، حصلت المشكلة ذاتها: ليس لديها ضمان اجتماعي والضمان الاجتماعي الخاص بي لا يمكن له أن يغطي نفقات المشفى. لم يفهم الموظفون لماذا لا يوجد لديها ضمان صحي، ولماذا على الأقل لم تسجل في قوائم العاطلين عن العمل. لم يفهموا لماذا كنت أقول بأنها لا تطالب بأن تعمل. وفي كل مرة كان ينبغي تقديم طلب إعانة أو مساعدة. بل إنني اضطررت لأن أجري لها تأميناً إرادياً.

❖ بمَ كانت مريضة؟

عباس- لم يعرف أحدٌ بالضبط. إنها الأعصاب كما يقولون. هذا ما يقولونه لي في كل مرة. ينبغي لها أن تغير الأجواء التي تعيش فيها.

❖ وكيف انتهى الأمر إذن؟ ما الذي أصبحت عليه الآن؟

عباس- لقد انتهى الأمر بصورةٍ تدريجية، فقد صادفت مساعِدةً اجتماعية في المنتجع الذي كانت فيه. كانت تذهب لقضاء عطلة من عدة أيام في بيتها، وحصل ذلك عدة مرات. وفي أحد الأيام، قالت لأمها بأنها سوف تبقى فترةً أطول وأنها لن تعود فوراً لأنها سوف تبحث عن عمل. انهارت أمها لكن لم يكن بإمكانها أن تصدّق ذلك، أن تصدّق بأنها سوف تنجح: فهي فتاة لم تكن قد عملت أبداً ولا تعرف أن تفعل شيئاً، وفي وقتٍ يصعب على الجميع، على آخرين غيرها، إيجاد عملٍ فيه، حتى حين يكونون معتادين على العمل. لم يكن يمكن لأحدٍ أن يصدّق. لكنها نجحت ووجدت عملاً ويبدو بأن العمل لم ينقصها أبداً. إنها الآن مساوية للجميع، مساوية لأخوتها ولأخواتها، بل ربما كانت متفوقةً على أخوتها، وخاصةً أولئك الموجودين هنا دائماً، الذين يروحون ويجيئون دون أن يعملوا. بل هي بالأحرى مساويةٌ لي: إنها «رجل» مثلي، وقيمتها مساوية لقيمتي. لقد خرجت، وهي تكسب عيشها وتتحمل مسؤولية نفسها... لم أكن أريد ذلك أبداً، لا لي ولا لها، ولا للاسم الذي أحمله، على الرغم من أنّ هذا الاسم قد عانى كثيراً من كل الذين يحملونه، وهم كثر. لكن الأمر هكذا، ومن الأفضل أن يكون هذا من أن يكون أسوأ.

الذنب ذنب الهجرة

❖ بعد كل شيء، وفي النقطة التي وصلنا إليها، وبما أن النتيجة النهائية هي هذه، ألا تأسف لسلوكك في الماضي، وخاصة تجاه ابنتك، فقد جعلتها تضيع وقتها، كما أنها تألمت... بصورةٍ مجانية، هذا ما بدا اليوم.

عباس- لا. ليس هناك ما آسف عليه. وإن كان هناك شيء آسف عليه فهو الوضع الراهن. أشعر بالأسف لأنها أظهرتني على خطأ. أنا لست على خطأ، كما أنها هي أيضاً {ابنته} ليست على خطأ. لست أعلم إن كنت تعرف الحكاية التي يروونها...، إننا في الوضع ذاته.

❖ أية حكاية؟

عباس- تجري الحكاية في قديم الزمان، حين كانت الشتاءات باردة وكانت وسيلة التنقل الوحيدة هي السير على الأقدام. يحكى بأنّ مسافراً فاجأته الثلوج التي كانت تهطل بغزارة. وحين وصل المسافر إلى أقرب قرية، طلب من أصحاب أول بيت انفتح أمامه أن يؤووه، فقُبل طلبه. لكن هطول الثلج تتابع بكثافة متزايدة، مانعاً أية محاولة للرحيل. وتتالت الأيام، يوماً بعد يوم، حتى قاربت أسبوعاً، ولم يبدُ أي مخرج. وبدأ أصحاب البيت يشعرون بأن وجود الغريب قد أصبح حملاً ثقيلاً عليهم. ينبغي القول بأنّ الناس جميعاً كانوا في تلك الأيام فقراء، وخاصةً في الشتاء، ولا بد أنّ أصحاب البيت لم يعودوا يجدون ما يطعمونه للمسافر التعيس الذي فهم ذلك. وفي أحد الأيام، اندلع بوجوده شجارٌ بين الزوج والزوجة. لم يكن المسافر ساذجاً، فقد عرف أنّ الشجار ليس سوى ذريعة. نظر مرتبكاً إلى الجهة التي يقع فيها الباب الذي حاصرته الثلوج وقال لمضيفيه تلك الجملة التي أصبحت شهيرةً: «أنا أعرف، الذنب ليس ذنبي ولا ذنبكم، بل هو ذنب السماء {الطقس السيئ} التي أتت بي إلى هنا والتي لا تزال تحتجزني!». إنه الأمر ذاته، فلا أنا مذنب بخطأٍ يمكن لي أن آسف له، ولا هي مذنبةٌ بخطأٍ يمكن أن ألومها عليه. الذنب ذنب الهجرة {بالفرنسية} كما يقولون! هذا هو السبب في أنه من غير الوارد إطلاقاً بالنسبة لي أن أحتج ضد هذا أو ذاك، ولا أن أقاطع الناس وأغلق بابي وأن أقول كما فعل البعض «إنني أتبرأ منك، لم تعد ابني (ولم تعودي ابنتي) ولن تضع قدميك في البيت ثانيةً!». لا، هذا أمر غير مقبول.

1990

عبد المالك صياد

الانعتاق

للّقاءات التي نُقل جزءٌ منها هنا قصتها الخاصة: فهي ثلاثة لقاءات متتالية دام كلٌ منها ما بين ساعتين وثلاث ساعات، بغضّ النظر عن المحادثات العديدة التي سبقتها أحياناً (حتى لو لم يتجاوز الهدف منها التحضير للّقاءات)، ورافقتها أو تبعتها أحياناً أخرى، فساهمت بالتالي في توضيح معناها. وينبثق هذا الاستقصاء من استقصاء آخر سبقه، وهو يهدف بالأساس إلى إطالته وإكماله: فأثناء تساؤلنا عن الشروط الدراسية لأولاد بعض العائلات المهاجرة (من المغرب وتونس بشكلٍ أساسي)، تسنى لنا أن نقابل فتاةً كانت قد حصلت لتوها (عام 1986) على الماجستير في اللغات التطبيقية من جامعة ريفيةٍ صغيرة، ووافقت على أن نجري معها الاستقصاء. وحين أدركنا بأن العنصر المناسب هنا ليس الطالبة بل العائلة بأكملها ومجموع أولاد هذه العائلة، فقد طلبنا أن نقابل، إن كان ذلك ممكناً، جميع أخوة وأخوات تلك الفتاة التي نجري معها الاستقصاء. عرضت الفتاة علينا أن نقابل بادئ ذي بدء أختها الكبرى فريدة التي كانت تسكن عندها بصورةٍ مؤقتة والتي «فتحت الطريق أمامها»، وقد حصل ذلك رغماً عنها بالتأكيد وحتى دون أن تدرك ذلك.

بتأثير إلحاح أختها الصغرى بالطبع، انتهى الأمر بتلك المرأة الشابة

التي تبلغ الخامسة والثلاثين من عمرها إلى الموافقة على مبدأ إجراء محادثة يُفترض بأنها تدور أساساً حول العلاقة بالمدرسة، وذلك رغم أنّ ردود أفعالها كانت شبيهةً بردود أفعال مراهقة بسبب افتقادها للخبرة بالحياة العامة وبالحياة الفعالة، ورغم أنها بدت في البداية نفورةً جداً وشديدة الريبة والارتباك. إلاّ أنّ فريدة وافقت على أن تسرد كل قصتها بالتفصيل، برضى حقيقي وارتياحٍ بالغ: وهي قصة طفولتها الأولى، حين كان عليها وهي ابنة مهاجرٍ يعيش في فرنسا، أن تعيش عند جديها لأمها في الجزائر العاصمة لهذا السبب وبسبب الحرب أيضاً؛ ثم قصة وصولها إلى فرنسا في عمر صفوف الحضانة، التي لا تتذكر بأنها ذهبت إليها كثيراً، وقصة دراستها في المدرسة حتى سن السادسة عشرة، عند انتهاء فترة التعليم الإلزامي؛ ثم، فيما بعد، قصة «سجنها»، «حبسها»، ثم قصة نزاعاتها مع أمها، و«حقدها» على أبيها، وتحويل عاطفتها لأخوتها وأخواتها الأصغر منها سناً؛ وقصة «إحباطاتها» المتعددة وكذلك كلّ الأشكال التي ابتكرتها في المقاومة «للحفاظ على سلامتها النفسية» («كيلا أفقد عقلي، حتى لو كان يمنع على قدميّ اللتين تحملانني أن تسيرا؛ هذا ما كان يهمني»)؛ وفي النهاية، قصة انعتاقها والدروس التي تستخرجها بنفسها من تلك المسيرة التي جعلتها «تعبر، كما تقول، قروناً بأكملها» خلال عقدين من الزمن وجعلتها تكتشف بمفعولٍ رجعي كم كانت الحياة التي عاشتها ثقيلة في واقع الأمر، «تلك الحياة الخفية وشبه النباتية...، الخالية من أية أهمية أو أي سحر...، الحياة الفارغة من الانشغال ومن المعنى، الحياة المجردة من المغزى... ومن أين يأتيها المغزى؟...، حياة البطالة...، الحياة الباهتة التي يتكرر فيها كل شيء...، والتي لا تحتسب فيها الأيام ولا السنون، التي ليس فيها ما يجعل الأيام والليالي غير متماثلة، أو يجعلها تختلف عن بعضها...، الحياة التي ليس فيها شيء، والتي ليس لها محتوى...، أنا لا أتحدث فقط عن النشاطات- فعلى هذا الصعيد، يستطيع المرء دائماً أن يشغل أيامه بل ولياليه إذا كان معتاداً على الأرق، - لكنني أتحدث أيضاً عما يجري في الرأس... في الفكر». إنها رؤيةٌ متأخرة، هذا صحيح. لكن هذه الرؤية غير

ممكنة أولاً إلاّ بشرط أن «يخرج المرء من الملل» ليستطيع أن يقيس الدرب الذي قطعه، لأنه لم يكن هناك قبل ذلك مكانٌ إلاّ للتكرار...، لفعل اجترار للطعام ذاته... وأنا، لذات الأسئلة: «لمَ كل هذا؟ لمَ هذا الظلم، ما الذي فعلته للسماء، لمَ وُلدتُ في هذا البؤس...، أي حل لهذا المأزق، الخ»).

وبعد ذلك، فإنّ التفكير في الذات يشكل بالنسبة لها، في شروط معينة، رد الفعل الوحيد الممكن لحماية تلك الذات، بشرط أن تكون مجبرةً موضوعياً على تبني ما يكون من المناسب تسميته بوضعية التحليل الذاتي. هناك أوضاعٌ مسكونةٌ بتناقضاتٍ قوية جداً، وتفرض على المرء أن يتساءل بعمق ليستطيع فهمها. وربما يكون ذلك لأننا نعلم بأنه لا توجد لحالات المأزق تلك حلولٌ ذرائعية، «خارجية»، على مثال اللجوء إلى طرائق وخدع مقررة مسبقاً، ولأنّنا نعلم أيضاً أنّه من غير الممكن عزو المسؤولية عن تلك الحالات إلى عاملٍ محدد تماماً – وهذا يستبعد حتى فكرة التمرد ذاتها–، وأنّ طريقة التساؤل التي تفرض نفسها في تلك الحالات تتاخم البحث عن الحقيقة السوسيولوجية؛ إلا أنّ فهم الحالة، المجاني ظاهرياً، الذي نقدمه لأنفسنا حينذاك يسمح بسيطرةٍ نسبية على تلك الوضعية ويشكل حينذاك نوعاً من شرط البقاء على قيد الحياة، وشرط «البعث» النهائي في هذه الحالة. وإذا كان التقاء الأوضاع غير المتساوية يقوّي عند المسيطر الجانب الاجتماعي الوسطيّ في كثيرٍ من الأحيان، فإنه يُلزم المسيطر عليه (المستعمَر، الأسود، اليهودي، المرأة، المهاجر، الخ.) بالعمل على إضاءة العلاقة، وهو عملٌ يطال الذات. وتفرض الضرورة العملية، والتي يمكن القول بأنها حياتية، الانحناء أمام التحليل الاجتماعي؛ وعلى المدى الطويل، يؤدّي هذا الاستعداد إلى تشكيل «طبيعةٍ جديدة» ويوجّه كافة حركات وسكنات الشخص المعني.

إن رغبة المرء في أن يعرف من، لماذا، وكيف هو على ما هو عليه أو، بصورةٍ أكثر ابتذالاً، لمَ هو مختلف عن الآخرين، هذه الرغبة ليست، في حالة فريدة، «بحثاً عن الهوية» وحسب كما يقال اليوم؛ إنه هاجسٌ حقيقي

ساهمت معطياتها الشخصية (لم يسجل مولدها في السجل المدني خلال المهلة المحددة، ولا حتى ضمن المقاطعة التي تمت فيها ولادتها بالفعل، ولا سُجل زواج أبويها) في دوامه وإعطائه منحىً مأساوياً في نظرها: «ينبغي إذن أن أقدم نفسي... من أنا؟ لا أعلم... إنني أتساءل ولا أفعل سوى ذلك... حتى عمري ليس أكيداً، عمري ليس ملكي...؛ حتى هذا زائف... ويصل المرء إلى التساؤل إن كنت موجودة فعلاً، فكل الناس لديهم تاريخ ولادة: يوم، وشهر، وسنة... وعيد ميلاد (...) والأمر نفسه بالنسبة لمكان الولادة...، فهو غير موجود. يمكن لي أن أتسلى بكل ذلك... لقد حدّثوني عن سهوٍ في السجل المدني، الكلمة جميلة؛ لقد سهوا عن وجودي وسوف أصرّف فعل سَهَا (وهذا ما فعلته) في كلّ الأزمنة وفي كل الأشكال. هذا فعلٌ أحبه...، إنه فعلٌ يقول الحقيقة...» وما إن استُكمل انعتاق فريدة وتحررت من ذلك الهاجس حتى أتت الإدارة لتذكرها مرةً أخرى «بالخلل والخطأ البدئيين». وبالفعل، ففي دعوى التجنيس، لاحظت الدوائر ذات الكفاءة الفارق بين تاريخ ميلادها (الوهمي) وبين تاريخ زواج والديها (الوهمي هو أيضاً) والذي يلي تاريخ ميلادها بثلاث سنوات، بل إنهم «طلبوا منها إبراز أية وثيقة تحدد تاريخ الزواج الديني (كذا) لأبويها».

من السرد البالغ الطول الذي قدمته فريدة لحياتها وللتجارب العديدة التي قامت بها والمتعلقة «بالازدواجية» و«بالانقطاع» اللذين أجبرت عليهما، قررنا ألاّ نحتفظ إلاّ بالمقاطع التي تبرز التطور، السريع إجمالاً، الذي حصل في عائلتها والذي أدى إلى التكييف الكامل في السلوكيات الذكرية والأنثوية معاً، وفي العلاقات الداخلية في الأسرة، وفي التناسق العام للانفعالات والمشاعر الأسرية. وتقرّ الأختان أنّ «والديهما قد تعلّما دورهما، تعلّما أن يكونا أبوين نوعاً ما»، كما تقرّان بأنّ عوامل هذا الترويض المفروض أو المرغوب – فهو مفروضٌ ومقبولٌ في آنٍ معاً –، هو أنّ المربّين الحقيقيين كانوا البنات أكثر من الأبناء، والكبرى أكثر من أخواتها الأصغر سناً، فالمفارقة تكمن في أنها هي التي «فتحت الطريق أمامهن»، حين أظهرت

نفسها خاضعةً ومستسلمةً للعلاج الذي فُرض عليها، وحين لم «تأخذ حريتها» إلاّ بعد فترةٍ أطول بكثير من أختيها الأصغر سناً- اللتين قامتا بدراسات عليا جيدة نسبياً وتركتا البيت الأبوي بمجرد انتهاء دراستهما: إحداهن اليوم مدرّسة في ألمانيا، والأخرى تعمل في مجال السياحة في برشلونة. إنّ تنوّع المسارات والمسؤولية الموضوعية (لا حاجة إطلاقاً لتوضيح هذه المسؤولية ولا جعلها موضوعاً لمحاكمة يمتنع عنها الجميع) للأبوين في هذا المجال، يجعلان انطباعاً غائماً بالذنب يسكن نظام العلاقات بين الأبوين والأولاد، وبين الأخوة والأخوات: بين الأخت الكبرى، «الضحية» المتفانية التي ضُحّي بها، وأبويها بالدرجة الأولى، وكذلك بينها وبين أخوتها وأخواتها الذين يكنّون لها نوعاً من العرفان غير المعلن. وربما كانت وضعية الضحية تلك التي تتشكل بنوعٍ من تبكيت الضمير، وهو وضعٌ يُرضي فريدة، هي التي تجعلها تتصرف كنموذجٍ «للورع البنويّ»، بصفتها الابنة «الأفضل» تجاه أبويها وأبنائهم الآخرين كافةً، وخاصةً الذكور منهم. هل هو شكلٌ من الثأر الموجه ضدّ أبويها وضدّ نفسها، وكذلك ضد ماضيها (هي عصاميةٌ عنيدة)؟ تبدو هنا معرفة كيف تَغفر وتُظهر تلك المغفرة كشكلٍ أعلى للنصر الذي نالته ضد أشكال بؤس الحياة.

مع جزائريةٍ شابة

أجرى اللقاء عبد المالك صياد

فريدة- كنت أذهب إلى المدرسة لا غير، دون أن أعرف ما هي...؛ وأظنّ بأنه ما من أحد يعرف ما هي المدرسة. كيف تريد من أهلي أن يعرفوا ما هي؟ لم يذهبوا إلى المدرسة أبداً. كنت أذهب إلى المدرسة لأنّ ذلك واجب وحسب. بعد فترة، وفي المدرسة الإعدادية، وحتى الصف الثاني الإعدادي، تم توجيهي نحو التعليم المهني كموظفة مكتب – فقد علموني الضرب على الآلة الكاتبة وشيئاً من الاختزال... الذي نسيته الآن-، وبدأت المضايقات حينذاك من أبي. كان يراقبني باستمرار، منذ لحظة خروجي من البيت. الخروج... كان يعني الخروج للذهاب إلى المدرسة، من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، هذا كل شيء. لم يكن هناك خروجٌ غيره. وحتى هذا الخروج كان موضع شك. وكنت في نهاية الأمر أشعر بالخزي، فقد كان أبي يأتي لانتظاري عند باب الإعدادية ويرافقني كما لو كنت طفلةً صغيرة... لا، ليس كذلك. لم نكن أبداً معاً كما يحصل عندما يذهب المرء ليرافق شخصاً: فهو كان يمشي من جهته، وأنا من جهتي كما لو لم يكن أحدنا يعرف الآخر. كان كل رفاقي ورفيقاتي في المدرسة يسخرون مني، «هاهو أبوك! ألا ترينه! لمّ لا تذهبين نحوه...!» كان يمكن رؤية المدرسة وجزء من الطريق من نافذة البيت بشكلٍ جيد، وكان أبي يتمركز قرب النافذة

ليراقبني. لست أدري كيف لم يخطر بباله أن يشتري منظاراً مكبّراً لهذا الغرض... لقد تغيرت الأمور كثيراً منذ ذلك الحين، ويكاد المرء لا يصدّق، وهذا التغير سريع رغم كل شيء. في زمني، كان هناك هاجس عند أبي، وكان يقول لكل الناس، وقد سمعت ذلك عدة مرات، «من غير الوارد أن تُرى ابنتي في الحافلة، ولو حصل ذلك، فلن أعرف أين أختبئ!» بل إن الأمر وصل به إلى القول بأنه سوف يقتل نفسه إن حصل ذلك. وكنت أصدّقه، الجميع كانوا يصدّقونه. كان ذلك أشبه بالابتزاز...، كان ابتزازاً لم ينفع في شيء إن لم يكن في إفساد الحياة طوال سنوات عدة؛ لقد جعلني هذا الأمر أضيع كثيراً من الوقت. إن كل ما كنت أسمعه في تلك الفترة كان بالفعل من نمط: «لقد شوهدت زوجة فلان... أو ابنة علاّن... في الشارع أو في السوق، أو في الحافلة!» إذن، لم يكن يجوز مشاهدة النساء القليلات الموجودات، فذلك كان يعني العار، وكان الأمر يتعلق بالشرف كما كانوا يقولون. كان ينبغي إذن الاختباء، الاختباء ولا شيء آخر بانتظار أن تنغلق جدران البيت لتخفيني بصورةٍ مضمونةٍ أكثر. هذا الأمر هو أكثر ما آلمني. بل إن الأمر وصل بأبي في آخر عامٍ دراسيٍ لي إلى إيجاد طريقٍ لم يكن أحدٌ يسلكه، وكان هذا الطريق ينعطف كثيراً ولم يكن آمناً على الإطلاق، وخاصة في الشتاء، لكن أبي كان يجبرني على سلوكه. كل ذلك كيلا يقول أحدٌ بأنه قد رأى ابنة السيد. كان ذلك سيجرح كبرياءه.

❖ أكاد لا أصدّق ذلك وأنا أراك اليوم. أي طريقٍ سلكه الجميع! الحقّ معك حين تقولين بأنّ الأمور تغيرت وبأن ذلك لا يكاد يصدّق.

فريدة- لم ينته الأمر. حين أستعرض كل شيء، فإنّ ما يؤلمني بعد أن تخلصت من ذلك، إن كان من الممكن أن نسمي ذلك خلاصاً، هو أنّ ضراوة أبي لم تنفع في شيء، في حين أنه، من وجهة نظره، كان يعتقد بأنه يحسن صنعاً، وماذا كانت النتيجة؟ صفر! إنني أعتقد اليوم بأنه يستحق أن يرثي المرء له. أودّ كثيراً لو أنني أعلم رأيه اليوم بهذا الأمر في أعماقه. هل هو نادم أم لا؟ لست أدري، لكنني لا أظن. إنني اعرفه بما يكفي، فلديه منظومةٌ

أخلاقية وهو واثقٌ منها؛ إنّ أخلاقه هي التي تخلت عنه، ومثله لا يمكن أن يتخلى عن أخلاقه، لكن كيف ينظرون لنا أنا وأخواتي؟ لم يكن ذلك ما كان يتمناه حتى بالنسبة لأمي وأخوتي. أنا الآن أتجول وأسافر وأعود إلى البيت ليلاً وأخرج. بل إنني أنزّه أمي واصطحبها إلى السينما وأجعلها تقوم ببعض السياحة، وأصطحبها إلى المطعم وآخذها للتنزه في المركب على نهر السين.

❖ ما هو أكثر ما تأسفين له في ذلك الماضي؟

فريدة- إنّ أكثر ما آسف له هو المدرسة. لم يساعدني أحدٌ أبداً. بالطبع، فقد كنت الكبرى ولم يكن هناك أحدٌ قبلي، لم يكن هناك أحدٌ ليوجهني والآن، وبعد أن مرّ الزمن... فإنني أستطيع أن أقول بأنه لم يكن هناك أحدٌ ليعلّم أهلي ما هي المدرسة. وإذا حكمت من خلال بقية أخوتي، فإنني أستطيع أن أقول بأنهم قد تعلموا. حين أفكر بأنه قبل بضع سنوات فقط، قبل عشر سنواتٍ أو اثني عشر عاماً، كان إخراج الرأس من النافذة يعني أن أتلقى صفعتين، وهذا لا زال يؤلمني، في حين أنني أستطيع الآن أن أذهب إلى الشاطئ وأعود وأجفف لباس السباحة دون أن يقول أحدٌ شيئاً...

❖ ما هي قصة مد الرأس من النافذة وتلقي الصفعات؟

فريدة- أوه! كان ذلك حادثاً عرضياً. حدث ذلك منذ زمنٍ طويل، في العام الذي أنهيت فيه دراستي، كنت إذن في السابعة عشرة من عمري. سمعت من خلال النافذة أخي الصغير يبكي في الشارع، فمددت رأسي من النافذة لأرى ما يحدث. ورآني أحدهم بالطبع: أحد الأقارب، قريبٌ لم يكن أبي يحبه، ولا هو كان يحبنا- ربما كان ذلك لهذا السبب- ولم يكن يتكلم مع أبي، وفي ذلك اليوم، ما إن رآه حتى قال له فوراً «لقد رأيت ابنتك تنظر من الشباك...». وأنا أفهم كم كان غضب أبي كبيراً لأنّ أحدهم قال له ذلك وبالتالي لامه عليه. عاد أبي إلى البيت وصفعني دون أن أعرف لماذا. لقد كرهته حينذاك. لا تزال هذه الحادثة تؤلمني حين أتذكرها. وفي مرةٍ أخرى- وكنا نسكن في بيتٍ منعزلٍ نوعاً ما، في الريف تقريباً- أردت في صباح أحد الأيام أن أغسل شعري، واكتشفت بأنه لم يكن في البيت شامبو. خرجت

بسرعةٍ وبانتباه من الباب، وكانت أمي تراني وتراقبني، وركضت لأعبر الشارع بالكاد باتجاه بقاليةٍ متواضعة أشبه بالكوخ الخشبي، ثم اشتريت عبوةً صغيرة من الشامبو؛ في ذلك الحين كان الشامبو يباع بعبوات صغيرة جداً تكفي حماماً واحداً، ثم رجعت فوراً إلى البيت. هنا أيضاً، رآني أحدهم بالطبع وذهب ليقول لأبي. كان الأمر على هذا النحو طيلة الوقت. (...) ومع مرور الزمن، وخاصةً بعد أن أخذ أخوتي يكبرون، بعد أن أصبحوا راشدين، فإنّ كل شيءٍ قد تغير. لم يعد من الممكن إذن أن يُفرض عليّ ما قد بدأ تطبيقه على الآخرين بالتراخي، وهم أصغر مني سناً. هكذا جرت الأمور. الآن، كيف عشت كل تلك الفترة؟ في الظل، إنه ثقبٌ أسود في حياتي. هو ثقبٌ أسود بالمعنى الحقيقي للكلمة. لم يعد هناك بالنسبة لي فرقٌ بين الليل والنهار، بل إنني كنت أفضّل الليل لأنه كان يسمح لي بالبقاء وحدي. لقد نظّمت شؤون حياتي وتوقيتها بحيث أستطيع أن أكون وحدي أربعاً وعشرين ساعةً في اليوم ضمن ذلك العدد الكبير من الناس، وكان باستطاعتي أن أبقى أياماً بأكملها دون أن أتفوه بكلمةٍ واحدة، دون أن يكون لي حاجةٌ لأن أقول كلمةً ولا أن يقول لي أحدٌ كلمة. كنت خرساء وصماء. كنت أعرف واجباتي اليومية، فقد كانت لي حصة من العمل المنزلي: إيقاظ أخوتي وأخواتي حين كانوا صغاراً، وغسل وجوههم، ثم الإفطار؛ بعد ذلك، أنظف البيت وأغسل الأطباق بعد الطعام. وبعد أن أنجز ذلك، أحبس نفسي في غرفتي ولم يكن أحدٌ يدخل؛ كل ذلك دون أن أتفوه بكلمة، لم أكن أتحدث مع أحد ولا كنت أقول أية كلمة. كان ذلك الصمت أكثر ما يؤلمني. كنت أواسي نفسي مع أخوتي وأخواتي طالما أنهم كانوا صغاراً، هذا كل شيء.

كانوا يطلقون عليّ لقب الفهد

❖ ما هو نمط العلاقات التي كنت تقيمينها مع أبويك، وخاصةً مع أمك، بما أنكما كنتما كلاكما في البيت دائماً، وجهاً لوجه؟

فريدة- مع أبي، لا شيء؛ كان الأمر كما لو لم يكن موجوداً بالنسبة لي، وأظن أنّ الأمر كان مماثلاً من طرفه. الغريب أنّه موجود بالنسبة لي

عبر أمي، عبر ما تقوله لي أمي عنه، أي تقريباً على الشكل التالي: «قال لي أبوك...، أبوك يظنّ أنّ...، يريد أبوك...، أبوك يطلب أن...، ما الذي سيظنه أبوك، ما الذي سيقوله أبوك...، احرصي على أن يعرف أبوك...، انتبهي كيلا يعلم أبوك...، ينبغي ألاّ يعلم أبوك بأنّ...»، الخ.

لم يكن هناك سوى مثل هذه الأمور. وأنا أفترض بأنّني بالنسبة له لم أكن موجودةً إلاّ من خلال ما تقوله له أمي... أو عبر ما يقولانه في ما بينهما حين يتعلّق الأمر بي. أما مع أمي، فكانت المعارضة. لم يكن بإمكاني أن أتهجّم على أحد غيرها. وفي النهاية، لم نكن نوجه لبعضنا الكلام. كنت أعتبرها مسؤولةً عن كل شيء، وأجد بأنها أسوأ من أبي، وأكثر قمعاً منه...؛ وهذا طبيعي، فهي مكلفة بالسهر على كل شيء...، على حسن سلوك ابنتها. كنت أسمعه يقول لها: «إنها ابنتك...» أو: «ابنتك هكذا...، تفكر هكذا...، تصرفت هكذا...»؛ إذن، فالذنب ذنبها بصفتها أمّ تلك الفتاة. حين يخطر كل ذلك ببالي الآن!... كنت وسخة، كنت قذرة، ولا بدّ أن رائحتي كانت بشعة؛ لم أكن أستحمّ، كنت قذارةً حقيقية. لم أكن أخلع عني مئزر... المطبخ، ولم أكن أخلع ملابسي، حتى عند النوم؛ لم أكن أبدّل ملابسي. كذلك، فإنني لم أكن آكل شيئاً...، وكنت أتعرض لنوباتٍ من القمه(*) أو أنني كنت آكل أي شيءٍ وأنا واقفة...، ولم أكن أبداً آكل وأنا جالسةٌ إلى الطاولة، في أوقات الوجبات، مع الجميع. وفي النهاية، أصبحت مصابةً بالأرق، لم أعد أنام، ليالٍ متتالية كانت تمر دون أن يغمض لي جفن. لم يعد لديّ أي إحساسٍ بالزمن: لم أكن أبالي في أي يوم أو أي شهر نحن. أظنّ بأنني تقصّدت ذلك، فقد كنت أقرأ الجريدة دون النظر إلى تاريخها؛ كان الليل والنهار بالنسبة لي سيّان، فقد كنت على الدوام في الظلام أو تحت نور المصباح الكهربائي، ولم أكن أفتح مصاريع النافذة في غرفتي إطلاقاً. هذا بحق هو الامتياز الوحيد الذي قدموه لي، فلم يكن بمقدورهم أن يفعلوا غير ذلك. كانت لي غرفة خاصة بي وحدي، للّيل والنهار، ولم أكن أتقاسمها مع أية واحدةٍ من أخواتي. إذن، كنا أنا وأمي ننظر إلى

(*) القمه أو القهم: قلة الشهية للطعام. -المترجم-

بعضنا ككلابٍ من الخزف الملوّن. كنت أفرغ غلّي فيها، هذا كل ما كان بوسعي أن أفعله. لقد كنت عدائيةً على الدوام، وأيّ كان يمكن أن يصبح عدائياً لأسبابٍ أقلّ. وتبقى هناك على الدوام رواسب، لا بد أنك قد لاحظت ذلك على حسابك {ضحك}. كانت كل مخالبي مشرعة. كان أخوتي وأخواتي يطلقون عليّ اسم الفهد. ورغم ذلك، فهم الوحيدون الذين كان بيني وبينهم حدٌّ أدنى من الحوار، وقليلٌ من التواطؤ.

❖ الصبيان منهم والبنات، أخوتك وأخواتك.

فريدة- نعم، كلهم. بل قد أقول بأنّ علاقتي مع الصبيان كانت أوثق منها مع البنات، إذ أنهم أكبر سناً، فلديّ أخوان اثنان يأتيان بعدي مباشرة. لقد ساعداني كثيراً على طريقتهما، ودون أن يدركا ذلك.

❖ حسناً، لنترك هذا الأمر جانباً، لنتابع ما بدأناه حول أمك، حول علاقاتك مع أمك.

فريدة- علاقاتي مع أمي... كانت علاقات عداوةٍ دائمة، ولم تكن علاقة بغض. البغض... أنا أخجل من أن أقول ذلك، كان البُغض موجهاً نحو أبي... لقد كرهته حقاً. وحتى اليوم، لو أنّ بإمكاني ألاّ أراه لفعلت، والأمر متبادل على كل حال. وأفترض أن هذا الشكل يناسبه. إنها طريقةٌ أخرى في الكذب. إنّه يتظاهر بهذا الشكل بأنه يجهل كل شيء، يجهل بأنني تركت البيت وأنني أعيش وحدي، أي أنني لستُ أقيم عنده في حين أنني غير متزوجة؛ إنه يتظاهر بعدم معرفة أنني أعيش حياتي (...). لكن مع أمي، كان الشجار دائماً. كنت عدائيةً تجاهها مثلما كنت مع الجميع وكان هذا الأمر يجعلها تغضب، مما كان يضاعف من عدائيتي. لم أكن أتوقف إلاّ حين أجعلها تبكي، فأفرّ إلى غرفتي لأبكي أنا أيضاً. كنت بالنسبة لها وحشاً وكنت بالفعل أتصرف معها كأنني وحش.

❖ هل هذا الأمر يدوم حتى الآن...؟

فريدة- أوه! لا. نحن الآن نعبد بعضنا. كما لو كانت كلٌّ منّا تريد أن تستدرك تقصيرها، تريد أن تغفر الأخرى لها، تريد أن تكفّر عما فعلته

بالأخرى. الآن، لم تعد أمي تحلف إلاّ بي. لديها أسبابها التي سأحكيها لك فيما بعد. في الماضي، كانت تلعنني وتتنبأ لي بأسوأ الأمور، كانت تتمناها، وكانت تستمطرها على رأسي كما كانت تقول: كانت تلك هي اللعنة... بل إنني سمعت أمي تشتكي وتبكي قائلةً: «ما الذي فعلته لربي ليكون لديّ ابنةٌ كهذه؟» حتى إنها تستخدم الكلمة ذاتها «ليلعنني بابنةٍ كهذه! لكي يعاقبني بهذا الشكل!». وكانت بالتأكيد توجه صلواتها لله ليغفر لها ما لست أدري، ولا هي تدري من خطأ قد تكون ارتكبته لتنجب وحشاً بهذا الشكل! كنت الشر مجسداً، الشر بذاته... هذا صحيح، وكان يجب ألاّ أصيب أخواتي الأصغر مني سناً بالعدوى. كان ذلك هاجس أمي، وكان لدى أمي كثير من الهواجس.

❖ ما هي الهواجس الأخرى التي كانت لديها؟

فريدة- هاجس أمي كان المدرسة. كل ذلك كان بسبب المدرسة. لأنني ذهبت إلى المدرسة حتى أصبحت في السادسة عشرة من عمري، السادسة عشرة دون يومٍ واحد زيادة. وأية مدرسة! مدرسة لا تساوي شيئاً، لكنها مع ذلك المدرسة التي «أدارت لي رأسي» كما تقول أمي. وقد أقسمت على ألاّ تستسلم ثانيةً مع أخواتي الأصغر مني سناً وبأنها سوف تخرجهن من المدرسة قبل ذلك العمر. {قهقهات.} حين أتذكر كل ذلك الآن... فقد أكملن دراساتٍ جامعية لامعة، إحداهن تدرّس اللغة الفرنسية في ثانوية في فرانكفورت بألمانيا، والأخرى تعمل في برشلونة، في إسبانيا، في مجال السياحة! هذا ما أصبح الأمر عليه. وحين تعلم بأنّ أمي فخورةٌ الآن، فخورةٌ ببناتها أكثر من الأبناء الذين لا زالوا في البيت، في حين أنّ بناتها يعملن وتركن البيت جميعهن، وآخرهن هي أنا، فأنا الأخيرة دائماً. لم يحصل أحدٌ منهم على أكثر من شهادة ثانوية للتعليم المهني المتعدد فقط، وهم يتعيشون بصورةٍ بائسة. لكن ذلك لا يمنع من أنّ ذلك قد مارس عليّ شكلاً من التهديد. كم مرةً خطرت ببالي فكرة الهرب. لا، ليس تماماً، فأنا لم اكن يوماً مع فكرة الهرب، فهو ينتهي دائماً بصورةٍ سيئة. أنا أعرف العديد من الفتيات من الأقارب أو من الجيران، ربّين بالطريقة التي ربّيت أنا بها،

اخترن الهرب. لقد انتهين كلهن إلى سيرة سيئة لأنه لم يكن لديهن الإمكانيات- من أين ستأتيهنّ الإمكانيات إذا كنّ قد حبسن طيلة حياتهن في البيت- ليتدبرن أمورهنّ فلا مهنة لديهن، ولا أدنى فكرة عما يعنيه العمل، ولا مأوى، ولا علاقات، ولا مساعدة من أيٍّ كان، من أشخاصٍ يعرفونهن أو من قطاع الخدمات كالمساعدات الاجتماعيات أو مصلحة العاطلين عن العمل حيث لا يعرفن أحداً. الهرب، لا. لكنني فكرت في أن أحدث انفجاراً، تمرداً حقيقياً، وأن أصفق الباب على مرأى ومسمع الجميع بعد أن أحضّر جيداً المكان الذي سأذهب إليه... وهذا ما فعلته بالفعل فيما بعد، لكن بصورةٍ أكثر مرونة، فالظروف كانت قد اختلفت. لكنني صدّقت تهديدات أمي وخفت أن تقع على أختيّ. أقول لك بصدق أنني صدّقت الابتزاز الذي مارسته عليّ أمي. (...) لو أنه توجّب عليّ أن أقول كل ما كان لديّ لأقوله. كنت قد بدأت في كتابة بعض الأشياء خلال ليالي أرقي، وخلال نوبات بكائي، وخوفي، وانهياري. ثم حرقت كل شيء. هذا لا يفيد في شيء، ثم إنني كنت أخشى أن تقع هذه الكتابات في يد أحدهم، أحد أخوتي. كنت أريد أن أجنّبهم ذلك، أن أجنبهم أن يعرفوا. ثم إنّ هذه الأشياء شخصية.

توجب علي أن أتعلم كل شيء من جديد.

❖ لا بدّ أن ذلك قتلك معنوياً وجسدياً.

فريدة- القتل موجود. وحين رحلت من البيت أدركت الخسائر، القتل كما تقول. كان عليّ أن أتعلم من جديد كل شيء... لا، كان عليّ أن أتعلم كل شيء. أن أتعلم كيف أتحدث بشكلٍ طبيعي، أن أستمع دون أن أرتجف؛ أن أستمع وأفكر في الآن ذاته، وذلك أمرٌ لم أتعلمه أبداً، لم أكن أعرف الاستماع ولا التفكير في ما يقال لي لأنني لم أكن أستمع. تعلمت أن أمشي، وأن أخالط الناس عوضاً عن الهرب؛ باختصار، تعلمت كيف أعيش. بقي هناك شيءٌ آخر: أنا أكره الأماكن العامة، وقد لزمني وقتٌ طويل قبل أن أقرر الذهاب إلى السينما- السينما، مكان الضياع ذاك، المكان الذي يكون

فيه المرء وحيداً لكن وسط جمهرة من الناس، في الظلام، حيث يرى أشياء ليست «أخلاقية» جداً! لم أكن لأذهب وحدي إلى المطعم من تلقاء ذاتي، فأنا لم أتعلم أبداً أن آكل أمام الناس. لقد احتجت إلى إعادة تأهيل كاملة، وإلى بذل جهدٍ كبيرٍ على ذاتي... احتجت إلى أن أتعلم كل ما يفعله الآخرون بشكلٍ طبيعي. لم يكن ذلك طبيعياً بالنسبة لي. لقد طلبت في إحدى المرات أن يوظّفوني كعاملة نظافة في المنتجع الذي كنت فيه. وكاد ذلك يتم، لكن كان هناك مشاكل الضمان الاجتماعي والإجازة المرضية. كنت أمشي بفضل العقاقير، العقاقير الطبية كمضادات الاكتئاب، وعقاقيري الخاصة.

❖ وما هي عقاقيرك الخاصة؟

فريدة- عقاري أنا... كان القراءة. ما قرأته كان كثيراً جداً. كنت أمضي ليالي أرقي بالقراءة. في البداية، حين كان أخوتي وأخواتي لا يزالون صغاراً، لم يكن هناك عملياً ما يقرأ في البيت، ولا حتى جرائد. كنت أحتفظ بأوراق الصحف التي يستخدمها البقال للفّ الخس، فأقرؤها وأعيد قراءتها. بعد ذلك، أخذت ابنة الجيران، وكانت تقاربني في العمر، تعطيني الصحف والمجلات، وخاصة الصحف النسوية، وبعض الكتب التي كانت لديها. فيما بعد، فإنّ أخوتي هم الذين كانوا يجلبون لي ما أقرؤه، لم تكن أشياء هامة، لكن على الأقل الصحف والمجلات والكتب المرمية هنا أو هناك، وبالأخص منها البوليسية، بل بعض الروايات... الإباحية نوعاً ما. لكن أخواتي ساعدنني بصورةٍ خاصة. كنت أقرأ كل ما كنّ يحضرنه إلى البيت، حتى الكتب المدرسية، وبالطبع الروايات وكل الأدب اللواتي كنّ يقرأنه. لكنني قبل ذلك طلبت من ابنة الجيران أن تذهب لتسجل نفسها في المكتبة البلدية، وفعلت. لم أكن حتى أختار ما كانت تحضره لي، «اذهبي، وادخلي، وخذي أول ثلاثة كتب تقع بين يديك وأحضريها لي، بما أنّ للمرء الحق في أن يأخذ ثلاثة كتب في كل مرة». بهذه الطريقة قرأت كثيراً؛ وسواءً كنت أفهم أم لا، فإنني كنت أقرأ رغم ذلك. لقد أفادني ذلك كثيراً. ولم تتوقف الفائدة على تلك الفترة، فلولا ذلك، أعتقد بأنني كنت سأنسى كل شيء، ولم أكن سأعرف التكلم باللغة الفرنسية، ففي البيت لم

نكن نتكلم بالفرنسية، لم يكن أحدٌ يتلفظ بكلمةٍ واحدة بالفرنسية. لقد تطلّب الأمر أن يكبر جميع الأبناء كي نتحدث في ما بيننا بالفرنسية بشكلٍ طبيعي تماماً، وبالفرنسية فقط. الجميع الآن يجدون ذلك طبيعياً. هذا أمرٌ آخر تغير كثيراً. وبالطبع، فإنّه يحصل على حساب... الأبوين. حتى أمي تتكلم الفرنسية اليوم... وهي تتكلمها دون لكنة، بل إنها تتكلمها بصورةٍ جيدة، إنها على كل حال تتكلمها بصورةٍ أفضل مما يتكلمها أبي. إذن، لم يفدني ذلك في التكلم فحسب، بل في الكتابة أيضاً. في المدرسة، حين لا تكون قد درست سوى حتى مستوى شهادة مهنية للعمل كموظف مكتب، يعادل هذا عدم الدراسة بتاتاً، إذ أنّ هذه الدراسة ليست هي التي ستعلمك الكتابة. ودون أن أتباهى، فإنني اليوم في العمل أُعتبر أفضل من يكتب، وأنا على الأقل لا أرتكب أي خطأٍ إملائي ولا أرتكب بالأخص أي خطأٍ نحوي. إذن، ليست المدرسة هي من علمني ذلك، بل القراءة... لَعَمري، ربّ ضارةٍ نافعة. هذا ما ينبغي أن أقوله لنفسي الآن.

❖ كيف جرت مصالحتكما؟ هذا الحب الكبير الجديد، لقد قلتِ لي بأنّ الأمر كان كما لو أنّ كلاً منكما ينبغي عليها أن تطلب المغفرة من الأخرى عن كل الألم الذي تسببت به لها. كيف، وبماذا يتجلى هذا الحب الكبير؟

فريدة- لقد جرت المصالحة تلقائياً. منذ أن تركت البيت، وبدا أن الجميع تقبلوا ذلك، فالحقيقة هي أنّ المصالحة قد تمتّ شيئاً فشيئاً، بالتلازم مع التطورات التي حدثت في العائلة. وإن كنت أنا أول من تحمل المشاكل كلها، فإنّ أخوتي وأخواتي الذين تلوني، وأخواتي بشكلٍ خاص هن اللواتي أدخلن التغييرات وسمحن لي، بعدهنّ، بأن أتحرر، فالأمر تحرر حقيقي. إنني أدين لأخوتي بالكثير، على عكس ما يقال عن الأخوة. ربما كان أكثر ما زعزع وربما حيّر أهلي في أعماقهم هو إدراكهم بأنّه حتى الفتيان، أبناءهم، لم يتبعوهم، ولم يكونوا يشاطرونهم وجهة نظرهم. لقد دهشت أمي دائماً من الحرية التي كانت بيني وبين أشقائي. ودون أن يقولوا شيئاً، دون أن يعارضوا الأهل، وربما دون أن يعرفوا هم أنفسُهم، ساندوني بشكلٍ كبير. ودون أن يتحيزوا لجانبي، الأمر الذي كان لن يفيد في شيء، فإنّهم كانوا في

صفّي بشكلٍ طبيعيٍ تماماً، وكان يكفي أن يقوموا ببعض الأشياء، وبأن يتصرفوا بأقصى تلقائية. كنّا شركاء على طريقتنا، وأصبح أخوتي- أكثر من أخواتي- حلفائي. هذا ما زعزع أبويّ بصورةٍ كاملة؛ فقد كانا يتوقعان دون ريب أن يلعب أبناؤهما دور المقوّمين والمانعين، وأن يتبنوا وجهة نظرهما، وكانت أمي تريد أن تعتمد عليهما، «سوف ترين، حين يصبح أخوتك أكبر سناً فإنهم سوف يقوّمونك!»، كما تقول هي لأنني كنت عوجاء (معوجّة) بنظرها؛ «انتظري وسترين...، لا أودّ أن أكون مكانك وأنت تستحقين ما سيحصل لك...» لقد كذب ظنها في هذا الأمر أيضاً وكان خطؤها كبيراً. هل خاب أملها؟ لم تسنح لها الفرصة لتدرك الأمر وهي الآن ستقول بالتأكيد بأنّ كل هذا غير صحيح: إنها لم تعتقد ذلك أبداً. مثل أبي. يحوّل المرء الأشياء حين يتغير كل شيء. أتذكر بأنّه حين بلغت السادسة عشرة من العمر أقسم أبي لبعض الأقارب، الذين كانوا يحاولون إقناعه، بأنّ ابنته لن تعمل أبداً طالما هو حيّ. وإن كان الأمر استغرق مني خمسة عشر عاماً لأبدأ بالعمل، وإن كنت اليوم لست سوى سكرتيرة بسيطة في مؤسسة، فإنّ السبب هو أنني لم أقم بدراساتٍ عليا مثل أخواتي الأصغر مني سناً، في حين أنه لم يكن حتى يعرف ما هو التعليم العالي، لم يكن يعرف بوجوده أصلاً.

❖ كيف تتجلى مصالحتك مع أمك وما هي خاصةُ علامات هذا الحب الجديد، فقد قلتِ لي «نحن نعبد بعضنا...»؟

فريدة- نعم. ينبغي أن أقول بأنّ أمي مريضةٌ بمرضٍ خطير. لقد نحلت منذ فترةٍ طويلة، وهي تجرجر نفسها في البيت ولا تأكل، وكانت تتقيأ طيلة الوقت. وبالنسبة للعناية الصحية، فقد كانت تذهب إلى الطبيب القريب من البيت الذي كان يعطيها في كل مرة قائمة من الأدوية لا على التعيين، دون أن يعرف حقاً ما هو مرضها. كنت أهتف إلى البيت كل مساءٍ لأعرف الأخبار. وفي نهاية الأمر، توجب إدخالها إلى المشفى بشكلٍ جدي ولم يتوقفوا هناك عن إخضاعها لاختباراتٍ من كل الأنواع لكل جسمها، وعن مراقبتها بانتباهٍ شديد، وقد أقلقني هذا الأمر.

{أُدخلت أمها إلى المشفى، واكتُشف لديها تشمع في الكبد في حين أنها لم تشرب قطرة كحول طيلة حياتها.}

فريدة- خلال هذا الوقت كله، أصبحت تقيم عندي كلما توجب عليها أن تتنقل بين المشافي؛ تصبح ضيفتي وتلعب هذا الدور بشكلٍ جيد. في مثل هذه الأوقات اصطحبتها إلى السينما كما قلت لك- لكي ترى بأنّ السينما ليست الشيطان، وبالطبع فقد أحسنت اختيار الفيلم الذي سأريه لها، ففي البيت لا يُشاهدون في التلفزيون سوى الأخبار-، واصطحبتها إلى مطعم في مركب على السين. أظنّ بأنّ ذلك قد أثّر فيها؛ إذ أنّ أبناءها ليسوا هم الذين اهتموا بها، والأمر لا يقتصر على أنه لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً لأنهم لا زالوا يعيشون على حسابها، لكن بالإضافة إلى ذلك، فإنهم بالكاد يسألون عن أخبارها، إنهم يعيشون معها ويرونها كل يوم، أي أنّ الأمور بالنسبة لهم عادية. وكان عليّ أن أهزّهم كي أجعلهم يدركون بأنّ الأمر ليس بسيطاً، بأنه خطيرٌ جداً. أما أبي، فقد انتهى به الأمر لأن يعرف؛ لابدّ أن أمي قد أخبرته بالطبع. ويقولون بأنّه علّق قائلاً: «الآن أصبحت أعلم، أعلم على من أستطيع أن أعتمد. لو حصل شيءٌ لي، فإنني متأكد من أنها هي (أي أنا) من سأجد بجانبي!» بالكاد يستطيع المرء أن يصدق ذلك!

[...]

لقد بذلت أقصى جهدي، لقد عملت بجد

❖ يبقى هناك أمرٌ واحد ليكتمل فهم كل شيء. كيف تركتِ البيت؟ كيف وجدتِ عملاً في وقتٍ كان من الصعب فيه أن يعمل المرء حتى لو كان لديه خبرة مسبقة؟ كيف وجدتِ سكناً؟ من ساعدك؟ هل ساعدك أحد في البيت بإقراضك المال مثلاً، الخ.؟

فريدة- لا، لا شيء من كل هذا. كانت إحدى الأقارب ذريعتي لترك البيت، وكانت امرأةً متزوجة ولها أولاد. هي أيضاً عانت كثيراً. جميعنا هكذا. ربما كان جيل اليوم، الفتيات اللواتي يبلغن الآن حوالي الخامسة عشرة أو

السادسة عشرة من العمر واللواتي وُلدن هنا، أولئك فقط يبدو بأنهن يتحررن من ذلك، ويمكن تجنيبهن كل ما عانيناه، نحن الكبيرات اللواتي وصلنا إلى فرنسا أولاً، العائلات الأولى. فقد توجب علينا نحن أن نربّي أهالينا {ضحكات}. والأصغر منا سنّاً هنّ اللواتي استفدن من ذلك. بارك الله لهن بذلك. (...) لقد جاءت تلك القريبة إذن إلى بيت أهلي مرتين أو ثلاثاً وقالت لي ونحن نتناقش حول بعض الأمور: «لماذا لا تأتين إلى بيتي لبضعة أيام لتغيري الجو وتخرجي من البيت وتري الدنيا قليلاً؟» لم تكن هناك أية ردة فعل من أبويّ؛ لا سلباً ولا إيجاباً، كما لو لم يكونا قد سمعا شيئاً، ولا حتى كلمة شكر، ولا كلمة احتجاج ولا حتى مجاملة. واعتبرتُ بأنهما موافقان. لم يكن هناك أي تواطؤٍ في ما بيننا، وحين أتت لتودّع أهلي بعد يومين، يوم رحيلها، كانت حقيبتي جاهزة. وجدت نفسي عندها وقلت لنفسي بأن الفرصة قد سنحت لي لو أنني أريد التخلص من ورطتي. وأخذت أجوب كافة الاحتمالات، الإعلانات ومكتب التشغيل الوطني والدورات التدريبية. في مكتب التشغيل، وجهوني إلى دورةٍ تدريبية في السكرتاريا لمدة شهرين. وعلاوةً على ذلك، كانت الدورة مدفوعة الأجر، مما درّ عليّ بعض المال. لقد بذلت أقصى جهدي وعملت بطريقة لا تصدّق. لم يكن هناك تصنيفٌ حقيقيٌّ، إلاّ أنهم كانوا على ما يبدو يجرون تقييماً، وكنت الأولى. وعُرضت عليّ فوراً دورة أخرى أطول من الأولى، لمدة عشرة أشهر، وذات مستوى أعلى وأكثر تأهيلاً، ومدفوعة الأجر كذلك. بقيت عند قريبتي حوالى الشهر، وبحثت ثم وجدت مكاناً في دارٍ بباريس. لقد أقمت بهذا الشكل في ثلاثة دورٍ خلال عامين. وبعد الدورة التدريبية التي قمت بها من خلال مكتب التشغيل، تم تعييني. لم يكن لديّ خيار، ولم أكن متطلّبة، لا بالنسبة لأوقات العمل، ولا بالنسبة لمكان العمل ذاته، ولا حتى في ما يتعلق بالراتب. كنت مسرورةً بأن أكتشف إنني قادرة على أن أتدبر نفسي وأن أعيش بشكلٍ مستقل، بواسطة عملي وفي بيتي...؛ إنه الحلم! فيما بعد، وجدت غرفة غير مرتفعة الإيجار في باريس، لكنها كانت بائسة جداً. لكن ذلك لم يكن يهمني. لم أعرف البطالة أبداً، ووجدت دائماً إما عملاً ثابتاً أو عملاً بالنيابة.

[...]

❖ واليوم، هل تعملين؟

فريدة- نعم، لازلت أحتفظ بعملي. ينبغي أن أحوز بطريقة معترف بها على تأهيل كسكرتيرة إدارة. لقد قمت دوماً بهذا العمل، لكن دون أن يُعتَرف بذلك. ينبغي عليّ أن أجيد اللغة الإنكليزية، وأنا أجتهد في الدراسة. كما أنني أتبع دروساً في معهد الفنون والمهن. وأخطط لشيء: أن أسجل نفسي في مؤسسة التشغيل في الصناعة والتجارة ASSEDIC وأطلب منهم تدريباً تأهيلياً في اللغة الإنكليزية. هذا كل شيء. أعتقد بأنك الآن تعرف كل شيء عني. لست أدري ما الذي ستفعله بكل هذا، لكنني أخمن. سيكون لديّ فضولٌ لقراءته...، والصورة التي سوف تعطيها عني لن تكون جميلة.

1990

غابرييل بالاز

الوحدة

استطعنا إجراء مقابلة مع لويز ب. باقتراحٍ من وحدة الطوارئ في مشفى كبيرٍ بباريس. لاشيء في وحدة طوارئ يساعد على إجراء مقابلة، فالحركة الدائمة لعناصر العناية ورجال الإطفاء، وضجيج صفارات الإسعاف، وحركة النقالات، واصطفاق الأبواب البلاستيكية، وتنادي رجال المحامل وكذلك استحالة الانعزال في مجالٍ مفتوح رُتّب بحيث يسمح بمرور الأسرّة النقالة، والوجود الدائم في الغرف لمرضى آخرين، كل هذه الأمور لاتتوافق مع إجراء مقابلة.

ومع ذلك، ورغم أن المقابلة التي أجريناها مع لويز ب.، البالغة من العمر ثمانين عاماً، والتي تعرضت لأزمةٍ قلبية قد جرت في شروطٍ شديدة الصعوبة، وقوطعت بوضع قناع أوكسجينٍ أو قياس درجة الحرارة أو الضغط الشرياني، فإنها تستدعي بصورةٍ دراماتيكية بشكلٍ خاص التجربة التي تمثلها بالنسبة لشخصٍ مسنٍ صدمةٌ وجوده في المشفى، وهي بدايةٌ لعملية اعتمادٍ ماليٍّ على الغير غير قابل للتراجع[1].

---

[1] خلال ربع قرن، من 1965 وحتى 1989، ارتفعت نسبة الأشخاص الذين بلغوا أو تجاوزوا الستين من عمرهم من 17% إلى 19%. وتجاوز معدل الأعمار 80 عاماً بالنسبة للنساء و72 عاماً بالنسبة للرجال. إن السنوات الثمانية التي تفصل بين معدل أعمار النساء والرجال تفسر كون ثلاثة أرباع

يُبرز الطارئ الصحي الذي أدّى بلويز ب. إلى قسم الطوارئ عزلتَها التي كانت خفيةً حتى ذلك الحين، فهذا الطارئ يتجاوز كونه مشكلةً صحية ويطرح مسألة العناية بها بعد العلاج. وهكذا، فإنّ أقسام الطوارئ تستقبل عدداً متزايداً من المسنين الذين ينبغي إيجاد مسكنٍ لهم.

بعد أن أعلنت لي لويز بأنها متعبة وبأنها لم تنم جيداً بسبب «الانتقال»- يصل المرضى ليلاً نهاراً إلى القسم-، لم تقبل بأن تنقطع المقابلة حين عرضتُ عليها ذلك. كانت مصرةً على التحدث عن قصتها الشخصية.

في بداية اللقاء، تستخدم لويز بكثرة ضمير on(*) غير المحدد للتكلم عن نفسها كما لو كانت قد أدخلت اللغة التي تزيل الصفة الشخصية للمساعدات الصحيات («أحدهم حرارته 38° هذا الصباح»؛ ثم تتكلم طويلاً عن مهنة المساعدة الاجتماعية التي مارستها كعملٍ تطوعي لفترةٍ طويلة- فقد كانت فتاةً من وسطٍ برجوازي وكان والدها من «رجال الأعمال»، فلم

الأشخاص الوحيدين الذين تبلغ أعمارهم 55 عاماً أو أكثر هم من النساء. وفي عام 1989، شكّل الأشخاص الذين يعيشون بمفردهم 27% من الأسر (مقابل 16% عام 1901 و 20% عام 1968)، وأكثر من عشر الأشخاص يعيشون بمفردهم (10.6 عام 1990). وأكثر من مليون شخص يبلغون 75 عاماً أو أكثر يعيشون بمفردهم.

إنّ 450 000 شخصاً من المسنين يعتمدون مالياً على غيرهم، وهذا الاعتماد قد يرتفع مع التقدم في السن. وفي عام 1990، يستفيد 210 000 شخصاً من المسنين من اعتمادٍ صحي (43 000 منهم في منازلهم، 67 000 منهم في مؤسسةٍ للإقامة الطويلة، 100 000 منهم في دارٍ للإسكان).

إلاّ أنّ هذه العوامل الديموغرافية لا تفسّر مع ذلك بالكامل انعزال المسنين. ومكانهم في الأسرة قد تغير: فنسبة الأشخاص المسنين الذين يعيشون مع أحد أولادهم على الأقل لم تتوقف عن التناقص. المساكنة قد تغيرت، وكذلك تحولت كل دورة المبادلات بين الأجيال ضمن العائلة. انظر: معطيات إحصائية، 1990، المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية INSEE. انظر أيضاً ر. لونوار R., Lenoir «اختراع العمر الثالث، تشكيل حقل عوامل إدارة شؤون الشيخوخة»، وثائق أبحاث العلوم الاجتماعية، العدد 26-27، آذار-نيسان 1979، وكذلك تقرير جان بول بولار Jean-Paul Boulard حول مسألة الأشخاص المسنين التابعين.

(*) في اللغة الفرنسية، ضمير on هو ضميرٌ غير محدد يمكن أن يعني «أحدهم» أو «البعض» أو يستخدم بصيغة المبني للمجهول. - المترجم -

يكن العمل ضرورياً بالنسبة لها-، ثم أصبحت تتقاضى أجراً بعد الحرب، ويبدو بأنّ كل شيءٍ يشير إلى أنها إذا كانت تعود اليوم لهذا الدور، في صوتها وفي نبرتها، وحتى في النوادر التي تصف فيها دائماً دورها كمساعدة اجتماعية، فإنّها تقوم بذلك لكي تعيد تأكيد هويةٍ مهنية واجتماعية يبدو بأنّ الجميع قد نسوها، ليس في المشفى فحسب، حيث تشعر وكأنها رزمةٌ تعيق حركة الآخرين، بل أيضاً في العمارة التي تعيش فيها في الدائرة السادسة، وفي عائلتها بالذات التي لم يعد لها وجود بالنسبة لها إلا بصفتها «مشكلة». ويزداد ألمها حدةً لكونها، بصفتها مساعدةً اجتماعية وككل العاملين في المجال الاجتماعي، اهتمت طيلة حياتها بمشاكل الآخرين. وهي تعلم بخبرتها المهنية بأنّ المؤسسات والأشخاص العاملين وأولئك الذين فقدوا استقلاليتهم هم جميعاً غير مهيئين لإدارة شؤون الاعتماد على الغير. ولإدراكها للنقص النسبي في المؤسسات، وللانتظار الذي يبلغ وسطياً سنةً كاملة قبل الحصول على حلٍ لموضوع السكن المناسب، فإنّ لويز ب. تعاني من فكرة أنه سيتوجب عليها أن تقبل معونةً مادية ومعنوية وأن «تزعج» غيرها، وهذا ما تمقته بشدة.

لويز ب. عازبة، مثلها مثل العديد من المساعدات الاجتماعيات والممرضات والمعلمات من جيلها، ويعيش من تبقى من عائلتها، وهم أخوها وزوجته وعدد من أبناء وبنات الأخ، في الريف. ولويز ب. لا تتكلم في إطار الشكوى أو الاعتراف، بل بالأحرى بلهجة الثرثرة، كما لو كانت تودّ، عبر بساطة اللهجة، أن تخفي كم هو وضعها مؤثر. وهي تبرز غياب عائلتها بعبارات إنكارٍ مكررة:

«إنهم لطيفون، إنهم لطيفون للغاية». ورغم كونها وحيدةً تماماً، فإنها تصرّ على أن تقنع نفسها بأنها «محظوظة» وبأنها محاطة بالرعاية، وبأنّ عائلتها تهتم بها، في حين أنها «اضطربت» بشدة حين جاءت قريبتها لتقنعها بالذهاب إلى دار للمتقاعدين بأسرع ما يمكن. وفي مواربات تلك التأكيدات التي، وفقاً لها، «كل شيء على ما يرام»، يمكن للمرء التقاط تلك الأمور

البسيطة جداً التي تشكل حياتها، والتي تعددها لويز بحزن: كزيارة إحدى الجارات، أو اتصال هاتفي من ابنة أخيها، أو مرور عاملة التنظيف. والمشكلة الكبرى التي تفصح عن نفسها في المشفى مؤلمةٌ لدرجة أنه لا يمكن قولها كليةً، ولا حتى التفكير بها: ففي كلّ مرة تقترب فيها، خلال المقابلة، من حقيقة وحدتها- فهي لم تعد تستطيع أن تعود إلى بيتها، وعائلتها لا تستطيع ولا تريد أن تؤويها-، تخبئ لويز بسرعة ذلك الإدراك الذي قد يقتلها وراء تأكيداتٍ مطمئِنة: «لديّ أصدقاء»، «يوجد حولي أناسٌ يهتمون»، «أنا محظوظة».

مع امرأة مسنة

أجرت اللقاء غابرييل بالاز

«ما الذي يفعلونه بجدةٍ عجوز؟»

❖ أود لو أنك تحدثينني في البداية عن المصاعب التي صادفتك...

لويز ب.- (...) أخطرك بأنني متعبة نوعاً ما. لقد وصلت إلى هنا يوم الجمعة ظهراً، وكنت أجرجر نفسي نوعاً ما... كما أنني لم أنم جيداً بسبب زيارة هزّت كياني نوعاً ما. وقد نقلوا بعض المرضى، لا داعي لأن أقول لك بأنه لم يغمض لي جفن...، وكان هناك ضجيج، وكل ما تريدين! لذلك، فإنني لم أكن بحالةٍ جيدة هذا الصباح، وعاودني المرض. الحرارة هذا الصباح 38°. لذلك... نعم... لم أبحث عن السبب. على كلٍ لم يسألني أحدٌ عن السبب، لكن على أيّ حال... لقد أمضيت ليلةً مضنيةً جداً.

❖ إن كنتِ متعبةً، يمكننا أن نتوقف. أخبريني.

لويز ب.- لا، لا بأس...

❖ أخبريني إن كنتِ ترغبين في التحدث أم لا... لقد قال لي الطبيب بأنكِ وصلت إلى هنا بحالة إسعاف، لكنك بعد ذلك لم تشائي أن تعودي إلى البيت...

لويز ب.- لا أستطيع. {تؤكد على كلمة أستطيع}. الأمر مختلف! {ضحكة متشنجة.}

❖ لماذا لا تستطيعين؟ كيف ذلك؟

لويز ب.- أنا عازبة، وكنت فيما مضى مساعدةً اجتماعية، مضى على ذلك عشرون عاماً، بل ما يقارب خمسةً وعشرين، نعم... ليس تماماً،... حينذاك تقاعدتُ... كنت مساعدةً اجتماعية في باريس، وكذلك مساعدةً اجتماعية في الريف، وأنا أحب الريف كثيراً، أحب كثيراً الناس الذين يعملون في المناطق الريفية. الناس هناك يعرفون بعضهم جيداً، ويعرفون مشاكل بعضهم بعضاً (فالمرء هناك يقابل عائلةً كاملة)؛ وهو يحسّ بهم لأنه يقابلهم عند الخبّاز أو عند الجزّار، لا يهم. إنه عملٌ أحبه كثيراً؛ وبالأخصّ، فإنني غير نادمة على اختياري له.

❖ متى توقّفتِ عن العمل؟ متى كان تقاعدك...؟

لويز ب.- في عام 71، لكن ذلك كان بسبب مرضٍ شديد مؤلمٍ جداً في المفاصل بسبب العمل الاجتماعي، فالمرء يتجول على الطرقات الريفية طيلة الوقت بسيارة سيتروين حصانين 2CV، نعم. وقبل ذلك، بدأ الأمر على دراجة هوائية. في عام 49، وبعد ذلك، ولأنني قد ذهبت إلى مصحة، حسناً، وبدأت أضعف فإنهم أعطوني، رغم المصاعب في تلك الفترة التي لاتعرفينها أنت، دراجة آلية صغيرة من نوع سولكس solex. وبما أنّ المنطقة كانت ساحلية، فإنّ الدراجة الآلية كانت تعمل أو لا تعمل، وعلى السواحل كنت أدفعها أو... بالأحرى، هي التي كانت تسحبني. حسناً. ثم في النهاية بعد ذلك، في عام 53، أعطوني السيارة.

❖ وبعد ذلك سكنتِ في باريس، لقد قلتِ لي بأنك سكنتِ في باريس منذ تقاعدك، أليس كذلك؟

لويز ب.- نعم، أنا أسكن في باريس. صحيحٌ أنني أصلاً من النورماندي، لكن... حسناً، لقد تقاعدت في الريف، قرب الأصدقاء. ثم وجدت بأنني لم أعد شابة لأستطيع السكن وحدي في الريف... فهناك، ينبغي أن يستخدم المرء سيارة للذهاب إلى أي مكان، وكنت أحب تلك السيارة، لكن، حسناً، لم يعد ذلك ممكناً (...). لقد حصلت على موطئ

القدم الصغير هذا في باريس حين كنت مساعدةً اجتماعية، لأنه كان ينبغي أن أهرب. فإذا ذهبتِ يوم الأحد لتشتري خبزاً (تقلّد الناس الذين تساعدهم) «آه، يا آنسة، هل الأمور على ما يرام؟ هل قبضتِ إعاناتي؟»، «يا آنسة...»، حسناً، هم يصادفونك وأقول لك بأنّ الأمر كان لطيفاً جداً، لكن في نهاية الأمر، ينبغي على المرء الهرب... (بصوتٍ مسموعٍ بالكاد) . إذن، استطعت الحصول على موطئ القدم هذا. وقد عدتُ إليه حين وجدتُ بأنه لم يعد بإمكاني أن أعيش وحيدةً في الريف. السيارة... وأنه ينبغي أن يعرف المرء يوماً ما أن يقول لا و... حسناً.

[...]

❖ وهل كان لديك أحدٌ يساعدك في البيت؟ كيف كنت تتدبرين أمورك لتنظيم شراء حاجياتك وتنظيف البيت، هل كان هناك أحد يساعدك في البيت؟

لويز ب.- بعد التقاعد؟ كان لديّ موطئ القدم ذاك، ثم إنني كنت لاأزال قوية...

شيئاً فشيئاً، ينحدر المرء، وينحدر، ثم...

❖ نعم، لكن ألم يكن هناك شخصٌ لمساعدتك من أجل التنظيف، من أجل...

لويز ب.- أوه! نعم، نعم، حين كنت أحتاج لمساعدة. كان هناك في المنزل امرأةٌ لطيفة للغاية، وحين كان علي القيام ببعض المشتريات، كانت لطيفةً جداً وكانت تقول لي «إذا كنتِ متعبةً يوماً ما، إذا أردتِ أن أضعك في سريرك» فبيتي ليس سوى غرفة صغيرة مع ممر أستخدمه كمطبخ -إن أمكن القول- وهو يقع في باحة، وهي باحة حقيقية مربعة الشكل، في الطابق الأرضي، ومنها يمكن قليلاً رؤية الشمس والسماء. لا توجد سماء في الطابق الذي يعلو بيتي، وكنت أضطر لأن ألصق عيني في زاوية، هناك...

❖ هل بيتك مظلم لأنه في الطابق الأرضي؟

لويز ب.- إنه مظلم. كما أنه تجري فيه أشغال في هذه الفترة، لذلك {بلهجة تهكمية}، إنها حياة قصور! هناك حارسة المبنى وهي شديدة اللطف، هي صديقة، جزائرية، وهي لطيفة للغاية (أعرف بأنني قد قدمت لها خدمة، لكنها تتصرف بلطف أقدّره كثيراً، ونحن نحب بعضنا كثيراً)، وكانت تقول لي: «أنت مثل أمي»، وهي جزائرية... {صمت}. ثم، شيئاً فشيئاً، ينحدر المرء، ينحدر، ثم... هذا هو الوضع.

❖ ما هو النظام الذي وجدتيه إذن لمساعدتك في البيت؟

لويز ب.- تلك الجزائرية؛ نعم، ثم إنّ الوضع جيد جداً وهناك نوادٍ تابعة للبلدية، وهي جيدة بالفعل؛ هناك نادٍ قرب بيتي، وأنا عضوٌ فيه، وأنا أذهب لتناول الطعام هناك كلما أردت، فالمرء يسجل عضويته في النادي ويدفع تبعاً لموارده... المالية {سعال}؛ كما أنّ النادي لطيف، والخدمة فيه لطيفة، وما يقدمونه متنوع، والنادي يمثّل العديد من الميزات. ثم، ثم، ثم إنّ القلب هو بالطبع متعب... لقد وقعت في شهر حزيران وكُسرت ذراعي، وأدّى ذلك بالطبع إلى مجموعةٍ من الأمور.

لقد فضّلت أن أقضي بضعة أيامٍ هنا في المشفى بسبب ذلك، ثم عدت إلى بيتي وكانت ذراعي متورمة، وكانت الأصابع الثلاثة التي تراها لا تستجيب... ثم، ثم، ثم استعدتُ عادة الذهاب إلى النادي؛ كانت السيدة التي تساعدني في أشغال البيت تأخذني إلى هناك إن لزم الأمر، لقد كان هناك (...)، توجد هناك روحٌ جيدة جداً ولطيفة جداً، وكانت تعيدني إلى البيت أو كانت تساعدني على تقطيع اللحم لأنني لا أستطيع...

❖ نعم، هكذا هو الأمر بالنسبة لكل ما يجب فعله في البيت، لم يكن بإمكانك أن تتحركي، أليس كذلك؟

في النهاية، تتدهور الأمور

لويز ب.- لم أكن أستطيع، وكانت لدي تلك السيدة اللطيفة (...). إنها مجبولةٌ من ذهب، ويمكن للمرء أن يثق بها تماماً، لديها المفاتيح، وهي تعرف

حالتي جيداً، وأنا مجبرةٌ على إيقافها، لأنها تعمل... إنها تأتي لعندي لمدة ساعة مثلاً، «ماذا تريدينني أن أفعل لك؟»، لكن... حسناً، تلك السقطة أدّت إلى نوعٍ من التراجع السريع، حدث ذلك في حزيران، ومنذ ذلك الحين وضع لي الجبس عدة مرات، ووضع بشكلٍ خاطئ، وكان الألم شديداً. ثم في 15 آب، وقت كهذا... {ضحك} هذا طويل. الأمر ليس مسلياً دوماً لأنه عمّن تبحثين فيّ شهر آب؟... الجميع رحلوا، الجميع رحلوا... (...) هناك أناسٌ يودّون أن يقدّموا الخدمات لي، لكن... ثم، ثم، ثم عدتُ لحياتي، هكذا، كنت أعرج نوعاً ما، كنت أعرج قليلاً، كنت أمشي بمساعدة عصا، وكنت أتدبر أمري حسب استطاعتي. ثم، ثم، في النهاية، الأمور تتدهور. ما تسبب في ذلك هو...، نعم، هو أنني وقعت في بيتي. حينذاك، وجّه ذلك الأمر إنذاراً. ثم أنه لم يكن بإمكاني أن أنهض. {ضجيج عربات نقالة، وأصوات.} ثم حصلت مصيبة كان من الممكن أن تتحول إلى كارثة، فقد كان ذلك في الوقت الذي كان فيه الحليب على النار، لكن الذي حصل هو أنّ الغاز قد انطفأ؛ فتمكنت حينذاك من الزحف كدودة أرض للوصول إلى الهاتف ولأخبر حارسة البناء التي قالت «ما هذا الأمر...؟»، فقد خافت بالطبع، وأدى ذلك إلى عددٍ لا بأس به من الأمور، «لكن هذا غير ممكن!»، هذا ما حصل.

❖ إذن الحارسة هي التي نصحتك بعدم البقاء وحيدة، أليس كذلك؟

لويز ب.- هي، إنها لطيفة جداً، صحيحٌ أنها تقدم لي الخدمات، وكل ذلك، لكنني لا أريد، فليست العناية بي من واجبها، ربما أطلب منها يوماً ما حين تذهب لجلب الخبز لها «هل بإمكانك أن تجلبي لي الخبز في الوقت ذاته؟»، نحن متفقتان على ذلك، أو أنها تأتي أثناء توزيع البريد، وتجلس قرب سريري ثم نثرثر معاً، هذا كل شيء. لكنني لا أريد، هذا ليس من واجبها، ثم إنني أثقل من أن تستطيع حملي، وبالطبع فإنّ كل شيء سوف ينتج عن ذلك... هذا هو وضعي إذن. وقد أدّى سقوطي إلى إثارة المخاوف لديها، واتصلت بأخي، حسناً {ضحك}، وكان ذلك...

❖ وما هو رأي أخيك إذن؟

ما الذي يمكن فعله بي؟

لويز ب.- أوه، إنه يقول... إنه يهتم بي بصورةٍ لطيفة للغاية، لكننا نبحث. هناك غداً اتصال هاتفي بين المساعدة الاجتماعية وبين هذا الأخ - زوجة أخي شديدة اللطف هي أيضاً- وهم يسكنون في منطقة لاروشيل، إذن... وزوجة أخي لطيفةٌ للغاية وكذلك هو أخي، لذلك فالبحث جارٍ عن الحلول الواجب اللجوء إليها؛ والمساعدة الاجتماعية هنا تتصل بأخي... ليعرفوا ما الذي سيفعلونه بي، أين سيضعونني... إنها مأساة الأشخاص الذين بلغوا عمراً معيناً. حين حصل ذلك، ترددتُ لفترة حول القرار الذي عليّ اتخاذه، ثم أنه كان عليّ العودة إلى البيت. ثم فكرت المساعدة الاجتماعية بمنطقة بروكا، حدّثتني عن بروكا وقلت لنفسي بأنّه يمكنني أن أبقى كما أنا بوجود تلك المرأة الجزائرية والمأوى الذي قرب بيتي. لكن {صمت}، انتهى الأمر!

❖ ألم يعد ذلك ممكناً؟

لويز ب.- ما الذي سأذهب إلى هناك لأفعله؟ {مقاطعة}. لكن هذا المأوى هو فعلاً... يقبل المرء فيه، أقصد أن المرء يكون فيه مرتاحاً جداً، كما أنّ الزيارة سهلة لمن يريد أن يزورني، وعلى كل حال فإنّ بابي مفتوح دائماً. هكذا، أترين، كثيراً ما أكون في السرير، حسناً، ثم يأتي أحدٌ ما... الأمر لطيفٌ جداً، هو... ثم، ثم أنه حين وقعتُ وكان الغاز مشتعلاً جعلت هذه الحادثة الآخرين يفكرون وقدمت إنذاراً للجميع. فقامت الحارسة بإخطار أخي في لاروشيل الذي... الذي قام بكلّ لطف... كنت أستخدم الغاز للتدفئة والطبخ؛ وبعد تلك الحادثة، أرادوا بطبيعة الحال أن يلغوا الغاز ويستبدلوه بالكهرباء، وأنا أفهم ذلك، فهو أمرٌ أكثر سلامةً، وبالطبع فإنه... لكن المكان مليء بالفئران، كما اكتشفوا مؤخراً، كنت أعلم بأنه يوجد عندي فئران، وكنت أحاول أن أقدم لها الطعام، لكن هذا لا يكفي. وحارسة البناء تشعر بالهلع نوعاً ما لأنّ أعمال الكهرباء التي ينبغي إجراؤها غير ممكنة بوجود الفئران. أنا إذن لا أعرف في أية مرحلة هي تلك الأشغال حالياً، لا أعرف ما الذي يتم التخطيط له، لا أعرف شيئاً {ضحك}.

❖ أي أنـه ينبغـي أن يُجـدَّد المسـكن إذا أردت العـودة إليـه، ينبغـي تجديده، أليس كذلك؟

لويـز ب.- أوه، إعـادة تجديـده... لا، إنـها قضية الكهرباء والغـاز تلـك؛ على كل حال، هم محقون تماماً. ثم إنني أعلم جيداً بأنه لم يعد بإمكاني أن أعيش بمفردي، وعلى كل حال، فإنني لم أعد أخرج أبداً في هذه الأيام؛ كنت أخـرج ومعـي العصـا، كنـت أخـرج، وقـد كنـت محظوظـةً لأننـي كنـت أسـتطيع الذهـاب لحضـور اجتماعـات عائليـة، لكنـهم كـانوا يـأتون لاصطحـابي بالسـيارة... نعـم، نعـم، لقـد سـمح لـي ذلـك بالاسـتفادة مـن الأول مـن كـانون الثاني، كان ذلك في شهر كانون الثاني...

❖ هل لديك أقارب في باريس؟

لويـز ب.- نعم، لدي أقـارب فـي بـاريس، أبنـاء عمومـة... لـديّ قريبـات بـالطبع، إحداهـن... تشـعر بالانزعـاج لرؤيتـي بهذا الوضـع. أنـا أعـرف ذلـك جيداً وألمسه، لكن لديها ثلاثـة أولاد، وزوج كـان عـاطلاً عـن العمل لفترةٍ مـن الزمـن، فـاضطرت بالتـالي إلـى أن تعمـل، عملـت مربيـةً فـي دار حضـانـة، لقـد عـادت للعمـل فـي مجـال التعليم. عليها إذن أن تبـذل جهـداً، ثـم إنّ كـل هـذا متعِبٌ جداً. وبالتالي، فأنا لا أريد أن أطلب منها...

{تدخل ممرضة من أجل تقديم بعض العناية.}

❖ أي أنك لا تريدين أن تطلبي منها شيئاً؟

لويـز ب.- أوه، أنا لا أريد أن أطلب!

❖ لأنك تظنين بأنها لا تستطيع؟

لويـز ب.- إنها تفعل كل مـا بإمكانـها أن تفعلـه، فهي تتصـل، وأحيانـاً أقول لها: «خذي سيارة أجـرة» وحـين تـأتي، فإنني أقدم لـها أجـرة السـيارة، تبقـى عندي ربما ساعة، فـي الأيـام التـي...، فـي الأيـام التـي، لكن لديها فـي نهاية الأمر ثلاثة أولاد، ولست أنا من سيذهب لإزعاج الجميع هناك.

❖ تتحدثـين عـن الإزعـاج، لكـن لمـاذا تظنـين بـأنك قـد تزعجينـهم؟ هـل الموضوع هو عدم وجود مكان لك عندهم أم...

لويز ب.- لأنّ حياتهم مشغولة. حياتهم مشغولة، أتفهمين، هذا الزوج الذي بدأ يعمل من جديد، عليها أن تسانده معنوياً، ولا أريد أن أكون عبئاً على أحد؛ حين تتصل بي هاتفياً وتتحدث معي، لا بأس، فالقريبات في النهاية هنّ... لكن ليس باستطاعتهن أن يأتين لرؤيتي، وأنا نفسي لا أريد، وبين حينٍ وآخر، أقول: «حسناً، حسناً، خذي سيارة أجرة وتعالي».

❖ ومن بين أقاربك، أليس هناك من يمكنهم المجيء إلى هنا؟

لويز ب.- للسكن؟

❖ نعم، نعم، للسكن.

لويز ب.- {صوت يصيح: هناك مريض في الرقم 8، ليأت طبيب!} لا، هذا غير ممكن، فبيتي ليس سوى حجرة بائسة، أعتقد أن مساحتها هي بالكاد خمسة، بل ثمانية أمتار، ثم هناك ممر، ممر عريض نوعاً ما كنت أستخدمه كمطبخ...

❖ نعم، أي أنه أصغر من أن تستضيفي فيه أحداً، أليس كذلك؟

لويز ب.- تماماً، وحين قالت لي زهرة في بعض المرات «ما رأيك...» (أقصد جارتي الجزائرية)، لقد حصل ذلك مراتٍ عديدة، فكنت أضع فراشاً على الأرض وكم مرةً نامت عندي... «آلو... نعم، سنضع الفراش على الأرض وتنامين عندي»، حسناً، لقد جاءت منذ بضعة أيام، لكن المسكينة بردت - حصل ذلك خلال فترة البرد- فالهواء يمر من تحت الأبواب. ثم إنّ ذلك غير ممكن، ثم إنه لا يوجد مكان في... أليس كذلك، هناك ذلك الفراش البائس الموضوع على الأرض... {ضحكة مرتبكة}.

❖ بلى، إنه حلٌّ مؤقّت، لكن ألا يمكن أن يتواجد أحد ما بصورةٍ دائمة عندك؟

لويز ب.- لا. لا، لا يمكن أن يعيش في الشقة اثنان.

❖ إذن، ما الذي تنوين فعله الآن؟ هل تفكرين مثلاً في الذهاب إلى بيت أخيك وزوجته؟

لويـزب.- لا! لا، لا! لا أريـد أن أذهـب لعنـد أحـد...لا، لا! علـى أيــة حـال، فإن حياتـهم منظمـة، وقـد رزقـا منـذ فترة وجيزة بطفلٍ ثالث، أقصـد أحد أولادهم وهو يعيش غير بعيدٍ عنهم. أترى، كلٌّ له حياته المنظمة. لا، لا، لا، لا، الأمـر... وزوجـة أخـي تفـهم الأمـر جيداً، وهـي تتصل بـي دائمـاً، بكـل لطـف، وتسـألني «كيف الحـال»، وكل ذلك لأنـها تـرى جيـداً أننـي أفعـل مـا بوسعي، لكنني لا أزعجها. لا، هذا لا... أستطيع القول بأنني أكره أن...

إنهم يجعلوننا نعيش

❖ ومن أين تأتي تلك الكراهيـة لإزعـاج الآخـرين؟ أنتِ التـي انشـغلتِ طيلة حياتك بالآخرين أثناء ممارستك لمهنتك...

لويز ب.- إنه تحديداً لأنني رأيت ما يعنيه إزعـاج النـاس لبعضهـم. مـا الذي سيفعلونه بجدةٍ عجوز؟ ماذا؟ لا.. إنـهم يجعلوننـا نعيش، بمـا أنّ الأمـر هو كذلك نوعاً مـا، لكننـي لا أعلـم مـا إذا كـان هـذا يسـمى عيشـاً {ضحـك}. لاحـظ أننـي أحـب القـراءة، أقـرأ الكلمـات المتقاطعـة، ويـأتي أحدهـم، بسـهولة كما أقول لك، ويقرع الباب، ونلعب لعبة الكلمات المتقاطعة، وحين يكون لـدي تلفزيـون لا يعمـل ثـم... لـديّ أبنـاء اخـوة، لكنـهم ممـن يدعونـهم أبنـاء أخـوة باختيار القلب؛ أي أنهم أبناء لأصدقاء، وأنـا بالنسبة لـهم الخالـة. إذن هنـاك زوجان اتصلا بي منذ يومين وقالا لـي «اسـمعي، سـوف نحضـر لـكِ تلفزيـون حمـاتي»، وبالتـالي أصبـح لـديّ تلفزيـون جميـل يعمـل جيـداً، ويمكننـي مـن سـريري أن... هكذا. كثيرون يحـاولون بلطف أن يبعثوا السـرور فـي نفسـي. {صوتها يندفع.} لكن هنـاك العديـد ممن لا يفـهمون الأمـور بالدرجـة ذاتها. {صوتها يصبح عصبياً.} وهـم يظنـون بأنّـهم يفـهمون كل شـيء ويديـرون كل شيء، وينظّمون كل شـيء {تقلّد صوت قريبتها الآمر} «لماذا حذاؤك بـهذا الشـكل؟» لـو رأيت... البارحـة كان الأمـر دراماتيكيـاً! مـع تلك القريبـة، حقـاً، لديها طريقة للحكم عليك في كل شيء، وهي تبلغ الأربعين من عمرها...

❖ هل هي ابنة أخٍ آخر لك؟ هل هي ابنة أخٍ غير ذلك الذي يقطن في لاروشيل؟

لويز ب.- أوه، هذا مسجل، أوه، انتبهي، أوه، نعم!

{لويز ب. قلقة جداً بالنسبة لمستقبلها، كما أنها «مهزوزةٌ» جداً بسبب زيارة قريبتها لها، وهي حريصةٌ على ألاّ تقول كلاماً كثيراً، وتطلب أن تتكلم خارج التسجيل، وبعد انقطاع، نعاود اللقاء مرةً أخرى.}

لويز ب.- إذن، أخي وزوجة أخي، زوجة أخي متحفظة جداً. بالمناسبة، لقد قالت لي المساعدة الاجتماعية قبل قليل بأنّها قد اتصلت، وقالت لي بأنهم سوف يسافرون غداً، لذلك فهم سوف يمرون بباريس، وهناك اجتماع مع المساعدة الاجتماعية ولا أعرف من أيضاً، لا أعرف من أيضاً سيكون في الاجتماع، ليبحثوا في ما سوف يفعلونه بالأعباء الثقيلة جداً التي هي نحن. {ضحك – ضجيج في الممر.} هذا صحيح. هذا صحيح حقاً. كم عدد أمثالي؟ وأقول لنفسي بأنني محظوظة لأنّ... لأنني أرى ما لديّ؛ ينبغي على المرء أن يعرف ما لديه. الهاتف يعمل بسهولة في بيتي، وأنا في نهاية الأمر أعيش حياةً حيوية للغاية...

❖ لكن ما الذي تفضلينه أنت؟

لويز ب.- أنا قد مللت، أريد مكاناً هادئاً في دارٍ للمسنين...

❖ في دار للمسنين؟

لويز ب.- {يصبح لحن صوتها منخفضاً.} بلى... لم يعد أمامي سوى ذلك. ويجب مع ذلك ألاّ تكون الدار بعيدةً جداً بحيث يمكن لمن يشاء أن يحضر لزيارتي...

❖ نعم، في باريس...

لويز ب.- بلى، أو بالقرب من باريس... {صمت}. لذلك، فإنني أظنّ أنّ هذا الموضوع هو الذي سيُدرس غداً؛ إذن مع كثير جداً من التوصيات من قبل قريبتي تلك. {تقلّد صوت قريبتها} «أهم شيء ألاّ تجعلينهم يمررون ما يقترحونه عليك». وما دخلي أنا! كما لو كنت ألجأ إليها لكي أعيش... لكنني مع ذلك ذكّرتها البارحة، فقد بدأ صبري ينفذ، بأنني قد قدت دراجة سانا

لمدة عامين عام 38، دون أن يعرف ذلك أحد! قلت لها «هل تعلمين؟ بالنسبة للشجاعة، لقد كان لديّ شجاعة، وبالتالي، فهذا يكفي!» وقلت لها في أحد الأيام «اسمعيني جيداً، ما أتيت لتقوليه لي، لم يسبق لأحدٍ أن جرؤ على قوله لي»، وأعتقد أنها أدركت حينذاك بأنها قد بالغت قليلاً. ينبغي الاعتراف بأنّ سماع مثل هذا الكلام أمرٌ مؤلم.

❖ ما هي مهنتها؟ ما هي المهنة التي تقوم بها؟

لويز ب.- أوه، لقد درست علم النفس. نعم {ضحك}. أتعلمين، ليس هذا مثالاً... نفسياً. إنها على كلّ حال لم تكمل دراستها- وهي في الواقع لم تكن بحاجةٍ للعمل-، فلدى زوجها مركز يسمح له بالعيش، وفي بعض الأحيان أعتني- أكثر من اللزوم- بأولادهما. لكن هناك آخرون، فأرى الآخرين... صباح اليوم بالذات تلقيت اتصالاً من مونبلييه؛ كان الاتصال من إحدى ما أدعوهن بنات الأخوة باختيار القلب. والبارحة كان الاتصال من روان، ماذا أقول لك، كانت المتصلة صديقةُ من كانّ. ينبغي أن يرى المرء كل ما لديه، وليس فقط اللحظة التي سيخرج فيها من الأزمة. [...]

{يدخل مساعد صحي ويقول: «مرحباً، أنا أزعجكما ثانيةً!»}

لويز ب.- ماذا تريد؟

{يأخذ الجريدة التي أحضرها لها أحد الزوار ويخرج.}

شباط 1992

بيير بورديو

الفهم

لا أريد أن أستسلم هنا بصورة ملحة جداً لأفكار نظرية أو منهجية مكرسة للباحثين فقط. كان مونتين Montaigne يقول :«إننا لا نفعل سوى أن ننتقد بعضنا بعضاً». وحتى لو لم يكن الأمر يتعلّق إلاّ بذلك، لكن بطريقة مغايرة تماماً، فإنني أريد أن أتجنب البحوث المدرسية حول التفسير أو حول «الوضع الأمثل للاتصال» : فأنا أعتقد بالفعل بأنه ما من وسيلة لاستكشاف علاقة الاتصال بعموميتها أكثر حقيقيةً وواقعية من تعلّق المرء بالمشاكل التي لا تنفصم صفتها العملية عن صفتها النظرية، والتي تنشأ عن الحالة الخاصة للتأثير المتبادل بين الشخص الذي يجري الاستقصاء والشخص الذي يسأله المستقصي.

مع ذلك، فإنني لا أعتقد بأنه يمكن للمرء أن يعتمد على الكتابات العديدة التي توصف بالمنهجية والمتعلقة بتقنيات الاستقصاء. فعلى الرغم من أنّ هذه الكتابات قد تكون مفيدةً حين توضّح هذا أو ذاك من التأثيرات التي يمكن للمستقصي أن يمارسها «دون علمه»، إلاّ أنها تفتقد في معظم الأحيان إلى الجوهري، وقد يكون ذلك لأنها تبقى تحت سيطرة الوفاء لمبادئ منهجية قديمة تنتج في كثيرٍ من الأحيان عن الرغبة - كما في مثال تنميط الطرائق - في محاكاة دقة العلامات الخارجية لأشهر الطرق العلمية؛ ولا يبدو لي على كل حال

بأنّ هذه الكتابات تعرض ما فعله وعرفه على الدوام أشد الباحثين احتراماً لموضوعهم وأكثرهم انتباهاً للدقائق التي تكاد لا تنتهي للاستراتيجيات التي يستخدمها العاملون الاجتماعيون في سلوكهم الحياتي الاعتيادي.

وهكذا، فقد أقنعتني عدة عشرات من السنين في ممارسة الاستقصاء بكافة أشكاله، من علم الأجناس إلى علم الاجتماع، ومن الاستجواب الذي يدعى مغلقاً إلى المقابلة الأكثر انفتاحاً، أقنعتني بأنّ تلك الممارسة لا تجد تعبيرها المناسب في أحكام منهجية كثيراً ما تستخدم المذهب العلمي كانتماء لا كمنهج، ولا في التحذيرات المعادية للعلم التي يطلقها المتصوفون المؤمنون بالانصهار الانفعالي. لذلك، فإنه يبدو لي بأنّه لا بدّ من محاولة تفسير النوايا ومبادئ الطرائق التي استخدمناها في البحث الذي نقدّم هنا نتائجه. وبهذا الشكل، ومن خلال قراءة النصوص، فإنّ القارئ سوف يتمكّن من إعادة إنتاج عمل البناء والفهم الذي نتجت عنه هذه النصوص[1].

وإذا كانت علاقة الاستقصاء تتميز عن معظم مبادلات الوجود العادي بما تقدمه لنفسها من أهداف معرفية صافية، فإنها تبقى، في كل الأحوال، «علاقةً اجتماعية» تمارس تأثيرات (تتباين وفق المعايير المختلفة التي يمكن أن تؤثّر عليها) على النتائج التي يتم الحصول عليها[2]. ربما كان الاستجواب

---

[1] خلال اجتماعات العمل المختلفة، قمت بعرض أهداف البحث والمبادئ (المؤقتة) للقاءات التي قمت باستنباطها من تجارب حققتها منذ عدة سنوات بنفسي أو عن طريق بعض المساعدين المقرّبين (مثل روزين كريستان وإيفيت ديلسو Yvette Delsaut وميشيل بيالو Michel Pialoux وعبد المالك صياد). في كلّ مرة، دُرس بعناية اختيار المواضيع والشكل الممكن للمقابلة تبعاً للمميزات الاجتماعية للشخص المحتَمل مقابلته. وفي كثيرٍ من الأحيان، أثار الاستماع إلى المقابلة الأولى أو قراءتها أسئلةً جديدة (حول الوقائع أو حول التفسير) واستدعى إجراء مقابلة جديدة. وفيما بعد، أُخضعت للنقاش في كوليج دوفرانس Collège de France في العام الدراسي1991–1992 كافة المشاكل والصعوبات والدروس التي تعرّض لها هذا أو ذاك أثناء المقابلات التي كانوا يجرونها. وفي المواجهة الدائمة بين تجارب المشاركين، تحدد المنهج شيئاً فشيئاً، عبر التفسير والترميز المتدرج للخطوات المنجزة بالفعل.

[2] إن التعارض التقليدي بين المناهج التي تدعى بالمناهج الكمية، كالاستقصاء بالاستجواب، وبين المناهج التي تدعى بالنوعية، كالمقابلة الشخصية، هذا التعارض يخفي بأنّ تلك المناهج تتشارك في أنها تستند

العلمي يستثني بالتعريف نيّة ممارسة شكلٍ من العنف الرمزي القادر على التأثير على الأجوبة؛ ويبقى أنه لا يمكن الوثوق بالنوايا الحسنة وحسب في هذه المواضيع، لأنّ هناك أشكالاً عديدة من التشوهات المترسخة ضمن بنية المقابلة بذاتها. ينبغي معرفة هذه التشوهات والسيطرة عليها؛ ويتم هذا الأمر من خلال إنجاز ممارسةٍ يمكن لها أن تكون مدروسةً ومنهجية، دون أن تكون تطبيقاً لمنهج أو تنفيذاً لتفكيرٍ نظري.

وحدها الانعكاسية، وهي مرادف للمنهج، لكنها «انعكاسية رد الفعل»، مبينة على «مهنة»، أو «عين» اجتماعية، وحدها تسمح بالملاحظة الفورية وبالتحكم بتأثيرات البنية الاجتماعية التي تجري ضمنها، وذلك من خلال مسار المقابلة. كيف يدّعي المرء بأنه يقوم بالتعرف على المسلّمات دون أن يعمل على التعرف على مسلماته الخاصة؟ وخاصةً دون أن يبذل جهداً كي يستخدم مكتسبات علم الاجتماع بشكلٍ انعكاسي من أجل التحكم بتأثيرات الاستقصاء ذاته ولينهمك في المقابلة متحكماً بتأثيرات الاستجواب التي لا يمكن تجنبها.

إنّ الحلم الإيجابي ببراءةٍ معرفية تامة يخفي بالفعل أنّ الفارق ليس بين العلم الذي يبني وذلك الذي لا يبني، بل بين ذلك الذي يفعل ذلك دون أن يدري وذلك الذي يدري، ويجهد كي يعرف ويسيطر ما أمكنه على أفعاله التي لا يمكن تجنبها، والتي تهدف إلى البناء، والتأثيرات التي تنتج عنها تلك الأفعال والتي لا يمكن تجنبها هي أيضاً وبالدرجة ذاتها.

تواصلٌ «غير عنيف»

حين يقيم المرء علاقة مقابلة، فإنّ محاولة معرفة ما يفعله المرء تعني

إلى تفاعلاتٍ اجتماعية متبادلة تتم تحت تأثير البنى الاجتماعية. والمدافعون عن هذين النمطين من الطرائق يشتركون في أنّهم يتجاهلون تلك البنى، وهكذا أيضاً يفعل الأخصائيون بعلم المناهج الأخلاقية، الذين تدفعهم نظرتهم الذاتانية للعالم الاجتماعي إلى تجاهل التأثير الذي تمارسه البنى الموضوعية ليس فقط على التأثيرات المتبادلة (بين الأطباء والمرضات مثلاً) التي يسجلونها ويحللونها، بل أيضاً على تفاعلها المتبادل مع الأشخاص الذين يخضعون للملاحظة أو للاستجواب.

أولاً أن يحاول معرفة التأثيرات التي يمكن أن يتسبب بها دون أن يعلم عبر ذلك «التطفل» الذي يكون دائماً تعسفياً نوعاً ما، والذي هو في أصل التبادل (وخاصةً بطريقة تقديم الذات وتقديم الاستقصاء، وعبر أشكال التشجيع المقدّم أو المرفوض، الخ.)؛ إنها تعني محاولة إظهار تصور المستقصى عنه للوضع، وللاستقصاء بصورةٍ عامة، وللعلاقة الخاصة التي يقيمها ضمنه، وللأهداف التي يتابعها، وتعني توضيح الأسباب التي تدفعه إلى قبول الدخول في عملية التبادل. وبالفعل، فإنه من الممكن للمستقصي أن يحاول إنقاص التشوهات التي تنتج عن الاستقصاء، أو أن يحاول على الأقل فهم ما يمكن قوله وما لا يمكن قوله، وأشكال الرقابة التي تمنع من قول أمورٍ بعينها، وأشكال التحريض التي تشجع على إبراز أمور أخرى، وذلك بشرط أن يقيس مدى وطبيعة الفارق بين موضوع الاستقصاء كما يراه ويفسره المستقصى عنه، وبين الهدف الذي يعيّنه له المستقصي.

المستقصي هو الذي يدير اللعبة ويعلّم قواعدها. وفي معظم الأحيان، يكون هو الذي يدير في المقابلة، بطريقةٍ أحادية الجانب ودون تفاوض مسبق، الأهداف والاستخدامات التي تكون أحياناً غير محددة بشكلٍ جيد، بالنسبة للمستقصى عنه على الأقل. ويتضاعف هذا التفاوت بتفاوت اجتماعي في كل مرة يحتل فيها المستقصي مركزاً أرفع من مركز المستقصى عنه في تراتبية الأنواع المختلفة لرأس المال، وبالأخص رأس المال الثقافي. إنّ «سوق الخيرات اللغوية والرمزية» الذي ينشأ بمناسبة المقابلة يختلف في بنيته حسب العلاقة الموضوعية بين المستقصي والمستقصى عنه، أو بين رؤوس المال المتباينة، وخاصةً اللغوية منها، التي يتحليان بها، وهذا يؤدي للنتيجة ذاتها.

وقد أخذنا علماً بتلك الخاصتين الملازمتين لعلاقة المقابلة، وحاولنا أن نجند كل شيء في سبيل السيطرة على تأثيراتها (دون أن ندّعي إلغاءها)؛ أي، بصورةٍ أدقّ، «لتقليل العنف الرمزي الذي قد يمارس عبرها إلى الحد الأدنى». فقد حاولنا إذن أن نقيم علاقة «استماعٍ فعال ومنهجي»، بعيدةً عن

عدم التدخل الصافي للمقابلة غير الموجهة بقدر ما هي بعيدة عن توجيهية الاستجواب. هذا الموقف متناقض ظاهرياً ويصعب الالتزام به من الناحية العملية. وبالفعل، فهو يجمع بين الجاهزية الكاملة تجاه الشخص المستقصى عنه وبين الخضوع إلى تفرّد قصته بالذات، مما قد يؤدي، عبر نوعٍ من التشبه الذي تكون السيطرة عليه متفاوتة، إلى تبني أسلوبه الكلامي وإلى الدخول في أشكال رؤيته للأمور، وفي عواطفه وأفكاره، وذلك بالبناء المنهجي، الذي تقويه معرفة الشروط الموضوعية المشتركة بالنسبة لأفراد صنفٍ بأكمله من الناس.

ولكي تكون علاقة المقابلة أقرب ما يمكن إلى ذلك الحد المثالي، توجب إنجاز عددٍ من الشروط: فلم يكن كافياً أن يكون هناك تأثير، كما يفعل تلقائياً أيّ مستقصٍ «جيد»، على ما يمكن السيطرة عليه، سواءً بصورةٍ واعية أم غير واعية، في «التأثير المتبادل»، وخاصةً على مستوى الأسلوب الكلامي المستخدم وكافة الإشارات الكلامية أو غير الكلامية القادرة على تشجيع تعاون الأشخاص الذين تم استجوابهم، والذين لا يمكن لهم أن يقدموا للاستجواب إجابةً جديرة بهذا الاسم إلاّ إذا كان بمقدورهم أن ينسبوها لأنفسهم وأن يصبحوا مواضيعها. توجب أيضاً، في بعض الحالات، العمل على «بنية» العلاقة ذاتها (وبالتالي على «بنية» السوق اللغوي والرمزي)، وبالتالي على «اختيار» الأشخاص المستجوَبين والسائلين.

الإرغام

يمكن للمرء أن تنتابه الدهشة أحياناً لاستطاعة المستقصى عنهم أن يضعوا كل تلك الإرادة الحسنة وكل تلك المسايرة في إجاباتهم على أسئلةٍ تتسم بكل ذلك المقدار من السخافة أو الاعتباطية أو عدم اللياقة، كتلك التي «تطبّق» عليهم في كثيرٍ من الأحيان، وخاصةً في استطلاعات الرأي. وبعد ذلك، يكفي أن يدير المرء مقابلةً واحدة كي يعرف إلى أية درجة يصعب عليه أن يركز انتباهه على ما يجري قوله (وليس فقط ضمن الكلمات) وأن يستبق

الأسئلة القادرة على أن تسجّل «بصورةٍ طبيعية» في استمرارية المحادثة، وأن يقوم في الوقت ذاته باتباع نوعٍ من «الخط» النظري. هذا يعني أنه ما من أحدٍ بمنجى من تأثير الفرض الذي يمكن أن تمارسه الأسئلة المركزية الذاتية بصورةٍ ساذجة، أو ببساطة، تلك الأسئلة الطائشة المطروحة، وبمنأى خاصة عن التأثير الرجعي الذي قد تؤدي إليه الإجابات المنتزعة بتلك الطريقة على المحلِّل، المعرّض دوماً إلى أن يأخذ في تفسيره على محمل الجدّ ظاهرةً دراسية أنتجها بنفسه دون أن يدري. فمثلاً، يمكن أن يطلب مستقصٍ فجأةً، هو في ما تبقى مجاملٌ بقدر ما هو منتبه، من عاملٍ في الصناعات المعدنية، قال له لتوه كم حالفه الحظ ببقائه طيلة حياته في الورشة ذاتها، ما إذا كان، هو «شخصياً»، «مستعداً للرحيل من لونغوي» ويحصل، بعد انتهاء لحظة الدهشة الصريحة، على إجابةٍ مجاملة من نمط تلك التي يسجلها المستقصي والمرمّز المستعجل في مؤسسات سبر الرأي العام كموافقة: «الآن {لهجة استغراب}؟ ولماذا؟ الرحيل.. لا أرى فائدةً لذلك.. لا، لا أظنّ بأنني سأترك لونغوي... بل إنّ تلك الفكرة لم تخطر ببالي قطّ... كما أنّ زوجتي لا تزال تعمل. ربما كان ذلك عنصراً كابحاً... لكن أن نرحل عن لونغوي.. لا أدري، ربما، لمَ لا؟.. يوماً ما.. لا أعرف.. لكن ذلك لا يخطر ببالي حتى الآن. لم يخطر ذلك ببالي أبداً، فضلاً عن أنني باقٍ... لست أدري، لمَ لا {ضحك}، لا أعلم، لا أحد يعلم...».

وهكذا، اخترنا أن نترك للمستقصين حرية اختيار المستقصى عنهم بين «الأشخاص الذين يعرفونهم» أو بين الناس الذين يمكن لمعارفهم أن يعرّفوهم بهم. وبالفعل، فإن التقارب الاجتماعي والألفة يؤمّنان اثنين من الشروط الأساسية لتواصلٍ «غير عنيف». فمن جهة، إذا كان المستقصي قريباً جداً اجتماعياً من ذاك الذي يستجوبه، فإنه يقدّم له، عبر التبادل المشترك معه، ضماناتٍ ضد تهديد أن يرى دوافعه الذاتية تُختصر إلى أسباب موضوعية، وخياراته التي عاشها بصفتها حرةً تُختصر إلى تأثير حتمياتٍ موضوعية يُظهرها التحليل. من جهةٍ أخرى، نرى بأنه يتم في هذه

الحالة تأمين اتفاقٍ فوري مؤكّد باستمرار على المسلمات المتعلقة بمحتويات وأشكال التواصل: حيث يتأكد هذا الاتفاق بالإصدار المضبوط، والذي يصعب دائماً إنتاجه بطريقةٍ واعية متعمّدة، لكافة الإشارات غير الشفهية، بارتباطها بالإشارات الشفهيةً التي إما أن تظهر كيف يجب أن يفسّر شخصٌ ما، أو أن تظهر كيف فسّره المحادثُ[3].

إلاّ أنّ فضاء الفئات الاجتماعية التي يمكن الوصول إليها في الشروط المثلى للألفة له حدوده (حتى إذا كان تماثل المركز يستطيع أيضاً أن يؤسس أشكالاً حقيقية من التآلف بين الباحث الاجتماعي وبعض فئات الأشخاص المدروسين، كالقضاة أو مدرّسي علم الاجتماع مثلاً). وكان بإمكاننا أيضاً، كما فعلنا في استقصاءات أخرى سابقة، ولمحاولة توسيعها قدر الإمكان، أن نلجأ لاستراتيجيات مثل تلك التي تتضمن «لعب الأدوار»، وتأليف هوية شخصٍ مستقصى عنه يحتلّ مركزاً اجتماعياً محدداً لإجراء خطوات كاذبة من الشراء أو طلب المعلومات (بالهاتف خاصةً). وقد اخترنا هنا أن ننوع المستقصين بتطبيق منهجيّ للاستراتيجية التي لجأ إليها ويليام لابوف William Labov في دراسته عن اللهجات التي يتكلمها السود في هارلم: فلتحييد تأثير الفرض الذي تمارسه اللغة الشرعية، طلب لابوف من شبانٍ صغار من السود أن يديروا الاستقصاء اللغوي؛ وعلى مثله، حاولنا، في كلّ مرة كان ذلك ممكناً، أن نحيّد أحد أهم عوامل التفاوت في علاقة الاستقصاء، وذلك بأن قمنا بإعداد أشخاصٍ يمكن لهم الدخول إلى عالم الألفة بالنسبة لعدة فئات من المستقصى عنهم ممن كنا نروم الوصول إليهم، وذلك بتدريب هؤلاء الأشخاص على الأمور الفنية المتعلقة بإجراء استقصاء.

---

[3] إنّ إشارات المفعول الرجعي feed back تلك التي يدعوها E.A.Schegloff بالإجابات الرمزية response tokens مثل «نعم»، «صحيح»، «طبعاً»، «أوه» وكذلك هزات الرأس الموافقة والنظرات والابتسامات وكافة مستقبلات المعلومات، الإشارات الجسدية أو الشفهية الدالّة على الانتباه أو الاهتمام أو الموافقة أو التشجيع أو العرفان، هي شرط الاستمرار الجيد للتبادل (لدرجة أنّه تكفي في كثيرٍ من الأحيان لحظةٌ من عدم الانتباه أو شرود النظرة لإثارة نوعٍ من الارتباك عند المستقصى عنه ولجعله يضيع تسلسل خطابه)؛ وإذا استُخدمت هذه الإشارات في التوقيت المناسب، فإنها تبرهن على مشاركة المستقصي الذهنية والانفعالية.

حين يستجوب فيزيائيٌّ شابٌ فيزيائياً شاباً آخر (أو حين يستجوب ممثل ممثلاً آخر، أو عاطلٌ عن العمل عاطلاً آخر عن العمل، الخ.) يتقاسم معه معظم المميزات القادرة على أن تفعل كعوامل مفسِّرة رئيسية لممارساته ولتصوراته، وتجمعه به علاقة ألفة عميقة، فإنّ أسئلته تجد أساسها في استعداداته، المتوافقة بصورة موضوعية مع استعدادات المستقصى عنه؛ ولا يوجد أي سبب يجعل أكثر هذه الأسئلة ميلاً للموضوعية تبدو مهدِّدةً أو عدائية، وذلك لأنّ محادثه يعرف تماماً بأنّه يشاطره أهم ما سوف تجعله الأسئلة يفصح عنه، وأنه يشاطره في الآن ذاته المخاطر التي يعرِّض نفسه لها بإفصاحه ذاك. كما أنه ليس بوسع المستقصي أن ينسى بأنّه حين يموضع محادثه، فإنه يموضع ذاته أيضاً، كما تشهد بذلك التصحيحات التي يدخلها على هذا أو ذاك من أسئلته، فينتقل من ضمير «أنت» الموضوعي إلى ضمير «on» الذي يوحي بجمعٍ غير محدد، ثم إلى ضمير «نحن»، حيث يؤكّد بوضوحٍ أنه معنيٌّ هو أيضاً بالموضعة: «أي أنّ كل الدراسات التي قمتَ «أنت» بها، التي تمّ القيام بها، قد جعلتنا «نحن» نميل إلى أن نحبّ النظرية.» وربما كان التقارب الاجتماعي مع الشخص الذي يُجرى معه الاستقصاء هو ما يفسر انطباع عدم الارتياح الذي قال معظم المستقصين الذين وضعوا في مثل تلك العلاقة بأنهم شعروا به، وأحياناً طيلة المقابلة، وأحياناً بدءاً من لحظةٍ معينة من التحليل: وبالفعل، ففي كل تلك الحالات، يميل الاستجواب بصورةٍ طبيعية إلى أن يصبح تحليلاً اجتماعياً يقوم به اثنان يجد المحلل نفسه رهينةً له، وممتحناً، بمقدار ما يشعر بذلك ذاك الذي يخضعه للاستجواب.

لكن المماثلة مع الاستراتيجية التي استخدمها لابوف ليس لها صفة الكمال: فلا يكفي أن يجمع المرء «الخطاب الطبيعي» مهما كانت قلّة تأثره بعدم التماثل الثقافي؛ بل إنه يجب أيضاً بناء هذا الخطاب بصورة علمية بحيث يُقدّم العناصر الضرورية لتفسيره. وهكذا تزداد بشكلٍ مطّرد المتطلبات المفروضة على المستقصين العرَضيين؛ ورغم أنه قد جرتْ مع كلّ واحدٍ منهم مقابلات مسبقة تهدف إلى جمع كل المعلومات التي يعرفونها عن

المستقصى عنه وإلى تحديد الخطوط الرئيسية لاستراتيجية الاستجواب معهم، فإنّ عدداً لا بأس به من الاستقصاءات المجراة في هذه الشروط قد استثنيت من النشر: فهي لم تقدم أكثر من المعطيات الاجتماعية اللغوية غير القادرة على توفير أدوات تفسيرها[4].

إلى هذه الحالات التي يتوصل فيها الباحث الاجتماعي إلى أن يعطي لنفسه بديلاً على نحوٍ ما، تضاف علاقات الاستقصاء التي يستطيع فيها أن يتغلب جزئياً على المسافة الاجتماعية بفضل علاقات الألفة التي تربطه بالمستقصى عنه وبفضل الصراحة الاجتماعية، التي تسمح بالكلام الصريح، والتي يؤمّنها وجود صلاتٍ مختلفة من التضامن الثانوي قادرة على إعطاء كل الضمانات الأكيدة من التفاهم الودي: فالعلاقات العائلية أو الصداقة التي تعود لزمن الطفولة، أو، بحسب بعض المستقصيات، التواطؤ بين النساء، قد سمحت في أكثر من حالة بالتغلب على العقبات المرتبطة بالتبيانات في الشروط، والتغلب خاصةً على الخشية من الاحتقار الطبقي التي كثيراً ما تضاعف الخشية، الشديدة العمومية، إن لم تكن شاملة، من الموضعة، وذلك حين يُنظر للباحث الاجتماعي بصفته متفوقاً اجتماعياً.

تمرينٌ روحيّ

لكن هناك حدود لكافة الطرق والحيل التي أمكن لنا أن نتخيلها للتقليل من المسافة. وعلى الرغم من أن التدوين يغفل إيقاع وزمن الشفهي، فإنه يكفي أن يقرأ المرء فيما بعد بعض المقابلات ليرى كل ما يفصل

---

[4] ربما يكمن أحد اهم أسباب حالات الفشل هذه في التوافق التام بين المستجوِب والمستجوَب، هذا التوافق الذي يتيح المجال الكامل لميل المستجوَبين إلى أن يقولوا كل شيء (كما في معظم الشهادات والوثائق التاريخية)، باستثناء ما هو بديهي، باستثناء ما لا داعي لقوله (على سبيل المثال، فإن المثلة، وربما لأنها تتوجه بالحديث إلى ممثل، لا تذكر شيئاً عن مجموعة من البديهيات المتعلقة بالتراتب الهرمي بين الفنون، والمخرجين، وكذلك التعارضات المكوّنة لحقل المسرح في لحظةٍ معينة). إنّ كل استجواب يقع إذن بين حدّين قد لا يمكن الوصول إليهما أبداً: التطابق التام بين المستقصي والمستقصى عنه، حيث لا يمكن أن يقال شيء لأنّه لا يوجد ما يشكّك به، وحيث كل شيءٍ بديهي، والاختلاف التام، حيث يصبح التفهم والثقة مستحيلين.

الأحاديث المنتزعة من الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات مقطعاً مقطعاً البعيدين عن المتطلبات المضمرة لوضع الاستقصاء عن الأحاديث التي أدلى بها أولئك الذين يتوافقون (ربما أكثر من اللزوم) مع الطلب، كما يتصورونه هم على الأقل. فهم يسيطرون على الوضع لدرجة أنهم يتوصلون أحياناً إلى أن يفرضوا على المستقصي تعريفهم الخاص للعبة.

حين لا يأتي شيء ليحيّد أو ليعلّق التأثيرات الاجتماعية لعدم التماثل المرتبط بالمسافة الاجتماعية، فإنه لا يمكن للمرء أن يأمل بالحصول على أقوال تأثُّرها بتأثيرات وضع الاستقصاء في حده الأدنى إلاّ عبر عمل بناءٍ متواصل. والمفارقة هي أنّ هذا العمل مكرّسٌ ليكون خفياً بمقدار ما يكون ناجحاً، وأنه سوف يؤدّي إلى تبادلٍ يتحلّى بكافة مظاهر «الطبيعي» (بمعنى ما يحصل من أمورٍ عادية في التبادلات الاعتيادية للحياة اليومية).

يمكن أن ينال الباحث الاجتماعي من أكثر الناس بعداً عنه اجتماعياً الشعور بأنه معترفٌ به بصفته ما هو عليه، وذلك إذا عرف كيف يُظهر له، بنبرة صوته، وخاصةً بمحتوى أسئلته، بأنه قادرٌ على أن «يضع نفسه ذهنياً» مكان محادثه، دون أن يدّعي إلغاء المسافة الاجتماعية التي تفصله عنه (على عكس النظرة الشعبوية التي لا ترى إلاّ نظرتها هي).

إنّ محاولة وضع الذات ذهنياً في المكان الذي يحتله المستقصى عنه في الحيّز الاجتماعي «لإلزامه» أثناء استجوابه بالبدء من هذه النقطة كي «تكون في صفه» بشكلٍ ما (بالمعنى الذي تحدث فيه فرانسيس بونج Francis Ponge عن «الانحياز للأشياء») لا تعني العمل على «إسقاط الذات على الآخر» الذي يتحدث عنه الباحثون الظواهريّون. إنها تعني تقديم «فهمٍ عموميّ وموروث» لما هو عليه، يرتكز على السيطرة (النظرية أو العملية) على الشروط الاجتماعية التي نشأ منها: السيطرة على الشروط الحياتية وعلى الآليات الاجتماعية التي تمارس تأثيرها على مجموع الفئة التي ينتمي إليها (كفئة طلاب المرحلة الثانوية أو العمال المؤهلين أو القضاة، الخ.) والسيطرة على الشروط النفسية والاجتماعية الملازمة لهذه الفئة، والتي ترتبط بموقعها

الخاص وبمسيرتها الخاصة في الحيّز الاجتماعي. ينبغي أن نطرح أنّ «الفهم والشرح هما كلٌّ واحد» في مقابل التمييز القديم الذي أقامه ديلتي(*).

ولا يقتصر هذا الفهم على حالة روحية حسنة النيّة. إنه يمارس عبر الطريقة الواضحة والمطمئنة والجذابة التي تُعرض بها المقابلة وتدار، والعمل على أن يكون للاستجواب والوضع ذاته معنى بالنسبة للمستقصى عنه، كما يمارَس بصفة خاصة عبر الإشكالية المقتَرحة: فهذه الإشكالية، مثلها مثل الإجابات المحتَملة التي تستدعيها، تنتج عن تصوّر مثبَت للظروف التي وُضع فيها المستقصى عنه وتلك التي هو نتاجٌ لها. هذا يعني بأنه لا يتوفر للمستقصي بعض الفرص ليكون حقاً على مستوى موضوعه إلا إذا كان لديه معرفةٌ كبيرة به، يكون أحياناً قد امتلكها طيلة حياة من البحث، وكذلك، وبصورة أكثر مباشرةً، من خلال لقاءات سابقة مع المستقصى عنه ذاته أو مع مقدّمين للمعلومات. إنّ معظم المقابلات المنشورة تمثّل لحظةً، قد تكون مفضّلة، في سلسلة طويلة من المبادلات، ولا يجمعها شيء مع اللقاءات التي تُجرى ببناءً على موعد، والاعتباطية والعرَضية، وللاستقصاءات التي يجريها بتسرّع مستقصون لا يمتلكون أية كفاءة نوعية.

هذه المعلومات المسبقة هي التي تسمح بارتجال مستمر للأسئلة السديدة، التي هي عبارة عن «افتراضات» حقيقية تستند إلى تصوّر حدسي ومؤقّت للصيغة المسبِّبة الخاصة بالمستقصى عنه لدفع هذا التصور إلى أن يكشف نفسه بصورة أكمل، حتى لو لم تتبدى هذه المعلومات إلاّ بطريقة سلبية تماماً، وخاصةً باستيحاء الاحتياطات والمجاملات التي تجعل المستقصى عنه يقرر منح الثقة والدخول في اللعبة، أو بحذف الأسئلة المتكلّفة أو غير اللائقة[5].

(*) فيلهايم ديلتي Delthey (1833–1911): فيلسوف ألماني اختص بفلسفة التاريخ والثقافة واهتم بتأثير العوامل والخصائص الذاتية في التجربة الشخصية، وكان يلحّ على ضرورة أن يتم التعليم على ضوء التاريخ (موسوعة إنكارتا 99). المترجم.

[5] بالنسبة لهذه النقطة، وكما بالنسبة لكل النقاط الأخرى، ربما فُهمنا بصورة أفضل إذا استطعنا تقديم أمثلة على أكثر الأخطاء نمطيةً، والتي تنبع في أغلب الأحيان من اللاوعي والجهل. إنّ بعض

وعلى الرغم من أنها يمكن أن توفر المعادل النظري للمعرفة العملية المترافقة بالقرب والألفة، فإنّ المعرفة المسبقة المتعمقة جداً قد تبقى غير قادرة على إيصالنا إلى فهمٍ حقيقي إن لم تتوازَ مع اهتمامٍ بالغير ومع تقديم انفتاحٍ إيثاري نادراً ما يصادفان في الوجود المعتاد. وبالفعل، فإنّ كلّ شيءٍ يجعلنا نميل إلى أن لا نضفي على الأقوال التي تتسم بصبغةٍ طقسية متفاوتة في الشدة والتي تتناول حالات البؤس المشتركة إلى حد ما إلاّ اهتماماً لا يختلف كثيراً في خلوّه من المعنى وفي رسميته عن قولنا الطقسي «كيف حالك؟» الذي أطلق تلك الأقوال. لقد سمعنا جميعاً تلك الحكايات عن النزاعات حول الإرث أو التجاور، وعن الصعوبات المدرسية أو المنافسات في المكتب التي نخشاها عبر أصنافٍ من الإدراك تسمح لنا بضربٍ من التناسق في الفكر والاهتمام والتأثر الأولي، وباختصار، في الفهم، وذلك باختزال الشخصي إلى موضوعي، والمصيبة الفريدة إلى حادثة عادية. وفي الوقت الذي نجنّد فيه كل موارد اليقظة المهنية والتعاطف الشخصي، فإنه يصعب علينا أن ننتزع أنفسنا من فتور الاهتمام الذي تسهّل حدوثه الأمور المعتادة لكي ندخل في فرادة قصة حياةٍ ما ونحاول أن نفهم مآسي وجودٍ ما في تفرّده وفي عموميته في آنٍ معاً. إنّ الفهم الناقص الفوري لنظرةٍ ساهية مبتذلة يثبّط عزيمة الجهد الذي ينبغي بذله لكسر حاجز الكلمات الاعتيادية التي يعيش فيها كلٌّ منّا ويستخدمها في الحديث عن مآسيه الصغيرة كما في الحديث عن أكبر مصائبه. إنّ ما يحاول أن يقوله الضمير غير المحدد «on» المندّد به فلسفياً وغير المعتبر أدبياً والذي يمثّلنا جميعاً قد يكون أصعب ما يمكن الاستماع إليه– بوسائله «غير الأصيلة» بشكلٍ لا أمل فيه –

مناقب الاستجواب الذي ينتبه إلى التأثيرات التي يحدثها منذورةً لأن تمرّ دون أن تُلحظ لأنها تتجلى بصورةٍ خاصة في حالات من السهو. ومن هنا تنبع أهمية الاستجوابات البيروقراطية التي سوف تحلّل أدناه: فهي اختباراتٌ حقيقية في فن العيش يقيس فيها المستقصي، المسجون في أحكامه المؤسساتية المسبقة ويقينياته الأخلاقية، قدرة المستقصى عنهم على تبني السلوك «اللائق». وهذه الاختبارات تُظهر بشكلٍ مضاد كافة الأسئلة التي يدفع الاحترام المبني على المعرفة المسبقة إلى استبعادها لأنها لا تتوافق مع تصورٍ مناسب لوضع الشخص المستجوَب أو لفلسفة الفعل التي يحثّ عليها هذا التصور في ممارسته.

بالمقارنة مع الـ «أنا» الذي نظنّ أننا عليه، وبأكثر أشكال المطالبة بالتفرد شيوعاً.

مقاومة الموضعة

ينبغي ألا نظن بأنه يمكن للباحث الاجتماعي أبداً أن يسيطر بالكامل على تأثيرات علاقة الاستقصاء، التي تكون دائماً شديدة التعقيد ومتعددة، بفعل الانعكاسية فحسب؛ علاوةً على ذلك، فإنّه يمكن للمستقصى عنهم أن يتلاعبوا بها، سواءً كان ذلك بصورةٍ واعية أو غير واعية، محاولين أن يفرضوا تعريفهم للوضع وأن يحوّلوا لمصلحتهم تبادلاً تكون إحدى رهاناته الصورة التي لديهم ويريدون تقديمها للآخرين وتقديمها عن أنفسهم. ويتم هذا ضمن وضعٍ يتعرضون فيه لكل الادعاءات السلبية التي تجثم على الآلام والتعاسة عندما يستذكرون، كما يدعوهم الاستقصاء إليه، «الأمور التي ليست على ما يرام» في حياتهم، وذلك طالما أنهم لا يعرفون أن يتقولبوا داخل الأشكال الشرعية للتعبير عن أشكال البؤس الاجتماعي، تلك التي توفرها السياسة والقانون وعلم النفس والأدب. وهكذا مثلاً، ففي عددٍ من المقابلات (وخاصةً تلك التي أجريت مع أعضاء من الجبهة الوطنية)، أدّت العلاقة الاجتماعية بين المستقصي والمستقصى عنه إلى تأثيرٍ رقابي قوي جداً، يتضاعف بوجود جهاز التسجيل: ربما كان ذلك الوجود هو ما جعل بعض الآراء لا يباح بها (إلاّ في بعض الاختلاسات الموجزة أو زلاّت اللسان). وتحمل بعض المقابلات آثاراً عديدة للجهد الذي يقوم به المستقصى عنه للسيطرة على المصاعب الموجودة بإبراز أنّه قادرٌ على أن يمسك بزمام موضعته الخاصة، وأن يحمل على عاتقه وجهة النظر الانعكاسية التي سُجّل مشروعها ضمن نيّة الاستقصاء.

وهكذا، فإنّ إحدى أكثر الوسائل دقّةً في مقاومة الموضعة هي طريقة المستقصى عنهم الذين يحاولون، بصورةٍ لا واعية أكثر منها واعية، وبالتلاعب بقربهم الاجتماعي من المستقصي، يحاولون أن يحموا أنفسهم منها بانغماسهم الظاهري في اللعبة، محاولين أن يفرضوا ما يشبه التحليل

الذاتي، دون أن يدركوا ذلك دائماً. ورغم المظاهر، فليس هناك ما هو أبعد عن الموضعة المشاركة التي يساعد فيها المستقصي محادثه- بجهدٍ مؤلمٍ ومُرضٍ في آنٍ معاً، على إبراز العناصر الاجتماعية التي تحدد آراءه وممارساته في أصعب ما يمكنه أن يبوح به ويأخذه على عاتقه- من الموضعة الكاذبة والمجاملة، والتبديد الجزئي للأوهام، والذي يصبح بالتالي مخادِعاً بصورةٍ مضاعفة، تلك الموضعة التي تجلب كلّ مسرات الإدراك دون أن تضع أيّ أمرٍ جوهري موضع مساءلة.

سوف أذكر مثالاً واحداً: «هناك نوعٌ من عدم الارتياح يجعلني لا أعرف أين أضع نفسي (...)، لم أعد أعلم أين أنا اجتماعياً... ربما كان ذلك على مستوى الاعتراف بالآخر (...). إنني أدرك كم تختلف نظرة الآخر إليك تماماً وفق المركز الاجتماعي الذي تحتله، وهذا يدعو فعلاً إلى الاضطراب نوعاً ما. لم يكن بديهياً بالنسبة لي أن يكون لي عدة أوضاع اجتماعية، وفي بعض الأحيان، لم يكن بإمكاني أن أجد نفسي بصورةٍ جيدة، وخاصةً من خلال نظرة الآخرين»، الخ.، الخ.

يحصل أن تؤدي أقوالٌ كهذه، تكسب مظهراً تفسيرياً على اعترافٍ ظاهريٍ، إلى إثارة نوعٍ من النرجسية الذهنية لدى مستقصٍ خبيرٍ، يمكن أن تتّحد مع الانبهار الشعبوي أو أن تتخفّى داخله، ذلك أنها مبنيةٌ وفقاً لأدواتٍ فكرية وأشكال تعبيرية قريبة من أدواته وأشكاله.

وهكذا، فحين تذكر ابنة مهاجر بكثيرٍ من الطلاقة مصاعب حياتها الممزقة أمام مستقصٍ يمكن له أن يجد في أقوالها بعض مظاهر تجربته الخادعة، فإنها تتوصل، بصورةٍ فيها مفارقة، إلى أن تجعله ينسى مبدأ النظرة الشديدة التنميق التي تقترحها لوجودها، أي دراستها للآداب، والتي تسمح لها بأن تقدّم لمحادثها منحةً مزدوجةً، منحة خطابٍ أقرب ما يكون لتصوره عن فئةٍ محرومة ومنحة إنجازٍ قاطع يهدم أي عائقٍ مرتبطٍ بالفارق الاجتماعي والثقافي. ينبغي هنا أن نذكر كافة الأسئلة والأجوبة:

المستقصي: لقد حصل إدراكك حين وصلتِ إلى فرنسا. لكن إدراكك لأي شيءٍ تحديداً؟

المستقصى عنها: إدراكٌ للحقيقيّ بمعنى أنه بالنسبة لي، بدأت الأمور ترتسم من تلك اللحظة. إنني أعيش بشكلٍ حقيقيّ انفصالَ والديّ. هذا الانفصال يأخذ معنىً حقيقياً اعتباراً من اللحظة التي انتقلت فيها من المرحلة التي عشت فيها مع أهلي هناك، أقصد مع أمي وعائلتها (في المغرب، حيث بقيت أمي بعد الانفصال)، إلى هنا، حيث اكتشفت أبي أخيراً. إنها المرة الأولى التي نعيش فيها معاً فعلياً. وحتى حين كان لا يزال متزوجاً من أمي، فإن حياته الاجتماعية كانت تجري هنا(في فرنسا)، فلم يكونا يريان بعضهما كثيراً، ولم نكن نحن نراه إلاّ قليلاً. وبدا لي بأنه شخصٌ أقوم باكتشافه حقاً لأول مرة (...). لقد دخل إلى حياتي اعتباراً من اللحظة التي بدأنا فيها بالعيش معاً. إذن، حصل الإدراك من هذا الجانب، واتخذ الانفصال معنى. يدرك المرء بأنّه لم يعش أبداً مع أبيه. (...) وكذلك، إدراك محيطٍ آخر. الفضاء الزمني لم يعد ذاته (...). أنت تعرف حينذاك بأنك تنتقل من أمك إلى أبيك. هذا الأمر يثيرك كذلك نوعاً ما، بطريقةٍ ما، لكن الحقيقة تأتي لتلوّن شيئاً فشيئاً ما حصل وتثيرها في الواقع. إذن، لم يعد ذات المشهد، ولا الناس ذاتهم، ولا الفضاء الزمني ذاته. بالنسبة لي، فقد دخلت إلى مرحلة ضبابيةٍ نوعاً ما بدءاً من تلك اللحظة، حيث ينبغي أن يبنى جسرٌ بين عالمين منفصلين جذرياً بالنسبة لي. لقد أمعنت التفكير بعض الشيء في ذلك الانفصال الذي يتجاوز كثيراً انفصال الأبوين». وتقول بعد قليل: «في واقع الأمر، يبدو لي بأنني مشدودةٌ إلى شيءٍ ما. والسؤال الذي يُطرح الآن- هل سأستمر على هذه الحال أم أنني سوف أحاول أن أتخلّص منها تماماً؟ بصراحة، أنا لا أصدّق ذلك كثيراً. إذن، سأظلّ دائماً بالتأكيد في منتصف الطريق. صحيحٌ أنه لا يهمني أن أكون مثل هذا أو ذاك. هناك رغبةٌ في الحفاظ على هذا الشكل من التيار الهوائي، ما بين بين. لا أدري.»

تتحوّل المقابلة كما نرى إلى مونولوج تسأل فيه المستقصى عنها الأسئلة بنفسها، وتجيب بغزارة، دون توقف، وتفرض بذلك على المستقصي (الذي لا يطلب أكثر من ذلك بالتأكيد) ليس فقط إشكاليتها، لكن أيضاً

أسلوبها («هل تشعرين بأنك مشوّهة هنا؟» أو «ما هو أكثر ما يجعلك غير راضية؟») وتستبعد في الواقع كلّ تساؤلٍ عن معطياتٍ موضوعية لمسيرتها باستثناء تلك التي تدخل في مشروع الصورة الذاتيةً كما قررت هي أن تديره.

في هذه العلاقة التبادلية، يخدع كلّ واحدٍ الآخر قليلاً حين يخدع ذاته: فالمستقصي يشكّك في «صدق» شهادة المستقصى عنها لأنه يظنّ بأنه نجح في اكتشاف الكلام الفجّ والكثيف وغير المنتهك الذي لم يتمكن آخرون من ملاحظته أو إثارته (يمكن لبعض الأشكال المتفاوتة في التنميق للخطاب الفلاّحي أو العمالي أن تمارس إغراءً مماثلاً)؛ تتظاهر المستقصى عنها بأنها الشخص المنتظَر في هذا اللقاء، حيث هي المهاجرة، وتؤمّن لنفسها بالتالي الحصول على اعتراف بالقيمة الأدبية لكلامها، الذي هو في الوقت ذاته شهادةٌ صادقة عن التمزق الداخلي وبحثٌ عن الخلاص من خلال الشكل الإنشائي، لكن دون أن يتوجّب عليها أن تطالب بهذا الاعترافٍ بشكلٍ واضح(*).

وهكذا، فإنني أقول، مجازفاً بأن أصدم علماء المنهج المتشددين وكذلك التفسيريين المُلهمين، بأنّه يمكن اعتبار المقابلة كنوعٍ من «التمرين الروحي»

(*) إذا كان منطق اللعبة المزدوجة هذا في التأكيد المتبادل للهويات يجد أرضيةً مناسبة بشكلٍ خاص في المواجهة ضمن علاقة الاستقصاء، فإنّه لا يطبّق فقط في المقابلات «الفاشلة» (التي ليست قليلة) التي كان علينا استبعادها ويمكنني أن أستشهد بأعمالٍ يبدو لي بأنها تظهره بشكلٍ واضح، مثل الرواية الجديدة لنينا بوراوي Nina Bouraoui (المسافرة المنوعة، باريس، دار غاليمار، 1990) وبصورةٍ أعمّ، بعض الأشكال الجديدة للأدب الشعبوي التي تتحاشى مقتضيات الشهادة الاجتماعية الأصيلة تحت ستار تجميعها، وكذلك أشكال الرواية الأدبية الأصيلة، لأنّ نقطتها العمياء هي وجهة نظرها بالذات. إلاّ أنه يبدو لي بأنّ أفضل مثالٍ على ذلك هو رواية ديفيد لودج David Lodge المعنونة عالم صغير Small world (نيويورك، كتب وورنر، 1984، الترجمة الفرنسية، باريس، منشورات ريفاج، 1991)، فهي عبارةٌ عن تبديدٍ خادعٍ للوهم، وتقدّم كافة الأفكار المبتذلة للتمثيل المُرضي والواعي بصورةٍ كاذبة والنرجسيّ بحق، والذي يحبّ الجامعيون أن يقدّموه عن أنفسهم وعن محيطهم، والتي عرفت بشكلٍ منطقي جداً نجاحاً عظيماً في الأوساط الجامعية، وبصورةٍ أوسع، في كافة الأوساط التي تحتك بالدراسات الجامعية.

الذي يهدف إلى الحصول على «تحول حقيقي للنظرة التي نرميها» على الآخرين في ظروف الحياة الطبيعية بواسطة «نسيان الذات»[6]. إنّ الاستعداد المرحّب الذي يجعل المستقصي يميل إلى تبني مشاكل المستقصى عنه، وأهلية قبوله وفهمه كما هو، بضرورته المتفرّدة، هو نوعٌ من «الحب الذهني»: نظرةٌ تقّبل بالضرورة، على طريقة «الحبّ الذهني للإله»، أي على طريقة النسق الطبيعي الذي اعتبره سبينوزا Spinoza الشكل الأسمى للمعرفة.

إنّ الجوهري في «شروط الغبطة» في المقابلة يبقى بلا ريب خفياً. يساهم المستقصي في خلق شروط ظهور خطابٍ خارق كان يمكن ألاّ يحدث أبداً ولكنه مع ذلك كان موجوداً مسبقاً ينتظر شروط تحقّقه، وذلك حين يقدّم للمستقصى عنه وضع تواصلٍ استثنائيٍّ تماماً، متحررٍ من أشكال المضايقات (المؤقتة خاصةً) التي تجثم على معظم المبادلات اليومية، وكذلك حين يفتح أمامه خياراتٍ تحثه أو تسمح له بالتعبير عن أشكال الانزعاج أو النواقص أو المطالب التي يكتشفها أثناء تعبيره عنها[7]. وعلى الرغم من أنهم قد لا يرون بصورةٍ واعية كل علامات هذا الاستعداد (التي قد تتطلب أكثر بقليل من مجرّد انقلاب ذهني)، فإنّه يبدو بأنّ بعض المستقصى عنهم، وخاصةً الأكثر فقراً بينهم، يلتقطون هذا الوضع كمناسبةٍ استثنائية ممنوحةٍ لهم ليقدّموا شهاداتهم، وليسمعهم الآخرون، ولينقلوا تجربتهم من الدائرة الشخصية إلى الدائرة العامة؛ إنها أيضاً فرصةٌ «للإفصاح»، بأتمّ معاني الكلمة، أي أنها فرصة لبناء وجهة نظرهم الخاصة حول ذاتهم وحول العالَم، ولتوضيح النقطة - داخل هذا العالم - التي يرون أنفسهم والعالم اعتباراً منها، ويصبحون مفهومين ومبررين، وأمام أنفسهم أولاً[8]. بل إنه يحصل

---

[6] يمكن هنا أن نستشهد بـ Epictète حيث يذكر مارك أوريل Marc Aurèle الاستعداد الذي يدفع إلى تقبّل كل ما يتعلّق بالسبب الكوني، وهو قبولٌ (إضافة) فرحٌ تجاه العالَم الطبيعي.

[7] إن العمل«السقراطي» الذي يرمي إلى المساعدة على التفسير يهدف إلى الاقتراح دون الفرض، وإلى صياغة اقتراحات، تقدَّم أحياناً بصورةٍ جليّة كما هي (الست تريد أن تقول بأنّ...) وتهدف إلى تقديم ذيولٍ عديدة ومفتوحة لأقوال المستقصى عنه، أو لتردده أو لبحثه عن التعبير المناسب.

[8] لقد لاحظت أيضاً، في أكثر من مناسبة، أنّ المستقصى عنه كان يكرر برضى بيّن الكلمة أو

أحيانـاً ألاّ يكونـوا مجـرد أدوات بـين يـدي المسـتقصي، ويديـرون بشـكلٍ مـا المقابلة وكثافةَ وشدةَ خطابهم، وكذلك الانطباع الذي كثيراً ما يقدمونه بأنـهم يشـعرون بنـوعٍ مـن الارتيـاح، بـل الإنجـاز، وكـلّ مـا فيـهم يسـتحضر «سـعادة التعبير».

ريمـا نسـتطيع إذن التحـدث عـن «تحليـلٍ ذاتـي مسـتثار ومصحـوب»: ففـي اكثر مـن حالـة، انتابنـا شـعور بـأنّ الشـخص الـذي يتـم اسـتجوابه ينتـهز الفرصـة المتاحـة لـه ليتسـاءل حـول ذاتـه ويسـتفيد مـن الإباحـة أو مـن العنايـة التي تؤمنها له أسئلتنا أو اقتراحاتنا (المفتوحة والمتعـددة دومـاً والمقتصـرة فـي كثيرٍ مـن الأحيـان علـى الانتظـار الصـامت) ليقـوم بعملٍ توضيحـيٍ، يعلـي مـن شأنه بنظر ذاته ويؤلمه في ذات الوقت، ولكـي يعبّر عن تجـارب وأفكـار كـانت لوقتٍ طويـل متحفظـة أو مكبوتـة، وأحيانـاً يكـون ذلـك عـبر «كثافـةٍ تعبيريـة» فائقة.

بناءٌ واقعي

علـى الرغـم مـن أنّ التوافـق الـذي يتحقـق بهذا الشـكل بـين اسـتباقات وملاطفات المستقصي وبين توقعـات المستقصى عنه قد يعاش كما هو، فليس فيه أي شيءٍ خارق. إنّ الخضوع الحقيقيّ للمُعطى يفترض فعـل بنـاءٍ يسـتند إلى السيطرة العملية على المنطق الاجتماعي التـي يُبنـى هـذا المُعطى وفقـها. وهكذا مثـلاً، فإنـه لا يمكـن أن نسـمع فعـلاً مـا يقـال فـي المحادثـة التـي تبـدو مبتذلـة تمامـاً والتـي تجـري بـين ثـلاث طالبـاتٍ مـن المرحلـة الثانويـة إلاّ إذا عرفنا كيف نقرأ في كلماتهن بنية العلاقات الموضوعية، الحـاضرة والسـابقة، بين مسيرتهنّ وبين بنية المؤسسـات المدرسية التـي تـردّدن إليـها، وبالتـالي كل بنية وتاريخ النظام التعليمي اللذين يتجسدان في هذا المسار، وإلا إذا تجنّبنـا اختزالهنّ إلى أسمائهن الأولى كما يفعل كثير من الباحثين الاجتماعيين حـين

الجملة التي اوضحت نفسه له، اي لموقعه (على مثال كلمة منصهر التي استخدمتها لوصف الوضع الحرج للمستقصي في تراتبية مؤسسته والتي تستدعي حقاً، عـبر دلالاتـها الضمنيـة، التوتـرات القصوى التي مرت به).

يستخدمون جهاز التسجيل: فعلى العكس مما يمكن أن توحي به رؤيةٌ شخصانية ساذجة لفرادة الشخصيات الاجتماعية، فإنّ إبراز البنى الملازمة للعبارات الظرفية التي تقال في تفاعلٍ منتظم يسمح وحده بالتقاط الجوهري داخل ما يشكل «المزاج الشخصي» لكلٍ من الفتيات وكل التعقّد الفردي لأفعالها وردود أفعالها.

إنّ تحليل المحادثة، المفهومة على هذا النحو[9]، لا يَقرأ في الخطاب البنية الظرفية للتفاعل كسوقٍ فحسب، بل أيضاً البنى الخفية التي تنظمه، أي، في هذه الحالة الخاصة، بنية الفضاء الاجتماعي الذي تقع تلك الفتيات الثلاث فيه أصلاً، وبنية الفضاء المدرسي الذي عبرن داخله مساراتٍ مختلفة لا تزال توجّه رؤيتهنّ لماضيهنّ ومستقبلهنّ المدرسي رغم أنها تنتمي إلى الماضي، وتوجه كذلك رؤيتهنّ لأنفسهنّ، في فرادة كلٍّ منهن[10].

وهكذا، ومقابل الوهم الذي يتمثل في البحث عن الحياد بإلغاء دور المراقِب، فإنه ينبغي الإقرار بأنّه لا يوجد ما هو «عفوي» إلاّ ما هو مبنيّ، لكن «ببناءٍ واقعي»، وفي هذا مفارقة. ولإفهام ذلك، أو على الأقل للإشعار به، فإنني سوف اذكر حادثةً طريفة سوف نرى فيها كيف أن البحث لا يمكن له أن يبرز الحقائق التي يريد تسجيلها إلاّ حين يستند إلى معرفةٍ مسبقة بالحقائق. في الاستقصاء الذي أجريناه حول مشكلة السكن، ولكي نهرب من اللاواقعية المجردة للأسئلة المختارة، وخاصةً في مجال الشراء أو الاستئجار، تخيّلتُ أن أطلب من المستقصى عنهم أن يذكروا أماكن سكنهم المتتالية، والشروط التي حصلوا فيها عليها، والأسباب والموجبات التي دفعتهم إلى أن يختاروها أو يتركوها، والتغييرات التي أدخلوها عليها، الخ. جرت اللقاءات

---

[9] أي بمعنى مختلف تماماً عن ذاك الذي يعطى لها حين يكون موضوعنا طريقة إدارة المحادثة، كاستراتيجيات البدء بها وإنهائها مثلاً، بإجراء تجريدٍ للمميزات الاجتماعية والثقافية للمشاركين.

[10] كان بإمكاني ايضاً أن أذكر المقابلة التي أجريت مع طالبٍ شاب، أبوه مهاجر، فهذه المقابلة مثالٌ توضيحي، بالمعنى الذي استخدمه غودمان Goodman، لتحليل تحولات النظام التعليمي الذي أدى إلى كثرة عدد منفيّي الداخل، حيث يكون المستقصى عنه المعني «عيّنةً» ممتازة، ودائماً حسب تعابير غودمان، لهذه الفئة الجديدة من طلاب المرحلة الثانوية.

التي صُممت بهذا الشكل بطريقة «واقعية» للغاية بنظرنا، وأثارت شهادات ذات مصداقية غير متوقّعة. بيد أنني سمعت بالمصادفة في المترو، وبعد فترة طويلة من ذلك، محادثةً بين امرأتين في الأربعينات من عمرهما: كانت إحداهما تحكي قصة أماكن سكنها المتتالية، بعد أن انتقلت مؤخراً إلى شقة جديدة. وكانت محادثتها تتصرف تماماً كما لو كانت تتبع القاعدة التي كنا قد أقمناها لإجراء مقابلاتنا. هاكم تسجيل كتابيّ أجريته من الذاكرة بعد ذلك على الفور: .«إنها أول مرة أدخل فيها إلى مسكنٍ جديد. الأمر حسنٌ فعلاً... ـ المسكن الأمل الذي حصلت عليه في باريس كان في شارع برانسيون، وكان مسكناً قديماً لم يجدد منذ حرب 1914. كل شيءٍ كان يحتاج إلى التجديد ، لكن كل شيءٍ كان سيئاً. كما أنه لم يكن بالإمكان تبييض الأسقف لشدّة اسودادها. ـ أكيد، هذا يمثّل كثيراً من العمل... ـ قبل ذلك، سكنت مع أهلي في مسكنٍ لا يصله الماء. كان رائعاً أن يكون لدينا حمّام، خاصةً وأنه كان لدينا طفلان. ـ الأمر كان مماثلاً عند أهلي. لكن هذا لا يعني أننا كنا قذرين. لكن الأمر أسهل بكثير... ـ بعد ذلك، سكنّا في كريتي. كانت عمارةً حديثة، لكن عمرها كان قد تجاوز عشر سنوات...» واستمر السرد على هذا النحو، بطبيعيةٍ فائقة، تتخلله تداخلاتٌ تهدف إما ببساطة إلى «الإعلام بالاستقبال»، عبر التكرار البسيط، سواءً بالصيغة الموافقة أو بالصيغة الاستفهامية، لآخر جملةٍ تم قولها، أو بإبداء الاهتمام أو بتأكيد هوية وجهات النظر («الأمر صعبٌ حين يعمل المرء واقفاً طيلة النهار...» أو «كان الأمر مماثلاً عند أهلي...»؛ هذه المشاركة التي يدخل فيها المرء في الحديث، جارّاً محادثه إلى الدخول فيه، هي ما يميّز بأوضح شكلٍ المحادثة العادية ، أو المقابلة كما طبّقناها، من المقابلة التي يمتنع فيها المستقصي عن أي التزامٍ شخصي، حرصاً على الحياد.

كلّ شيء يدعو هذا الشكل السقراطي في استخلاص الأفكار إلى التعارض مع الفرض الإشكالي الذي تقوم به - بوهم «الحياد» - العديد من الاستقصاءات التي تستخدم السبر، والتي تؤدّي أسئلتها المتكلّفة والاصطناعية

إلى أن تنشئ من أجزاء متناثرة الأشياءَ المصطنعة التي تعتقد بأنها تسجلها - فضلاً عن تلك المقابلات التلفزيونية التي تنتزع من الأشخاص الذين تُجرى معهم المقابلة أقوالاً تتولّد مباشرةً من الأقوال التي يصفهم بها التلفزيون[11].
يتمثل الفارق الأول في إدراك الخطر، ذلك الإدراك المبني على معرفة عدم استقرار ما يدعى بالآراء: فالاستعدادات العميقة متوفرة بالنسبة لعدة أشكال من التعبير ويمكن أن تتعرف على ذاتها في صياغات مكوّنة مسبقاً (الإجابات المعدّة مسبقاً للاستجواب المغلق أو العبارات الجاهزة للسياسة) مختلفة نسبياً. هذا يعني أنه ليس هناك ما هو أسهل فعلاً، وبمعنى ما، ليس هناك ما هو أكثر «طبيعيةً» من فرض الإشكالية: والدليل على ذلك، «تحويلات الرأي» التي كثيراً ما تجريها، بكل براءة اللاوعي، عمليات سبر الرأي العام (التي تكون بهذه الصورة مستعدة مسبقاً لتقوم بدور الأدوات لغوغائية جذرية) وكذلك، وبصورة أعم، الديماغوجيون من كافة الولاءات، الذين يندفعون دائماً لإقرار التوقعات الظاهرية لأشخاص لا تتوفر لديهم دائماً وسائل تحديد ما ينقصهم حقاً[12].
ويزداد ضرر تأثير الفرض الذي يمارَس تحت ستار «الحياد» مع كون نشر الآراء المفروضة بهذه الطريقة يسهم في فرضها وفي تأمين وجود اجتماعي لها، ويقدّم للعاملين في مجال سبر الآراء مظهر التصديق على عملهم، الأمر الذي يؤدي إلى توطيد مصداقيتهم ومكانتهم.

يمكننا أن نرى التعزيز الذي يمكن أن يجده التمثيل التجريبي للعلم في واقع أنّ المعرفة الدقيقة تفترض في معظم الأحيان قطيعةً متفاوتة السطوع، ومعرضة دوماً لأن تبدو كنتيجة لالتماس مبدئي أو لحكم مسبق، مع بديهيات الحس الجمعي التي تماثل عادةً بالحسّ الصحيح. يكفي بالفعل لكي يقع المرء في الخطأ أن يترك الأمور على عواهلها وأن يمتنع عن أيّ تدخل وعن أيّ

---

[11] أعتقد بأنه من الضروري هنا أن أذكّر بالتحليلات التي فصلتها في أمكنة أخرى بطريقة أكثر منهجيةً (انظر خاصةً «الرأي العام لا وجود له»، مجلة أسئلة علم الاجتماع، باريس، منشورات مينوي Minuit، 1984، الصفحات 222-250).

[12] هذه الملاحظات موجهة بصورة خاصة إلى أولئك الذين يعلّمون بأنّ نقد عمليات سبر الرأي هو نقدٌ للديموقراطية.

تركيب: إذ أنّه حينذاك، يكون قد ترك المجال للتركيبات المسبقة أو للتأثير التلقائي للآليات الاجتماعية الفاعلة حتى ضمن أكثر الأعمال العلمية ثانويةً (تصور وصياغة الأسئلة، تعريف فئات الترميز، الخ.). ولا يمكن معاكسة تأثيرات كافة تمثيلات الحقيقة الاجتماعية التي يتعرض لها المستقصون والمستقصى عنهم إلاّ عبر الإنكار الفعال للأحكام المسبقة المبطنة للحسّ الجمعي. وأفكر بصورةٍ خاصة بتلك التمثيلات التي تنتجها الصحافة المكتوبة، والمتلفزة منها بشكلٍ خاص، والتي تفرض نفسها أحياناً على أكثر الناس فقراً بصفتها بياناتٍ محضّرة تماماً لما يعتقدون بأنها تجربتهم.

ليس لدى العاملين في حقل الاجتماع علم موحى به بما هم عليه وبما يفعلونه؛ وبشكلٍ أكثر دقةً، فهم لا يستطيعون بالضرورة الوصول إلى سبب عدم رضاهم أو انزعاجهم، ويمكن أن تعبّر أكثر التصريحات تلقائيةً عن شيءٍ مختلفٍ تماماً عما تقوله ظاهرياً، دون أية نيةٍ في التورية. إنّ علم الاجتماع (وهذا ما يميزه عن العلم دون عالِم الذي هو استطلاعات الرأي) يعلم بأنه ينبغي عليه أن يقدم لنفسه وسائل الشك، وذلك أولاً في تساؤله بالذات، بكلّ البنى المسبقة وكل الأحكام المسبقة التي تسكن المستقصي بقدر ما تسكن المستقصى عنهم، مما يجعل علاقة الاستقصاء لا تنشأ في كثيرٍ من الأحيان إلاّ على أساس اتفاقٍ بين غير المتبصّرين[13].

ويدرك علم الاجتماع كذلك بأنّ أكثر الآراء عفويةً، أي أكثرها أصالةً من الناحية الظاهرية والتي يكتفي بها مستقصي معاهد الاستطلاع المتعجل ومموّلوه، يمكن أن تخضع لمنطقٍ قريبٍ جداً من المنطق الذي أخرجه التحليل

---

[13] لقد أظهرتُ، بالتحليل المفصّل للإجابات على سبرٍ للرأي حول رجال السياسة (جيسكار، شيراك، مارشيه، الخ.) تم تصميمه على غرار اللعبة الصينية (إن كان شجرةً أم حيواناً، الخ.)، أظهرت بأنّ المستقصى عنهم كانوا يستخدمون في إجاباتهم، دون أن يعرفوا، مناهج تصنيفية (قوي/ضعيف، متشدد/مرن، نبيل/وضيع، الخ.) كان كاتبو الاستجواب قد استخدموها هم أيضاً، دون أن يعرفوا كذلك، في أسئلتهم: إن تفاهة التعليقات التي قدّمها واضعو الاستجواب للجداول الإحصائية المنشورة كانت هناك لتشهد على عدم فهمهم المطبق للمعطيات التي أنتجوها بأنفسهم، وبالأولى، للعملية ذاتها التي أنتجوها من خلالها (ب. بورديو، «التمييز»، باريس، منشورات مينوي، 1979، الصفحات 625-640).

النفسي إلى النور. وهذه هي، على سبيل المثال، حال ذلك الشكل من العداء المسبق للأجانب الذي نصادفه أحياناً لدى المزارعين أو التجار الصغار الذين ليس لديهم أية تجربةٍ مباشرة مع المهاجرين: فلا يمكن تجاوز مظاهر عدم الشفافية والسخافة التي تواجه ذلك العداء مع التفسير المتفهم إلاّ بشرط أن نرى بأنها تقدم، عبر شكلٍ من *الانزياح*، حلاً للتناقضات الخاصة بأولئك الأنواع من الرأسماليين ذوي الدخول البروليتارية وبتجربتهم مع الدولة التي تُعتبَر مسؤولةً عن إعادة توزيعٍ غير مقبولة. إن الأسباب الحقيقية للاستياء ولعدم الرضى اللذين يظهران على هذا النحو، عبر أشكالٍ موارية، لا يمكن أن تصل إلى الوعي، أي إلى الخطاب الواضح، إلاّ من خلال عملٍ يهدف إلى إظهار تلك الأمور الدفينة عند أولئك الذين يعيشونها والذين لا يعرفونها في الوقت ذاته، والذين، بمعنى ما، يعرفونها أكثر من أيٍّ كان.

يمكن لعالِم الاجتماع أن يساعدهم في هذا العمل، على طريقة الشخص الذي يقوم بالتوليد، شريطة أن يمتلك معرفةً معمّقة بالشروط الحياتية التي هم نتاجها، وبالتأثيرات الاجتماعية التي يمكن لعلاقة الاستقصاء، ومن خلالها مركز المستقصي واستعداداته الأولية، أن تمارسها. إلاّ أنّ الرغبة في اكتشاف الحقيقة، تلك الرغبة المكوّنة للنيّة العلمية، تظلّ محرومةً تماماً من الفعالية العملية إن لم تفعَّل على شكل «مهنة»، تكون نتاجاً عضوياً لكافة الأبحاث السابقة ليس لها أية علاقة بمعرفةٍ مجردة وذهنية صرفة: هذه المهنة هي بحقٍ «استعدادٌ لملاحقة الحقيقة» (*hexis tou alètheuein* كما يقول أرسطو في كتابه الميتافيزيقا *Métaphysique*) يؤهّل لاستنباطٍ فوريٍ، وحسب ضرورات المقابلة، لاستراتيجيات تقديم الذات وللردود السريعة المتوافقة، والاستحسانات والأسئلة المناسبة، الخ.، بحيث تتم مساعدة المستقصى عنه على الإفضاء بحقيقته أو، وهو الأفضل، التحرر من حقيقته[14].

---

[14] ليس هنا المجال المناسب لتحليل كل مفارقات المظهر العلمي الذي يفترض من جهة عملاً يهدف إلى جعل الاستعدادات الأولية المكوّنة اجتماعياً واعيةً، وذلك بهدف تحييدها واجتثاثها (أو، وهو

إنّ الترتيب ذاته هو الذي يؤثّر في عمل البناء الذي تخضع له المقابلة المسجلة – مما سيسمح بأن يسير تحليل طرق التدوين والتحليل بصورةٍ أسرع. فمن الواضح بالفعل أنّ التدوين الأكثر أدبيةً (حيث يمكن أن يغير التنقيط البسيط، كوضع فاصلةٍ على سبيل المثال، المعنى الكليّ لجملةٍ ما) هو ترجمةٌ حقيقية أو حتى تفسيرٌ. ومن بابٍ أولى، فإنّ ذلك التدوين المطروح هنا: حيث تتم القطيعة مع الوهم المؤمن بعفوية الخطاب الذي «يتحدث عن ذاته»، فيتلاعب التدوين عمداً بِ *براغماتية الكتابة* (وخاصةً في مجال تقديم العناوين الرئيسية والفرعية المؤلفة من جملٍ مستقاة من المقابلة) لتوجيه انتباه القارئ نحو السمات المناسبة اجتماعياً التي قد لا يلتفت إليها الشعور الأعزل أو الغافل.

يخضع مَحضر الخطاب الذي نحصل عليه والذي يُنتجه من يدوّنه لمجموعتين من المتاعب يصعب في كثيرٍ من الأحيان الموافقة بينهما: فقد تدفع مصاعب الأمانة لكل ما تبدّى خلال المقابلة، والذي لا يقتصر على ما قد تم بالفعل تسجيله على شريط التسجيل، إلى محاولة إعادة كل ما يميل الانتقال إلى المكتوب وأدوات التنقيط المعتادة، الضعيفة جداً والفقيرة جداً، لنزعه من الخطاب، والذي يشكّل في كثيرٍ من الأحيان كل معناه وكل أهميته؛ إلاّ أنّ متاعب سهولة القراءة التي تتحدد بالعلاقة مع المتلقّين المحتَملين الذين تتفاوت توقعاتهم وقدراتهم بشدة تمنع نشر تدوينٍ شفهي ترافقه الملاحظات الضرورية لإعادة تركيب كل ما ضاع أثناء الانتقال من الشفهي إلى المكتوب، أي الصوت، واللفظ (وخاصةً في تنويعاته التي لها دلالة

الأفضل، «فصلها») ويفترض من جهةٍ أخرى عملاً – وتدريباً – يهدف إلى إدماج مبادئ المناهج المختلفة المعرَّفة بشكلٍ واعٍ والتي جُعلت بهذا الشكل متوفرة عملياً. (إن التعارض بين «المعارف» الواعية و«المعارف» اللاواعية الذي نلجأ إليه هنا لأغراض النقل هو في واقع الأمر مصطنع ومغرِّر تماماً: فمبادئ الممارسة العلمية يمكن في الواقع أن تكون موجودةً في الوعي– بدرجاتٍ مختلفة تبعاً للأوقات و«لمستويات» الممارسة– ويمكن في ذات الوقت أن تفعل عملياً، على شكل استعدادات مندمجة.)

اجتماعية)، والنبرة، والإيقاع (لكلّ مقابلة إيقاعٌ مميز مغاير لإيقاع القراءة)، ولغة الحركات، والإشارات الصامتة وكل وضع الجسد، الخ[15].

وهكذا، فإنّ التدوين يعني بالضرورة الكتابة، بمعنى إعادة الكتابة[16]: مثلما يفعل الانتقال من المكتوب إلى الشفهي الذي يقوم به المسرح، فإنّ الانتقال من الشفهي إلى المكتوب يفرض، مع تغير الإسناد، خيانات قد تكون شرطاً لوفاء حقيقيّ. والتناقضات المعروفة جيداً في الأدب الشعبي موجودةٌ للتذكير بأنّ ذكر كلام أولئك الذين لا صوت لهم عادةً كما هو لا يعني إعطاءهم حرية الكلام حقاً. فهناك التباطؤات والتكرارات والجمل التي تُقطع وتطيلها حركاتٌ أو نظراتٌ أو تنهداتٌ أو صيحات تعجّب، وهناك الاستطرادات المجهدة والالتباسات التي يطلقها التدوين بالضرورة، والاستشهاد بأوضاعٍ ملموسة، وبأحداث مرتبطة بالتاريخ الخاص بمدينةٍ أو مصنع أو عائلة، الخ. (والتي يحلو ذكرها للمتحدث بمقدار ما يكون محادثه أليفاً بالنسبة له، وبالتالي بمقدار ما يكون متآلفاً مع كل محيطه الاجتماعي).

والمفارقة إذن هي أنّنا اضطررنا أحياناً، باسم الاحترام الواجب للمتكلم،

---

[15] نحن نعلم مثلاً أنّه لا يمكن في معظم الأحيان تجنب أن يضيع أثناء التدوين التهكم، الذي كثيراً ما يولد من عدم توافقٍ مقصود بين الرمزية الجسدية والرمزية الشفهية، أو بين مختلف مستويات التعبير الشفهي. والأمر سواء في ما يتعلّق بالالتباسات والمعاني المزدوجة والتشكيك وما هو ضبابي، التي تميز الحديث الشفهي، والتي تحلّ عقدتَها الكتابة بصورةٍ لا يمكن تجنبها في معظم الأحيان، وخاصةً بتأثير التنقيط. لكن هناك أيضاً كل المعلومات المسجلة في أسماء عَلَم، المعبِّرة الفورية بالنسبة للمعتادين على الفضاء (والتي توجّب في معظم الأحيان إخفاؤها للحفاظ على سرية المستقصى عنهم)، كأسماء الأشخاص والأماكن والمؤسسات، التي كثيراً ما تتعلق بها أقسامٌ بنيوية: هذه هي حال التعارض بين مسرح البحث ومسرح الشارع الذي يؤدي معناه للالتباس الذي ترتكبه الممثلة بين اسم ممثلة في مسرح الرصيف وممثلة تراجيدية كلاسيكية مرموقة، وهي هفوةٌ حقيقية معبّرة تشي من خلالها، لمن يريد أن يسمع، كلُ حقيقة فشلٍ يرتبط بتوجّهٍ أساسيٍ سيئٍ بين الطريقين.

[16] انظر ب. أنكروفيه P . Encrevé، «الصوت الرخيم والمبحوح»،خارج الإطار Hors cadre ، العدد 3، 1985، الصفحات 42–51. (أجري تدوينٌ كامل (غير صوتي) وأرشفة لكلّ المقابلات (التي عددها 182)، وكذلك التسجيلات الموافقة.)

أن نختار تخفيف نصّ بعض التوضيحات الدخيلة، أو بعض الجمل الملتبسة، أو الحشو السطحي أو التأتأة الكلامية (مثل «حسناً» أو «أوه») التي ، رغم كونها تضفي على الخطاب الشفهي تلونه الخاص وتقوم بوظيفةٍ بارزة في التواصل، حيث تسمح بدعم عبارةٍ متقطّعة أو بالاستشهاد بالمحادِث، إلاّ أنها تشوّش وتعقّد التدوين لدرجة أنها تجعله تماماً غير قابل للقراءة في بعض الحالات لمن لم يسمع الخطاب الأصلي. كذلك، فقد سمحنا لأنفسنا أن نخفف التدوين في كل العبارات التعريفية البحتة (حول الأصل الاجتماعي أو الدراسة أو المهنة، الخ.) في كل مرة كان يمكن أن تروى، بالأسلوب غير المباشر، في النص التقديمي. إلاّ أننا لم نستبدل أية كلمةٍ بأخرى، ولم نبدّل ترتيب الأسئلة أو مسار المقابلة، وقد تمت الإشارة إلى جميع حالات الحذف. وبفضل الإيضاح بالأمثلة والتجسيم والترميز الذي تقوم به المقابلات المدونة ويضفي عليها أحياناً حدّةً دراماتيكية وقوةً انفعالية قريبة مما في النص الأدبي، فهي مؤهلة لأن تمارس تأثير البوح، وخاصةً على أولئك الذين يتشاركون مع محادثهم بصفاتهم العامة. وبطريقة الكلام الغامض في الحديث التنبؤي، فهي تسمح بتقديم معدلٍ أوضح للتحليلات التصورية المعقدة والمجردة: فهي تجعل التراكيب الموضوعية التي يجتهد العمل العلمي لإيضاحها محسوسة، بما في ذلك عبر ملامح التعبير الأكثر فرادةً ظاهرياً (كالنبرة واللفظ، الخ.)[17]. وهي تستطيع أن تستجرّ تبدلات الأفكار، والنظرة التي تكون في كثيرٍ من الأحيان شرطاً مسبقاً للفهم وذلك لأنها قادرة على التأثير وتحريك المشاعر ومخاطبة رهافة الحس، دون أن تضحي بالميل لما هو خارق.

إلاّ أنه يمكن أن يكون الالتباس، لا بل الاضطراب في التأثيرات

---

[17] يقول خطاب الموظف في فرز البريد ما هو اكثر بكثير مما يقال، حتى لو قال ذلك أيضاً، بكلّ البرودة المجردة للغة التصورية، في تحليلٍ للمسار الاجتماعي للموظفين الريفيين الذين يضطرون في كثيرٍ من الأحيان لدفع ضريبة الحصول على المهنة أو التقدم في السلك الوظيفي عن طريق غربةٍ باريسية طويلة: «نعلم مثلاً مصاعب الإقامة التي تستلزمها بعض الأعمال حيث يتطلّب دخول مهنةٍ ما – كالشيكات البريدية – أو التقدم في سلكها غربةً طويلة»، ب. بورديو، التميز La distinction، باريس، منشورات مينوي، 1981، صفحة 136.

الرمزية، نقيضاً للقوة الانفعالية. هل يمكن أن نذكر العبارات العنصرية بحيث نفهم ذاك الذي يقولها دون أن نضفي عليها صبغةً شرعيّة؟ كيف يمكن أن نفسّر أقواله دون الاستسلام لأسبابه ودون أن نذعن لأقواله؟ وبصورةٍ أبسط، كيف يمكن أن نذكر، دون أن نثير العنصرية الطبقية، تسريحة موظفةٍ صغيرة وأن نوصل، دون أن نؤيده، الانطباع الذي لا بد أن تثيره في العين المسكونة بمعيار علم الجمال الشرعي- وهو الانطباع الذي يشكل جزءاً من حقيقتها الموضوعية الأكثر حتميةً؟

إنّ تدخّل المحلل هو، كما نرى، صعبٌ بمقدار ما هو ضروري. وحين يتحمل مسؤولية نشر الخطابات التي، بصفتها ما هي عليه، تقع – كما يلاحظ بانفونيست Benveniste، «في وضعٍ براغماتي يتضمّن نيّةً معينة في التأثير على المحادِث» – فإنه عندما ينشرها يعرّض ذاته لأن يجعل من نفسه بديلاً لفعاليتها الرمزية؛ لكنه قد يترك العنان للقراءة الحرة، أي للتركيب العفوي، كيلا نقول البدائي، التي يُخضع لها كل قارئ بالضرورة النصوص المقروءة. وهذه اللعبة خطيرةٌ بصورةٍ خاصة حين تمارس على نصوصٍ لم تُكتب، وبسبب ذلك لم يدافع عنها سلفاً ضد القراءات المرتابة أو المرفوضة، وخاصةً بعباراتٍ أصدرها متحدثون لا يتكلمون بلغة الكتب، وليس هناك أي احتمالٍ في أن يحوزوا على أي استحسان في نظر معظم القراء، حتى أفضلهم نيةً، كما هي حال الآداب التي توصف بالشعبية والتي تنتج «سذاجتها» أو «خَرَقها» عن النظرة المثقفة.

إنّ اختيار أسلوب اللامبالاة، من منطلق الحرص على رفض أي تقييدٍ مفروضٍ على حرية القارئ، يعني أن ننسى بأنّ كل قراءة هي أصلاً موجهة، مهما فعلنا، بمناهج تفسيرية على الأقل، إن لم تكن قسرية. وهكذا، استطعنا أن نتأكد من أن القراء غير المثقفين يقرؤون الشهادات كما لو كانوا يستمعون لما يسرّه إليهم صديق، أو بالأحرى، كما لو كانوا يسمعون أقوالاً (أو أقاويل) حول الغير، وهي مناسبةٌ للتماثل، وكذلك للتمايز، والحكم، والإدانة، والتأكيد على إجماعٍ أخلاقي في إعادة تأكيد القيم المشتركة. والعقد السياسي

الشديد الخصوصية، الذي يعني أن يعيد إلى السراط المستقيم الخاص بالجماهير ما لا يصل إليه عادةً، أو على كل حالٍ لا يصل إليه أبداً على هذه الصورة، قد يجد ذاته وقد حُرِّف بشكلٍ ما، وفارغاً تماماً من معناه.

لقد بدا لنا إذن أنه لا بدّ من التدخل في تقديم التدوينات عبر العناوين، الرئيسية منها والفرعية، وعبر النصوص التمهيدية خاصةً التي تتمثل مهمتها في أن تقدّم للقارئ أدوات القراءة المتفهمة، القادرة على إعادة إنتاج الوضع الذي نتج عنه النص. إنّ بإمكاننا أن نمنح النظرة المتمعنة والمرحّبة الضرورية لتشرّب الضرورة الفريدة لكلّ شهادة والتي نخصّ بها عادة النصوص الأدبية أو الفلسفية، يمكننا أن نمنحها أيضاً، عبر شكلٍ من دمقرطة الموقف التفسيري، للحكايات العادية التي تتكلم عن المغامرات العادية. وكما كان فلوبير Flaubert يعلّم، فإنه ينبغي أن نتعلّم كيف ننظر إلى إيفيتو Yvetot النظرة التي نمنحها عن طيب خاطر للقسطنطينية؛ كأن نتعلّم مثلاً أن نعطي لزواج مدرّسةٍ من موظفٍ في البريد الاهتمام والإقبال اللذين قد نوليهما لسردٍ أدبيٍّ يدور حول زواجٍ غير متكافئ، وأن نقدّم لما يقوله عاملٌ في مجال الصناعات المعدنية الاستقبالَ الورِع الذي يخصّ به تقليدٌ معيّن للقراءة أرفعَ أشكال الشعر أو الفلسفة[18].

---

[18] إنّ استقبال الخطاب الاجتماعي يدين طبعاً بالكثير لواقع أنّه يتوجه للحاضر الفوري أو «الراهن» – مثله مثل الصحافة التي يتعارض معها في كل ما تبقى. إننا نعرف بأنّ تراتبية الدراسات التاريخية تتوافق مع ابتعادها عن مواضيعها في الزمن. كما أنه من المؤكد أننا لن نولي تدوين موعظة أسقف كريتي Créteil الاهتمام ذاته الذي نوليه لنص آبالديرون دي لاوون Abaldéron de Laon، والمكتوب فوق ذلك باللاتينية، رغم أنّ تلك الموعظة لا تقل عن النص غنى بالمهارات البلاغية والحذاقات اللاهوتية-السياسية، وأننا سوف نضفي قيمةً أكبر على حديث قد يكون مزيفاً لأوليفييه لوفيفر Olivier Lefèvre، مؤسس سلالة الأورميسون Ormessons مما نضفيه على مقابلةٍ صحفية لآخر أخلافه. لا شيء يفلت من منطق اللاشعور الأكاديمي الذي يوجه هذا التوزيع المسبق للاحترام أو اللامبالاة، والباحث الاجتماعي الذي ينجح في التغلب في ذاته على تلك العوائق سوف تزداد لديه صعوبة الحصول على الحد الأدنى من التقدير الذي لا غنى عنه للوثائق التي يُنتجها وللتحليلات التي يجريها عليها بفعل أنّ الصحافة اليومية والأسبوعية مليئة بالشهادات المثيرة عن بؤس الأساتذة أو غضب الممرضات، وفي ما عدا ذلك، فإنّ هذه الشهادات أكثر مناسبةً لإرضاء هذا الشكل من الإرادة الطيبة المتفق عليها التي نوليها للقضايا العادلة.

لقد جهدنا إذن لكي ننقل إلى القارئ الوسائل التي تمكّنه من أن ينظر إلى الأقوال التي سوف يقرؤها النظرة التي تفسّر وتعيد للمستقصى عنه سبب وجوده وضرورته؛ أو بصورةٍ أدق، النظرة التي تمكّنه من أن يحدّد موقعه في الفضاء الاجتماعي الذي تؤخذ اعتباراً منه كل نظرات المستقصى عنه لهذا الفضاء، أي في هذا المكان الذي يصبح فيه تصوره للعالم جليّاً وضرورياً، taken for granted.

لكن لاشك أنه ما من نصٍ مكتوب شائك أكثر من النص الذي ينبغي على الكاتب أن يرفقه بالرسائل التي عُهد بها إليه. فهو مجبَرٌ على بذل جهدٍ مستمر للسيطرة الواعية على العلاقة بين موضوع وهدف الكتابة، بل المسافة التي تفصل بينهما، وبالتالي فإنّ عليه أن يبذل جهده لاستقصاء موضوعية «العرض التاريخي» الذي، وفقاً لبينفنيست Benveniste، يموضِع الوقائع دون تدخلٍ من الراوي، رافضاً في الآن ذاته البرودة المتحفّظة لبروتوكول حالة سريرية؛ وفي الوقت الذي يهدف فيه إلى تقديم كافة العناصر اللازمة للتصور الموضوعي للشخص المستجوَب، فإنّ عليه أن يلجأ إلى كل موارد اللغة (كالأسلوب الحر غير المباشر أو عبارة كما لو أنّ العزيزة على فلوبير Flaubert) ليتجنّب أن يقيم معها المسافة الموضعة التي قد تجعلها عرضةً للاتهام أو، وهو الأسوأ، للتشهير. وهو يمتنع أيضاً، بأكثر الطرق جزماً (وهنا أيضاً إحدى وظائف عبارة كما لو أنّ)، عن أن يرتسم دون وجه حق في هذا المثيل الذي يظلّ هدفاً على الدوام، سواءً شئنا ذلك أم لا، ليجعل من ذاته بصورةٍ تعسفية موضوعاً لرؤيته للعالم.

في هذه الحالة، يكمن التشدد في المراقبة الدائمة لوجهة النظر التي تتأكد على الدوام بواسطة تفاصيل الكتابة (كأن نقول ثانويته وليس الثانوية لنبرز أنّ سرد ما يجري في هذه المؤسسة مصاغ من وجهة نظر الأستاذ المستجوَب وليس من وجهة نظر المحلل). ومن خلال التفاصيل التي من هذا النوع، والتي إن لم تمرّ دون أن يلحظها أحد ببساطة، فقد تظهر كمجرد تنميقات أدبية أو تسهيلات صحفية، يتأكد بشكلٍ دائم التباعد بين «صوت

الشخص» و«صوت العلم»، كما يقول رولان بارت Roland Barthes، ورفض الانزلاقات اللاواعية من أحدهما إلى الآخر[19].

لا يمكن للباحث الاجتماعي أن يكون جاهلاً بأنّ ما يميز وجهة نظره هو أنها تطال وجهة نظرٍ أخرى. ولا يمكنه أن ينقل وجهة نظر موضوعه وأن يشكلها بصفتها وجهة نظر، بإعادة تعيين موقعه في الفضاء الاجتماعي، إلاّ اعتباراً من وجهة النظر تلك الشديدة الفرادة (وبمعنى ما، الشديدة الامتياز) حيث ينبغي أن يضع نفسه في موقعٍ يمكّنه من أن يأخذ (ذهنياً) كل وجهات النظر الممكنة. كما لا يمكنه أن ينتقل بفكره إلى المكان الذي يوجد فيه موضوعه (الذي هو أيضاً صنوٌ له، بمعنى ما على الأقل) ولا أن يأخذ بهذه الطريقة وجهة نظره، أي أن يفهم بأنه لو كان مكانه، كما يقولون، لكان وفكّر على الأغلب مثله، إلاّ عندما يكون قادراً على أن يموضع ذاته وأن يبقى في الآن ذاته في المكان المحدد له بصرامة في العالَم الاجتماعي.

---

[19] هذه المراقبة الدائمة لوجهة النظر لا تكون مهمةً وصعبةً لهذه الدرجة إلاّ عندما تكون المسافة الاجتماعية التي ينبغي التغلب عليها فارقاً أقصى في التشابه. وهكذا مثلاً، في حالة المدرّسة التي يمكن أن يكون لعباراتها المفضلة («أنا أُدين»، «مشاكل الزوجين»، الخ.) تأثيرٌ منفّر وغير واقعي في ذات الوقت، وأن تمنع الشعور بواقعية المأساة التي تعبّر عنها، يكون من السهولة بمكان أن نترك العنان للمشاركات في الجدال اليومي من أجل وصف حياةٍ وأسلوب حياة ورسم صورةٍ هزليةٍ لهما، ولا يبدوان غير محتَملين إلاّ لأننا نخشى أن نتعرّف فيهما على حياتنا وأسلوب حياتنا.

بيير بورديو وغابرييل بالاز

الاستجواب

الاستقصاءات الإدارية التي نحلل بعض أمثلتها هنا مثيرةٌ للاهتمام لعدة أسباب. فهي أولاً تسمح بإطلاق كافة التأثيرات التي قد تخيّم على كل علاقة استقصاء، إلا في حال تيقظٍ خاص، ولأنها بهذا الشكل تسمح من خلال الاستدلال بالضد a contrario بقياس أهمية المجهود الواجب بذله في إدارة مقابلةٍ ما لتحييد هذه التأثيرات: وبالفعل، فهي حالةٌ يصفها غمبرز Gumperz بقوله: «رغم مظاهر المساواة والتبادل والمجاملة، فإنّ أدوار المشاركين، أي الحق في التكلم والالتزام بالإجابة، محددة مسبقاً، أو أنها على الأقل تخضع لضغوطٍ شديدة»[1]. وإذا كان يمكن للعنف الرمزي الملازم لعدم التماثل بين متحادثَيْن يتفاوت كثيراً رأسمالهم الاقتصادي، والثقافي خاصةً، أن يفعل بهذا القدر من غياب الرادع، فإنّ ذلك ينتج عن أنّ الأشخاص المكلفين بإجراء المقابلة يشعرون بأنّ الدولة التي تحتكر العنف الرمزي الشرعي قد كلّفتهم بذلك وسمحت لهم به، وأنهم رغم كل شيء معروفون ومعترفٌ بهم على هذا الأساس. والدليل على ذلك الإجابة الجديرة بكافكا Kafka التي تقدمها تلك المرأة حين تقول باستغراب لدى تعرّضها

---

[1] ج. غمبرز، الشروع في المحادثة، «مقدمة في علم اللسانيات الاجتماعي المتبادل التأثير»، باريس، منشورات مينوي، (الحس الجمعي)، 1989، الصفحة 15.

لاستجواب حثيث حول صحتها: «إنهم يسألون حتى عن ذلك» مفترضةً بأنّ المستقصية ليست سوى أداةٍ لنيّةٍ مبيتة في مكانٍ آخر، «في مرجعٍ أعلى».

ويسمح لنا تحليل بعض المقابلات التي أجراها مكتب دراسات (سوف يغفر لنا بلا ريب أن نغفل ذكر اسمه...) بناءً على طلب وزارة الأبحاث والتكنولوجيا بهدف تقييم إعانة الحد الأدنى للإدماج (RMI) بعد ثلاث سنوات من البدء، أن نلتقط ما يفصل الاستجواب البيروقراطي عن أشكال الاستجواب الأخرى التي تجريها الدولة، وخاصةً البوليسية والقضائية منها، وما هو مشترك بينه وبينها، وبصورةٍ أوسع، بينه وبين كل الاستقصاءات البيروقراطية العادية[2]. ورغم أنّ الاستقصاء الإداري، خلافاً للتحقيق القضائي، وخاصةً البوليسي، يقدّم ذاته ويوجد كاستقصاءٍ علمي، وهو الذي تحدده بدقة الغايات البيروقراطية، إلاّ أنّ النوايا المعيارية توجهه تماماً. علاوةً على ذلك، فإنّ زمن الاستقصاء (وهو العام ذاته الذي ينبغي فيه على اللجنة الوطنية لتقييم إعانة الحد الأدنى للإدماج تقديم تقريرها إلى رئيس الوزراء)، ومكان إجرائه (مكاتب البلديات أو المراكز البلدية للعمل الاجتماعي المكلفة بعقود الإدماج)، ومحتوى الأسئلة وشكلها، والتي وصلت حتى ثلاثمائة سؤال في مقابلةٍ واحدة، تمّ طرحها دون هوادة، وكثيراً ما طرحها مستقصيان اثنان، كلّ شيءٍ يدعو المستقصى عنهم إلى أن يشعروا بأنهم مضطرون للبرهان على شرعية وضعهم كمستفيدين من إعانة الحد الأدنى للإدماج (مثلما يتوجب على آخرين أن يبرروا هويتهم الإدارية كـ «طالبين للعمل» أو كـ «عاطل عن العمل استنفذ فرص الإعانة» أو كـ «شخصٍ لا مأوى ثابت له» من أجل الحصول على إعانة أو تدريب أو مسكن).

---

[2] نحن نشكر هنا، دون أن نستطيع بالطبع ذكر اسمه، الشخص الذي قدّم لنا تلك التسجيلات؛ ولكافة المعلومات حول ذلك الاستقصاء، نعيد القارئ إلى العمل الجماعي للّجنة الوزارية للأبحاث والخطة المدينية، «الحد الأدنى للإدماج في امتحان الوقائع: الأرض والإدماج والمجتمع»، باريس، منشورات Syros Alternatives، 1991. وقد نتجت كذلك عن هذا البحث ندوة في الثامن والتاسع من تشرين الثاني 1991. وسوف نعود هنا إلى التقارير الثلاثة عشر للندوة في ما يتعلق بالتحليلات المحلية.

إنّ تناوب الأسئلة السطحية أو الهازئة (بالنسبة طبعاً لوضع الأشخاص المستجوبين ولما يشغلهم: «ما هي هوايتك المفضلة؟»)، والأسئلة الملغومة المعلنة بلهجةٍ مرحة (هل هذا العمل مرخص؟» أو «كيف تشغل أوقاتك؟») أو المصاغة بطريقةٍ ساخرة («هيا، هيا، لا يبدو عليك المرض ظاهرياً...») يكتسب الحديث عنفاً لا يمكن تبريره أحياناً بسبب كونه يُمارَس بكل براءة وبكل حسن نية ذاك الذي يحوز لصالحه على الشرعية المزدوجة للنظام العلمي والنظام الأخلاقي.

قد لا ننتهي من تعداد الافتراضات المدرجة، على نحوٍ ما، في بنية علاقة الاستقصاء بالذات عندما يجد عدم التماثل الملازم للاستجواب البيروقراطي في التباعد بين مصادر المستقصي واستعداداته الاجتماعية وبين ما يماثلها لدى المستقصى عنه، وعبر هذا التباعد، شروط إنجازه التام كما هي الحال هنا. وميزان القوى يجعل المستجوِب لا يأبه بمعرفة إن كانت المشاكل التي يطرحها (على ذاته)، كمشاكل المؤسسة والتي ليس لها أهمية إلاّ بالنسبة للمنظمة الممولة للاستقصاء، تطرح ذاتها أيضاً على الشخص الذي يطرحها.

إنّ المسلمة الأساسية في التبادل مندرجة دون شك في هذا الفرض للإشكالية، المبنية على تعميم الاهتمام الخاص بالبيروقراطيين. لكن هذا ليس كل شيء. فالاستجواب الذي يقوم ضمن منطق الشك يعامل المستقصى عنه كمنافق وكمموهٍ محتمل ينبغي إيقاعه في مصيدة. وعلاوةً على الأسئلة التي تدور حول الطريقة التي عرف فيها مستحقو إعانة الدخل الأدنى للإدماج بوجود الإعانة وما هو رأيهم بالقانون وموقع الميزانية المنزلية التي يتأثر بها المستحق، هناك أيضاً كل الأسئلة التي تهدف إلى اكتشاف ما إذا كان للمستقصى عنه دخولٌ لم يصرّح عنها، وما إذا كان لديه موارد أخرى، وما إذا كان (أو بالأحرى ما إذا كانت، فهذا السؤال يتوجه في معظم الأحيان إلى النساء) سيعيش بالفعل وحده كما يدّعي (أو كما تدّعي)، وما إذا كان لم يطلب الإعانة إلاّ للحصول على تغطيةٍ اجتماعية. وبما أنّ الشك بأنه يقوم

بغشٍ مصلحيٍّ يجثم فوقه، وكذلك الشك بنقص مواطنيته، فإنه يُسأل إن كان ينتخب، ويتبع السؤال على الفور تصحيحٌ يريد أن يتخذ صبغة التواطؤ: «لا نسألك لصالح من تنتخب!»

نذكر هنا ثلاث حالات، الأولى حالة امرأةٍ في حوالي الخمسين من عمرها، تركت زوجها الحِرَفيّ بعد وفاة ابنهما الذي كان في حوالى العشرين من عمره، ولم يكن لديها أية تجربة في العمل المأجور، والثانية حالة تاجر صغير عمره تسعة وخمسون عاماً ظلّ يدير مقهى في حيٍّ شعبي حتى أصيب بمرضٍ يمنعه من الوقوف الطويل، والثالثة حالة ناقل ومفرغ بضائع شاب، كان في السابق متدرباً، وربّته جدته التي تعمل حارسة مبنى بعد وفاة أمه. في هذه الحالات الثلاث، يبلغ السؤال حدّ عنف الاستجواب. هذه الحيوات المضطربة وغير المنظمة لا تدخل ضمن الفئات التي يتوقعها الاستفتاء القياسي المصمم بحيث يثير إجاباتٍ متجانسة، وهو غير قادرٍ على التقاط اختلاف الأوضاع التي يمكن أن تكون قد قادت إلى طلب إعانةٍ للاستمرار على قيد الحياة. إنّ علامات الاستغراب والملامات التي يتضمنها التفضُّل الذي قد يتبدى شكله الأقصى بالشفقة، هي كلها تجسيداتٌ للافتراضات- أو الأحكام المسبقة- التي تكوّن نظرة البرجوازية أو البرجوازية الصغيرة للعالَم: فهي تتعلق بمجموعةٍ من المسلمات حول التركيب «اللائق» للعائلة، وحول الروابط التي ينبغي إقامتها معها، وحول «الخيارات» المدرسية أو المهنية، التي تعرّف «مستقبلاً مهنياً» جديراً بهذا الاسم.

حين تعلن المرأة المنفصلة عن زوجها والتي فقدت ابنها بأنها تخلّت عن وظيفة لمدة شهر لأنّ ابنتها، الطالبة في ثانوية، كانت قد وضعت مولوداً لتوها وأنها تفضّل البقاء معها، فإنها تسمع من يقول لها: «حاسة الأمومة لديك كانت أقوى!» لكنها رأت نفسها أيضاً ملامةً على ما اعتبرته المستقصية انقلاباً في الأدوار: «كيف ذلك؟ هل ابنتك هي من يصرف على البيت؟» وتُسأل خادمةً شابة، وهي أمٌّ عازبة، كما في موضوع إنشاء مدرسي: «ماذا يعني بالنسبة لك أن تكوني وحيدة؟» أو «هل رؤية ابنتك تكبر هامة

بالنسبة لك؟». وماذا نقول عن هذا السؤال التحليلي الكاذب المتعلق بذكريات الطفولة والذي يتم طرحه بشكلٍ آلي، رغم تحفّظ المستقصى عنهم على الدخول في البوح أو الذكريات المؤلمة؟ تجيب مثلاً خادمةٌ شابة أمضت طفولتها متنقّلةً من ملجأ إلى آخر، دون أن تعرف أبويها: «كل هذا بعيد (...) لم أعد أتذكر». في حين يطرح آخرون صمتهم مقابل السؤال، كحالة ناقل ومفرّغ البضائع الذي فقد أمه وهو لا يزال صغيراً:

المستقصي: هل يمكن لك أن تحدثني عن طفولتك؟

المستقصى عنه: {صمت}

المستقصي: ما هي ذكرياتك عن تلك المرحلة؟

المستقصى عنه: {صمت}

المستقصي: أليس لديك ذكريات؟

المستقصى عنه: بلى.

المستقصي: ألا تريد أن تتكلم عن الأمر؟ ... حسناً.

يدخل المستقصون الذين تسيّرهم استعداداتهم الطبقية في علاقةٍ تلتبس فيها المساندة بالمراقبة وبالتصرف الأمومي وبالشك، قد يساعد التحليل الأكثر منهجيةً لمجموعةٍ أوسع على التأكد من أنّ المجموعة التي تقوم بالاستقصاء تبعاً للجنس والعمر والأصل الاجتماعي والوضع المهني تؤثر بشكلٍ مباشر تماماً على طريقة جمع المعطيات وتفسيرها. وهكذا، لا تكتسبُ فرضية معينة من المستقصية حول السكن معناها إلاّ بالعودة إلى تعريفٍ ضمني لما يُعتبر مناسباً في محيطها من أجل عائلةٍ من «الفقراء» كعائلة تلك المستقصى عنها: «هذه الشقة غالية! كنت أعتقدُ بأنك تسكنين في... (تردد) في شقة من غرفة أو غرفتين!» وتضطر المستقصى عنها إلى أن تفسر، كما لو كانت تريد تبرئة ذاتها، بأنها تسكن الآن مع ابنتها وحفيدها، وأنّه بفضل إعانة السكن، فإنّ هذه الشقة المؤلفة من أربع غرف تكلفها بالكاد أكثر من الشقة ذات الغرفتين التي كانت تسكن فيها قبل ذلك.

وبالطريقة ذاتها، تسأل المستقصية التاجر الصغير الذي يسكن في

حيٍّ يتم تجديده: «ما هو شعورك وأنت تعلم بأنّك سوف تهدم، وأنّ... (تستدرك المستقصية) أنّ بيتك... (...) هل هو بيت، جناحٌ صغير، أم أنها شقة؟ (...) والبيت، أهو لأبويك؟ (...) كم عاماً مضى على كونك في البيت نفسه؟» وتتسرب من أقوالها نظرةٌ معيارية للعدد المناسب من الساكنين حين تقول باستغراب وهي تؤكد على العدد: «إذن، ففي فترةٍ معينة كنتم... ستة تعيشون في هذا البيت، أليس كذلك؟» ثم تحسب بصوتٍ مرتفع: «ولدان، والأبوان، وأبواك... حسناً. والآن، أبواك قد...؟» (صمت، فقد توفيا). وتستنتج المستقصية وهي تتابع أفكارها وحسابها قائلةً، كما لو أنها تشعر بالارتياح لأنه أصبح هناك مكانٌ أوسع: «إذن، أنتما الآن اثنان؟»

وربما يصل العنف إلى أقصاه حين توصل فلسفة الفعل الذي يقوم عليه كل الاستجواب إلى البحث ضمن النوايا والأسباب عن أصل أفعال جميع الأطراف الذين يفترض فيهم أنهم أيضاً يتحكمون في مصائرهم، وإلى جعل مستحقي إعانة الدخل الأدنى للإدماج مسؤولين بصورةٍ ضمنية عن بؤسهم. والأسئلة من نوع «لماذا؟» التي تشدد الأقوال المتعلقة بفقدان العمل أو الانفصال عن الزوج أو ترك المدرسة أو الصحة أو البطالة تجعل المرء يعتقد بأنّ كل ما حصل للشخص المستجوَب قد كان نتيجةً لخيارٍ حر. فمثلاً، تُسأل خادمةٌ تركت المدرسة في الثانية عشرة من عمرها «لماذا فعلت ذلك»، بل يتم التحديد: «هل كان ذلك لأنك أردته أم لأنك كنتِ مجبرةً على ذلك؟» هذه الأسئلة تفترض أنه ينبغي على كل شخصٍ أن يسيّر مساره المهني وحياته، وأنه قادرٌ على ذلك.

المستقصية رقم 2: {يعاوِد الحديث} ولماذا توقفتَ عن العمل؟

المستقصية رقم 1: المرض...

المستقصى عنه: لأنني لم أعد أستطيع القيام به.

المستقصية رقم 2: لأسبابٍ صحية إذن.

{يضيف المستقصى عنه أنه «عمل عشرين عاماً في هيئة البريد والبرق والهاتف PTT ثم توقف عن العمل فيها».}

المستقصية رقم 1: إذن، السبب في توقفك عن ذلك العمل هو حقاً زوجتك؟

المستقصى عنه: تماماً.

المستقصية رقم 1: هل كنت ستبقى فيه لولا ذلك؟

المستقصى عنه: كنت سأكون متقاعداً... لا، ليس تماماً.

المستقصية رقم 2 : {ضائعة} سبب توقفك عن أي عمل؟

المستقصية رقم 1: في البريد.

المستقصية رقم 2 : توقفت عن العمل من أجل زوجتك؟ لماذا؟ ألم تكن هي...

المستقصى عنه: {يضطر للتكرار} كانت مصابةً بالاكتئاب، لم تكن قادرةً على الاستمرار في عملها، لذلك...

المستقصية رقم 2 : {تكرّر} وماذا كان عملها؟

المستقصى عنه: المحاسبة.

المستقصية رقم 1: إذن فقد قررت الاستقالة.

المستقصى عنه: نعم...

المستقصية رقم 1: وهل أعجبها فيما بعد ذلك ال...؟

المستقصى عنه: زوجتي؟

المستقصية رقم 1: الحانة؟

المستقصى عنه: لا! لا، ولكن... لقد اعتادت. {صمت} وأنا كذلك.

المستقصية رقم 1: نعم، كان ذلك مختلفاً، أليس كذلك؟

المستقصى عنه: بالتأكيد.

المستقصية رقم 1: هل قمت بأعمالٍ صغيرة قبل أن تدخل في سلك البريد؟

المستقصى عنه: بلى! كنت حلاّقاً في البداية. أول مهنة لي كانت الحلاقة.

المستقصية رقم 1: {بلهجة إعجاب} يا لها من مسيرة! {ترفع صوتها} هل كنت حائزاً على شهادةٍ مهنية؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: وهل مارست العمل...؟

المستقصى عنه: ليس طويلاً لأنّ الدخل لم يكن كافياً. مارست المهنة لمدة أربعة أعوام. في ذلك الوقت كان الحلاّق يموت جوعاً.

المستقصية رقم 1: صحيح؟

المستقصية رقم 2 : في أية حقبةٍ كان ذلك؟ في أي عام؟

المستقصى عنه: ما بين عام 45.. {يفكر} من عام 45 إلى عام 49.

المستقصية رقم 1: ما هو الدرس الذي استخلصته من مهنة الحلاقة أولاً ثم من مهنة...

المستقصى عنه: هو أنّ المرء يتعلم في بعض الأحيان مهنةً، ثم لا يفيده ذلك كثيراً. لم أكن يوماً أريد أن أصبح حلاّقاً.

المستقصية رقم 2 : صحيح؟ ولماذا فعلتَ إذن؟

المستقصى عنه: لأنني... كنت أريد أن أصبح نجار هياكل على سفينة. في تلك الفترة، رأى الطبيب، وهو قد مات لحسن الحظ، بأنني ضعيف البنية أكثر مما ينبغي. كنت ضعيف البنية.

المستقصية رقم 2 : {بلهجةٍ ساخرة} لا يبدو عليك الآن بأنك ضعيف البنية، لقد استدركت الأمر...

المستقصى عنه: وهكذا، لقد وجد بأنني صغيرٌ جداً، بالنسبة لنجار هياكل. كان يرى من يعملون في هذه المهنة طويلي القامة وضخام الجسم... ثم عُرض عليّ... كان ينبغي أيضاً أن يعمل المرء – كانت الأوضاع قاسيةً بعد الحرب.

تستدعي أسئلة «لماذا» تلك المكررة تفكيراً رجعياً حول نوايا الفعل وتميل بالتالي إلى أن تصنع من الضحية مسؤولاً (حتى في نظره بالذات)

عن الوضع الذي يُفترض بأنه أراده، على الأقل بصورة سلبية، حين أظهر بأنه غير قادر على أن «يمسك بزمامه». وهكذا، تسخر المستقصية من واقع أنّ التاجر ذاته الذي تواصل زوجته، محاسبة الحانة، في أخذ الأوراق الإدارية على عاتقها، لا يعلم إن كان قد ملأ الأوراق، وإن كان قد وقّع على «عقد الإدماج» الشهير («هذا كلامٌ كالطلاسم») وتعيده إذن إلى النظام.

المستقصية رقم 1: ومتى دفعوا لك؟

المستقصى عنه: بعد شهرين أو ثلاثة، على ما أعتقد، لا أعلم بالضبط؛ فأنا أولاً لا أهتم بمثل هذه الأمور، زوجتي هي التي تهتم بالأوراق.

المستقصية رقم 1: هي التي تهتم. وهل حصلت على المبلغ اعتباراً من أول كانون الثاني أم...؟

المستقصى عنه: لا، أنا لا أعرف... أنا لا أعرف تماماً. أنا لا أهتم بذلك.

المستقصية رقم 1: لا تعرف؟ {بلهجة لائمة} ألا تعرف كم تبلغ مستحقاتك؟

المستقصى عنه: بلى، 2300... 2300{صمت} وبعض الفراطة ربما.

المستقصية رقم 2: ألا تعرف إن كنت قد وقّعت عليه {عقد الإدماج} أم لا؟

المستقصى عنه: لا أعرف.

المستقصية رقم 2 : على كل حال، أنت الذي طلب إعانة الدخل الأدنى للإدماج، وأنت الذي تقبضه أم... هل هو أنت؟

المستقصى عنه: بلى، إنه أنا.

المستقصية رقم 2 : إذن، يُفترض أن تكون أنت الذي وقّع...

المستقصى عنه: لا أتذكر.

المستقصية رقم 1: إنه مقابل عمل، لذلك ربما كان عليك أن تتذكر، أليس كذلك؟

يولّد التنافر البنيوي حالاتٍ مضمرة من سوء التفاهم. وهكذا، تسأل المستقصية التي لم تسمع بأن ناقلٍ ومفرّغ البضائع قد فقد أمه حين كان في الثانية عشرة من عمره، والتي يشغل فكرها انتظام العلاقات الأسرية أكثر مما يشغله وجود تلك العلاقات، تسأله إن كان لا يزال يرى أمه. وتهتف قائلةً «آه! اعذرني» عندما يصمت باستغراب. وحين يصل الشاب إلى القول بأنه لا يرى والده، فإنها تستنتج بأنّ ذلك الأخير متوفى، في حين أنه يعيش في الخارج. وكذلك، تضطرب إجابة التاجر الذي يعيش ابنه الراشد في البيت الأبوي حين تسأله المستقصية عن أبنائه بلهجة البداهة: «هم لم يعودوا يعيشون معك على ما أظن، أليس كذلك؟» «لا. ابني... هو يحضر إلى البيت.» «هو يعيش في الب...؟ لا! هل يأتي؟» «إنه يأتي إلى البيت. لنقل إنه يسكن عندي.»

بل إنه يحصل أن تؤدي البداهة المطلقة المتعلقة بتجربة الوجود المبنية على التحكم بالزمن (والمال) إلى التباساتٍ تقارب الاحتقار: وهكذا، تسأل المستقصية ناقل ومفرّغ البضائع الذي يحكي بمزيجٍ من المرارة والخزي كيف «خدعه» صاحب عمل حين كان يعمل دون ترخيص فلم يدفع له راتبه، تسأله إن كان يحصل أن يُدفع له بصورةٍ طبيعية... وبعد ذلك بقليل، وحين يقول بأنه لم يجد شيئاً في الوكالة الوطنية للتشغيل، فإنها تقول له بلهجةٍ خفيفة: «ماذا تذهب لتفعله في وكالة التشغيل؟» وينفجر كل التباعد بين وضعين ورؤيتين متوافقتين للعالم في الإجابة السريعة والحاسمة المليئة بالتفضّل الحامي التي توجهها المستقصية بلهجةٍ مرحة إلى الخادمة التي تقول بأنها تشعر بالحرج في الإعلان عن عملها، حيث تقول المستقصية: «ليس هذا مشيناً. إنه على كل حال عملٌ تعرفه كافة الأمهات».

استجوابان

لن نذكر هنا سوى مقتطفين طويلين نوعاً ما يكثفان كافة المناهج المستخدمة في استقصاءٍ إداري للتدقيق. إنّ مستحقي إعانة الحد الأدنى للإدماج الذين يُطلب منهم، لا بل الذين يُفترض فيهم أن يفضوا بوضع مواردهم المالية وصحتهم وطريقة حياتهم وقصتهم العائلية وخصوصياتهم، يقاومون إما بالإقلال من الكلمات وبالصمت، وإما، بالنسبة لأكثرهم تمرساً، بأشكال متنوعة من تصوير البؤس، وأكثر هذه الأشكال تواتراً هو الخطاب الموجه إلى المساعِدة الاجتماعية.

الشك

تشرح المستقصى عنها ببعض الحرج بأنها قد راكمت المآسي؛ فقد حصل لديها انهيارٌ عصبي بعد وفاة ابنها الذي كان في حوالى العشرين من عمره بعد إصابته بالسرطان، ثم انفصلت عن زوجها الحرفي، وتعيش الآن مع ابنتها، الطالبة في المرحلة الثانوية، والتي رزقت لتوها بطفل. (وقد جاءت أصلاً مع حفيدها وأخذت تقدم له زجاجة الرضاعة خلال المقابلة). وهي تسخر من ذاتها، كما لو كان من غير اللائق نوعاً ما أن يكون لديها كل تلك المآسي، وتضحك وهي تذكر مشكلةً إضافية: فقد تدهورت صحتها بالفعل منذ تلك الأحداث.

تَخفى كل تلك الكياسة على المستقصية التي تحاول وهي تتابع هدفها

أن تتأكد من الوقت الذي حصل فيه الاستشفاء، وذلك لكي تتأكد من أنّ طلب إعانة الحد الأدنى للإدماج لم يحصل بمناسبة العلاج، وبهدف الحصول على التغطية الاجتماعية التي توفرها تلك الإعانة. وتدير المستقصية التي تجهل المعلومات التي قدمتها المستقصى عنها من تلقاء ذاتها والمتعلقة بانهيارها العصبي ومحاولتها إجراء تحليلٍ نفسي ومرضها المناعي، تدير كل الجزء الطبي من الأسئلة.

المستقصية: وهل ذهبتِ إلى طبيبٍ نفسي بمبادرةٍ منك؟

المستقصى عنها: نعم.

المستقصية: هل بقيتِ في مرحلة التحليل أم...

المستقصى عنها: لا (...). لقد فعلت ذلك لمدة شهرين.

المستقصية: بعد الانفصال؟

المستقصى عنها: لا، لا، ليس لهذا أية علاقة... بل بلى، فقد كان ذلك خليطاً (من عدة عوامل). كان هناك موت ابني والانفصال ووضع ابنتي، كانت تلك أموراً كثيرة. كثيرة فعلاً.

المستقصية: هل استخلصتِ شيئاً من ذلك ال... يبدو بأنّ هذا قد ساعدك، أم...

المستقصى عنها: أظنّ أن ذلك محتمل، كما حصل بالنسبة لابني، فقد استغرق مني الأمر سنتين، على ما أعتقد، لكي أدرك الأمور فعلاً. وقد يكون هذا الموضوع قد استغرق مني وقتاً كذلك. لم أدرك الأمور فوراً، لكنني كنت سأصل إلى هذا الإدراك وحدي. كنت سأقوم بتحليلي بنفسي. لكن بما أنه كانت هناك مشكلة صحية لها علاقة بهذا الأمر...

المستقصية: صحيح؟ هل كان لديك...

المستقصى عنها: نعم، ... {ضحكة فيها حرج} مشكلة صحية، هذا يعني أمراً إضافياً. وبالتالي نعم، كان من الملحّ مع ذلك أن يقوم أحدٌ بـ... أن يحاول أحدٌ ما أن يساعدني. لكن ذلك ساعدني لأنني تكلمت (...).

المستقصية: سوف نتكلم عن صحتك، فقد قلتِ لي بأنّ لديك مشاكل. منذ متى لديك...؟

المستقصى عنها: منذ {تنهيدة}... عام 82، في عام 82 أجروا لي اختبارات لأنه كان لديّ تحسس، كنت أعاني من الإكزيما، وكان لدي شرى، إذن أجروا لي حتى عام 86 كل الاختبارات وقال لي الطبيب: «يا سيدة ف. أنت متحسسة من كل شيء، إذن سوف تأخذين هذا (الدواء) وسوف تقنعين به».

المستقصية: وماذا كان ذلك؟ مضاداً للحساسية؟

المستقصى عنها: لا، لا...

المستقصي: نعم، أنت متحسسة لكل شيء!

المستقصى عنها: تماماً، كنت متحسسة لكل شيء. ثم فكرت في أحد الأيام كذلك وقلت لنفسي بأنّ موت إيريك قد بلبل كل الدنيا وأنه ربما كان الألم هو الذي يتظاهر بهذا الشكل؛ ويوم فهمت ذلك، انتهى كل شيء بالتدريج.

المستقصية: لقد قمتِ بالفعل بتحليلك لذاتك.

المستقصى عنها: نعم، لقد قمت به لكنني استغرقت وقتاً في إجرائه. ثم إنني لم أكن أفهم على كل حال. وحين حصلت مشاكل بيني وبين زوجي، أقصد مشاكل... عاد الأمر من جديد. لكن الأمر كان أخطر بكثير في تلك المرة. وبدؤوا بكل الاختبارات في المشفى. ثم لاحظوا بأن هناك مشكلة في المناعة، إذن فقد حصل لديّ مرضٌ مناعي ذاتي.

المستقصية: وهل تتم متابعتك في هذا الأمر؟

المستقصى عنها: نعم.

المستقصية: هل تذهبين بانتظام إلى ...

المستقصى عنها: نعم، كل شهر. الآن أنا أُعالج بالكورتيزون منذ (في أي شهرٍ نحن؟ نحن في تشرين الأول)، منذ حوالي ثمانية أشهر.

المستقصية: هل يسمح لك واقع أنك تحصلين على إعانة الحد الأدنى للإدماج بأن يكون لك أيضاً تغطيةٌ اجتماعية؟

المستقصى عنها: لا، لم يكن، ليس الأمر كذلك حقاً.

المستقصية: لكنني لست من الشرطة، لكن في المنطق، أنا أبحث عن منطق الأمور، أي أنّ اسمك لن يظهر في أي مكان. لكنني أحاول أن أفكر بعباراتٍ بسيطة حول المسار، لماذا قد يتوافق ذلك مع الغطاء الاجتماعي أكثر مما قد يتوافق مع المسكن.

المستقصى عنها: لا، حين طلبت الإعانة، لم تجرِ أية تحريات، أقصد أنه لم يكن قد تمّ اكتشاف المرض؛ لم يحصل أي إجراء. ولم يحصل ذلك إلا في نيسان، في شهر نيسان. إذن، بما أنني كنت أستفيد من الإعانة منذ كانون الثاني أعني، ليس هذا أبداً ما جعل... لكن ينبغي عليّ هنا أن أقرّ بأنني اليوم، ومع كل...

المستقصية: هل العلاج مكلف؟

المستقصى عنها: العلاج لا، لكن الاختبارات نعم.

المستقصية: أي أنهم يجرون لك اختباراً لـ...

المستقصى عنها: بالنسبة للاختبارات، هناك تحاليل للصفيحات، وكانت تجرى لي كل يومين، أو كل ثلاثة أيام، ثم تلاشت لأن الأمور كانت قد استقرت، ثم أصبحت كل أسبوع، ثم كل خمسة عشر يوماً، والآن أصبحت التحاليل تجرى لي كل ثلاثة أسابيع. ويفتَرض أن ينتهي العلاج (...)؛ لكن هناك أيضاً فحص للعينين لأنني كنت أتناول دواءً بينما الآن أتناول الكورتيزون (...) ثم أيضاً الإقامة في المشفى (...) في البداية وضعتُ في المشفى لأنهم كانوا يجهلون تماماً ما هي المشكلة، ثم اعتقدوا بأنّ الأمر يتعلّق بفيروس، ثم قالوا بأن الأمر شيء آخر ثم، ثم أُدخلت أيضاً إلى المشفى لأنّ عدد الصفيحات هبط بشكلٍ حاد (...).

المستقصية: وماذا تقولين عن قصة إعانة الحد الأدنى للإدماج التي في نهاية الأمر تفيد في تقديم حمايةٍ اجتماعية؟

المستقصى عنها: أنا أقول بأن هذا الأمر هام. هامٌ جداً.

المستقصية: نعم، فهناك بالفعل المظهر المالي، الإعانة الفورية، لكن هناك أيضاً هذا الحق في أن تكوني مغطاة.

المستقصى عنها: الأمر هنا مهم جداً جداً جداً. أقصد أن الأمر قد تصادف هكذا، لكنه قدم لي خدمة كبيرة، وأنقص همومي هماً كبير. حقاً نقصت همومي هماً كبيراً (...).

المستقصية: {تستأنف أسئلتها المعدّة} الآن، ماذا... هل تنامين جيداً؟

المستقصى عنها: لا {ضحكة، وترتفع نبرة صوتها باستغراب، وتؤكد على كلمة هذا}. حتى هذا يسألون عنه؟

المستقصية: نعم... هل تستيقظين خلال الليل؟

المستقصى عنها: أوه! نعم {ضحك} أعاني من الأرق.

المستقصية: هل تتناولين أقراصاً لكي تنامي؟

المستقصى عنها: لا. في حال الضرورة أتناول {أقراصاً مسكنة}.

المستقصية: لكن لديكِ مع ذلك رغبات، أليس كذلك؟ مسرّات ورغبات. لا؟

المستقصى عنها: {ضحكة} لا.

المستقصية: أليس لديك رغبة في شيء؟ هل لديكِ أفكارٌ سوداء؟

المستقصى عنها: لا... أوه، في بعض الأحيان، لكن ليس...

المستقصية: بين حينٍ وآخر...؟

المستقصى عنها: بين حينٍ وآخر.

المستقصية: هل لديك صعوبةٌ في التركيز؟

المستقصى عنها: نعم.

المستقصية: قليلاً، أم كثيراً؟ أم إطلاقاً؟

المستقصى عنها: لا، قليلاً.

المستقصية: هل تخونك الذاكرة؟

المستقصى عنها: إنه العمر!

المستقصية: وماذا عن الأعراض التنفسية كصعوبة التنفس وحالات الاختناق...؟

المستقصى عنها: نعم بالطبع... لكن هذه الأعراض ملازمة لمرضي وحين يحصل عندي شيءٌ من الإحباط، هذا كل شيء.

محكمة التفكير السليم

تواجه مستقصيتان، إحداهما شابة، والأخرى أكبر منها بقليل، ذات صوتٍ حاد، تواجهان تاجراً صغيراً، مريضاً، صوته متعب ومسحوق، اقترب من سن التقاعد، تخلى عن تجارته على إثر عملٍ جراحي.

لو لم يكن الوضع مؤلماً بهذه الدرجة (نرى ذلك منذ بداية المقابلة، حين يحكي المستقصى عنه عن «إحساسه بالعار» لكونه يتلقى إعانة الدخل الأدنى للإدماج RMI: «حين يكون المرء قد عمل طيلة حياته... يصبح الوصول إلى هنا...!»)، لأمكن لنا أن نظنّ أنفسنا أمام تمرينٍ على مشهدٍ هزلي تم إخراجه بصورةٍ إرادية. جزء لا بأس به من الأسئلة يطرح مرتين، الأولى بواسطة المستقصية الشابة (المستقصية رقم 1) ثم مرةً أخرى بواسطة المسؤولة المحلية عن الاستقصاء (المستقصية رقم 2) التي تصل فيما بعد. إنها ذات الأسئلة، وحالات الاستغراب ذاتها، والتعليقات ذاتها، وفي النهاية عدم الفهم ذاته. ولا يحتج الرجل المسن إلاّ في النهاية على أنه اضطر إلى «بسط قصة حياته بهذا الشكل».

[...]

المستقصية رقم 1: وكيف عرفت بوجود إعانة الدخل الأدنى للإدماج RMI؟ كيف سمعت عنها؟

المستقصى عنه: من بعض الناس. ثم أيضاً بفعل الحاجة نوعاً ما.

المستقصية رقم 1: نعم، لكن كيف تصرفت، كيف جرت الأمور من أجل...؟

المستقصى عنه: لقد ذهبت لتسجيل اسمي في مكتب العمل ثم...

المستقصية رقم 1: في مكتب العمل {تترجم على الفور إلى لغة المؤسسات} أي ...هل ذهبت إلى الوكالة الوطنية للتشغيل ANPE؟

المستقصى عنه: نعم. لقد سجلت اسمي هناك، لكنني لم أكن أطلب عملاً، ففي مثل سني...

المستقصية رقم 1: كم عمرك يا سيدي؟

المستقصى عنه: حوالي ستين عاماً. سأكمل اعوامي الستين في شهر آب. لنقل تسعةُ وخمسين عاماً.

المستقصية رقم 1: وسجلت اسمك في الوكالة الوطنية للتشغيل، ماذا كنت تعمل؟

المستقصى عنه: كنت قبلاً تاجراً.

المستقصية رقم 1: وماذا كانت تجارتك؟

المستقصى عنه: حانة.

المستقصية رقم 1: سوف نعود إلى الخبرة المهنية فيما بعد {ضمن استمارة الأسئلة}؛ إذن، ذهبت إلى الوكالة الوطنية للتشغيل ولم يكن قد تبقى لك حقوق...، تعويضات، أو أي شيء آخر، وهناك... حدثوك عن إعانة الحد الأدنى للإدماج ؟ إذن، من تحدث معك هو شخص من الوكالة الوطنية للتشغيل .

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: وبماذا ...نصحك ذلك الشخص؟

المستقصى عنه: {صمت} لقد قال لي بأن لي الحق في شيءٍ ما. هذا كل شيء.

المستقصية رقم 1: بماذا أحسست حين أُرسلت لك أول إعانة؟

المستقصى عنه: {بصوتٍ خفيض جداً} كان إحساساً بالعار.

المستقصية رقم 1: لماذا؟

المستقصى عنه: هكذا. حين يكون المرء قد عمل حياةً بأكملها... {بصوتٍ خفيض جداً، ودفعةً واحدة}...الوصول إلى هنا...

المستقصية رقم 1: {استغراب} لقد عملت حياةً بأكملها وليس لك الحق في شيء؟

المستقصى عنه: بلى، لكن بعد عام، فلن أحصل على راتبٍ تقاعدي إلاّ بعد عام.

المستقصية رقم 1: آه! هكذا الأمر إذن! الوضع إذن مؤقت...

المستقصى عنه: تماماً.

المستقصية رقم 1: ومتى توقفت عن العمل؟

المستقصى عنه: في نهاية عام 89. في تشرين الثاني 89، في نهاية تشرين الثاني 89.

المستقصية رقم 1: ولماذا توقفت عن العمل؟

المستقصى عنه: لأنني لم أستطع أن أعمل.

المستقصية رقم 1: كنتَ...

المستقصى عنه: مريضاً.

المستقصية رقم 1: كنتَ مريضاً؟

المستقصى عنه: كانت رجلاي تؤلمانني، واضطررت لأن أخضع لعملٍ جراحي.

المستقصية رقم 1: انتظر، فهناك قسم عن الصحة {في الاستمارة}، سوف أنتقل إليه مباشرةً؛ إذن، ما هو المرض التي تعاني منه في رجليك؟

المستقصى عنه: إنه... إنها دوالي، وهو مرض يتعلق بدوران الدم.

المستقصية رقم 1: وكنت واقفاً دائماً خلف منضدة الحانة؟

المستقصى عنه: تماماً.

المستقصية رقم 1: وأجريت لك جراحة؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: متى؟

المستقصى عنه: {بنَفسٍ واحد} نهاية نيسان. يوم 28 نيسان على ما أعتقد، لم أعد أتذكر.

المستقصية رقم 1: وهل لازمتَ السرير حينذاك؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: كم كانت الفترة؟

المستقصى عنه: لنقل حوالي عشرة... حوالي عشرة أيام.

المستقصية رقم 1: وقررت التوقف آنذاك عن العمل؟ أبعد تلك العملية قررت أن...

المستقصى عنه: لا، بل قبل ذلك، لأنني لم أعد قادراً.

المستقصية رقم 1: هل كنت قد توقفت عن العمل قبل ذلك بكثير؟

المستقصى عنه: توقفت، بلى كنت قد توقفت عن العمل، لكن لأنه لم يعد بإمكاني أن أعمل. ولعمري، لقد أجرى لي الأطباء عملاً جراحياً، لكن... صحيحٌ أنّ وضعي أفضل، لكن ليس كما كان؛ لم أعد في الثلاثين من عمري، هذا هو الأمر.

المستقصية رقم 1: {بنبرة محادثة أليفة} هل وقعت على عقد الإدماج؟

المستقصى عنه: ماذا تعنين؟ هذه الكلمات كالطلاسم بالنسبة لنا. لم أهتم يوماً بالأوراق غير الهامة... أنا جاهلٌ تماماً على هذا الصعيد.

المستقصية رقم 1: في الواقع، فإن زوجتك هي التي...

المستقصى عنه: إنها سكرتيرتي {ضحك}.

المستقصية رقم 1: أي أنك لم توقع العقد شخصياً، ففي مقابل إعانة الحد الأدنى للإدماج تحثّ الدولة الناس على الإدماج، أي أن...

المستقصى عنه: لا، لا.

المستقصية رقم 1: ألم توقع؟

المستقصى عنه: لا، لا أعتقد. لا أذكر.

المستقصية رقم 1: ما هو رأيك بهذا القانون؟

المستقصى عنه: إنه جيد، لكن... إنه جيد.

[...]

المستقصية رقم 1: {ترفع صوتها} إذن، سوف ننطلق قليلاً من أعمالك، عملك الأخير كان إذن تلك الحانة. منذ متى عملت فيه؟

المستقصى عنه: منذ عام 74، نعم، 1974.

المستقصية رقم 1: إذن فقد اشتريت تلك... (...) كيف قررت الحصول على تلك الحانة؟ كيف خطرت ببالك هذه الفكرة؟

المستقصى عنه: هذا الأمر غريب. كانت زوجتي محاسبةً وتعرضت... لقد كانت مصابةً بالاكتئاب، واستوجب أن تغير عملها. وماذا تعمل؟ أنا كنت في هيئة البريد والبرق والهاتف PTT وتقدمت باستقالتي. ثم اشترينا تجارةً. هذا هو الأمر.

المستقصية رقم 1: ماذا كنت تعمل في هيئة البريد والبرق والهاتف؟

المستقصى عنه: كنت أعمل على المبرقة الشمسية. قبل ذلك، كنت أعمل على الخطوط ثم أصبحت أعمل على المبرقة الشمسية. كنت أعمل في نسخ وبثّ الخرائط.

المستقصية رقم 1: نعم. حسناً. وقبل ذلك كنتَ...

المستقصية رقم 2: آه، مرحباً. مرحباً سيدي.

المستقصية رقم 1: إنها السيدة المسؤولة عن الاستقصاء.

المستقصية رقم 2 : أنا... لم أكن أعتقد بأنكما قد بدأتما... أنتما لستما دون عمل...

المستقصية رقم 1: لقد بدأنا للتو. السيد كان لديه حانة، وقد توقف عن العمل منذ فترةٍ غير بعيدة، وهو ينتظر تقاعده...

المستقصى عنه: لقد توقفت منذ حوالى سنة.

المستقصية رقم 2 : أين كانت تقع حانتك؟

{بنبرةٍ متعبة، يذكر الرجل اسم الحي الشعبي الذي كان يعمل فيه والذي سبق له أن وصفه قبل ذلك.}

المستقصية رقم 1: حتى أي سنٍ ذهبت إلى المدرسة؟

المستقصى عنه: 14.

[...]

المستقصية رقم 1: إذن، فقد حصلت على شهادتك المهنية بعد ذلك؟

المستقصى عنه: بعد ذلك.

المستقصية رقم 1: نعم، إذن، فقد حصلت عليها بعمر ستة عشر عاماً، أليس كذلك؟

المستقصى عنه: ستة عشر عاماً ونصف. حصلت على الشهادة المهنية بعمر ستة عشر عاماً ونصف.

المستقصية رقم 1: وهل كانت الأمور على ما يرام في المدرسة؟

المستقصى عنه: لم أذهب إليها كثيراً لأنّ الحرب كانت مندلعة، وكنت... كيف أعبّر... تمّ ترحيلي. نعم. أي أنني لم أذهب إلى المدرسة لمدة ثلاث سنوات ونصف أو أربعة أعوام.

المستقصية رقم 2 : وأين كنت أثناء الحرب إذن؟

المستقصى عنه: في منطقة جبال البيرينيه.

المستقصية رقم 2 : في البيرينيه؟ مع عائلتك...

المستقصى عنه: لا، لا، لا. وحدي.

المستقصية رقم 1: وحدك؟

المستقصية رقم 2 : نعم... في مؤسسة...؟

المستقصى عنه: في مزرعة.

[...]

المستقصية رقم 2 : ...ولماذا تم ترحيلك؟

المستقصى عنه: لأنني كنت أخاف. كان يغمى عليّ بمجرّد انطلاق صفارة الإنذار.

المستقصية رقم 2 : هل أهلك هم الذين قرروا ذلك؟

المستقصى عنه: نعم، إنه الطبيب، الأمر غير طبيعي.

المستقصية رقم 1: وهل كنت تعمل هناك، في المزرعة؟

المستقصى عنه: نعم، وعلى كل حال، كان ذلك يعجبني.

المستقصية رقم 2 : نعم، كان يعجبك، هل لديك ذكريات جميلة عن...؟

المستقصى عنه: نعم ولا. كان المكان حزيناً نوعاً ما.

[...]

المستقصية رقم 1: بالنسبة للمدرسة إذن، هذا سبب منطقي... لقد رحلت في العاشرة من عمرك إذن؟ تركت...؟

المستقصى عنه: تركت المدرسة في الوقت المناسب، حين كانت تعطى الدروس الأكثر أهمية.

[...]

المستقصية رقم 1: حسناً، بالنسبة لعقد الإدماج، فإن السيد لم يوقّع عليه، على ما أعتقد...

المستقصية رقم 1: {تفسر} سكرتيرته هي زوجته.

المستقصى عنه: زوجتي هي التي تهتم بكل شيء، أما أنا فلم أهتم أبداً بالأوراق.

المستقصية رقم 2 : لا أدري، الملف ليس معي. ألا تعلم إن كنت قد وقعت عليه أم لا؟

المستقصى عنه – لا أعلم.

المستقصية رقم 2 : على كل حال، فأنت الذي طلبت إعانة الحد الأدنى للإدماج ، هل أنت الذي يقبضه أم... هل هو أنت؟

المستقصى عنه: نعم، هو أنا .

المستقصية رقم 2 : إذن ينبغي أن تكون أنت الذي وقعت عليه...

المستقصى عنه: لست أذكر.

المستقصية رقم 1: إنه مقابل عمل، لذلك ربما كان ينبغي عليك أن تتذكره؟

المستقصية رقم 2 : أو مقابل دورة تدريبية.

المستقصى عنه: لا، لم أقم بأي تدريب.

المستقصية رقم 1: هل عرضوا عليك دورةً تدريبية؟

المستقصى عنه: لا! هناك شبان ينتظرون... لن أقوم أنا...

المستقصية رقم 1: {تتصفح الأوراق، وتعود إلى الخلف} حلاّق لمدة أربع سنوات، ثم عملت في هيئة البريد والبرق والهاتف أم...؟

المستقصى عنه –لا، ليس فوراً، لقد عملت ببعض الحرتقات الصغيرة هنا أو هناك. كان ينبغي على المرء أن يعمل. ثم عملت في هيئة البريد والبرق والهاتف .

المستقصية رقم 1: توقفت عن العمل، كان لديك صالون خاص بك، أليس كذلك...؟

المستقصى عنه: لا، لا ، لا .

المستقصية رقم 1: كنت تعمل عند حلاّق...

المستقصى عنه: كنت عاملاً، عاملاً...

المستقصية رقم 1: عامل، نعم، ثم توقفت، وقمت ببعض الحرتقات، أي أنك حاولت القيام ببعض الأعمال الصغيرة...

المستقصى عنه: من مكان عمل إلى آخر. لقد عملت دوماً. كنت أذهب إلى حيث يوجد مالٌ لكسبه، هذا كل شيء.

المستقصية رقم 2 : وكم بقي لك من الزمن حتى تتقاعد؟

المستقصى عنه: عشرة أشهر {صمت طويل}.

المستقصية رقم 2 : وبانتظار ذلك، كيف تشغل وقتك؟ تقوم ببعض الأعمال الصغيرة...

المستقصى عنه: لا. لا، لا، أنا أتدبر أموري، أذهب إلى بيت أختي، لقد باعت بيتها، وأنا أحرتق، لنقل أنني أشغل نفسي.

المستقصية رقم 2 : {تأخذ نبرةً مطَمْئنة تريد أن تقول بأنّ بإمكانه أن يتكلم عن العمل غير المصرح به كما يشاء.} لأنه في ما يتعلق بنا، فلا علاقة لنا أبداً بالمساعدات الاجتماعيات، ولسنا هنا لكي... لقد فهمت جيداً، نحن لسنا...

المستقصى عنه: نعم، لقد شرحت لي السيدة {المستقصية رقم 1}. لقد شرحت لي السيدة...

المستقصية رقم 2: ... لكي... إن كنت تقوم ببعض الأعمال الصغيرة، فإنّ هذا يهمنا إن شئت على صعيد أميل للعلمية، يهمنا أن نعرف ما هو ثقل الأعمال الصغيرة، لذلك يمكن لك أن تقوله لنا، لن نخبر أحداً بذلك...

المستقصى عنه: لا، لا، لا، لا. ليس هناك عمل غير مرخص.

المستقصية رقم 2 : لأنك قد تقوم ربما، فأنت... لا يبدو عليك بأنّ لديك مشاكل صحية...

المستقصى عنه: بلى، الأرجل. إنها بالنسبة لي تالفة.

المستقصية رقم 1: إذن أنت تذهب لتقوم بالبستنة؟ {كما لو أن الأمر يتعلق بشيءٍ غير لائق}

المستقصى عنه – البستنة... لعمري، إنني أشغل وقتي.

المستقصية رقم 2 : كيف تشغل نفسك أم نهارك أم...؟ عدا أنك تأتي لرؤيتنا، لكن هذا لا يحدث كثيراً...!

المستقصى عنه: أنا أقوم بالبستنة، وأقرأ،و... أمشي، يجب أن أمشي، فأمشي. هذا مملّ.

المستقصية رقم 2 : هل كان بيت أبويك؟

المستقصى عنه: بيت أبويّ.

المستقصية رقم 2 : من النادر في أيامنا أن نرى أشخاصاً...

المستقصى عنه: على كل حال، سوف يهدم البيت وسيعاد إسكاننا على بعد مائتي متر. لاحظا، الأمر ليس خسارة لأنّ البيت أصبح نوعاً ما... (...).

المستقصية رقم 2 : وكيف تشعر حين تعلم بأنك سوف تهدم، أنّ {تتردد، ثم تستدرك} بيتك...

المستقصى عنه: نحن نعلم ذلك منذ سنة. كان ذلك يجعلني مريضاً. أنا كنت مريضاً. ثم الآن، إنني مسرور في أعماقي، فسوف أعيش في مسكنٍ مبنيٍّ حديثاً. الإصلاحات في بيتي مؤقتة.

المستقصية رقم 2 : هل تعتقد بأنّ معرفتك بأنّ بيت أبويك سوف يُهدم، فهو بيت العائلة رغم كل شيء، قد أثرت على عملك؟

المستقصى عنه: لا، لا، لا {صمت طويل}.

المستقصية رقم 1: هل هو بيت، أي جناحٌ صغيرٌ مستقل مع حديقة؟

المستقصى عنه: لا، إنه مجرد برّاكة خشبية بين المنازل.

المستقصية رقم 1: وهل عاش أبواك معك...؟

المستقصى عنه: لقد عشت دائماً مع أبويّ.

المستقصية رقم 1: صحيح؟

المستقصى عنه: لقد تزوجت وعدت إلى البيت.

المستقصية رقم 1: هل كان هناك مكانٌ كافٍ؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 2 : أليس لديك... هل لديك أولاد؟

المستقصى عنه: نعم. ابنة عمرها 37 عاماً وابنٌ عمره 36.

المستقصية رقم 2 : {بلهجة البداهة} لم يعد يعيش معك، حسب ظني؟

المستقصى عنه: لا. ابني... هو يأتي إلى البيت.

المستقصية رقم 2 : إنه يعيش في... لا، إنه يأتي؟

المستقصى عنه: إنه يأتي إلى البيت. لنقل إنه يسكن عندي.

المستقصية رقم 1: هل هو يعمل، هل يعمل ابنك؟

المستقصى عنه: نعم! فهو يعمل في هيئة البريد والبرق والهاتف.

المستقصية رقم 1: هو في هيئة البريد والبرق والهاتف..{صمت} وماذا عن ابنتك؟

المستقصى عنه: ابنتي لا تعمل.

المستقصية رقم 1: هل هي متزوجة؟

المستقصى عنه: بلى، هي تعمل الآن. إنها تعمل... إنها بصدد الطلاق، إنها...

المستقصية رقم 2 : {ضحك} هذا ليس عملاً...!

المستقصى عنه: لا، إنها تعمل، أين تعمل؟ ثانوية، ثانوية... قرب منطقة Allées، هنا، هل توجد ثانوية؟

المستقصية رقم 1: في ثانوية، هل هي ناظرة أم...؟

المستقصى عنه: نعم، لا أدري، إنها تحث الأولاد على... {يكرر} إنها تحث... سحقاً! لن أقول الاسم...! على المعلوماتية.

المستقصية رقم 1: {تبدي استغرابها} حقاً! هل درست المعلوماتية؟

المستقصى عنه: نعم، لقد درست، لكن ليس على مستوى عالٍ، أظنّ أنها قد خضعت لدورةٍ تدريبية...

المستقصية رقم 1: {بلهجة استغراب} حقاً! (...)

المستقصى عنه: ابني أيضاً هو... هو ليس متزوجاً، لكن الأمر كما لو كان متزوجاً.

المستقصية رقم 2 : إنه يعيش {تنطق مقطعاً مقطعاً} حياةً زوجية. كما يقولون.

المستقصى عنه: هو يعيش حياةً زوجية، تماماً.

المستقصية رقم 2 : {ضحك} كما يقول الفنيون.

المستقصية رقم 1: والبيت هل هو لأهلك، هل هو...؟

المستقصى عنه: لا، لا، لا، إنه من مساكن الإيجار المعتدل HLM. إيه نعم.

المستقصية رقم 1: هل هو المسكن ذاته منذ، منذ كم سنة؟

المستقصى عنه: منذ 1930 . أنا ولدت عام 1931.

المستقصية رقم 1: أي أنكم في فترةٍ معينة... كنتم ستة أشخاص تعيشون في ذلك البيت؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: ابنان، والأبوان، وأبواك... حسناً. والآن أبواك قد...

المستقصى عنه: {صمت} قد ماتا.

المستقصية رقم 1: إذن أنتم الآن اثنان؟

المستقصى عنه: نعم، نحن اثنان.

المستقصية رقم 1: وهل هناك عدة... ما هو حجمه؟

المستقصى عنه: ثلاث غرف (...).

المستقصية رقم 1: نعم... هل وسائل الراحة كلها موجودة في بيتك؟

المستقصى عنه: ليس الآن. إنه قديم، إنه... على كل حال، لم أعد أفعل شيئاً. كنت أريد وضع ورق للجدران، لكنني لم أعد أستطيع الوقوف على السلم؛ على كل حال، نحن نهمله، وسوف نعيش عاماً بهذا الشكل.

المستقصية رقم 1: وكيف جرت طفولتك؟ هل بقيت...

المستقصى عنه: بصورة جيدةٍ جداً.

المستقصية رقم 1: إذن فقد بقيت... كم لديك من الأخوة والأخوات؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: كم عددهم؟

المستقصى عنه: كنا خمسة صبيان وبنتاً. هناك اثنان توفيا. الاثنان الأكبر سناً توفيا.

المستقصية رقم 1: هل توفيا حين كانا صغيرين، أقصد في مرحلة الطفولة، أم...

المستقصى عنه: لا، أحدهما في الرابعة والأربعين، والآخر في الخمسين...

المستقصية رقم 1: حسناً، إذن كنتم عائلةً من ستة...

المستقصى عنه: كنت آخر الصبيان.

المستقصية رقم 1: كنتم تعيشون في ذلك البيت...

المستقصى عنه: نعم، كان صغيراً علينا حينذاك.

المستقصية رقم 1: {تردد كالصدى} كان صغيراً حينذاك.

المستقصية رقم 2 : بلى، لا بد أنه كان... وقد عشتم...

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 1: {بلهجةٍ مطَمْئنة} يقولون بأنه لا توجد أماكن كافية، لكن في تلك الفترة، لا بد أنٍ كثيرين كانوا لا يزالون يعيشون...

[...]

المستقصية رقم 1: {بنبرةٍ جدية} هل يوجد في طفولتك حدثٌ معين لعب دوراً هاماً، هل تتذكر شيئاً مميزاً...؟

المستقصى عنه: الحرب... الحرب، قبل كل شيء.

المستقصية رقم 1: الحرب، وإغماءاتك...

المستقصى عنه: نعم، لكن ذلك لم يكن شيئاً. أخي الذي اعتقل، لقد حصل العديد من الأمور... {يبدي بأنه لم يعد يريد الحديث عن هذا الأمر} كل هذا أصبح بعيداً ولم نعد نفكر به.

المستقصية رقم 2 : هل ذاك الذي مات في الرابعة والأربعين هو الذي اعتقل؟

المستقصى عنه: نعم، لقد مات من القلب، كان مصاباً بمرضٍ في القلب.

المستقصية رقم 2 : نعم، لكن هل...؟

المستقصى عنه: لا، لم يمرض بسبب ذلك.

المستقصية رقم 2 : {بنبرةٍ مشفقة} لكن لأنّ المعتقلين كانوا مع ذلك محرومين جداً...

المستقصى عنه: نعم. نعم. لكن ذلك لم يأت من الاعتقال. لقد كان مريضاً بالقلب منذ كان صغيراً.

المستقصية رقم 2 : نعم، حسناً. ذلك الأمر لم يساعده أبداً {صمت}.

المستقصى عنه: لم يساعده.

المستقصية رقم 1: وهل لديك ذكريات عن طفولتك وعائلتك وأبويك؟ بماذا كان أبواك يعملان؟ أبوك كان...

المستقصى عنه: أبي كان يعمل في المرفأ. وأمي في البيت. عرفتها في البيت.

المستقصية رقم 1: ماذا كان يعمل في المرفأ؟

المستقصى عنه: كان رئيس عمال.

المستقصية رقم 1: كان لديكم... هل كانت الأمور المادية جيدة...؟

المستقصى عنه: نعم! نعم... صحيحٌ أننا لم نكن أثرياء، لكن كان لدينا كل ما يلزم.

المستقصية رقم 1: هل كانت عائلةً متفاهمة؟

المستقصى عنه: جداً {صمت}.

المستقصية رقم 1: وأخوتك؟ هل تراهم الآن؟

المستقصى عنه: نعم. نعم.

المستقصية رقم 1: نعم، بانتظام؟

المستقصى عنه: نعم. إننا نرى بعضنا بعضاً.

المستقصية رقم 1: وهل تستقبلهم في بيتك وتذهب إلى بيوتهم أم...؟

المستقصى عنه: أنا أذهب إلى بيوتهم، لم أعد أستقبلهم الآن بعد أن أصبح البيت في وضعٍ غير ملائم، لم أعد أستقبلهم. لكننا مع ذلك نرى بعضنا.

المستقصية رقم 1: إذن، في بيوتهم؟ وهل تخرج كثيراً من حيِّك أم...؟

المستقصى عنه: لا. لنقل أننا الآن نعيش مثل عجوزين.

المستقصية رقم 1: كم مرةً تخرجان؟ مرةً في الأسبوع؟

المستقصى عنه: لا، نحن لا نخرج. لا، لا نخرج. تقصدين المسرح وما شابه؟ لا... أبداً.

المستقصية رقم 2 : {بنبرة ناعمة} ما هي هوايتك المفضلة؟

المستقصى عنه: إنها صيد السمك. صيد السمك وصيد الحيوانات. ثم كرة القدم كذلك... الآن أنا أنظر إلى الآخرين.

[...]

المستقصية رقم 1: ألم تتعامل أبداً مع العاملين الاجتماعيين؟

المستقصى عنه: أبداً.

المستقصية رقم 1: ألم يتعرض أحدٌ من عائلتك لمشاكل؟

المستقصية رقم 2 : أنت إذن لم تتعرض سوى لأن تضطر لطلب إعانة الحد الأدنى للإدماج ؟

المستقصى عنه: نعم. لم أكن حتى سأطلبها، لم أكن أعرف... بوجودها

المستقصية رقم 1: إنها الوكالة الوطنية للتشغيل، في الوكالة الوطنية للتشغيل، قلت لي؟

المستقصى عنه: ينبغي أن يكون ذلك قد حصل في الوكالة الوطنية للتشغيل، نعم.

المستقصية رقم 2 : هل يمكن أن يكونوا هم الذين نصحوك؟

المستقصى عنه: نعم.

المستقصية رقم 2 : {بتكلّف} وهل تتوافر فيك شروط الموارد؟

المستقصى عنه: نعم، فليس لديّ موارد.

المستقصية رقم 2 : منذ متى أنت في هذا الوضع؟

المستقصى عنه: منذ شهر تشرين الثاني من العام الماضي، لنقل 89.

المستقصية رقم 2 : {تعود للمسألة التي طُرحت سابقاً} ولماذا الحانة التي كنت تديرها... الحانة هي آخر مهنةٍ لك...؟

المستقصى عنه: نعم، نعم، نعم.

المستقصية رقم 2 : لأي سبب جرى...؟

المستقصى عنه: لأنه لم يعد بإمكاني أن أعمل.

المستقصية رقم 2 : آه، حسناً، كان ذلك لأسباب صحية.

{يحكي المستقصى عنه عن عرض الحانة للبيع، الذي لم يجرِ بصورةٍ

جيدة بسبب أنّ الحانة تقع في حيٍّ شعبي. وتقارن المستقصيتان طراز الحانة بالمقاهي الأنيقة في المدينة.}

المستقصية رقم 1: وأنت تعرف أناساً... ألم تكن في الواقع قد سمعت كثيراً عن إعانة الحد الأدنى للإدماج؟

المستقصى عنه: لا، ثم إنني لا أتحدث عن ذلك.

المستقصية رقم 1: نعم، أنت لا تتحدث عنه؟

المستقصى عنه: لا، أبداً.

المستقصية رقم 2 : ما هو رأيك أنت بهذه الإعانة، بالقانون المتعلق بإعانة الحد الأدنى للإدماج؟

المستقصى عنه: إنها جيدة، لكن... يجب ألا تكون موجودة.

المستقصية رقم 2 : ماذا تعني؟

المستقصى عنه: لا أدري. يبدو للمرء، أنا شخصياً، هذا الأمر يزعجني بشكلٍ كبير.

المستقصية رقم 2 : لا، لكن هذا هام، ما تقوله لي... نوعاً ما...

المستقصى عنه: لكني لا أدري! لأنه كان ينبغي ألاّ أكون بحاجةٍ لهذا الأمر بعد أن عملتُ.

المستقصية رقم 2 : أنت تعتقد بأنك بعد أن عملتَ طيلة حياتك...

المستقصى عنه: نعم، هذا ما أقصده، نعم. أي يحكي المرء سيرة حياته وكل ذلك... لا، هنا أنا لست موافقاً.

المستقصية رقم 2 {-باستنكارٍ شديد} أوه لا! أنت لست مجبراً على ذلك!

المستقصى عنه: لا، حسناً، لكن يتم الحديث عن ذلك في نهاية الأمر...

المستقصية رقم 2 : إذا شئت، فالناس مقطوعون عن هيئة إعانة الإدماج المحلية نوعاً ما.

المستقصى عنه: وبدلاً من ذلك، فعلى المرء أن يبسط سيرة حياته في كل مكان.

المستقصية رقم 2 : {بنبرةٍ منهكة} نعم، في كل مكان، سواءً أكان أمام المساعدات الاجتماعيات، في كل مكان، في الوكالة الوطنية للتشغيل...

المستقصى عنه: تماماً!

المستقصية رقم 2 : ... ينبغي على المرء أن يبسط... هذا الأمر لا يعجبك...

المستقصى عنه: لا يعجبني إطلاقاً! حتى مجيئي إلى هنا الآن...

المستقصية رقم 2 : إذن سوف نشكرك أكثر بمرتين.. {ضحك} لأنّ هذا الأمر يساعدنا...

المستقصية رقم 1: علاوةً على ذلك، يمكننا أن نقول له، فإن السادة لا يحضرون عملياً إلى موعدنا.

المستقصى عنه: نعم؟ صحيح؟

المستقصية رقم 1: النساء يأتين كثيراً، أما السادة فلديهم شيءٌ آخر يفعلونه أو... لا أعلم.

المستقصى عنه: لاحظنا، بصراحة، لو أنني علمت، لما كنت أتيت ربما. زوجتي هي التي...

المستقصية رقم 1: أوه، نحن لسنا شريرتين! {ضحك}

المستقصى عنه: لا، هذا صحيح، لكن... مع ذلك، فالأمر مزعج نوعاً ما.

المستقصية رقم 2 : {بنبرة عذبة} أتعلم، أنا أفهم أن تعيش الأمر كشيءٍ مزعج نوعاً ما...

المستقصى عنه: لدينا شيءٌ من الكبرياء، مع ذلك.

المستقصية رقم 2 : نعم، تماماً، أفهم أن تعيش الأمر كشيءٍ مزعج، وهذا يقال لنا، نحن نرى كثيراً...

المستقصى عنه: بالنسبة لكِ، هذا لا يغير شيئاً. نعم، أنا أوافق على هذا بالطبع.

المستقصية رقم 1: ثم إننا نقوم بعملنا، لذلك، فكلما كان بحوزتنا عناصر أكثر... كما أنه تواصل في الوقت ذاته...

المستقصى عنه: نعم، بالطبع، أنا أفهم.

المستقصية رقم 2 : ربما نحن بحاجة بالفعل إلى مواد... مثلما أعتقد بأن السيدة {المستقصية الأولى} قد شرحت لك الهدف من...

المستقصى عنه: نعم...

المستقصية رقم 2 : {تجد أخيراً حجةً} أنت تساهم في البحث العلمي. هل تدرك ذلك؟ {قهقهة.}

المستقصى عنه: هذا جيد جداً. سأكون قد أفدتُ بشيء.

المستقصية رقم 2: {ضحك} حلقة صغيرة في السلسلة الكبيرة...

المستقصى عنه: إنها إذن حلقة صغيرة جداً.

المستقصية رقم 2 : الحلقات الصغيرة هي التي تصنع السلاسل الكبيرة. (...) عدا ذلك، هل تجد حقاً بأنه من المزعج جداً أن تكون مضطراً في كلّ مرة لإعادة سرد...

المستقصى عنه: نعم! هذا، نعم!

المستقصية رقم 1: إعادة سرد حياتك؟

المستقصى عنه: نعم. نعم، نعم... إنه أمر لا يسرّ أبداً•

بيير بروديو

خاتمـــة

شيئاً فشيئاً، انغلق العالَم السياسي على ذاته، على تنافساته الداخلية ومشاكله ورهاناته الخاصة. وعلى مثال الخطباء الشعبيين العظام، فإنّ رجال السياسة القادرين على التعبير عن توقعات ومطالبات ناخبِيهم وعلى أن يفهموها أصبحوا أكثر فأكثر ندرةً، والناخبون بعيدون عن أن يكونوا في مقدّمة تشكيلاتهم. والحكام سجناء محيطٍ مطمئِن من الفنيين الشباب الذين يجهلون في كثيرٍ من الأحيان معظمَ ما يتعلق بالحياة اليومية لمواطنيهم، ولا شيء يذكّرهم بجهلهم. كثيراً ما يقترح الصحفيون الذين يخضعون للمضايقات التي تفرضها عليهم الضغوط أو الرقابة التي تمارسها القوى الداخلية والخارجية، والمنافسة بصفةٍ خاصة، وبالتالي الإلحاح الذي لم يساعد يوماً على التفكير، كثيراً ما يقترحون توصيفاتٍ وتحليلاتٍ متعجلة وغير حذرة لأكثر المشاكل إثارةً؛ وفي بعض الأحيان، يزداد خطرُ التأثير الذي يحدثونه سواءً في دنيا الثقافة أم في دنيا السياسة بسبب أنهم قادرون على أن يشيدوا ببعضهم وعلى أن يسيطروا على إشاعة الخطابات المنافسة، كخطابات العلم الاجتماعي. يبقى المثقفون، الذين يُرثى لصمتهم. بيد أن بعضهم لا يتوقف عن الكلام، وكثيراً ما يكون حديثهم «مبكراً جداً»، عن الهجرة وسياسة الإسكان، وعلاقات العمل، والبيروقراطية، والعالَم

السياسي، لكنهم لا يقولون إلاّ ما لا يريد الناس سماعه، وبلغتهم التي لا يفهمها الناس الذين يفضلون في المحصلة أن يعيروا أسماعهم كيفما اتفق، وبشكلٍ لا يخلو من بعض الازدراء، لأولئك الذين يتكلمون دون تمييز، دون أن يهتموا أكثر من ذلك بالتأثيرات التي يمكن أن تؤدي إليها أقوالٌ لم يفكَّر بها جيداً حول مسائل لم تُطرح بشكلٍ جيد.

إلاّ أنّه يمكن لنا أن نرى كل العلامات المتعلقة بالمضايقات التي تجد صورتها أحياناً في هذيانات كره الأجانب والعنصرية لكونها لا تجد تجسيدها الشرعي في العالَم السياسي. إنها مضايقات لا يتم التعبير عنها، وفي كثيرٍ من الأحيان لا يمكن قولها، ولا يمكن للتنظيمات السياسية - التي لا يتوفر لها لكي تفكر فيها سوى الفئة المتقادمة من «المجتمعي» - التي ورثتها عن الماضي أن تميزها، كما لا يمكن لها أصلاً أن تتمثلها. فلا يمكن لها أن تفعل ذلك إلاّ بشرط أن توسع النظرة الضيقة «للسياسي» التي ورثتها عن الماضي وأن تسجل فيها ليس المطالب غير المتوقعة التي ظهرت على الساحة العامة بفعل الحركات المناصرة للبيئة أو المعادية للعنصرية أو النسوية (من بين أخرى) وحسب، بل أيضاً كافة التوقعات والآمال المنتشرة، والتي يبدو بأنها تتعلق بالخاص لأنها تمسّ في كثيرٍ من الأحيان تصور الناس عن هويتهم وكرامتهم، وتبدو بالتالي مستثناةً بصورةٍ شرعية من الصراعات السياسية.

ينبغي على السياسة الديموقراطية حقاً أن تقدم لنفسها الإمكانيات الكفيلة بجعلها تفلت من خيار الوقاحة التكنوقراطية التي تدّعي بأنها تقدّم السعادة للناس رغماً عنهم، وتفلت من التخلي الديماغوجي الذي يقبل جزاء المطلب كما هو، سواءً تبدّى عبر التحقيقات حول السوق، أو عبر نتائج سبر عدد المستمعين أو مستوى الشعبية. وبالفعل، فإنّ التقدم في «التكنولوجيا الاجتماعية» وصل إلى درجةٍ يمكن معها أن نعرف جيداً، بمعنى ما، المطلب الظاهري الفعال أو الذي يسهل تفعيله. لكن إذا كان العلم الاجتماعي يستطيع أن يذكّر بحدود تقنيةٍ، كالسبر الذي هو وسيلةٌ بسيطةٌ موضوعةٌ

بخدمة كل الغايات الممكنة، قد تتحوّل إلى أداة عمياء لشكل منطقيّ للديماغوجيا، فإنه ليس بوسعه أن يحارب بمفرده ميل رجال السياسة إلى إرضاء المطالب السطحية ليؤمنوا لأنفسهم النجاح، بحيث يجعلون من السياسة شكلاً من التسويق مموَّهاً بالكاد.

كثيراً ما قورنت السياسة بالطب. ويكفي أن نعيد قراءة «المجموعة الهيبوقراطية»، كما فعل إيمانويل تيراي Emmanuel Terray مؤخراً، لنكتشف بأنّ السياسي المنطقي، مثله مثل الطبيب، لا يمكن له أن يكتفي بالمعلومات التي يقدمها له تسجيل الإفادات التي تنتج بالمطلق في أكثر من حالة عن استجواب غير واعٍ للتأثيرات التي يحدثها، فتيراي يقول: «إنّ التسجيل الأعمى لأعراض المرضى وما يسرّون به هو أمرٌ بمتناول الجميع: لو كان ذلك يكفي للتدخل بشكلٍ فعال، لما كان هناك حاجة للطبيب[1]». ينبغي على الطبيب أن يحرص على اكتشاف الأمراض غير الظاهرة، أي بالذات تلك التي لا يستطيع الطبيب الممارس «لا أن يراها بعينيه ولا أن يسمعها بأذنيه»: وبالفعل، فإن شكاوى المرضى مبهمة وغير أكيدة؛ والإشارات التي يرسلها الجسد غامضة ولا تسلّم معانيها إلاّ ببطءٍ شديد، وكثيراً ما يحصل ذلك بعد حدوث الأمر. ينبغي إذن أن نطلب من المنطق إيضاح الأسباب البنيوية التي لا تكشفها الإشارات والأقوال إلاّ بتغليفها[2].

وهكذا، فإن الطب الإغريقي استبق دروس الإيبيستيمولوجيا الحديثة حين أكّد دون صعوبة على ضرورة بناء هدف العلم بقطيعةٍ مع ما كان دوركهايم Durkheim يدعوه «الإلمامات المسبقة»، أي تصورات العاملين في الحقل الاجتماعي عن وضعهم. ومثلما كان على الطب الوليد أن يأخذ بالاعتبار المنافسة غير الشريفة للآلهة أو المنجمين أو السحرة أو المشعوذين أو «صانعي الفرضيات»، فإنّ على العلم الاجتماعي اليوم أن يجابه كل الذين يظنون بأنهم قادرون على تفسير أكثر علامات التململ الاجتماعي وضوحاً،

---

[1] إيمانويل تيراي، السياسة في المغارة، باريس، منشورات سوي Seuil، 1990، الصفحات 92 – 93.

[2] إ. تيراي، ibid.

كارتداء منديلٍ يشار إليه على الفور بصفته «حجاباً إسلامياً»؛ وعليه أيضاً أن يجابه كل «أنصاف الماهرين» أولئك، الذين يهرعون إلى الصحف وأمام الكاميرات، مسلحين «بتفكيرهم السليم» وبادعاءاتهم، ليقولوا ما هو العالَم الاجتماعي الذي ليس لديهم أية وسيلةٍ فعالة لمعرفته أو فهمه.

وفقاً للطب الهيبوقراطي، يبدأ الطب الحقيقي مع معرفة الأمراض غير المرئية، أي الأمور التي لا يتحدث المريض عنها، سواءً كان لا يدركها أم كان ينسى الحديث عنها. وكذلك الأمر بالنسبة لعلمٍ اجتماعي يحرص على أن يعرف ويفهم الأسباب الحقيقية للتململ التي لا تعبر عن نفسها بوضوح إلاّ عبر إشاراتٍ اجتماعية يصعب تفسيرها لأنها ظاهرياً بديهية للغاية. وهنا أفكر باندلاع العنف المجاني في ملاعب كرة القدم أو غيرها، أو بالجرائم العنصرية، أو بالنجاحات الانتخابية لأنبياء التعاسة، الذين يسارعون إلى استثمار وتضخيم التجليات الأكثر بدائيةً للألم المعنوي الذي ينتج عن كافة المصائب الصغيرة وحالات العنف الهادئة في الحياة اليومية أكثر مما ينتج عن البؤس و«العنف الهامد» للبنى الاقتصادية والاجتماعية.

وللذهاب إلى ما وراء التجليات الظاهرية، التي يتشاجر بسببها أولئك الذين كان أفلاطون يدعوهم بفلاسفة التمجيد، «فنيّو-الرأي-العام-الذين-يحسبون-أنفسهم-علماء»، العلماء الظاهريون للمظهر، فإنه ينبغي بالطبع العودة إلى الأسباب الحقيقية، الاقتصادية والاجتماعية، الكامنة وراء الانتهاكات التي لا عدّ لها لحرية الأشخاص، ولتوقهم المشروع إلى السعادة وتحقيق الذات، والتي تمارسها اليوم ليس فقط ضغوط سوق العمل أو السكن التي لا ترحم، بل أيضاً أحكام السوق التعليمية أو العقوبات المفتوحة أو الاعتداءات الخفية في الحياة المهنية. لأجل ذلك، يجب أن نعبر شاشة الإسقاطات التي كثيراً ما تكون منافية للعقل، وبغيضةً أحياناً، والتي خلفها تتخفى الململة أو الألم بمقدار ما يعبران عن نفسيهما.

إنّ حمل الآليات التي تجعل الحياة مؤلمةً، بل وغير محتملة، إلى مستوى الوعي لا يعني تحييد هذه الآليات؛ وإظهار التناقضات لا يعني حلها.

لكن، مهما كنا متشككين في الفعالية الاجتماعية لرسالة علم الاجتماع، فإنه لا يمكن لنا أن ننكر التأثير الذي يمكن لها أن تمارسه حين تسمح لأولئك الذين يتألمون باكتشاف إمكانية عزو ألمهم لأسباب اجتماعية، وبأن يشعروا بالتالي بأنهم أبرياء؛ وكذلك حين تعرّف على نطاقٍ واسع الأصل الاجتماعي للألم بكافة أشكاله، بما فيه أكثرها حميميةً وسريةً، والذي يُخفى بشكلٍ جماعي.

ورغم المظاهر، فإنّ إثبات الحال هذا ليس فيه ما يدفع إلى اليأس،: فما صنعه العالَم الاجتماعي، يمكن للعالَم الاجتماعي المسلح بهذه المعرفة أن يلغيه. وعلى كل حال، فمن المؤكد أنّه ما من شيءٍ أقل براءةً من اللامبالاة: فإن كان صحيحاً أنّ معظم الآليات الاقتصادية والاجتماعية الموجودة في أصل أكثر أشكال المعاناة إيلاماً، وخاصةً تلك التي تنظّم سوق العمل وسوق التعليم، يصعب حذفها أو تغييرها، فإنّه يبقى أنه يمكن اعتبار أية سياسةٍ مذنبةً بعد نجدة شخصٍ معرّض للخطر إذا كانت لا تستفيد بصورةٍ كاملةٍ من الإمكانيات المتاحة للتطبيق، مهما كانت محدودة، والتي يمكن للعلم أن يساعد على اكتشافها.

والأمر سواء بالنسبة لكافة الفلسفات المنتصرة اليوم، والتي تهدف إلى إلغاء دور أي تدخل للعقل العلمي في السياسة، وكثيراً ما يكون ذلك باسم الاستخدامات الجائرة للعودة إلى العلم والعقل التي يمكن أن تكون قد تشكلت، على الرغم من أنّ فعالية هذه الفلسفات، وبالتالي مسؤوليتها، هي أقلّ، وعلى كل حال أقل مباشرةً: إذ لا يهتم العلم بالتناوب بين المغالاة المجمِّعة للعقلانية القطعية، وبين التخلي الجمالي للأعقلانية العدمية؛ يكتفي العلم بالحقائق الجزئية والمؤقتة التي يمكن له أن يكتسبها في مواجهة الرؤية المشتركة والرأي الثقافي، والقادرة على توفير الوسائل العقلية الوحيدة من أجل استخدام كل هوامش المناورة المتروكة للحرية، أي للفعل السياسي.

بؤس العالم

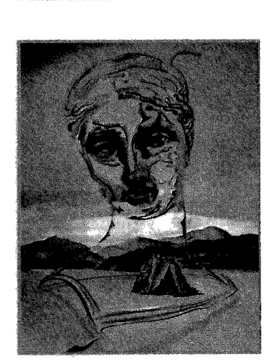
منبوذو العالم

وماذا بعد؟!

"بؤس العالم" حدث ثقافي بامتياز، يدلّل على أن الصحيح قادر على مواجهة المسيطِر، حتى حين يكون المسيطَر عليه واهناً إلى تخوم التهشيم.

فهذا الكتاب، الذي أنجزه باحثون اجتماعيون بإشراف بيير بورديو، وزّع في فرنسا مئة ألف نسخة، وتحوّلت أجزاء منه إلى عمل مسرحي، وترجم إلى لغات عدة. وبعد أن ظهر للمرة الأولى قبل سبع سنوات، أعيد طبعه من جديد قبل سنتين تقريباً في "طبعة شعبية"، مبرهناً على أن كتاباً في "علم الاجتماع"، تتجاوز صفحاته الألف، يمكن أن يلتقي بجمهور واسع، لا يجذبه عادة "علم متخصص" ولا يلتفت كثيراً إلى "البحوث الأكاديمية".

وفي هذا الكتاب بطرحه أسئلة تمس القراءة ومنظور الكتابة والموقع الذي ينظر منه الكاتب إلى قضايا الذين يكتب عنهم ولهم. يقف القارئ أمام بشر متعبين يبوحون بمشاكلهم اليومية، ويلمح حكايات فردية ومصائر فريدة تشي بالسياسة التي تنتج كائناً بائساً.





دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية

Design by: JAMAL ABTAH

Bibliotheca Alexandrina